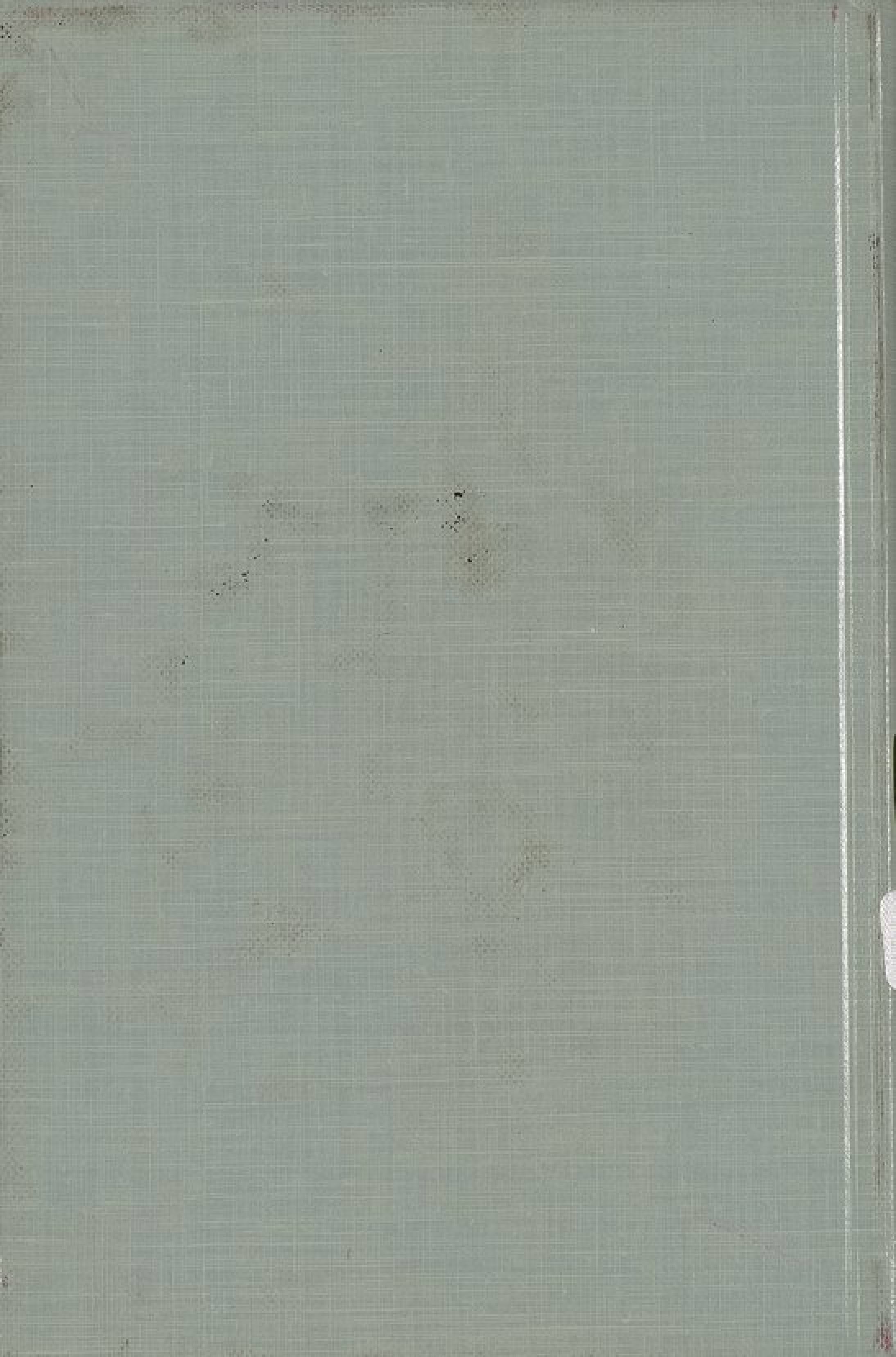
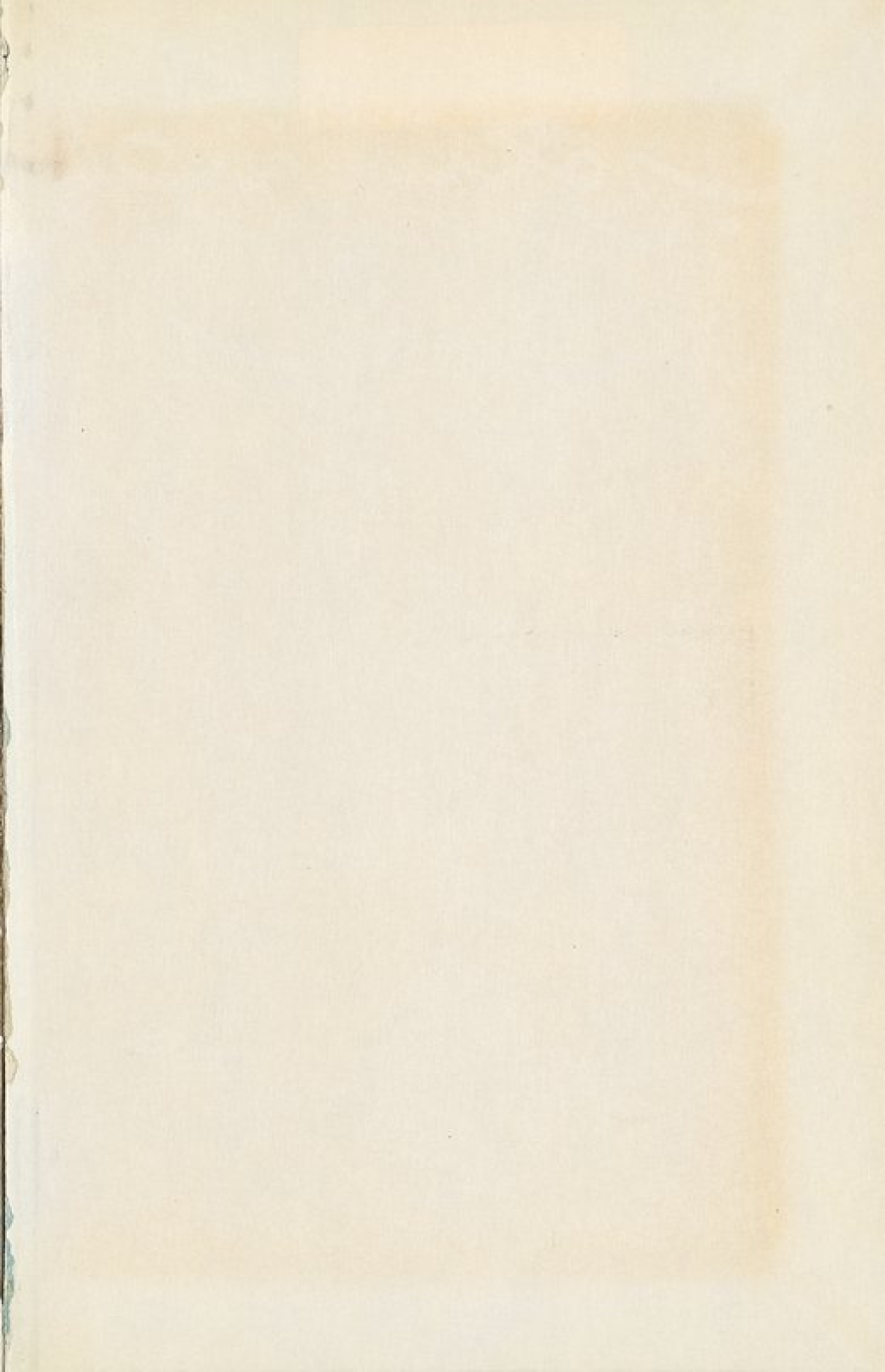
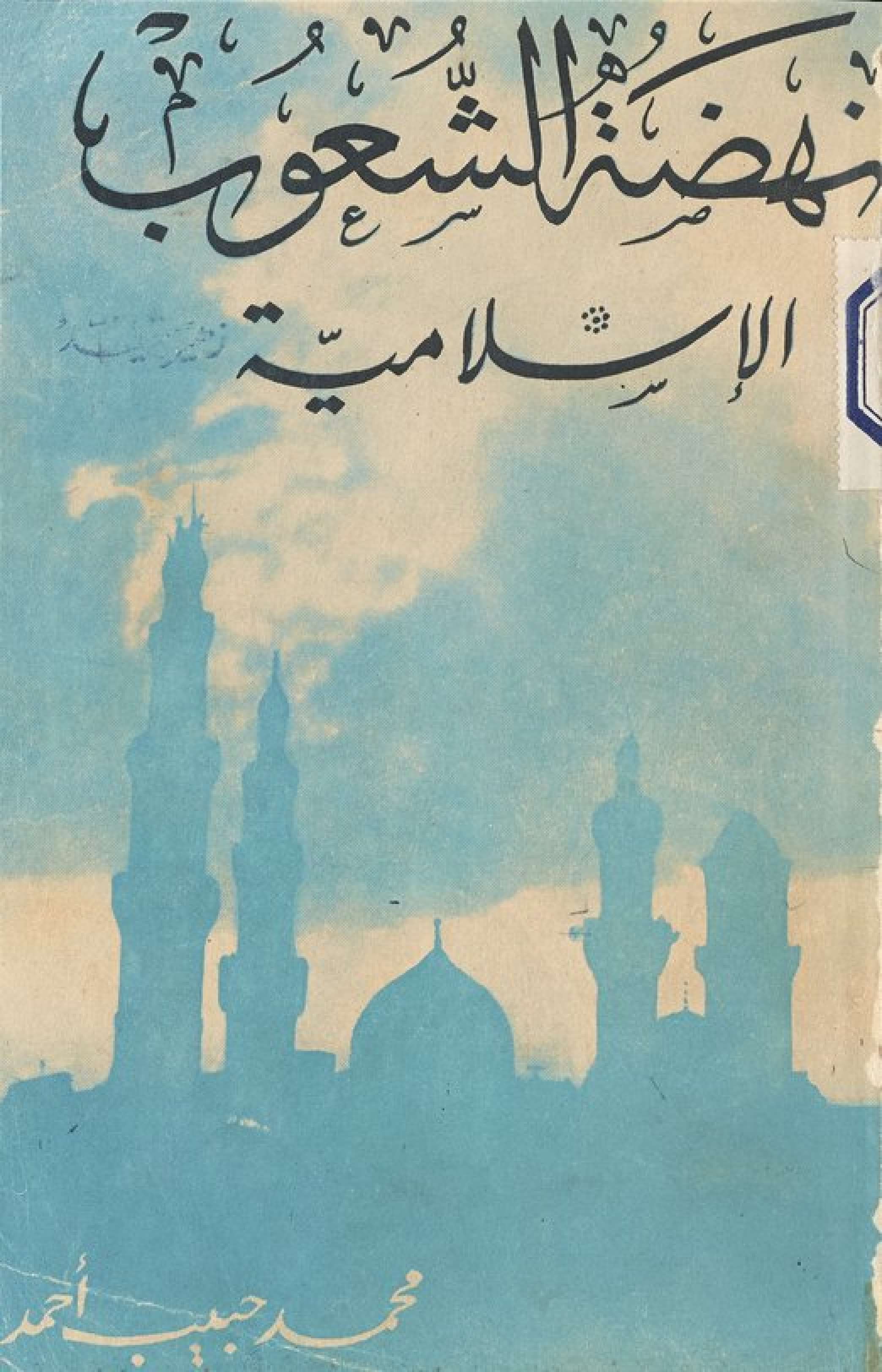


DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE


Princeton University Library
32101 058347376




نهضة الشعوب
الإسلامية
محمد حبيب أحمد



نهضة الشعوب الإسلامية
في العصر الحديث

محمد حبيب أحمد
أستاذ التاريخ الإسلامي بالأزهر

دار النيل للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

فى العالم الإسلامى اليوم نهضة ، بل نهضات ، فى كافة نواحى الحياة .
ونظراً لاتساع رقعة هذا العالم ، من المحيط الهادىء شرقا إلى المحيط الأطلنطى غرباً ، فمن المسلم به أن يكون التعارف والألفة محدودين بين كثير من هذه الأقطار عامة والنائية منها خاصة ، اللهم إلا تلك العلاقات الرسمية التى تتركز فى التمثيل السياسى والقنصلى ، وبعض الصلات الشخصية أو التجارية بين بعض جماعات اتفقت أهدافها أو أفراد تقاربت مشاربها .

على أننا نرى ، من مستلزمات النهضة الحديثة فى هذا المحيط الإسلامى ، أن يتقارب أهله وأن يتراحموا . ولا سبيل لهذا التقارب والتراحم ، طالما كان كل فريق يجهل الكثير من شئون الفريق الآخر : شئونه السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والعمرانية . كما نرى لزاما على كل قادر فى هذه الأقطار أن يساهم فى هذا الواجب الإسلامى على قدر طاقته ، وفى حدود إختصاصه .

وتلبية لهذا النداء ، بل قياما بهذا الواجب ، ووفاء بدين للاسلام ، فى عنقنا ، نتقدم بهذا الكتيب ، الذى لايعدو أن يكون محاولة بدائية لتحقيق الغرض الذى ننشده ، وأصابة الهدف الذى نرمى إليه .

ونحن إذ نتحدث عن نهضة الشعوب الإسلامية فى العصر الحديث من الناحية التاريخية ، لا نستطيع أن ندعى أننا سنوفى البحث حقه ، فكثير من مستندات البحث لا يزال فى دور التبلور ، كما أن كثيرا من الحقائق التاريخية لا تزال تشوبها الدعاية ، فضلا عن أن الميسّر من هذه الحقائق لايزال قليلا لايغنى .

وأيا كانت الحال ، فهذه محاولة قصدنا فيها إلى أمرين :

أما الأمر الأول فهو محاولة تعريف أطراف العالم الإسلامى بعضها ببعض ، أو بعبارة أقرب إلى الواقع ، تبصير قرائنـــا العرب عامة ، والمصريين خاصة ، بشيء من أحوال العالم الإسلامى فى العصر الذى نعيش فيه ، وهو واجب مقدس يتمشى جنبا إلى جنب مع المركز الرفيع الذى تبوأته مصر فى العصر الحديث بين أقطار العالم الإسلامى عامة . والعالم العربي خاصة .

أما الأمر الثانى ، فهو رجاؤنا أن يكون هذا الكتاب فاتحة لاهتمام الكتاب والعلماء بهذه الناحية من الدراسات ، فنحن فى مسيس الحاجة إلى المزيد من المعرفة بشئون هذا العالم الجديد .

نحن فى مسيس الحاجة إلى تعرف أحواله جميعا :

أحواله السياسية : وكيف تسنى لبعض أنحائه أن يتخلص من ربقة الاستعمار الأوربى ، وكيف أن بعضه الآخر لا يزال يكافح كفاح الحر الأبى فى سبيل بلوغ هذه الغاية .

وأحواله الاقتصادية : وما كانت عليه قبل هذه الحرب من استيلاء المستعمر الأجنبى على خيرات البلاد ، مهما تعارض هذا الاستيلاء مع مقتضيات القواعد الاقتصادية ، وكيف أن كثيراً من أنحاء هذا العالم أصبح يدير اقتصادياته بنفسه ، وعلى أيدى أبنائه ، ولخير المجتمع الجديد الذى يعيشون فيه . وفى ضوء هذا الشرح قد يستطيع كل قطر إسلامى أن يرسم لنفسه سياسة رشيدة مع غيره من الأقطار الإسلامية ، على غرار السياسة التى يسمونها فى الاقتصاد بسياسة « الدولة الأكثر رعاية »

وأحواله الاجتماعية : وما كانت عليه من انحلال فى عهد الاستعمار ،

ومن نهضة مثالية بعد الاستقلال . وكذلك تعرف الخطوات التى اتخذها كل قطر فى مكافحة الفقر والجهل والمرض ، الأعداء الثلاثة التى كانت حليفة الاستعمار . وبهذه الدراسات يتسنى للأقطار الإسلامية المتخلفة فى هذا المضمار أن تتبع خطوات من سبقتها ، وأن تتعظ بأخطاء الغير ، فتوفر على نفسها مؤونة التجربة القاسية .

وأحواله العمرانية : ومدى التقدم الذى أحرزته هذه الأقطار برسم سياسة وطنية للانشاء والتعمير ، بدلا من السياسة الاستعمارية التى كانت قائمة على الإفقار والتدمير .

ولسنا ندعى أننا نستطيع أن نساهم بقليل أو كثير فى هذه البحوث التى لا تدخل فى اختصاصنا ، إنما أردنا — على قدر طاقتنا — أن ننبه إلى الآفاق الواسعة التى يجب أن يساهم فيها أبناء العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه .

أما نحن — وفى هذا الكتاب — فسنقصر الكلام على الناحية التاريخية ، بما يلازمها من حديث عن الناحية السياسية ، تاركين البحوث الفنية لرجال الفن .

ورب معترض يقول إن المسلمين والعرب عالمون بقضيتهم وليسوا بحاجة إلى من يشرحها لهم ، والواقع أن الأمر لا يصح على هذا الوجه إلا بالنسبة لقلة ضئيلة من المسلمين والعرب . أما الأغلبية الكبرى من شعوب هذا الوطن ، فلم يتيسر لها إلا ما يمليه الأسلوب الخطابى فى الدفاع عن قضايا الإسلام والعروبة . ذلك الأسلوب الذى ينجح فى إثارة الجماهير فى حالات خاصة ولفترة محددة .

فى حين أن قضايا الإسلام والعروبة بحاجة إلى درسها على أسلوب علمى هادىء ، بعيد عن الدعاية والتهييج ، فذلك خير وأبقى .

وإنى — إذ أقدم كتابى هذا إلى من تعودوا أن يقرأوا لى — أبادر فأقرر أننى أخرجت هذا الكتاب فى عجلة لها أسبابها ، وأن الكتاب لا يعـــدو أن يكون محاولة بدائية أتعرض فيها لموضوعات كتب فيها الكثيرون فأحسن منهم من أحسن ، ولكن عرضها جملة ، وبأسلوب تاريخى ، عمل لا يزال فى المهد .

وكم يسرنى أن يستهدف هذا الكتاب للنقد البرىء فان الحقيقة كانت ولا تزال وليدة البحث والمناقشة .

فإن كنت قد أحسنت ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإن كنت قد قصرت ، فالكمال لله وحده .

محمد حبيب أحمد

القاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٥٢

شكر وتقدير

من التحدث بنعمة الله ، الإقرار بالفضل لذويه . وأنا إذ أسلم « أصول » هذا الكتاب إلى « دار النيل للطباعة » ، لا أرى خيراً من أن بوافر الشكر وعظيم التقدير لكل من انتفعت بآرائهم فى هذا الموضوع ، سواء أكان ذلك عن طريق المحادثات والمناقشات ، أم عن طريق قراءة الكتب والمجلات التى عالجت الموضوعات التى نحن بصددها .

وكم تمنيت أن أورد فى هذه الصفحة أسماء أولئك الذين كانوا غير عون لى فى هذا الميدان . ولكن ماحيلتى وهم من الكثرة بحيث أخشى أن أذكر البعض وأن أغفل البعض الآخر ، فأسىء بذلك إلى من كان فرضا على - أن أعترف بفضله .

فإلى حضراتهم جميعا ، من ذكرت أسماءهم فى ثنايا صفحات الكتاب ومن فاتنى أن أذكر . إلى حضراتهم جميعا أقدم وافر شكرى وعظيم تقديرى .

والحمد لله أولا وأخيراً .

المؤلف

مقدمة

العالم الإسلامى قلب وجناحان

قبل أن نتحدث عن العالم الإسلامى من الناحية التاريخية ، نرى لزاما علينا أن نتعرض للمعالم الجغرافية لهذا العـــالم ، حتى يستطيع القارىء متابعة الحديث عن الناحية التاريخية ، بالتطبيق على المعالم الجغرافية .

وبدهى أن هذا العالم ، المترامى الأطراف ، لا يمكن أن تجمعه وحدة جغرافية . ولذلك رأينا أن نقسمه إلى مجموعات ثلاث : قلب وجناحان .

أما القلب فيتألف من مجموعة الدول التى انتظمتها حتى الآن « جامعة الدول العربية » ، وهى : مصر والسودان ، فى الغرب من هذا القلب ، وفى الشمال الشرقى من قارة أفريقيا ؛ وسورية ، ولبنـــان ، والأردن ، وفلسطين فى شمالى هذا القلب ، وهى الدول التى تكون منها ، أبان العهد التركى ، ولاية الشام ، وفى النصف الجنوبى من هـذا القلب دولتان : الدولة العربيـة السعودية ومملكة اليمن ؛ أما الجزء الشرقى من القلب فيتكون من العراق فى الشمال ، وأمارات الخليج الفارسى فى الجنوب .

أما الجناح الشرقى فيتكون من دول : إيران ثم أفغانستان ، ثم باكستان (وكانت إلى عهد قريب جزءاً من شبه الجزيرة الهندية ـــ ألمع درة فى تاج الإمبراطورية البريطانية) ثم إندونيسيا . وتقع هذه الدول جميعا فى النصف الجنوبى من قارة آسيا . وتمتد من حدود العراق إلى المحيط الهادى .

أما الجناح الغربى فيتألف من ليبيا ، وتونس ، والجزائر، ومراكش بأقسامها الثلاثة : الدولى ، والخاضع للحماية الإسبانية ، وكلاهما يشرف على البحر الأبيض المتوسط والمغرب الكبير ، أو المنطقة الخاضعة للاستعمار الفرنسى ، الواقعة على المحيط الأطلنطى .

وبذلك تمتد الدول الإسلامية : القلب والجناحان ، من المحيط الهادىء شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا ، وتشمل النصف الجنوبى من قارة آسيا ، والنصف الشمالى من قارة أفريقية .

وتشرف دوله الأفريقية ، وبعض دوله الأسيوية على البحر الأبيض المتوسط ، وتلعب دوراً خطيراً فى سياسته . كما يشرف معظم دوله الأسيوية على المحيط الهندى فى الجنوب . وقد لعب كثير من دوله دوراً خطيراً فى النزاع التاريخى بين روسيا وانجلترا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . ويلعب اليوم دوراً أشد خطورة فى المنافسة الجنونية القائمة بين المبادىء الشيوعية التى تعمل روسيا دائبة على نشرها ، والمبادىء الديمقراطية التى تتزعم حمايتها انجلترا وأمريكا .

على أن العامل الجغرافى لم يكن — فى تقديرنا — الباعث الوحيد على هذا التقسيم .

فإن القلب ينتظم مجموعة من الدول كانت فى يوم من الأيام جزءاً لا يستهان به من « الدولة العلية العثمانية » ، وقد أفرخت فيها دعوة قومية هى الدعوة للعروبة ، بما أنتجته من رغبة فى الانسلاخ من جسم الدولة العثمانية على الرغم مما يجمعها بها من وحدة فى الدين ، والتزام لطاعة السلطان العثمانى بصفة كونه خليفة للمسلمين . على أن نزعة الانسلاخ هذه لم تكن مجرد صدى للدعوة العربية فحسب ، وإنما أزكى نارها عاملان : الأول سوء إدارة الحكومة العثمانية لممتلكاتها والثانى يقظة

الفكر التى وفدت على هـذا الجزء من العالم من مصدرين : أولهما اليقظة التركيه فى ذاتها ، وثانيهما اتجاه النظر إلى اليقظة التى عمت أوربا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

ويتكلم أهل هذه البلاد — على بكرة أبيهم — اللغة العربية . إلا أن اللهجة الكلامية تختلف بين قطر وآخر اختلافا يبعدها قليلا أو كثيراً عن اللغة العربية الصحيحة ، كما أن الأســلوب الكتابى ، والمصطلحات العلمية والأدبية والمكتبية تختلف بين قطر وآخر . ولعل هذه الظاهرة الأخيرة من مخلفات الاستعمار ، وما قيد به هذه الدول من أسلوب ثقافى كان فى بعض أنحاء هذا العالم بريطانيا ، وفى البعض الآخر فرنسيا فى وقت كانت المنافسة الثقــافية بين انجلترا وفرنسا — وخاصة فى المستعمرات — على أشدها .

على أن انتظام هـذه الدول فى جامعة الدول العربية ، مضافا إلى سياسة التبادل الثقافى بينها ، سيكفل لها فى المستقبل القريب وحدة ثقافية وفنية ، كما سيكفل لها المزيد من الانسجام السياسى والقومى .

أما الجناح الغربى فينتظم مجموعة من الدول تتشابه فى تاريخها الإسلامى ، كما تتشابه فى استهدافها للاستعمار من مجموعة من الدول الأوربية التى تقابلها على الساحل الأوربى من البحر الأبيض المتوسط . فقد استهدفت ليبيا للاستعمار الإيطالى ، واستهدفت تونس والجزائر للاستعمار الفرنسى ، واستهدفت مراكش للاستعمار من دولتين هما فرنسا وأسبانيا .

وإذا جمع الدين الإسلامى بين هذه المجموعة وبقية العــالم الإسلامى ، فإننا لا نستطيع ، إلا متجوزين ، أن نقول بأن اللغة العربية تعتبر جامعا شاملا بين الجناح الغربى والقلب . صحيح أن اللغة

العربية دخلت إلى هذه البلاد مع الفتوحات الإسلاميـة . وصحيح أن الدراسات العربية إزدهرت فى هذه البلاد بين وقت وآخر . فأخرج لنا جامع الزيتونة علماء مبرزين ، فى اللغـة والدين . وصحيح أن الدراسـات العربية لم تكن أقل شأنا من ذلك فى المغرب الأقصى وبلاد الأندلس ، أيام أن كانت بها دولة إسلامية .

ولكن الأمر الذى لاشك فيه كذلك هو أن اللغة العربية التى يتكلمها سكان هذه الأقاليم قد طغت عليها موجة الاستعمار فباعدت بينها وبين اللغة العربية التى يتكلمونها فى منطقة « القلب » ، اللهم إلا فى البيئات المعنية بالدراسات الدينية والعربية . وإذا رجعنا إلى حقب التاريخ البعيدة ألفينا أن العرب ، إبان الفتوحات ، نشروا لغتهم بين أهل البلاد التى فتحوها . أما سكان الأقاليم المشرفة على الصحراء الكبرى ، فظلوا يتكلمون لغتهم البربرية ، ويحتفظون بطبائعهم الصحراوية الأفريقيـة ، على الرغم من اعتناقهم الإسلام ، وحسن بلاء كثير منهم فى الجهاد فى سبيل الله .

وفيما بين هؤلاء وهؤلاء ، قوم يتكلمون لغة وسطا بين العربيـة والبربرية ، يطلقون عليها فى مراكش اسم « اللغة الدرجة » بمعنى الدارجة ، وهى لغة يتحدث بها سواد السكان فى المناطق الواقعة بين الساحل المشرف على البحر الأبيض والداخل المشرف على الصحراء الكبرى وخاصـة المدن والقرى التى تحتضنها جبال الأطلس .

على أننا نلمس فى هذا الجناح فى العصر الحاضر نهضة عربية مباركة ، ورغبة جدية فى الاتصال بالقلب ، والإندماج فى جامعة الدول العربية .

أما الجناح الشرقى ، فله قصة قائمة بذاتها .

صحيح أن هذا الجناح ينسجم مع بعضه البعض — لا بل ينسجم مع بقية الشعوب الإسلاميـة فى الوحدة الدينية الإسلاميـة — إلا أن دوله

لا تجمعها جامعة لغوية ، ولا جامعة قومية . وإن جمعته جامعة الاستبسال فى التخلص من المستعمر الأجنبى .

ففى إيران ، نرى شعبا يتكلم اللغة الفارسية ، وقد التزم الثقافة الفارسية وتحمس لها . وهو شعب لم يستهدف إستهدافا مباشرا لمساوىء الاستعمار الأجنبى ، وإن قضى أجيالا فى مهب العاصفة بين النفوذ الروسى من الشمال حيث تشترك الحدود بينه وبين روسيا ، وبين النفوذ البريطانى من الجنوب والشرق ؛ من الجنوب حيث كانت بريطانيا تسيطر على مقاليد السياسة والاستعمار فى المحيط الهندى ، ومن الشرق حيث كان الانجليز يستعمرون أفغانستان وحدودها مشتركة مع إيران .

أما أفغانستان ، فشعبها يتكلم اللغة الأفغانية ، وهى وان إحتوت على كثير من مفردات اللغة الفارسية التى دخلت عليها فى حقب مختلفة ولمناسبات متعددة ، إلا أن الأفغانى يعتز بلغته ولا يبغى بها بديلا . أما كيانه السياسى ، فيتلخص فى أنه شعب مكافح ، إستهدف للاستعمار البريطانى مرة ولكنه لم يلبث أن شن غارة هوجاء أخرجت المستعمرين من أرضه . وهو لا يرضى باستقلاله الحديث بديلا مهما كانت صفة هذا البديل .

أما باكستان ، فإنها دولة حديثة جداً فى محيط الدول المستقلة ، كانت إلى عهد قريب جزءا من مستعمرة من أهم المستعمرات البريطانية وهى الهند . وقد كافح أهل الهند — والمسلمون بينهم أقلية — كافحوا الاستعمار البريطانى كفاحا علميا منظما ، منتهزين فيه الفرص ، غير غافلين عن مصالحهم الاستقلالية حتى استطاعوا أن ينتزعوا استقلالهم من البريطانيين إنتزاعا . وقبيل خروج الإنجليز من الهند ، رآها المسلمون فرصة سانحة لتحقيق أملهم المنشود فى إنشاء دولة قائمة بذاتها . يكون غالبية سكانها من المسلمين ، ويكون دين الدولة الرسمى هو الإسلام . فكانت دولة

الباكستان . وهى دولة ذات شأن فى المحيط الإسلامى العام ، وحسبها فخرا أنها أول دولة ألتزمت الإسلام فى الدين والدولة معا .

إلا أن ذلك لا يمنعنا من تقرير أن دولة الباكستان لا تجمعهما بدول القلب ، بل لا تجمعها بجيرانها المسلمات جامعة اللغة . فهى دولة إسلامية ولكنها ليست دولة إسلامية عربية . وفى سبيل التخلص من هذا الوضع ، تبذل فى هذه الدولة جهود فى صالح اللغة العربية سنفصلها خلال الكلام عنها .

على أننا لن نستطيع التعرض للحديث عن اليقظة الإسلامية التى أدت إلى خلق الباكستان دون أن نتعرض لتاريخ الهند نفسها . فلقد أفرخت كل الجهود الإسلامية ، التى خلقت دولة الباكستان ، على أيدى قادة الفكر الإسلامى بالهند . أيام أن كانوا يتجنسون بالجنسية الهندية ، ويخضعون للاستعمار البريطانى .

أما أندونيسيا ، تلك البلاد التى دانت لنفوذ الإسلام فقامت فيها دول إسلامية عامرة ، ثم دالت دولة الإسلام فيها على أيدى المستعمرين . فقد استطاعت أن تقتلع استقلالها إقتلاعا من أيدى الهولنديين ، بعد أن حاربتهم حرب بقاء أو فناء . وبذلك قامت فى تلك الجزر الواقعة فى الجنوب الشرقى من قارة آسيا دولة إسلامية ، جعلت شعارها كلمة « مرديكا » أى الحرية . وهى تجتمع مع العالم الإسلامى فى الإسلام ، ولكنها تختلف عنه فى اللغة والعادات والثقافة . وإن كانت تتفق مع الهند — القريبة منها — فى شىء من الثقافة وبعض المفردات اللغوية .

هذا هو العالم الإسلامى الذى سنتحدث عنه فيما يلى من صفحات هذا الكتاب .

* * *

وقبل أن نتحدث عن النهضة فى هذه الدول الإسلامية فرادى ، نرى أن نعرض لتاريخ الدولة العثمانية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فهو مفتاح للدراسة التفصيلية لشئون هذه الدول . إذ كان الكثير منها جزءا لا يستهان به من أملاك الدولة . بينما كانت السلطة الروحية المنبعثة من الاستانة تشمل العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه .

الباب الأول

الفصل الأول

الدولة العثمانية : بين الشرق والغرب

أهل القرن العشرون ، والعالم الإسلامى — من المحيط الهادى شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا — فى حالة يرثى لها . فقد نشطت السياسة الاستعمارية أيما نشاط ، وبدأ الأوربيون يرسخون أقدامهم فيما احتلوه من البقاع فى العالم الإسلامى ، كما بدأوا يتفاهمون فيما بينهم على إقرار الحال الجديدة — حال استعمار المسيحية الأوربية لدول الإسلام فى القارتين الأفريقية والأسيوية .

وقبل أن نتكلم عن حال الدول الإسلامية بازاء الاستعمار ، يحسن بنا أن نعرض لحال الدولة العثمانية — قلب الإسلام النابض فى ذلك الحين لنتعرف أحوالها ، حتى نستطيع أن نرجع الكثير من أحداث العالم الإسلامى إلى أسبابها الأصلية ، التى تمت بصلة قريبة أو بعيدة إلى حال الدولة العثمانية فى ذلك الحين .

الدولة العثمانية والسياسة الأوربية

خرج الأتراك العثمانيون من أواسط آسيا ، ثم اتجهوا نحو الغرب — رحلا أو فاتحين — ثم لم يلبثوا أن أسسوا لأنفسهم دولة أوربية كان

بمجرد ذكر اسمها مصدراً للرعب فى قلوب الدول الأوربيـة . واستطاع العثمانيون ، فى فترة وجيزة ، أن يكونوا سادة البلقان ، وأصحاب النفوذ الأول فى النصف الشرقى من القارة الأوربية. ويعرف هذا العصر بالعصر الذهبى من تاريخ آل عثمان وذلك حوالى سنة ١٦٠٠م .

ثم تألبت عليهم الدول الأوربيـــة ، واجتمعت كلمة المسيحيين على الوقوف فى وجه التيار الإسلامى الجارف ، فعقدت المعـــاهدات . وتضافرت القوى ، على أن تحول دون فتوحات جديدة .

وكان من سوء حظ الدولة العثمانية أن ظهرت هذه الحركة الأوربيـة فى وقت كان سلاطين آل عثمان قد انغمسوا فى الترف واستسلموا لما يستسلم له كل فاتح مظفر من نعيم ، فوقفت الفتوحات الإسلامية ، وقنع العثمانيون بما ظفروا به من فتوحات

ولقد ساس العثمانيون ملكهم الجديد فى أوربا سياسة لم تكن لتؤدى إلى حالة من الاستقرار ، فما بذلوا فى يوم من الأيام جهداً يذكر فى سبيل نشر ثقافتهم أو لغتهم أو دينهم فى أملاكهم الجديدة ، وإنما دخل فى دين الله بعض من آثروه على المسيحية ، أو رغبوا فى الإسلام اقتناصا للفرص ، وتقرباً للسادة الحاكمين من المسلمين . وكان من فرط التساهل من جانب الأتراك أن قربوا للسلطان كثيراً ممن تظاهروا بالولاء ، فغنموا مناصب الدولة الرفيعة ، ورجحت كفتهم على سلالة الفاتحين .

وبينما كانت الحالة تسير فى الدولة العثمانيـــة على هذا النهج ، اندلع فى الغرب لهيب الثورة الفرنسية ، وما تلاها من أحداث جسام ، ونادى الثوار الفرنسيون مطالبين بتحقيق مبـــادىء الثورة الثلاثة : الحرية ، والإخاء ، والمساواة

وظهرت قبل ذلك الجمعية الماسونية ، ومن قائل أنها العامل الأكبر فى نجاح الثورة الفرنسية . ثم اتخذت الماسونية لوناً جديداً فى إيطاليا أطلق عليه اسم « الكريونارى » فتحققت على يديها الوحدة الإيطاليـة . ثم ظهرت فى أوربا الوسطى دولة ألمانيا ، كما ظهرت قبل ذلك دولة الروسيا القيصرية ناشطة فتية .

وبينما نبهت الأفكار الوافدة من الغرب دول البلقان الواقعة تحت الحكم التركى إلى حقوق الإنسان ، ساعدت دولة الروسيا المسيحية أهل البلقان المسيحيين على التحرر من ربقة الاستعمار التركى ، فتوالت على تركيا أحداث سياسية كبرى ، قوامها محاولة البلقانيين استرداد استقلالهم من الدولة العثمانيـة ، ولبث هؤلاء يناوءون الاستعمار التركى بمختلف الوسائل والأساليب ، حتى فتوا فى عضد الدولة وانزلوها من كبريائها ، وأضعفوا من قوتها بثوراتهم المتوالية ، التى كانت تغذيها الدول الأوروبية ، تشجيعاً للمسيحية على الوقوف فى وجه الإسلام .

وظلت الدولة العثمانية تضعف وتتقهقر ، حتى آل الأمر بها إلى القنوع برقعة يسيرة من الأرض تتاخم الاستانة ، واستقل البلقان من أقصاه إلى أقصاه ، ولم تجد فى ذلك حيلة السلطان . ولا الاستعانة بواليه على مصر « محمد على » وبلغ من ضعف الدولة أن أطلق عليها ساسة أوربا لقب « الرجل المريض » .

وكادت الدولة العثمانية أن تفقد ملكها فى أوربا ، لولا أن ثارت فى الجو السياسى الدولى مشكلة من أعقد المشاكل : تلك هى وراثة الملك العثمانى بعد زواله ، وإلى من يؤول هذا الميراث ، وخصوصاً بوغازى البوسفور والدردنيل . إلى روسيا ، وهى إن ملكته ملكت مسلكاً مائياً إلى البحر الأبيض تستطيع بواسطته أن تحول بين انجلترا وممتلكاتها

فى الشرق ؟ أم إلى انجلترا ، وهى أن ملكته خنقت الروسيا فى البحر الأسود ، وقضت على نفوذ فرنسا فى الشرق الأدنى ؟ أم إلى فرنسا ، وهى إن ملكته رجحت كفتها السياسية فى حوض البحر الأبيض ؟

وحلاً لهذه المشكلة ، اتفقت الآراء على أن تظل تركيا مالكة لما بقى لها من أوربا ، بما فى ذلك بوغازى البوسفور والدردنيل ، على شريطة أن تظل ضعيفة بعيدة عن محور السياسة الأوربية كى لا يكون لها ضلع فيما يجرى فى أوربا من أحداث .

ثم كانت ثورة محمد على على السلطان ، ومحاولته الوصول إلى الأستانة ووقوف الدول الأوربية فى وجهه . بما فيها صفيته فرنسا ، وذلك ضناً منها بهذا الموقع الممتاز أن يخرج من يد السلطان الضعيف إلى يد محمد على القوى .

تلك هى السياسة التى جرت عليها أوروبا فى معاملة « الرجل المريض » . وقد ظل الرجل مريضاً ضعيفاً حتى أوائل القرن العشرين ، عندما تغلغل نفوذ إنجلترا وفرنسا فى البلاد الإسلامية ، وبدا فى الجو الأوربى شبح المنافسة بين ألمانيا من ناحية ، وإنجلترا وفرنسا من الناحية الأخرى . فآثرت تركيا — أو حُسن لها — إن تدخل على جيشها ومرافقها من الإصلاح ما تستطيع معه أن تتمشى مع تيار المدنية الحديثة . وهنا وجدها الألمان فرصة سانحة للتدخل فى شئون الدولة تدخلا ألزمها — عند قيام الحرب الأوربية الأولى — أن تخوض غمارها إلى جانب ألمانيا ، فكان لذلك من النتائج الخطيرة على العالم الإسلامى ما سنذكره فى حينه .

الدولة العثمانية والشرق الإسلامى

اتجهت أنظار السلطان سليم الأول نحو الشرق ، وسرعان ما دانت له الشام ومصر ، وامتد نفوذ الدولة فشمل الجزيرة العربية والعراق ، ودان الشمال الأفريقى للدولة بعد أعمال باهرة قام بها أمراء البحر من الأتراك . وبذلك صارت الدولة العثمانية مالكة لزمام مجموعة من الدول الإسلامية لعبت بها حوادث الأيام بعد سقوط الدولة العباسية فى بغداد على أيدى المغول ، ففتحت أبوابها مستسلمة تستقبل الفاتح الجديد الذى يجمعه وإياها وحدة الدين . وبذلك يعلل الكثير من المؤرخين سهولة انتشار الفتوحات العثمانية فى غير القارة الأوربية .

آل هذا الملك الشاسع إلى الدولة ، ثم آلت إليها الخلافة الإسلامية وكان السلاطين مضرب الأمثال فى سياسة الملك وحسن الإدارة ، كما كانت الدولة موفقة فى كل فتوحاتها ، وبذلك لبس الإسلام ثوباً قشيباً ، وبدأ العالم يخشى صولة هذه الدولة الفتية ، التى تكتسح الدول شمالا ، وجنوبا ، وشرقا ، وغربا .

وقد ساعد على توطيد السلطان العثمانى فى آسيا وأفريقية عاملان : عامل روحى ، وآخر زمنى .

أما من الناحية الروحية ، فإن السلطان سليم الأول قد آلت إليه الخلافة الإسلامية بعد فتح مصر . وبذلك دان العالم الإسلامى بالطاعة الروحية للدولة الفتية ، واعتز بانتقـــال الخلافة إلى دولة موفقة فى فتوحاتها الأوربية .

وقد ظلت الخلافة أجيالا فى يد العثمانيين ، قوية الشكيمة ، محترمة من المسلمين ، مرهوبة من المسيحيين . إلى أن دب الضعف فى جسم الدولة ،

فكانت الخلافة تكأة يتكئ عليها السلطان ، كلما أعوزته الحيلة لتهديد الدول الأوربية بحرب دينية يشنها على أوربا ويشترك فيها عامة المسلمين . وإلى هذه الوضعية يرجع الفضل فى بقاء الدولة مرهوبة الجانب خلال القرن التاسع عشر .

وقد ساعد على توطيد سلطة الخليفة الروحية ما كان له من سلطة زمنية على كثير من بقاع العالم الإسلامى . فلقد كان غرب آسيا بأكمله — من البحر الأسود شمالا حتى بحر العرب جنوبا — خاضعا للسلطان . أما الشمال الأفريقى فقد تفاوتت سلطة الدولة عليه ، فبينما كانت مصر وطرابلس خاضعتين للسلطان تماما كانت تونس والجزائر خاضعتين له نسبيا . أما المغرب الأقصى ، فقد حافظ على استقلاله خلال زوبعة الفتح التركى ، أو بعبارة أصح ، لم تتجه إليه أنظار الدولة بمثل ما اتجهت إلى غيره من الأقطار .

وكانت الأستانة فى كل ذلك محط أنظار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، إليها يحج علماؤهم وزعماؤهم فى كل صيف ، فيقدمون للسلطان فروض الطاعة ، ويتقدمون إلى رجال الباب العالى بالهدايا ، ويحضرون صلاة الجمعة ، وحفلة السلاملك ، إلى غير ذلك من المظاهر التى كان الباب العالى يعنى بها ، ليؤكد للأوربيين أن العالم الإسلامى مازال ينصر السلطان ، وينطوى تحت لوائه .

بين الخليفة العثمانى ومسلمى الهند

يتناول الأستاذ عباس محمود العقاد هذا الموضوع فى كتابه الجديد « القائد الأعظم محمد على جناح » فيقول :

والمسأله التى تضاءلت إلى جانبها كل مسألة من مسائل العالم الإسلامى

فى حساب مسلمى الهند هى مسألة الخلافة الإسلامية ، وكانت يومئذ فى آل عثمان بالقسطنطينية .

فقد كان أمراء الهند أنفسهم يستقبلون تلك الخلافة فى الشدائد ، وينظرون اليها نظرتهم إلى الثمالة الباقية من عز الإسلام ودولته الدنيوية.

ومنذ عهد الاحتلال البريطانى ، توجهت الأنظار إلى سلطان آل عثمان وكان فى طليعة المتوجهين اليه سلطان ميسور على مقربة من سلطنة حيدر آباد . فإنه كتب إلى الخليفة يبلغه حقيقة الخطر على الديار الأسيوية ، وينذره أن الخطر بالغ من غربها لا محالة إلى حوزة القسطنطينية ، ولم يكن فى وسع الخليفة أن ينجده بالعون الذى أراده ،فكتب إلى نابليون يطلب هــذا العون ، وجاءه الجواب منه بانتظار المدد فى جيش جرار يضرب الدولة البريطانية فى مقتلها ، ويخلى الطريق إلى الهند من شباكها .

ولم يزل أمراء الهند ـ فضلا عن سواد أهلها ـ يتطاعون إلى الخلافة فى القسطنطينية حتى زالت وانتهت بخاتم الخلفاء السلطان عبد المجيد،فسعى سلطان حيدر آباد إلى التزوج من إحدى بناته ، وقيل فيما قيل عن أسباب هذا الزواج أنه « زواج سياسى » يمهد به السلطان إلى إمامة المسلمين فى الهند على الأقل ، إن لم تنعقد له الإمامة على العالم الإسلامى بأجمعه .

ولم يتفق لمسلمى الهند ما يضعف مكانة الخليفة بينهم كما اتفق للمسلمين الذين حكمتهم الدولة العثمانية فتمردوا على حكمها وتغلبت فى نفوسهم دفعة الوطنية على الولاء لحكومة ساءت سياستها ، وخرجت فى رأى الأكثرين من أحكام دينها ، بل كان مسلمو الهند يزدادون عطفا على دولة الخلافة كلما اشتدت بها المحن من داخلها وخارجها ، وينسبون الثورات عليها أحيانا الى دسائس الاستعمار وغواية الدول الأجنبية بالرشاوى والوعود الكاذبة .

مساوىء الحكم العثمانى

اندمجت المستعمرات الأسيوية والأفريقية فى جسم الدولة ، وحسبت نفسها جزءاً لا يتجزأ عنها ، وربطت مصيرها ومصير الإسلام بمصير الدولة العثمانية . وكانت تكن لها من الاحترام والوفاء ما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الفتح والاستعمار . ولكن الدولة كانت تقابل هذه العواطف الفياضة بنقائضها . كانت الولاية على قطر من الأقطار الأسلامية سلعة تباع وتشترى فى الباب العالى ، وكان السلطان لايكاد يذكر أن له دولة شاسعة الأطراف هى حصنه الوحيد ضد الغارات الأوربية المسيحية ، إلا عندما يحدث عند أقالة وال ليحل محله آخر . على أن مساوىء هذه السياسة تظهر إبان عظمة الدولة ، وذلك لسببين :

الأول أن الدولة كانت فى ذاتها مرهوبة الجانب ، وقد جرت العادة أن تحجب القوة المادية كثيراً من العيوب التى لا تلبث أن تظهر أبان الضعف .

والثانى أن طبقة الولاة العثمانيين ـ فى عصر الدولة الذهبى ـ كانوا من الرجال المبرزين ، ولم يظهر الولاة الضعاف إلا عندما دب الضعف إلى جسم الدولة .

أما وقد قلبت الأيام للدولة ظهر المجن ، وانصرفت الدولة إلى الدفاع عن كيانها بأزاء ثورات البلقان ، وما جرد لتأييدها من الجيوش المسيحية وتطرق الفساد إلى بلاط السلطان الضعيف ، وانصرف رجال الباب العالى إلى قضاء مآربهم الخاصة على حساب السلطان المتداعى ، وصارت مناصب الدولة تباع فى الأسواق الخاصة ببيع السلع المسعرة ، فقد نسيت الدولة العثمانية ان لها فيما وراء البحار ملكا يجدر بكل سلطان قوى أن يعتز به ، فما بالك بسلطان ضعيف

وقد ارتضى العالم الإسلامى هذه الأوضاع . ولعل السبب الأكبر فى ذلك أن حجاباً كثيفاً كان قد أسدل على الشرق فلم يستطع أن يسمع بما يجرى فى أوربا من حركات فكرية ، أو نهضات قومية . ولقد صدق من قال : ان الحملة الفرنسية التى جاءت إلى مصر قد أخرجت هذه البلاد من ظلمات القرون الوسطى إلى أضواء العصر الحديث .

وثمة سبب آخر لا يقل فى نظرنا عن السبب الذى سقناه تعليلا لرضوخ العالم الإسلامى لهذا الوضع : ذلك أن الدولة العثمانية كانت رمز الإسلام الباقى بغير استعمار : لذلك تعلق العالم الإسلامى بأهداب الدولة العثمانية وكانت روح العصر تقضى على العالم الإسلامى أن ينتهج هذه السياسة . لأن قيام أية ثورة فكرية أو سياسية فى أية ناحية من نواحيه كانت تعتبر خروجا على تعاليم الإسلام كما كان يفهمها رجال تلك العصور .

ولم تتح للعالم الإسلامى فرصة التفكير الحر محاولة الإصلاح إلا بعد أن نبتت الفكرة فى الأستانة ، وترعرعت فيها . بل عند ما شاء زعماء هذه الفكرة أن يبثوها فى بقية أنحاء الدولة ، تقوية للروح القائمة فى الأستانة .

تركيا الفتاة وحزب الاتحاد والترقى

كان الأحرار من الأتراك ، المشتتون فى أنحاء أوربا منذ إبطال الدستور العثمانى سنة ١٨٧٧ على يد السلطان عبد الحميد ، يرقبون حال بلادهم التعسة وهى تئن تحت حكم جبار مستبد ، شديد على أهل البلاد ، ولكنه غير قادر على درء الأخطار عن أرض الوطن ، ولشد ما زادت آلام نفوسهم عندما رأوا المصاعب تحل بالدولة ، وتصيب روح الأمة . وكانت باريس وجنيف مركزاً لهم ، ومنها أخذوا يبثون الدعوة لتحرير

بلادهم ، وانتشالها من وهدة الخراب . وكان اعتقادهم راسخاً فى أن انضمام رجال الجيش لهم ضرورى لنجاح حركتهم ،فأخذوا يبثون الدعوة سراً بين رجال الجيش على يد بعض ضباطه . وألفوا من بينهم جمعية تركيا الفتاة .

وفى اوائل سنة ١٩٠٨ ، حانت فرصة العمل الجدى، إذ كانت الجنود العثمانية ببلاد العرب إذ ذاك متمردة لتأخر رواتبها ، وكان الألبانيون حانقين على الحكومة لأعمالها الاستبدادية ، فى حين أن المسلمين فى جميع أنحاء الدولة كانوا غاضبين لتدخل الدول الأوروبية فى كريت ومقدونيا

لذلك أسرعت جمعية تركيا الفتاة بنقل مركزها العام إلى سالونيك بمقدونيا . وهنا تألفت لجنة رئيسية من أنصارها سميت « جمعية الاتحاد » . وكان معظم أعضائها من رجال الجيش ، وكان أظهرهم أنور بك ونيازى بك ، اللذين توليا نشر الدعوة سرا فى مقدونيا وألبانيا . وما وافى شهر يونية سنة ١٩٠٨ حتى كان زعماء الألبان والجزء الأكبر من الجيش فى صفهم .

وفى أواخر يوليه ، رفعت الجمعية علم الثورة . فاستطاعت إرغام السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور وإجراء الانتخابات لمجلس نيابى وتلت ذلك عدة إصلاحات منها إلغاء نظام الجاسوسية الذى كانت تقوم عليه حكومة عبدالحميد ، وكذلك إلغاء الرقابة على الصحف والمطبوعات . ومما يذكر لهذه الثورة بالفخر أنها تمت دون سفك دماء إلا القليل ، إذ لم يقتل فيها إلا بعض أنصار النظام الرجعى القديم .

وقد قوبل نجاح هذه الثورة العسكرية بابتهاج عظيم فى جميع أنحاء الدولة ، فالثوار والجنود والمسلمون والمسيحيون والإغريق والعرب والألبان والأرمن والأتراك ، كلهم كانوا مغتبطين فرحين لخلاصهم من

حكومة الفرد الجائرة . وساد الوئام جميع العناصر ، لم يفرق بينها جنس ولا دين ، وتسلم أنصار العهد الجديد زمام الحكومة ، وأخذوا يعملون على إصلاح حال بلادهم ، ورفع شأنها بين الدول .

وكادت البلاد أن تخطو فى ظل هذا النظام خطوات موفقة لولا أن اكتنفتها بعض المتاعب من الخارج والداخل .

فقد تطلعت الدول الأوروبية الى الحركة الجديدة تطلع المذعور ، فتألبت ، وعلى رأسها الروسيا والنمسا — على الحكومة الجديدة تخلقت لها من المتاعب مالا تستطيع حكومة حديثة التكوين التغلب عليه .

أما فى الداخل ، فقد أثارت العناصر الناقمة على الحكم الجديد الثورات الداخلية فى معظم أنحاء الدولة ، وزاد الأمر تفاقما أن الجيش نفسه (وهو الهيئة التى ظهر الأصلاح الجديد من بين صفوفها) عاد فظهرت فيه موجة رجعية .

وقبل أن ينقضى على الحكومة الجديدة عام كامل : دهمتها ثورة فى الاستانة ، اشترك فيها رجال الجيش ، فحاصروا البرلمان ووزارة الحربية ، وطلبوا إسقاط الوزارة ورئيس مجلس النواب .

وفى أثناء الشغب الذى وقع ، قتل وزير الحقانية وجرح وزير الحربية ، وفر كثير من زعماء الحركة لينجو بأرواحهم . ولكن هذه الحركة لم تعمر إلا أحد عشر يوما فقط ، تمكن فيها رجال الحكومة من القضاء عليها .

ولما كان من المعروف أن للسلطان عبد الحميد يداً فى هذه الحركة ، فقد خلعوه فى ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ ، وأجلسوا على العرش أخاه محمد الخامس سلطانا دستوريا يناصر النهضة .

امتداد الحركة الفكرية إلى أملاك الدولة

وقد كان لهذه الثورة من الأثر فى العالم الإسلامى عامة ، شأن خطير ، إذ نبهت الثورة فى ذاتها أذهان المفكرين فى مصر وغيرها . وتعتبر هذه الحوادث مقدمة للنهضة الفكرية فى العالم الإسلامى .

على أنه مما يؤسف له أن هذه الثورة . التى نبهت أذهان العالم الإسلامى ، لم تخدم الفكرة الإسلامية من الناحية السياسية بمقدار ما كان يرجى على يديها .

ذلك أن رجال حزب الاتحاد والترقى لم يوفقوا فى حكم البلاد ، فلم يحاولوا أن ينشروا مبادىء الديموقراطية ، مبادىء الحرية والإخاء والمساواة بين جميع الأجناس الخاضعة لحكمهم ، بل كانوا أتراكا قبل كل شىء ، فأساءوا إلى العناصر الأخرى ، وتناسوا فى سبيل المنفعة العاجلة قضية كبرى هى قضية الإمبراطورية العثمانية ، بما كان يلزمها من استهواء للشعوب المكونة لها ، كما تناسوا قضية الإسلام ، بما كان يلزمها من تراحم وتضافر بين القوة الإسلامية الحاكمة والشعوب الإسلامية المحكومة .

ولا عبرة بما يقال دفاعا عنهم ، من أنهم قربوا زعماء المسلمين ، فانهم إن كانوا قد قربوا البعض منهم ، فقد قربوه تحت تأثير العوامل الشخصية ، ولم تكن فكرة الإمبراطورية تحركهم فى ذلك ، لا فى قليل ولا فى كثير .

الجمعية الماسونية

ويجدر بنا أن نشير إلى أن مبادىء حزب الاتحاد والترقى كانت فى إبان نهضته هى بعينها مبادىء الجمعية الماسونية ، وأن كثيرا من أعضاء الحزب المتزعمين لسياسته العليا كانوا أعضاء فى هذه الجمعية ، كما كانت الأستانة فى عهد السلطان عبد الحميد ، تعج بالمحافل الماسونية ، على الرغم

من الجهود التى كان السلطان يبذلها فى اضطهاد هذه المحافل ، وتصيد المنتسبين إليها .

ويعزى نجاح الحزب فى بث مبادئه ، ورسم سياسته ، إلى السرية التى تكتنف الماسونية فى جلساتها ، وإلى اليمين التى يقسمها كل من ينتسب إلى هذه الجمعية عند انتسابه ، إذ يقسم على ألا يبوح بما يدور فى داخل المحافل ولو كان تافها .

وبمثل ما انتشرت المحافل الماسونية فى الأستانة فى ذلك الحين ، انتشرت جاسوسية الباب العالى ، فكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، ولكن الغلبة كانت للماسونية .

وكانت الجمعية الماسونية حلقة الاتصال بين الأستانة وممتلكاتها العربية على الأقل : ذلك أن مصر والشام كانت قد أخـــذت فى إنشاء المحافل الماسونية ، وتعارف الأخوان فيهما بإخوان لهم فى الأستانة ، وعملوا جميعا فى ظل المبادئ الماسونية : الحرية ، والإخاء ، والمساواة . فارتفعت بذلك الحواجز بين الحركة الماسونية التركية فى الأستانة ، والماسونية العربية فى مصر والشام .

ومن أمثلة المبالغة فى التخفى الماسونى فى الأستانة ما قصه علينا صديق عاصر هذه الأحداث ، من أن أحد المحافل فى الأستانة كانوا يدخلون اليه من باب حانوت لبدال رقيق الحال ، لا يشتبه فى أن له علاقة بالماسونية ، وكانت الجلسات تعقد فى حجرة داخلية من حانوت البدال تحت حمايته ورقابة الطريق من حانوته .

الفصل الثاني

تركيا الحديثة

انتهت الحرب الأوربية الأولى بانتصار الحلفاء (دول الغرب ومعها أمريكا) وانهزمت دول الشرق (ألمانيا والنمسا وتركيا) وعقد صلح فرساى ومن بعده معاهدة سيفر وفيها مزقت أوصال الدولة العثمانية شر ممزق . فأخذت اليونان تراقيا وجزر بحر الأرخبيل، وتسابقت إيطاليا واليونان إلى ساحل تركيا فى آسيا فاحتلت اليونان أزمير ، وتألفت لجنة دولية للإشراف على القسطنطينية والمضايق ، وفرضت رقابة للحلفاء على مالية الدولة وبذلك استحالت الدولة العلية إلى سلطنة حقيرة متخاذلة ، تحت حماية الدول ورحمتها .

وكان السلطان لايعنى فى ذلك الوقت إلا بعرشه ، وخيل إليه أن خير وسيلة تحفظ له العرش هى إرضاء الحلفاء. ولا سيما الإنجليز

لم يرق ذلك فى نظر بطل التاريخ التركى الحديث مصطفى كمال ، وهو ضابط بالجيش انضم إلى جمعية الاتحاد والترقى سنة ١٩٠٦ (وعمره إذ ذاك ستة وعشرون عاما) وتعرف على زعمائها أمثال أنور ونيازى وجمال وطلعت ، غير أنه كان يراهم رجال أقوال لارجال أفعال ، ولما رفعت الجمعية لواء الثورة سنة ١٩٠٨ لم يشترك فيها إذ لم يرقه ما اتخذ لها من المعدات ، ولكن الثورة نجحت ، وقبض الزعماء الاتحاديون على مقاليد الحكم ، فقام مصطفى كمال ينتقد سياستهم علنا ، لاسيما تدخل الألمان فى أخص شئون الأتراك .

ولما دارت الدائرة على الأتراك والألمان ، واستسلم هؤلاء لقضاء الحلفاء

فيهم ، خرج مصطفى كمال إلى الأناضول ، وأثار أهلها على حكومة السلطان والحلفاء . وعندئذ أرسل اليه يستدعيه إلى الأستانة ، فأبرق مصطفى كمال اليه يدعوه ليتولى بنفسه إنقاذ بلاده .

واجتمعت كلمة الوطنيين فى الأناضول على الذود عن كيان بلادهم ضد سياسة الإذلال التى رسمها الحلفاء .

وفى ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٣ ، اضطر الحلفاء ، بإزاء ما تبين لهم من حماسة الأتراك وبطولاتهم ، إلى إعادة النظر فى معاهدة سيفر التى عقدها معهم السلطان ، واجتمع مؤتمر لوزان ، وأسفر عن معاهدة لوزان ، وبها استعاد الأتراك الأستانة وكل ما كانوا يملكون فى الأناضول ، وتراقيا الشرقية بما فيها أدرنه ، وخففت عنهم الغرامة الحربية ، ونزلت الدول عن امتيازاتها فى تركيا .

وقد كان ظهور مصطفى كمال على مسرح السياسة التركية فاصلا بين عهدين : عهد كانت الدولة العلية فيه تحرص على بقاء أملاكها الإسلامية فى أفريقية وآسيا ، معتزة بهذا التراث الشرقى ، وعهد اتجهت فيه الدولة إلى المدنية الأوربية والثقافة الغربية . وظهرت المؤلفات التى تعالج الوسائل التى يمكن بها إنهاض تركيا وتجديد شبابها .

ومن بين هذه المؤلفات كتاب « مصطفى كمال » الذى وضعه الكاتب الكبير « قابيل آدم » ويعبر الكتاب عن آراء مصطفى كمال فى كل نواحى الحياة ، فهو يصف العقلية الأوربية بأنها ارتقائية ، وأنها تتفق مع حاجات الحياة الدنيـــا ، وتؤدى الى سعادة الناس ، وإنها ناهضت رجال الدين وتعاليمهم الجامدة ، وأن اليابان ما تقدمت إلا لانتهاجها الوسائل العقلية الأوربية . أما العقليـة الأسيوية ، فهى جامدة رجعيـة . لا تعمل لهذه الدنيا بل للدار الآخرة . لهذا أذعنت لرجال الدين . ولم تحاول أن تعرف

كنه الحقائق فى الحياة الدنيا . لذلك لم تسلم الدول الأسيوية يوما من الفقر والتعاسة ؛ وهذه العقلية هى السبب المباشر فى سوء النظام والفقر والتعاسة والعادات القبيحة كتعدد الزوجات . والعقلية الأسيوية هى التى جعلت الأتراك يعتقدون أنهم عبيد السلطان — ظل الله فى الأرض .

وظل الله فى الأرض لم يمنح عبيده إلا الفقر والجوع وانتقاص الأملاك واستجداء الغرب .

ويقول المؤلف أن تركيا لا يمكن إصلاحها بنقل أجزاء من الحضارة الغربية . بل بنقل الحضارة الغربية بأكملها . وإحلالها محل الحضـــارة الأسيوية . فان التجارب التى أجريت فى الماضى للتوفيق بين الحضارتين قد أسفرت عن الفشل .

فلا غرو أن يقوم الأتراك ، ورائدهم تلك الفلسفة . بانقلاب شامل بالغاء السلطنة . ثم إنشاء الجمهورية ثم إلغاء الخلافة وقطع صلة تركيا الحديثة بالدول الإسلامية التى كانت تدين للسلطان بالولاء الروحى . وقد أخرج الخليفة من الأستانة ولم يعط إلا حقيبة ملابس وبعض المال لرحيله . وبعد يومين ألحق به أمراء آل عثمان وأميراتهم وأغلقت التكايا وأخرج من فيها ليعملوا لأنفسهم وبلادهم ، بدلا من أن يعيشوا فيها عيالا على غيرهم .

وأدخلت المدنية الغربية فوحدوا اللباس التركى . واستبدلوا القبعة بالطربوش .

وألغوا حجاب المرأة . ومنحوها ما للرجل من حرية فى المنزل وفى الطريق وفى العمل ، وصار لهن حق الانتخاب للمجالس البلدية . وانتخب منهن أربعة فى مجلس بلدى الأستانة . وعين منهن قاضيتان فى أنقرة . ووقفت مقبولة (شقيقة مصطفى كمال) إلى جانب أخيها تعاضده فى كل أعماله

واستبدلت التشريعات القديمة بتشريعات جديدة . فاقتبس القانون المدنى السويسرى، والقانون التجارى الألمانى . والقانون الجنائى الإيطالى . وتغير نظام الأسرة التركية . إذ حرم تعدد الزوجات .

واستبدلت الحروف اللاتينية بالحروف العربية فى الكتابة ، وترجم القرآن من اللغة العربية إلى اللغة التركية . وكتب بالكتابة الجديدة .

وشجعت الزراعة بإنشاء النقابات ، وشجعت الصناعة باتباع سياسة الحماية الجمركية ، وسنت قوانين تقيد الأجانب فى تجارتهم فى تركيا ، وقصر بعض المهن كالمحاماة والطب على الأتراك .

وهذه هى العقلية الحديثة فى الجمهورية التركية من وجهة النظر الحكومية ، إلا أن حقيقة الشعور القومى قد تختلف عن ذلك فى قليل أو كثير . فلقد حدثنا كثيرون ممن زاروا مصر من الأتراك أن العقلية الإسلامية راسخة فى القلوب ، لم تستطع المظاهر الحديثة أن تقضى عليها .

الجمهورية التركية والخلافة

نشر المرحوم الأستاذ حسن الشريف ، فى سنة ١٩٣٩ فى العدد الخاص الذى أصدرته دار الهلال عن « العرب والإسلام » مقالا بعنوان « تركيا المسلمة ، ومصطفى كمال ، والإسلام » وقد بحث فى هذا المقال موضوع الخلافة من وجهة النظر الكمالية قال رحمه الله :

كان للخلافة الإسلامية خطرها ومعناها ، يوم كان الخليفة يحكم المسلمين فى جميع بقاع الأرض ، ويدفع عنهم كل اعتداء ، ويوم كان المسلمون فى جميع بقاع الأرض يدينون للخليفة بالطاعة والولاء ، ويهرعون إلى نصرة بعضهم تحت لوائه كلما نزلت بهم نازلة أو حاق بهم بلاء ، فمنذ تمزقت وحدة الأمة الإسلامية . وتفرقت هذه الأمة شعوبا بعضها

مستقل . وبعضها الآخر محكوم بالأجنبى ، فقدت الخلافة خطرها ومعناها ولم يبق منها إلا لقب احتفظ به سلاطين تركيا آل عثمان .

ولقد أساء الخلفاء العثمانيون حمل لواء الخلافة الإسلامية . فسقطت هيبة الخلفاء من أعين المسلمين . وانمحت منزلتهم . وباتت الخلافة سلطة صورية موروثة لا تكسب صاحبها حقا على المسلمين . ولا تفرض على المسلمين واجبا نحوه . اللهم إلا دعاء تقليدى يقوله خطباء المساجد قبل صلاة الجمعة . فيعقب عليه المصلون بقولهم : آمين .

ولقد أدرك مصطفى كمال أن أوربا المسيحية لم يكفها ما صار إليه شأن الخلافة من الاضمحلال ، وما أصاب مقام الخليفة من الضعف والوهن ، وأنها ظلت ترى فى ذلك اللقب الوهمى مغناطيسا يجذب إلى تركيا قلوب المسلمين . ويحيطها بعطفهم . وأنها ما فتئت لهذا السبب تكيد للدولة العثمانية وترهقها بالحرب تلو الحرب . وتنصب حولها الدسائس السياسية . رجاء أن تمحوها من الوجود .

أدرك مصطفى كمال ذلك . ورأى الدليل عليه فى سلسلة الحروب المتوالية التى لم تنقطع أوربا عن أشهارها على تركيا ، ورآه فى الحرب الصليبية التى أعلنتها عليها دول البلقان بمعاونة دول أوربا الكبرى سنة ١٩١٢ . ثم رآه فى احتلال الحلفاء مدينة القسطنطينية والبواغيز عقب انتصارهم فى الحرب الكبرى : وفى تحريضهم اليونان على احتلال الأناضول . الذى لم ينقذه من أيديهم إلا فوز الكماليين عليهم فى معركة سقاريه .

ولقد أيقن مصطفى كمال أن بقاء كرسى الخلافة فى تركيا سيظل يجر عليها نقمة أوربا فى المستقبل . كما جرها فى الماضى . وأنه سيظل من ثم مصدر متاعب لهذه الدولة المضطهدة المنهوكة . متاعب لا حد لها ولا نهاية

ثم فكر فى قيمة الخلافة نفسها وهى على حالها الراهنة . وهل تستفيد منها تركيا شيئا يعادل بعض ما تعانيه بسببها ، فلم يجد لها قيمة ، ولم ير فيها فائدة .

وجد أن المسلمين اليوم ، وإن كانوا على دين واحد ، شعوب مختلفة الأجناس والأصول واللغات والثقافات ، بعضها مستقل كأيران وأفغانستان ، لا يعترف بالخلافة إلا للعلويين . وبعضها محكوم بالأجنبى يساير هذا الأجنبى فى سياسته مهما كانت موجهة ضد الخلافة والإسلام والمسلمين ، كما هو الحال فى الهند وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وبلاد السنغال . ثم استذكر الماضى القريب ، فرأى أن كرسى الخلافة لم يجمع حول تركيا قلوب المسلمين كما كان مظنونا ، بل رأى أنه لم يدفع عنها اعتداء مسلمى الهند ومصر والشام والحجاز يوم حاربوها فى صفوف الحلفاء . وظلوا يحاربونها من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ حتى كادوا يقضون عليها لولا أن لطفت بها المقادير .

ولم يغب عن باله ما يذهب إليه الكثيرون من أن المسلمين لو تركوا لأنفسهم لبقوا على ولائهم للخلافة . ولما ناصروا أعداءها عليها . ولا مسوها بسوء ، ومن أن مجرد قيام الخلافة فى تركيا يكسب هذه الدول هيبة فى نظر العالم الذى يعتبرها قائدة شعوب الإسلام ، فتستطيع أن تضع هذه الضجة الضخمة فى كفتها عندما يقام لحكومتها وزن بين الحكومات ، كما تستطيع أن تمتشق حسام الجامعة الإسلامية التى يتزعمها الخليفة كلما جد الجد وتعقدت الأمور . نعم لم يغب عن باله شىء من كل ذلك ، ولكن ما قيمة تلك الاعتبارات الوهمية أمام الحقائق العملية والواقع المشاهد ؟

ما الذى تستطيع الأمم الإسلامية أن تفيد به تركيا ، مادام المستقل

من تلك الأمم لا يعترف بالخلافة القائمة فيها ولا يقرها ؟ ومادام غير المستقل منها مغلوبا على أمره ، يسير لمحاربتها كلما أراده الأجنبى المستعمر على أن يسير ؟ وما الذى استطاعت الخلافة العثمانية وهى فى أوج عزتها وكمال قوتها أن تفيد به الأمم الإسلامية ، حتى يطلب منها اليوم أن تحمى الإسلام والمسلمين ، وهى تكاد لا تقوى على حماية نفسها إلا بالجهد الجهيد ؟

ولو أن الخطب وقف عند حد انتفاء الإفادة والاستفادة لهان على مصطفى كمال ، ولأبقى على ذلك الهيكل العظمى الباقى من الخلافة ، ولكن الرجل ذكر أن هذه الخلافة ، فضلا عن كونها مصدر متاعب تركيا ومبعث حقد أوربا عليها ، قد صبغت الدولة التركية بصبغة سياسية إسلامية عامة أنستها قوميتها ، وزجت بها فى منازعات لا مغنى لها فيها ولا مأرب ، ووزعت نشاطها وجهودها على أقوام لا يشاطرونها محنها ومصائبها .

وذكر أنه بينما كان يجاهد فى ميادين الأناضول فى سبيل إنقاذ الوطن من أيدى العدو المغير ، وتثبيت قوائم السلطنة والخلافة ، كان الخليفة السابق وحيد الدين يناهض هذا الجهاد ، ويدبر وسائل إخفاقه ، ويحكم على القائمين به بالإعدام ، وينهى السكان عن مؤازرتهم ، ويحتمى بالإنجليز ويسلمهم عاصمة ملكه ، ويمكن لهم فى احتلال البلاد .

وذكر أن لا نجاح للحكم الجمهورى الذى أقامه فى تركيا على أنقاض السلطة العثمانية إلا إذا أمن شر الدسائس والمؤامرات ، وتفرغ لمشروعات الإصلاح والنهوض بالدولة الفتية ، وأيقن أنه ما دام على عرش الخلافة أمير من آل عثمان ، فالخطر على الجمهورية قائم ، والحذر منه واجب .
ولقد رأى بعينيه بوادر الفرقة والانقسام تدب إلى وحدة الأمة واتحادها عندما علم أن بعض كبار الزعماء من زملائه فى الجهاد أمثال رؤوف بك والدكتور عدنان ... يحفون بالخليفة عبد المجيد ويؤكدون له ولاءهم ،

ورأى أن قصر الخليفة الجديد قد أصبح مسرحاً للدسائس والمكائد والمؤامرات، وملتقى لأعداء الحركة الكمالية والحكم الجمهورى من أرمن وأكراد، فقسا عليهم مصطفى كمال عندما قمع ثورتهم عليه، ورجال سياسيين تعدتهم سعادات العهد الجديد فلاذوا بالقصر يتلمسون فيه سعادات العهد القديم. وأمراء ووزراء سابقين وباشاوات وأمناء وياوران وتريشفانيين وأغوات وحجاب لا عيش لهم إلا فى ظل السلطنة، وقد عصفت بهم الريح التى هبت من أنقره، وأدعياء الدين ومشايخ الطرق الصوفية والدراويش وسكان التكايا وغيرهم من الطفيليات التى جعلت شعارها طول اللحى وكبر العمائم وفضفضة الفروجيات، وجعلت تجارتها التمثيل بالشعائر والعبادات والإفتاء على غير علم، والوساطة بين الله والناس.

إزاء كل تلك الاعتبارات التى تهدد مستقبل الأمة وأمن الجمهورية وسلامة الدولة ومشروعات الإصلاح، لم يجد مصطفى كمال بداً من الغاء الخلافة فألغاها، معلنا من أعلى منبر المجلس الوطنى: « إنه فى اليوم الذى تدرك الأمم المسلمة حاجتها إلى الانضواء تحت لواء واحد هو لواء الجامعة الإسلامية، وتستطيع أن توحد مصالحها وغاياتها وجهودها وقيادتها، وتقف صفا واحداً متراصا أمام أعداء الإسلام والطامعين فيه، فى ذلك اليوم فقط، يجوز لنا أن نفكر فى إعادة الخلافة الإسلامية، وعندئذ ينتخب المسلمون خليفة لرسول الله كما كان الخلفاء الراشدون ينتخبون »

رأى المغفور الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى

كتبه لنا فى صيف سنة ١٩٣٨

مما لا شبهة فيه أن أقامة خليفة للمسلمين يعد واجبا دينيا، وهذا قدر متفق عليه، وإن كان هناك خلافات بعد فهى فى أمور تفصيلية.

وعندما عزل الخليفة عبد المجيد ، وأخرج من تركيا ، اختلف المسلمون فى ذلك ، ورأى بعضهم أنه لم يعزل بإخراجه من تركيا ، وخيفت فتنة إذ ذاك ، فقرر علماء الأزهر أنه خرج عن الخلافة لعجزه عن إدارة شئون المسلمين . وعقد مؤتمر الخلافة فى مصر ، وكان جلالة الملك فؤاد رحمة الله عليه يرتقب إذ ذاك قبول الخلافة . وقد عرض عليه المرحوم سعد زغلول باشا أن يبايعه إذا قبل ، ولكنه رفض ذلك لاعتبارات وجيهة .

ويجب أن يعلم أن مسألة الخلافة إسلامية محضة ، لا يقبل المسلمون أن يتدخل فيها أجنبى عن دينهم ، سواء أكان التدخل إيجابيا أم سلبيا ، كما يجب أن يفهم أن الخليفة حاكم مدنى على أساس قانون الإسلام ، طاعته واجبة ، ومخالفته معصية ، وهذا هو الوضع الذى يجعل المسألة بالغة غاية الدقة ، لأن سلطان الخليفة ليس سلطانا روحيا فحسب ، بل هو سلطان زمنى وروحى .

ولا شبهة فى أن الوضع السياسى الآن للبلاد الإسلامية يجعل مركز الخليفة ، فيما إذا نودى بخليفة واحد للبلاد الإسلامية ، وضعا نابيا عن قواعد الإسلام الحرفية ، فليست المسألة بالسهولة التى يتصورها البسطاء . وعلماء الأزهر لا تغيب عنهم هذه الحقيقة . وهم فى غنى عن أن ينبهوا إليها . لأن القواعد التى يدرسونها يكفى فهمها لإدراك كل ما يحيط بالمسألة من مشاكل .

ومما هو بديهى عند المسلمين أن الخلافة لا تورث ، وقصة كسب العثمانيين لقب الخلافة من مصر قصة لا يعرفها الإسلام ، وقد نسجت على قواعد الجهل لا قواعد العلم ، ولا يستطيع أحد أن يدعى ملك لقب الخلافة ، ولا أن يملك أحداً هذا اللقب . فالخلافة سلطة تمنحها الأمة

الإسلامية لمن تريد ، والذى يملك منحها هم قادة الإسلام وزعماؤه وأصحاب الكلمة والنفوذ الذين يتبعهم غيرهم ويقتدى بهم ، ولا طريق فى الحقيقة إلا هذا الطريق ، وهو ما يسمى البيعة . وهناك طريق آخر هو أن يعهد بالخلافة لمن بعده ، وهذا الطريق لا يتم إلا برضا الأمة ، ولو أن الأمة رفضت هذا العهد ، لما كان لهذا العهد قيمة .

على هذا الأساس يجب التفكير ، والأوربى لا يدرك هذه الحقيقة جيداً ، كما أن جمهور غير المتعلمين من المسلمين لا يفهمها جيدا .

ومن هذا يكثر الخلط حول هذه المسألة . وعلى الرغم من كلمات تسمع هنا وهناك بشأن أعادة الخلافة ، فإن المسؤولين فى الأزهر لم يظهر رأيهم حتى الآن . ومن الواضح أنهم يفهمون جيداً أن الأمر أمر المسلمين جميعهم . لا أمر الأمة المصرية وحدها .

لكنى لا أظن أن هذا الموضوع من الموضوعات التى سيسدل عليها الستار ، لأنه موضوع جوهرى حيوى . فالمسلمون على تعدد بلادهم وحكوماتهم ومذاهبهم أصبحوا يشعرون بوجوب عقد صلات بينهم ، وبوجوب وجود جبهة توحد جهودهم فى التعليم والثقافة وفهم دينهم على وجه الصحيح ، سواء أكانت هذه الجبهة التى توحد جهودهم خلافة تكون حقيقة دينية فى بعض بلاد الإسلام ، وتكون رمزاً للحقيقة فى بعض البلاد الأخرى ، أم كانت هذه الجبهة مجلسا أسلاميا عالياً تمثل فيه البلاد الإسلامية تمثيلا صادقا يختص بالبحث فى أدواء المسلمين وعلاجها

والفصل فى هذه من حق المسلمين جميعهم ، لا من حق بلد واحد أو أمة واحدة .

الهند والخـــلافة

بعد الحرب العالمية الأولى

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه الجديد ، القائد الأعظم محمد على جناح :

« كانت الحرب العالمية الأولى ، ووقع ما وقع من الاصطدام بين تركيا وبريطانيا العظمى فى مصر والعراق مباشرة ، وفى الأقطار الأخرى من طريق الدعوة أو تحريض الإمارات الوطنية بجزيرة العرب ، طموحا إلى إقامة دولة عربية واحدة تضم اليها الأمم العربية التى كانت خاضعة لسلطان بنى عثمان .

وعمد ساسة الإنجليز إلى تهوين الأمر على مسلمى الهند ، تارة بقولهم أن الحملة على تركيا إنما هى حملة على جماعة تركيا الفتاة الذين اغتصبوا سلطان الخليفة وجعلوا الخلافة ألعوبة فى أيديهم وتبرأوا من العصبية الإسلامية تمييزا عليها للعصبية الطورانية ، فدفعوا العرب بذلك دفعاً إلى احياء العصبية العربية بزعامة أمير من سلالة بيت الرسول ، وتارة يهونون الأمر على مسلمى الهند بتوكيد العهود لهم أن بريطانيا العظمى لن تمس دولة الخلافة ولن تسمح بتقسيمها فى معاهدات الصلح بين الطامعين فيها .

فلما انعقدت معاهدات الصلح ، خابت آمال مسلمى الهند فى وعود الدولة البريطانية ، وأيقنوا أنهم خدعوا وسيقوا إلى معونتها فى هدم دولة الخلافة وتمزيق أشلائها ، وأعلن زعماء المسلمين أن مسالمة الحكومة البريطانية فى الهند سياسة قد انقضى أوانها ووجب نقضها ، لأن هذه الحكومة قد أخلفت عهودها للمسلمين وللبرهميين فى الشئون الدينية والسياسية . وانتهز غاندى الفرصة فجعل مسألة الخلافة من المسائل الأولى فى برنامج المؤتمر ، وراح مع الأخوين محمد على وشوكت على يجوبون أنحاء الهند شاهرين الحرب

على الحكومة معلنين الاتحاد بين جميع الهنود على حربها ورفض التعاون معها .

ويدل على مدى القلق الذى دهم نفوس المسلمين فى الهند من جراء السياسة البريطانية مع الدولة العثمانية أن ألوفا من مسلمى الحدود هجروا بلادهم وقصدوا إلى بلاد الأفغان ليعيشوا فى ظل حكومتها الإسلامية ، وأن مولانا محمد على قصد إلى تركيا وفلسطين ومصر ليجمع كلمة الترك والعرب على استبقاء الخلافة ، والاتفاق على تأسيس « دولة اتحادية » تضم إليها طلاب الإستقلال فى غير سيادة لقوم من الأقوام على قوم آخرين .

وبينما الهند تغلى مراجلها بالثورة والمقاومة السلبية تارة ، والمقاومة الإيجابية تارة أخرى ، إذا بمصطفى كمال يلغى الخلافة وينفى خاتم الخلفاء العثمانيين من القسطنطينية » .

ويتحدث الأستاذ العقاد عن أثر إلغاء الخلافة فى مجريات الأمور السياسية فى الهند عامة ، وفى البيئة الأسلامية خاصة ، ويحدد لنا موقف القائد الأعظم محمد على جناح من مسألة الخلافة فيقول :

« كان جناح من مبدأ الأمر يؤمن بضياع الجهود التى تبذل فى الهند لتأييد الخلافة العثمانية » ...

فلما تحولت جهود المسلمين الهنود إلى الداخل ، كان أصلح الزعماء لتوجيه تلك الجهود زعيم يحصر جهوده فى بلاده ، ولا يسلم مقودها لمن يتخذون مسألة الخلافة وسيلة للمناورات السياسية ، ولم يكن تضافر حزب المؤتمر وزعماء المسلمين على نصر الخلافة الإسلامية إلا مناورة من المناورات التى لا يسيغها طبع جناح ، ولا تدخل فى تفكيره ولا فى شعوره .

وكان اجتماع الخواطر على استقلال المسلمين بدولتهم فى الهند نتيجة طبيعية لقنوطهم من عمل شىء ناجع فى الخلافة العثمانية بعد أن تخلى عنها ابناؤها . »

وسنجلو ذلك واضحا عند الحديث عن دولة الباكستان

الجمهورية التركية والشرق الإسلامى

يقول الأستاذ محمد رفعت ، فى كتابه « التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض المتوسط » :

ثم التفتت تركيا إلى الشرق ، وكانت علاقاتها مرضية بالدول التى استقلت عنها ، كبلاد العرب والعراق ومصر (وبالدول التى كانت قد انقطعت علاقاتها الروحية بها) كأيران والأفغان : ولم يسؤها أن ينفصل عنها الشام ولبنان وفلسطين وشرق الأردن تحت انتداب انجلترا وفرنسا فقد جاهدوا جميعا كما جاهد الكماليون ، وكافحوا لأجل استقلال بلادهم والتخلص من ربقة الحكم الأجنبى . وبعد أن كانت هذه الدول مجرد ولايات أو أمارات أو ممالك فقيرة متخاذلة متأخرة لايؤبه لها كثيراً ، أصبحت فى مدى خمسة عشر عاما ، بفضل نهضاتها الثقافية الاقتصادية دولا فتية محترمة مرموقة الجانب تؤمن بمستقبلها السياسى والاقتصادى ، وتحسب الدول الكبرى حسابها .

وعند ذلك ألم الحنين بتركيا الى الشرق ، وعادت بها الذاكرة إلى سابق مكانتها فى قلوب المسلمين ، وأحست فى قرارة نفسها بأن الشرق هو صخرة الأمان التى يجب أن تلوذ بها تركيا اذا اكفهر الجو فى الغرب ولمعت بوارق الحرب حول المنطقة الخطيرة فى المضايق التى تسيطر عليها . ولكن كبرياء الترك وكرامتهم أبتا عليهم أن يعترفوا بالحقيقة كلها ، فقرروا أن يكون اتجاههم شرقيا صرفا ، لا اسلاميا ولا عربيا ، فوثقت علاقاتها مع إيران الجديدة ، وجعلت تسعى بالصلح بين ايران والعراق وأفغانستان . وأخيراً تم تأليف ميثاق سعد آباد فى سنة ١٩٣٧ بين تركيا والعراق وايران والأفغان ... وكان الأمل معقوداً باشتراك مصر والدولة العربية السعودية فى الميثاق »

على أن ميثاق سعد آباد لم يكتب له أن يكون ذا أثر فعال فى مستقبل الأيام فقد أغار الحلفاء ، فى الحرب العالمية الثانية ، على ايران وحاولوا أن يتخذوها طريقا إلى روسيا ، فلم تتحرك تركيا وفاء لهذا الميثاق ، بل آثرت الحيدة التى أخذت نفسها بها خلال هذه الحرب . وعندما قام رشيد عالى الكيلانى بثورته فى بغداد فاضطر الملك ووصى العرش الى الفرار ، نظرت تركيا إلى الحوادث وكأنها لا تعنيها فى قليل أو كثير .

ويعقب الأستاذ محمد رفعت على سلوك تركيا بعد الحرب العالمية الثانية فيقول :

« ولكن ما كادت تنتهى الحرب العالمية الثانية ، وتظهر بوادر النزاع بين تركيا وروسيا ، حتى عاد حنين تركيا الى الجامعة الإسلامية ، وبدأت تتحسر على الجاه والنفوذ الدينى الذى كان لها فى الماضى وبفضله استطاعت وهى حينذاك الدولة الضعيفة المتخاذلة ، أن تزعج روسيا وسائر الدول الأوربية المسيحية ، فكم يكون جاهها وتأثيرها اليوم ، وقد تجددت قواها ، لو أن معها أصوات مئات الملايين من المسلمين الناهضين فى كل مكان ، والذين كانوا يدينون لتركيا بالخلافة ! ..

الباب الثانى

الفصل الأول

النهضة الفكرية فى العالم الإسلامى

قبل أن نتعرض للحديث عن النهضة الفكرية فى العالم الإسلامى يحسن بنا أن نعرض لبعض الأمور التى تعتبر دعامة للبحث .

خلط كثيرون بين العالم الإسلامى والعالم العربى ، ولهم فى ذلك عذر فالعالم الإسلامى وليد الفتوحات الإسلامية التى قام بها العرب ، والدين الإسلامى دعامته القرآن وقد نزل بلسان عربى ، والمسلمون يؤدون الصلاة باللغة العربية مهما كانت لغتهم الأصلية ، ولذلك اعتمد كثيرون على ارتباط الإسلام بالعروبة هذا الارتباط الوثيق فأدمجوا العروبة فى الإسلام ، أو قرنوا الاسلام بالعروبة ، ولم يفرقوا بينهما ؛ على أن الأمر يحتاج إلى بيان

العروبة

خرج العرب من قلب الجزيرة العربية إلى ما حولها فاتحين باسم « الإسلام » فلما فتحت الأمصار ، اتخذها الكثير منهم وطنا جديداً لهم . وأصبحت على مر الأيام بلادهم ووطنهم الدائم . أما أهل البلاد الأصليين فقد دخل فى دين الله منهم من دخل ، وكانوا ينضمون الى العرب الفاتحين ويدخلون فى خدمتهم ، ويتحالفون معهم اعتزازا بشوكتهم ، واحتماء فى جاههم وقد اطلق عليهم العرب اسم « الموالى » .

ومهما قيل فى سياسة العرب بأزاء الموالى من أقصاء وأدناء بين عهد وآخر، أو لمناسبة أو أخرى، فما لا شك فيه أن قصة الولاء فى صدر الإسلام كانت — من الناحية الاجتماعية — قصة اختلاط العنصر الحاكم بأفراد الشعب المحكوم على أساس يختلف عما يعرفه العصر الحديث من قصة الاستعمار الذى يقترن بترفع المستعمرين عن مستوى المحكومين، ويقول بأفضلية المستعمر الأوربى الأبيض على غيره من الاجناس والألوان والأقوام والشعوب.

فى ضوء هذه العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى صدر الإسلام، وعملا بكتاب الله وسنة رسوله فى تحديد العلاقة بين العرب الفاتحين والشعوب التى استسلمت لهم واعتنق أهلها الإسلام، ساس العرب ملكا جديداً قوامه أن «ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى»، وسادت المساواة بين المسلمين مهما اختلفت جنسياتها، فانسجم الجميع فى وحدة دينية، قوامها القرآن والسنة.

ولما كان القرآن قد نزل بلسان عربى، وكذلك كانت أحاديث الرسول كلها باللغة العربية، فقد فرض على غير العرب أن يدرسوا اللغة العربية توصلا الى فهم دينهم.

وكانت الدواوين فى الأمصار المفتوحة فى صدر الدولة الأموية تكتب باللغة المحلية - الرومية فى الشام، والفارسية فى العراق والقبطية فى مصر — فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان، نقلت هذه الدواوين الى اللغة العربية، فكان ذلك توكيداً لسياسة تعريب الأمصار

وبذلك نرى أن اللغة العربية كانت، منذ فجر الإسلام، اللغة السائدة فى الأقطار المفتوحة، من العراق شرقا الى مصر غرباً، ومن جبال طوروس شمالا الى المحيط الهندى جنوبا. وهذه هى الدول التى اصطلح على تسميتها

بالدول العربية ، وإن كانت — فى الواقع ـ هى الدول التى تتكلم اللغة العربية . وهى التى انتظمتها فى العصر الحديث جامعة الدول العربية .

وإطلاق هذه التسمية على الأقطار التى تتكلم العربية لا يستتبع أن يكون الإسلام هو الدين الوحيد فى تلك الاقطار أو بعضها ، فأننا نرى فى لبنان (مثلا) بلداً يتكلم أهله العربية على بكرة أبيهم ولكنهم ليسوا جميعا من المسلمين . فاذا اعتبرناه بلداً عربيا وفقاً لهذه القاعدة ، فاننا لا نستطيع أن نعتبره إسلاميا بكل مافى الكلمة من معنى .

وإذا طبقنا هذه القاعدة فى الشمال الأفريقى ، استطعنا أن نقول أن أقطار هذه المنطقة أقطار إسلامية بحكم أن الغالبية الساحقة من السكان مسلمة ، ولا نستطيع أن نسميها عربية خالصة ، لأن اللغة العربية ليست لغة سائدة فى هذه المنطقة بأكملها . بل إننا لا نعدو الحقيقة إذا قررنا أن اللغة العربية لايتكلمها أغلبية السكان . فهناك الى جوارها لغة وطنية قديمة هى اللغة البربرية ، وإلى جانبها لغة تعتبر وسطا بين البربرية والعربية هى اللغة الدارجة .

* * *

على أن أمر العروبة فى نظرنا ليس مجرد اللغة التى يتكلمها السكان . فقد يذهب بعض المتطرفين إلى القول بأن القطر لا يكون عربيا إلا إذا كان أهله من العرب ، لا ممن يتكلمون العربية .

فإذا حاولنا تطبيق هذه القاعدة ، وجب أن نرجع إلى أصول الشعوب التى يتكون منها كل قطر ، فاذا استطعنا ارجاعها إلى أصول عربية كان البلد عربيا ، وإلا فلا .

ولا سبيل إلى القول بأن العرب هاجروا من أرضهم فاحتلوا بلداً

كالعراق أو مصر فأجلوا سكانه الأصليين عن بلدهم ، وأخرجوهم منها كتلة وأقاموا مكانهم ، برجالهم ونسائهم ، وتناسلوا فأنجبوا شعباً عربياً خالصاً ، فليست هذه طبيعة الأمور .

وإنما نرى أن العرب كانت لهم فى الجاهلية إمارتان على حدود الدولتين الفارسية والرومانية ، أقاموا فيهما عربا خلصاً لم يتزوجوا من الفرس أو الروم ولم يزوجوهم . فلما جاء الإسلام واختلط العرب الفاتحون بأهل الأمم المفتوحة ، اهتبلوها فرصة للزواج من الأجنبيات ، ولم يكن ذلك قاصرا على الدهماء ومتوسطى الحال ، بل تعداه إلى أرقى البيئات العربية وهم الخلفاء . وبذلك نشأ جيل جديد مختلط فى جنسه ، ولكنه عربى فى لغته . وبمرور الزمن أنجب هؤلاء أجيالا كانت تعتز بأسلامها ، وتفاخر بحسن بلاء آبائهم وأجدادهم فى سبيل الإسلام ، ثم زادوا على ذلك فتفاخروا بأصولهم العربية ، واعتبروا أنفسهم عربا ، ومن هؤلاء من لا يزال يفاخر بأنه ينتهى بنسبه إلى النبى عليه الصلاة والسلام أو إلى أصول صحابية ، ومنهم من يباهى بعروبة أصله فحسب .

فهل لنا أن نعتبر مثل هذه الأقطار عربية ؟ الواقع أنه من قبيل تحميل الشىء ما لا يحتمل أن تسمى هذه الأقطار ، لهذا السبب وحده ، أقطاراً عربية .

وهناك رأى ثالث يقول بأن العامل الجغرافى له أكبر الأثر فى تحديد معنى « العروبة » فالأقطار العربية ، فى نظر أصحاب هذه النظرية ، هى التى تتكون منها الجزيرة العربية ، ولا يدخل فى هذا النطاق ساحل الشام ولا سواد العراق ، انما يدخل فيه منطقتان صحراويتان هما بقايا أمارتى المناذرة والغساسنة ، ويخرج أصحاب هذه النظرية ، من دوائر العروبة ، مصر وما وراءها غربا (ليبيا وتونس والجزائر ومراكش) ويعتبرونها دولا أفريقية ، لا علاقة لها بالعروبة .

وفى تقديرنا أن العروبة لا تقاس بمقياس واحد من هذه المقاييس ، ولا يقاس بقدر واحد من كل من هذه المقاييس كلها ، بل أنها نتيجة تفاعل بين العوامل الجغرافية ، واللغوية ، والوراثية . مع تقدير لمدى تمسك القطر ، خلال حقب التاريخ ، بصفة العروبة والاعتزاز بها ، ومدى استعداد هذا القطر للسير فى العصر الحديث فى ركاب الحركة العربية بما عليها وما لها .

فاذا أختل واحد من هذه المقاييس اختلت معه نسبة القطر إلى العروبة : فأننا نرى فى فلسطين قوما ينحدرون من أصل عربى ، وآخرين اختلفت أصولهم ما بين عربية أسيوية وبين مصرية قديمة . ولم تستطع أحقاب الزمن أن توفق بين الفريقين ، وزاد فى هذا الفرقة أن العرب يدينون بالإسلام ، ويدين غيرهم باليهوديه ، وبذلك تنافرت العادات والتقاليد ، فأنقسم هذا القطر ، الصغير فى مساحته ، إلى فريقين متنابذين : عرب ويهود

وبتنافر المصالح والأمانى والأهداف بين الفريقين ، أنحلت عروة الوطنية ، فتنابذ الفريقان ، وظلت هوة التنابذ تتسع حتى صارت إلى ماهى عليه فى العصر الحديث من مشكلة استعصى حلها .

وفى لبنان ، اعتز المسيحيون فى وقت من الأوقات بنسبتهم إلى بقايا الصليبيين ، فتنافرت مصالحهم ومصالح العرب المسلمين ، ولكن الهوة بين الفريقين لم تكن من العمق بحيث تطيش بالأمانى الوطنية القومية . ثم جاءت الموجة العربية الحديثة فشملت الفريقين ، فأصبح لبنان بلداً يبالغ فى الإعتزاز بعروبته ، فى حين أنه فى الواقع بلد تغلب فيه العروبة الأصلية ولكنها لا تسود . وتسود فيه العروبة العاطفية ، متأثرة بوحدة المصالح والأهداف .

الإســــلام

الدولة الإسلامية المثاليـة هى تلك الدولة التى تتوافر فيها الشروط الآتية :

أولا : أن تكون الغالبية الكبرى من سكانها من المسلمين وأن لا تتمتع فيها الأقلية غير الإسلامية ، إن وجدت ، إلا بما نصت عليه الشريعة الإسلامية من الحقوق ، مقابل التزامات تلتزمها هذه الأقلية .

ثانيا : أن يكون الدين الرسمى للدولة هو الإسـلام ، ينص عليه فى دستورها ، ويبايع رئيس الدولة على أساسه .

ثالثا : أن تكون التشريعات السائدة فى الدولة مطابقة كل المطابقة لنصوص التشريع الإسلامى فى كافة نواحيه .

رابعا : أن يكون عمال الدولة ، على بكرة أبيهم ، ممثلين صادقين للروح الإسلامية ضمانا للانسجام التام بين القانون فى ذاته والقائمين على تنفيذه .

هذه هى القواعد التى تقوم عليها الدولة الإسلامية المثالية . ولنا أن نتساءل : أين نحن ، لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم الإسـلامى بأجمعه ، من هذه الدولة المثالية ؟

نزل الوحى على نبى الإسلام ، صلوات الله وسلامه عليه ، فأسس على مبادئه دولة إسـلامية مثالية . ثم جاء من بعده الخلفاء الراشدون فنهجوا نهجه فى سياسة الأمة الإسلامية ، ثم دالت دولة الخلفاء الراشدين ، وجاءت من بعدها الدولة الأموية ، فالتزمت هذه الحـدود ما استطاعت ، ولـكن غلبها على أمرها أمور نفسية ، منها العصبية العربية ، ومنها حب الخلفاء توريث الملك لأبنائهم وأخذ البيعة لهم فى حياتهم ، فترنح عرش الخلفاء ما بين خليفة يرى صلاح دينه خيراً من صلاح دنياه ، وآخر يرى

تثبيت دعائم هذا الملك الدنيوى له ولأولاده من بعده ، فبعد بأساليب الحكم عن الروح المثالية للاسلام .

ثم اتسعت الفتوحات الإسلامية ، وعين الخلفاء الولاة على الأقاليم . فكانوا يصيبون فى تعيين الأكفاء مرة ، ويخطئون مرة ، فابتليت الأمصار بولاة لا يلتزمون حدود الدولة الإسلامية المثالية ، فاختلفت مقادير الأمور .

ثم جاءت الدولة العباسية ، فتية متحمسة للمثالية الإسلامية فى عصرها الزاهر ، ولكنها لم تلبث أن لعبت بها يد الأقدار فتوالى على عرش الخلافة خلفاء آثر الكثير منهم عرض الدنيا على ثواب الآخرة ، فاختلت الموازين ، وتطرق الفساد إلى الإدارة الإسلامية ، فابتليت بالانقسام الذى يسمونه فى التاريخ الإسلامى بالنزعات الإستقلالية .

ظهرت الدويلات ، ونافس بعضها بعضاً ، ونازل بعضها بعضاً ، ودبت الشحناء بين دول إسلامية فى جوهرها ، فحارب المسلمون بعضهم بعضاً .

ثم ظهرت خلافة إسلامية جديدة ، تنافس الخلافة الإسلامية القائمة فكان العباسيون يحكمون فى آسيا ، والفاطميون يحكمون فى أفريقية ، وصار ولاء الدويلات للخليفة محل مفاضله ، ومزايدة ومناقصة ، بين خليفة العباسيين وخليفة الفاطميين . وبذلك اتسعت الهوة بين المثالية والواقعية فى الإسلام .

وما زال أمر الدولة الإسلامية فى مهب الريح حتى ظهر الأتراك العثمانيون ، وفتحت عليهم الجزيرة العربية والشمال الأفريقى . وساسوا أمور هذ العالم الإسلامى على نهج أن اتفق مع الدين الإسلامى فى مظهره فقد كان بعيداً عنه فى مخبره .

ثم قامت النهضة الأوربية الحديثة ، وجاء فى كنفها الاستعمار الأوربى الناهض للشرق الإسلامى الراكد . فولى الأمر فى الدول الاسلامية أقوام لا يأبهون للاسلام ، لا بل يناصبونه العداء ، وتخاذل المسلمون واستخذوا للاستعمار الأوربى المسيحى ، وحسن لهم اقتباس المدنية الغربية والأخذ بأساليب الحكم الأوربى ، وإذا بالعالم الاسلامى بأكمله يخضع مستخذياً لقواعد وقوانين تبعده عن المثالية الإسلامية بعد السماء عن الأرض . وظهر من بين أبناء المسلمين قوم يتحمسون للتشريع الغربى المسيحى ، ولا يأبهون للتشريع الإسلامى ، لا تفضيلا لتشريع على آخر ، بل علماً بتشريع وجهلا بآخر .

وظلت الحال على هذا إلى أن اسفرت السياسة الاستعمارية عما كانت تبطن من عزم أكيد على أفناء القومية الإسلامية . والمثالية الإسلامية التى كانت سبباً فى غزو أوربا فى القرون الغابرة من شرق وغرب .

وعندئذ تنبه الوعى القومى الإسلامى عند المسلمين . بعد أن اشتدت عليهم وطأة المستعمرين . وراحوا يفكرون فى الخلاص مما هم فيه من ذل واستعباد . لا من الناحية السياسية فحسب ، بل من الناحيتين الدينية والاقتصادية كذلك .

وتمشت الأمانى السياسية مع الأمانى الدينية والاقتصادية جنباً إلى جنب . وكافح المسلمون عن كيانهم وطرقوا أبواب المؤتمرات السياسية والمنظمات الدولية يطالبون بحقوقهم المغصوبة .

وفى خلال ذلك ، ظهرت فى العالم الإسلامى نهضة دينية منطقها أن المسلمين ما انحدروا إلى الهوة التى انحدروا اليها إلا بابتعادهم عن تعاليم دينهم وأن فى هذا الدين من المزايا ما يكفل لأصحابه الغلبة على كل عائق ، وتذليل كل صعب وقهر كل مجالد .

الشرق والغرب

في مصطلح التاريخ

ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية ، ثم امتدت الفتوحات الإسلامية فشملت كثيراً من الأقطار يقع بعضها فى شرق الجزيرة العربية ، وبعضها الآخر فى غربها . وقد اصطلح المسلمون على تسمية البلاد الواقعة فى شرق الجزيرة بالمشرق ، قربت هذه البلاد من دار الخلافة أم بعدت . أما البلاد الواقعة فى غربها ، أى فى الشمال الأفريقى ، فقد تعارفوا ، على تسميتها بالمغرب ، وقسموه إلى قسمين : مغرب ، ومغرب أقصى . وكان المغرب يشمل البلاد التى تلى مصر على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وهى ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، أما مراكش فقد أسموها بالمغرب الأقصى نظراً لوقوعها فى أقصى الغرب من الساحل الأفريقى الذى فتحه المسلمون .

أما فى نظر الكتاب والمؤرخين والسياسيين الأوربيين ، فان الشرق يبتدىء من مملكة ليبيا (التى كانت تعتبر فى نظر المؤرخين العرب من بلاد الغرب) ويمتد حتى يصل إلى حدود آسيا الشرقية المشرفة على المحيط الهادى . وقد قسموه إلى أقسام ثلاثة : أدنى ، وأوسط ، وأقصى ؛ فليبيا ومصر وجزيرة العرب والشام تعتبر كلها فى نظرهم شرقا أدنى ؛ والعراق وإيران وأفغانستان والهند تعتبر شرقا أوسط ، ثم يطلق اسم الشرق الأقصى على ما بعد ذلك شرقا فيشمل الهند الصينية وجزر الهند والصين واليابان .

ولأمر ما ، حدث فى أوائل الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ أن قسموا الشرق إلى قسمين اثنين : أوسط وأقصى ، ولم نعد نسمع عن الشرق

الأدنى ، وجعلوا الشرق الأوسط يبتدىء حيث كان الشرق الأدنى يبتدىء وينتهى بإيران حيث يبتدىء الشرق الأقصى فيشمل الباكستان والهند وما بعدهما إلى اليابان . ولسنا نعلم لهذا التغيير فى التسمية تعليلا ، اللهم إلا أن تكون الضرورات الحربية عند الحلفاء (الدول الديمقراطية) قد اقتضت أن يكون لهم فى الشرق قيادتان بدلا من قيادات ثلاث . فقسموا الشرق عسكريا هذا التقسيم ثم غلبت هذه التسمية .

وقد يكون من محض الصدفة أن الأقطار التى أطلق عليها اسم الشرق الأوسط كلها أقطار عربية ، فيما عدا إيران . وأن الشرق الأقصى أصبح يضم البلاد التى لا تتكلم اللغة العربية .

أما ما كان يسميه العرب بالمغرب والمغرب الأقصى ، فقد أطلق عليه الأوربيون اسم الشمال الأفريقى ، وهو لا يشمل ، بطبيعة الحال ، مصر ولو أنها تقع على الساحل الشمالى لهذه القارة شأنها شأن بقية الدول التى يسمونها بالشمال الأفريقى .

أما مملكة ليبيا فهى متأرجحة ، فى تعبيرهم ، بين الشمال الأفريقى والشرق الأوسط .

* * *

ولا يفوتنا ، فى هذا المقام ، أن نذكر أن اليقظة الحديثة فى البلاد التى استهدفت فى الماضى للاستعمار الأوربى قد أوجبت أن تتكتل الدول الشرقية وأن تنهج فيما بينها نهجاً جماعيا أطلق عليه اسم « السياسة الشرقية » ولكن هذه التسمية قد تجاوزت المعنى الجغرافى لها فصارت السياسة الشرقية تشمل الشمال الأفريقى على الرغم من أنه ليس من بلاد الشرق . والسبب فى هذا التجاوز فى التعبير أن هذا الشمال الأفريقى تجمعه بالشرق

وخاصة الشرق الأوسط ، وحدة الدين واللغة ، كما أن الأهداف مشتركة بين الشمال الأفريقى والشرق ، تلك الأهداف التى تتلخص فى مقاومة المستعمر الأوربى والخلاص من نيره .

أما تركيا ، فهى فى نظر السياسة الأوربية دوله شرقية ، بحكم موقعها الجغرافى بالنسبة للقارة الأوربية ، وهى فى نظر الدول الشرقية اليوم دولة لا هى بالشرقيـة ولا بالغربية فهى لا تعتبر دولة شرقيـة فى نظر الدول الشرقية لأنها رسمت لنفسها سياسة لا يمكن أن يقال أنها شرقيـة . ولا تعتبر دولة غربية لأنها لم تنسجم مع دول الغرب تمام الانسجام فى سياستها ، فقد اشتركت فى يوم من الأيام فى ميثاق سعد آباد وهو ميثاق شرقى ، ثم عادت فاشتركت مع دول الغرب فى حلف الأطلنطى وهو حلف غربى ، وأصبحت تدور فى فلك الدول الأوربية الغربية ، أو بعبارة أدق ، فى فلك الدول الديمقراطية .

ومادمنا بصدد الحديث عن الشرق والغرب ، فأنه يجدر بنا أن نشير إلى ما يعنيه هذان المصطلحان فى القارة الأوربية نفسها .

ففى حوض البحر الأبيض ، عندما ظهرت المسيحية ، كانت الدولة الرومانية قد سلخت من حياتها خمسة قرون كانت خلالها سيدة البحر الأبيض المتوسط غير منازعة ، وكان الرومان سادة الشعوب التى تسكن هذا الحوض ، فلما ظهرت الدعوة المسيحية بما تنطوى عليه من مساواة بين الناس ، اعتبرها أباطرة الرومان دعوة مهددة لكيانهم ، إذ أنها تقوم على المساواة بين الناس ، وهو مالا يرضاه الرجل الرومانى العادى بله الامبراطور .

لذلك انبرت الدولة الرومانيـة لمحاربة المسيحية حربا لا هوادة فيها ولكن عجلة الزمن دارت ، واعترف الأمبراطور قسطنطين بالمسيحية فى

سنة ٣٢٤ م . وبعد ذلك بست سـنوات . أسس الأمبراطور مدينة القسطنطينية ، مكان بيزنطة القديمة ، وجعلها عاصمة للملك يستطيع منها أن يدبر مكافحة التقدم الفارسى فى آسيا ، وأن يصد غارات القبائل المتبربرة .

ومنذ ذلك الحين ، انقسمت الدولة الرومانية إلى قسمين : غربية وشرقية . ففى الغرب سادت اللغة والثقافة اللاتينيتان وتركزت السلطات فى روما ، وفى الشرق سادت اللغة والثقافة اليونانيتان وتركزت السلطات فى القسطنطينية .

ولما انهارت الدولة الرومانية الغربيـة على يد (ادواكر) زعيم المتبربرين فى سنة ٤٧٦ م ، عزلت الدولة الشرقية ، وظلت فى عزلتها حتى كانت أيام الأمبراطور جوستنيان (٥١٧ — ٥٦٥) فاعتزم أن يعيد للدولة وحدتها ، فقام قائده بليساريوس باحتلال الشمال الأفريقى سنة ٥٣٣ ، ثم عبر بجيوشه إلى جزيرة صقلية فاحتلها . ثم نزل بجنوب إيطاليا واحتل نابلى وروما ، وعادت إيطاليا إلى حظيرة الدولة الرومانية الشرقية .

أما أوربا نفسها ، فقد عرفت القسمة إلى شرق وغرب ، فكان المؤرخون الأوربيون يطلقون لفظ الشرق على كل ماوقع شرقى الخط ١٥ من خطوط الطول الذى يقطع ألمانيا الحالية نصفين ، كما يطلقون لفظ الغرب على كل ما وقع غربى هذا الخط .

ثم جاءت العصور الحديثة ، فانقسمت أوربا إلى معسكرات ثلاث ، لأسباب اجتماعية وعسكرية . ذلك أن المبادئ الديمقراطية تركزت فى الدول الواقعة على المحيط الأطلنطى ، وتركزت المبادئ الشيوعية فى روسيا فى شرق القارة ، وفيما بين الديموقراطية فى الغرب ، والشيوعية فى الشرق . ظهرت المبادئ الاشتراكية فى ألمانيا . ومنها تسربت إلى إيطاليا ، فانقسمت بذلك القارة إلى معسكرات ثلاث : شرق وأوسط

وغربى، فكان الشرق يشمل روسيا والدول التى تدور فى فلكها ، ويشمل الوسط دولتى ألمانيا وإيطاليا وكان يسمى بمحور روما ـ برلين ، والغرب ويشمل فرنسا وبلجيكا وهولندة والجزر البريطانية .

ومما تجدر بنا ملاحظته أن أسبانيا ، وهى من الدول الواقعة على المحيط الأطلنطى ، وكان المنطق يقتضى أن تكون من دول الغرب ، اتخذت الاشتراكية شعاراً لها ، فكانت بذلك أقرب إلى محور روما ـ برلين منها إلى دول الغرب .

ولما انتهت الحرب الأوربية الثانية بانهزام ألمانيا وإيطاليا ، أى بانكسار محور روما ـ برلين ، عادت أوربا إلى الانقسام إلى معسكرين اثنين يفصلهما خط الطول ١٥ شرقا فأصبحت ألمانيا الشرقية تدور فى فلك الشيوعية ، وتدور ألمانيا الغربية فى فلك الديموقراطية وانحازت إيطاليا إلى المعسكر الديموقراطى . أما أسبانيا فلا تزال على ما كانت عليه من الاشتراكية ، الحزب المتسلط على مقاديرها هو الحزب الاشتراكى المسمى بالفالانج .

الفصل الثانى

دعاة الإصلاح

بينما كانت الدول الإسلامية فى العصر الحديث ترى الأخذ بأساليب الغرب فى التشريع والإدارة ، إذ بها تفيق من سباتها على ضوء جديد من المعرفة يؤكد أن فى التشريع الإسلامى ، وأساليب الإدارة الإسلامية ، غناء عن ذلك البرق الخلب الذى جاء به المستعمرون .

ظهرت هذه اليقظة فى الشرق لإاسلامى على أيدى مجموعة من كبار رجال الفكر المسلمين المخلصين .

يقول الأستاذ أحمد أمين فى مقدمة كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث :

بدأت أوربة تستيقظ منذ الحروب الصليبية ، وتنشىء لها حضارة جديدة ، مؤسسة على العلم والحرية ، وتتقدم فى الصناعة ، ويتدفق عليها المال من اكتشافها أمريكا وغيرها ، وتخترع وترتقى فى النظم الحربية على أساليب جديدة ، وتنشىء الأساطيل الضخمة ، حتى إذا شعرت بقوتها هجمت على الشرق بآلاتها وأسلحتها واختراعاتها ، فتساقطت أقطاره فى يدها ، وكانت إذا دخلت قطراً ضغطت عليه بكل قوتها ، واستغلته لمصلحتها ، وأجرت فيه الأمور على هواها ، فكان من جراء هذا الضغط أن أخذ وعى الشرق يستيقظ ، وطموحه يتوثب ؛ وكان من طبيعة هذا أن يتقدم الصفوف زعماء للاصلاح ، يشعرون بآلام شعوبهم أكثر مما تشعر ، ويدركون الأخطار المحيطة بهم أكثر مما تدرك ، ويفكرون التفكير العميق

فى أسباب الداء ووصف الدواء ، وكل مصلح ينظر إلى المرض من زاويته ، ويدعو الى مداواته حسب خطته . فكان من ذلك مصلحون مختلفون ودعوا إلى الإصلاح فى أقطارهم على حسب بيئتهم وثقافتهم ومزاجهم . وكل قد أبلى بلاء حسناً . ولاقى من العناء مالا يتحمله إلا أولو العزم ، فنهم من شرد ، ومنهم من قتل ، ومنهم من رمى بالخيانة العظمى ، فمن نادى بالمساواة فى العدل بين الرعية من غير نظر إلى جنس أو دين اتهم بمحاربة المسلمين ، ومن نادى بتنظيم الجيش على الأساليب الحديثة اتهم بالتفرنج والخروج على التقاليد ، ومن نادى بتأسيس مجلس شورى اتهم بمحاربة السلطان والحض على الثورة والعبث بالنظام ، ومن نادى بإصلاح العقيدة والرجوع بها إلى أصل الدين اتهم بالإلحاد ، وهكذا ، وهم على هذا صابرون ومجاهدون ، أحبوا مبدأهم فى الإصلاح أكثر مما أحبوا الحياة ، ولم يعبأوا بالعذاب يحيق بهم فى سبيل تحقيق فكرتهم ، وظلت آراؤهم تعمل عملها فى حياتهم وبعد موتهم حتى تحقق إصلاحهم ونفذت أفكارهم ، وتقـــدم الشرق على أيديهم خطوات تستحق الإعجاب .

وكم كنا نود أن نترجم لهم فى إسهاب . أحياء لسيرتهم ، ووفاء لحقهم علينا فى النهضة التى تكتنف العالم الإسلامى اليوم ، ولكنا سنضطر إلى الايجاز فى الحديث عنهم .

ذلك أن أستاذنا أحمد أمين قد ترجم لهم فى إسهاب ، ووفاهم حقهم بما لم يبق معه زيادة لمستزيد ، وكتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » مرجع أصيل فى هذا الباب .

كما أن صديقنا وزميلنا الدكتور محمد ماضى قد أرخ للحركة الوهابية فوفاها حقها فى كتابه « النهضات الحديثة فى جزيرة العرب » .

أما فى هذا الكتاب فسنقتصر على التاريخ لنواحى نشاط هؤلاء الزعماء فى إيقاظ العالم الإسلامى من سباته ، دون أن نتعرض لسيرتهم بالتفصيل .

١ — محمد بن عبد الوهاب الوهابية

كان محمد بن عبد الوهاب أول من فكر فى عيوب المجتمع الإسلامى الذى عاش فيه (القرن الثامن عشر الميلادى) . إذ كان يرى أن ضعف المسلمين وتخاذلهم لا مبعث له إلا خروج المسلمين المحدثين عن تعاليم دينهم القويم ، وأنهم ، بعد أن كانوا يعبدون الله الواحد القهار عبادة مباشرة صاروا يتقربون اليه بالأولياء ، وأنهم آمنوا بأصحاب السلطان فى الدنيا أكثر مما يؤمنون بالله عز وجل وأنه « لا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله » .

وكان يرى أن الهوة السحيقة التى تردى فيها المسلمون لا نجاة منها إلا بطرح البدع والخرافات .

يقول الأستاذ أحمد أمين :

« لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ولم يتجه فى إصلاحه إلى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد على ، وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها والروح وحدها ، وعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب ، إن صلحا صلح كل شىء ، وأن فسدا فسد كل شىء ، وطبيعى أن يكون هذا هو الفرق بين رئيس الدين فى نجد ، ورئيس الحكم فى مصر . . .

لقد بدأ محمد بن عبد الوهاب يدعو دعوته فى لين ورفق بين قومه ،

ثم أخذ يرسل الدعوة لأمراء الحجاز والعلماء فى الأقطار الأخرى ، حاثا لهم على إستنهاض الهمم فى مكافحة البــدع ، والرجوع إلى الإسلام الصحيح .....

وقد اقترنت دعوة محمد بن عبد الوهاب الكلامية ، بقوة مادية تسندها وتشد أزرها . ذلك أنه عرض دعوته على محمد بن سعود أمير نجد فقبلها وتعاهدا على نشر الدعوة فى كافة أنحاء الجزيرة العربية ، باللسان عند من يقبلها ، وبالسيف عند من لم يقبلها .

على أن الدعوة الوهابية ، خارج الجزيرة العربية ، لم تحظ بما قدر لها من نجاح ، ولم تتمتع بطيب السمعة . وفى ذلك يقول الأستاذ أحمد أمين :

إن الدعاية التى أحكمت ضدها ، وتعلق الناس بالدولة العثمانية ، وميلهم الشديد أن تظل بلادها وحدة لا ينفصل عنها جزء ، جعلت عامة المسلمين فى أقطار العالم الإسلامى يفرحون بهزيمة الوهابية (على يد محمد على الذى كلفه السلطان بمحاربتها) ولم يفهموا جوهر دعوتها . وشىء آخر كان كبير الأثر فى تنفير عامة المسلمين من هذه الحركة ، وهو أنها حيث استولت على بلد نفذت تعاليمها بالقوة ، ولم تنتظر حتى يؤمن الناس بدعوتها ؛ فلما دخلوا مكة هدموا كثيراً من القباب الأثرية ، ولما دخلوا المدينة رفعوا بعض الحلى والزينة التى كانت على قبر الرسول ، فهذه كلها أثارت غضب كثير من الناس وجرحت عواطفهم ، فمنهم من حزن على ضياع معالم التاريخ ، ومنهم من حزن على الفن الإسلامى ، ومنهم من حزن لأن مقبرة الرسول صلى الله عليه وسلم وفخامتها مظهر للعاطفية الإسلامية وقوة الدولة ، وهكذا اختلفت الأسباب واشتركوا فى الغضب .

* * *

وقد انتشرت الدعوة الوهابية خارج الجزيرة العربية وفى ذلك يقول الدكتور محمد ماضى فى كتابه « النهضات الحديثة فى الجزيرة العربية » :

إن استيلاء السعوديين على الحجاز ودخولهم مكة والمدينة فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى ، أعطى الفرصة لسائر الحجاج من مختلف البلاد الإسلامية ليتعرفوا المذهب الوهابى ، ويلتقوا بدعاته ويناقشوهم فيما يدعون إليه ، وكان من نتائج هذا أن اعتنق بعض الحجاج المبادىء الوهابية وتعصبوا لها ، ثم حملوها معهم ودعوا إليها فى بلادهم بعد رجوعهم إليها ، فانتقلت هذه المبادىء الإصلاحية إلى السودان فى أفريقية ، وإلى الهند وسومطرة فى آسيا ، وكان هدف دعاتها فى كل مكان تحل به هو محاربة الفساد والقضاء على البدع والخرافات وتصحيح العقيدة الدينية ، ثم محاولة إقامة حكومة صالحة على أساس دينى لتنفيذ الأحكام وأقامة الحدود . فقامت الثورات على يد الدعاة الوهابيين ضد الأوضاع السائدة فى البلاد التى غزتها الدعوة ، وظهرت نهضات الإصلاح الدينى السياسى الاجتماعى ، ورأينا ما حدث فى جزيرة العرب يحدث مثله فى السودان والهند وسومطرة ، ولكن فى صورة مصغرة .

* * *

أما فى السودان فقد كان الداعية الوهابى هو الشيخ عثمان دانفوديو ، أحد أفراد قبيلة الفولا ، وهى من قبائل الرعاة السودانية : فأنه بعد التقائه بالوهابيين فى موسم الحج ، وبعد اعتناقه للمبادىء الوهابية ، عاد إلى بلاده وأخذ يحارب البدع الشائعة بين عشيرته ، وينشر تعاليم الدين الصحيحة ، ويذيع مبادىء ابن عبد الوهاب فاستطاع أولا أن يجمع قبيلته فى وحدة متماسكة مرتبطة برباط الدين المتين ، بعد أن كانت منقسمة إلى عدة وحدات ضعيفة متخاذلة . وبعد ذلك ابتدأ حروبه فى سنة

١٨٠٢ ضد قبائل الحاوسة الوثنية ، وقضى على مملكة جبير على مجرى نهر النيجر ، ولم تأت سنة ١٨٠٤ حتى أقام مملكة سوكوتو فى السودان على أساس من الدعوة الوهابيه ، ومدت رواقها على جميع الأقطار الواقعة بين تمبكتو وبحيرة شاد ، وبقيت محافظة على استقلالها نحو قرن حتى استطاع الاستعمار الأوربى القضاء على ما كان لها من استقلال ووحدة .

وقد بلغت مساحة هذه المملكة أربعمائة ألف كيلو متر مربع وبلغ عدد سكانها عشرة ملايين . وهؤلاء . وأن كانوا قد فقدوا استقلالهم وغلبهم على أمرهم المستعمر الأوربى بما له من قوة وعدة ، فهم قد كسبوا الإسلام ولا زالوا يتحلون بفضائله ويتمسكوا بمبادئه إلى ما شاء الله .

* * *

كذلك غزت الدعوة الوهابية بعض المقاطعات الهندية بواسطة أحد الحجاج الهنود ، وهو سيد أحمد ، وكان هذا الرجل من أمراء الهند ، وذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج بعد أن اعتنق الإسلام سنة ١٨١٦ فلما التقى بالوهابيين فى مكة ، اقتنع بصحة ما يدعون إليه ، وأصبح من دعاة المذهب الذين تملكهم الإيمان وسيطرت عليهم العقيدة ، ولما عاد سنة ١٨٢٠ إلى وطنه فى الهند بجهة البنغال ، وجد ميدانا صالحا للدعوة بين سكان المنطقة من الهنود المسلمين الذين اختلطت عقائدهم وتقاليدهم الدينية بالكثير من عقائد الهندوس وعوائدهم ... وبعد مرحلة من الجهاد استطاع هؤلاء المسلمون الوهابيون أن يقيموا دولة إسلامية على أساس من المبادىء الوهابية بجهة البنجاب تحت حكم الداعية سيد أحمد ، ولم تلبث هذه الدعوة طويلا حتى قضى عليها الاستعمار البريطانى فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر .

ولكن الدعوة الوهابية ظلت قائمة هناك على يد خلفاء سيد أحمد من

بعده ولم يستطع المستعمرون أن ينالوا منها . ولا يزال الكثيرون من أهل هذه المناطق يدينون بالإسلام على المذهب الوهابى ، وإن كانوا قد انقسموا إلى عدة فرق متأثرين بالبيئة الهندية ، وأكثر الفرق الوهابية الهندية عددا ، وأقواهم شأنا الآن ، هى فرقة الفارازى ..

هذا ما كتبه الدكتور محمد ماضى ورجع فيه إلى كتاب All-Islam غير أن الأستاذ كانتول سميث ، وهو من المعنيين بالشئون التاريخية الإسلامية فى الهند ، يذهب فى كتابه « الإسلام الحديث فى الهند » إلى أن الدعوة الوهابية لم تلق النجاح الكافى فى الهند ، لأن عامة معتنق هذا المذهب كانوا من عامة الناس ، بينما كانت الطبقات الإسلامية المثقفة تميل ميلا آخر ، يذهب إلى إصلاح الشئون الإسلامية ، ولكن على غير غرار الحركة الوهابية . ويقرر الأستاذ سميث أن النجاح الذى لقيته الدعوة الوهابية كانت تسنده أسباب اجتماعية وسياسية ، أهمها أن البريطانيين كانوا قد بدأوا يستوردون الآلات الصناعية من بلادهم وينشئون المصانع الآلية وبذلك كثرت الأيدى المتعطلة فى البنجاب ، فوجد هؤلاء المتعطلون ، أو المهددون بالتعطل . الفرصة سانحة للانضمام إلى هذه الدعوة الجديدة . لعل فيها القضاء على ما يهدد كيانهم ؛ أما من الناحية السياسية فقد كانت الدعوة تهدف إلى أن يكون الدين الإسلامى مقياس التعامل فى البيئة الإسلامية . وهو ما لا يرضى به البريطانيون المستعمرون . فاتجهت الدعوة الوهابية إلى مجابهة البريطانيين بالعداء ، فكان ذلك حجر الزاوية فى ثورة ١٨٥٧

* * *

وقد وصلت الدعوة الوهابية إلى سومطرة ، وفى ذلك يقول الدكتور محمد ماضى :

وفى سومطرة ابتدأت الدعوة الوهابية سنة ١٨٠٣ على يد أحد الحجاج من أهل الجزيرة ، وكان قد عاد من الحج فى نفس السنة بعد أن التقى بالوهابيين واقتنع بصحة ما يدعون إليه ، فلما عاد إلى وطنه ابتدأ الدعوة ، ثم تطورت الحركة إلى حروب طاحنة بين المسلمين الوهابيين الذين أصبحوا قوة كبيرة فى سومطرة ، وبين غير المسلمين من السكان الأصليين ، حتى رأت حكومة الاستعمار الهولندية سنة ١٨٢١ أن تناهض هذه الحركة القوية محافظة على كيانها ونفوذها هناك . واستمرت المناوشات والحروب بين المستعمرين الهولنديين ، وبين السومطريين الوهابيين ، ما لا يقل عن ستة عشر عاما، ثم انتهت بتغلب قوى الاستعمار على القائمين بالحركة الوهابية .

* * *

كذلك الحركة السنوسية التى ابتدأت فى الجزائر فى أواسط القرن التاسع عشر ، ثم غزت طرابلس بعد ذلك وانتشرت فى شمالى أفريقية ، ثم مدت رواقها نحو الجنوب ، فتمكنت فى السودان ، هذه الحركة السنوسية التى ناهضت الاستعمار فى كل مكان حلت فيه . والتى كانت ولا تزال مدرسة تربية وتهذيب للشعب السنوسى ، قد تأثرت بالدعوة الوهابية فى أساسها . فالسيد على السنوسى ، مؤسس الحركة السنوسية ، كان فى مكة يطلب العلم وقت استيلاء الوهابيين عليها ، فعاشرهم وتتلمذ على علمائهم وتأثر بمذهبهم ، ثم عاد إلى الجزائر وابتدأ حركته الإصلاحية على ضوء تعاليم الإصلاح الدينية الإسلامية التى أضرم نارها فى الجزيرة العربية محمد بن عبد الوهاب .

٢ — محمد على الكبير

اختلف الناس فى تقدير محمد على من الناحية الإسلامية ؛ فقال البعض أنه كان رجلا طموحا لا هم له إلا أن يصل إلى قمة العظمة الدنيوية من ملك وجاه ، ولو كان ذلك على حساب الدولة العثمانية دولة الخلافة ، كما قالوا أن العاطفة الإسلامية لم تتمكن من قلبه ، ويستدلون على ذلك بحربه للوهابيين ، تلك الحرب التى جاوز فيها الحدود التى رسمت له من الباب العالى . وفى رأينا أن من قالوا بذلك لم يفهموا محمداً علياً كما يجب أن يفهم .

أما الفريق الآخر ، فيرى أنه كان من زعماء الإصلاح وأعلام الإسلام . وفى مقدمة المؤرخين الذين وفوا محمداً علياً حقه على التاريخ الأستاذ شفيق غربال ، يقول فى كتابه « محمد على الكبير » وهو حلقة من سلسلة « أعلام الإسلام » .

« اختلفت المشكلات التى واجهت أعلام الإسلام ، سواء أكانوا من رجال الفكر أو من رجال العمل ، باختلاف عصورهم وبيئاتهم ، باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم ، كما اختلفت المشكلات أيضاً باختلافها فى الخطورة أو فى التعقيد ، فى كونها إسلامية عمومية أو إسلامية خصوصية . وكانت المشكلة التى واجهها محمد على من أعظم ما واجه أى علم من هؤلاء الأعلام ، تطلبت منه البت فى أمور خطيرة : على أى القواعد يقيم مجتمعه ؟ أعلى القواعد التقليدية ، أم على القواعد التى يشير تقدم المجتمع الغربى وقوته باتخاذها ؟ وبأى مقياس يقيس عند الاختيار بين الأمرين أبمجرد المنفعة البحتة ؟ أو بملاحظة القرب أو البعد عن التفكير الإسلامى الجديد أو القديم ؟ إنا نعلم أن « الحلال بين ، والحرام بين » قاعدة عملية جيدة ، ولكنها لا تحل كل التمييز بين أنواع الحلال — كما أن المشكلة

تطلبت منه أن يبت فى تحديد خطته نحو مكان أهل الذمة فى مجتمعه هذا . وفى تحديد علاقته بالمعاهدين . وأخيرا كان لابد من أن يصل إلى البت فى آخر الأمر : أى مكان يشغل فى العالم العثمانى ؟

ولنبدأ بحثنا من آخر ما وصلنا اليه . ولنثبت ما نراه فيه بلا لبس : إن محمدا عليا بدأ وعاش وانتهى عثمانيا مسلما . وأن مهمته كما حددها من أول الأمر إلى آخره كانت إحياء القوة العثمانية فى ثوب جديد . وهو فى موقفه هذا شبيه كل الشبه بصلاح الدين وأمثاله من الأعلام الذين حاولوا أن يحيوا قسما أو عالما من الأقسام أو العوالم التى تتكون منها دار الإسلام . ولكنه يختلف عنه وعنهم فى أمر مهم . هم قاموا بالإحياء أو حاولوه لغرض غير غرضه . كان غرضهم مواصلة الجهاد ضد دار الحرب . أما هو فقد تلاشت عنده فكرة دار الحرب هذه . ورمى إلى أن يجد مكانا لعالمه العثمانى الحى فى الدنيا الجديدة التى خلفها الانقلاب الاقتصادى . فوصل بين أجزائها ، وصيرها وحدة حقيقية ، على الرغم من المنافسات القومية .

لقد مرت علاقات محمد على بالحكومة المركزية فى العالم العثمانى فى أدوار متباينة ، ولا يهمنا الآن بيان تلك الأدوار ، ولكن يهمنا الآن أن نقول أن تباين أدوارها لا يضعف شيئا مما ذهبنا إليه من سعيه المتواصل لأن يحى بيديه القوة العثمانية — ولم يهتم فى دور ما من أدوار حياته بما يجب أن يكون عليه مركزه الرسمى ، أيكون سلطان الدولة أو وصيا أو قيما أو وكيلا ؟ لا . لم يهتم إلا بشىء واحد ، أيستطيع أن يقوم بعمله أو لا يستطيع ؟ ولم يطالب الا بشىء واحد : أن يتمكن من تحقيق غرضه دون اهتمام بالألقاب والمظاهر .

وللمصرى أن يسأل : وما قدر مصر فى تفكيره وغاياته ؟ والجواب

على ذلك أن قدرها فى عينه عظيم عظم المشروع كله ، هى القلب من الجسم الحى الذى يروم أن يرى ، وأبناؤها أعوانه فى البناء الكبير ، نالت من حبه ونالوا من حبه القدر الأكبر ، وواصل العمل آناء الليل وأطراف النهار فى تفهم حاجياتها وتلبية نداء تاريخها ومقتضيات موقعها ، ولكنه رفض أن يتخذ منها عالماً صغيراً ضيقاً محدود الآفاق ضعيف الآمال ، أو أن يكون معول الهدم فى العالم العثمانى حتى ولو كان الهدم اسمه الاستقلال ، والباعث له اسمه العصبية القومية . وكان خير من يعلم أن انفصام الوحدة العثمانية معناه تشتت قوتها وأجزائها ، ووقوع الأجزاء جزءاً جزءاً فى حكم الدول الغربية ، وكان التعصب بكل أشكاله أكره الأشياء اليه .

وقد حدد محمد على ميدان عمله بالعالم العثمانى ، ولم يلق نظره إلى ماوراء ذلك العالم من دار الإسلام إلا فى حدود العاطفة ، وما يقتضيه وقوع الحرمين فى نطاق حكمه من تيسير أداء فريضة الحج وإدرار الخير على فقراء المسلمين . وأمره فى هذا أمر أعلام الإسلام كلهم منذ القرن الأول تقريباً ، قبلوا الواقع وعملوا فى حدوده ، ومن يدرى ما كان يحدث لو امتد الزمن لمحمد على لتحقيق إحياء العالم العثمانى على الوجه الذى تصوره ؟ إننا نستطيع أن نوقن على الأقل بأن ذلك العقل المتوقد ، والنفس التى تأبى إلا الكرامة ، كان لا بد لها عندئذ من تدبير الوسائل لخدمة الإسلام والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، لا على أساس وحدة الملك (فقد أصبح مستحيلا) ولكن على الأساس الذى أجاد الأستاذ الشيخ محمد عبده فى إجماله ، أن يكون سلطانهم جميعاً القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه ، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه ، هذا قول الحق فيما ذاع عن مشروعات إحياء الخلافة وما يتصل بها .

أما الحديث فى وسائل إحياء العالم العثمانى فهو فى حيز آخر ، حيز

المتجسم البارز الواضح المعالم ... إنها اصطناع قوة الحديد والعلم والمال ، يتخذ منها ماينشىء به قاعدة الارتكاز (كما نسمع فى هذه الأيام) فى مصر وما يتصل بها من المناطق المكملة أو اللازمة لحياتها أو المناطق المجاورة ، ومن هذه القاعدة يكون التأثير فيما ليس تحت يده من أراضى العالم العثمانى ، كما يكون التأثير فى خطط الحكومة السلطانية المركزية نحو الإصلاح والتقدم ، نحو العزة والاستقلال ، نحو المساهمة والمشاركة فى حوادث العالم وحركاته والأخذ والعطاء والتبادل . ويتيح بذلك لأمم العالم العثمانى أساساً لاتحادهم فيه ، ويجعل من ذلك العالم مجتمعاً يستطيع أن يحيا فيه العربى والتركى واليونانى والصقلى حياة العمل والكرامة ، وأن يجد فيه المسلم وغير المسلم النطاق الذى لايمنع اختلاف الدين من العمل فيه ، لمصلحة الجميع .

وقد اهتم — فى ذلك العصر — سلاطين الدولة العثمانية بدولتهم : سليم ومحمود وعبدالمجيد . ولكن على أى أساس ؟ أعلى الأساس المحمدى العلوى ، اصطناع قوة الحديد والمال والعلم ؟ لم يحاولوا إلا اصطناع قوة الحديد ، إنشاء القوة العسكرية المدربة على النمط الأوربى ، وإقامة الحكم المطلق ، بسحق عوامل الانفصال . أما تنمية الموارد ، فسبيلها خطة منح الماليين الأجانب هذا الامتياز ، وذلك باستغلال منجم أو إدارة مرفأ أو سكة حديدية أو بريد . وهذه أغلال يغل بها السلاطين أيديهم وأيدى رعاياهم . وبالجملة ، لم يجد السلاطين حلا لمشكلة دولتهم الأساسية ، وهى تحويلها إلى مجتمع تتضافر فيه الأمم على تحقيق غايات مشتركة وتعاون — حرة مختارة راغبة — على البأساء والنعماء . وهذا يفسر موقف السلاطين من خطة محمد على : استغلال الرجل ما أمكن ، والكيد له ما أمكن ، ثم المحاولة الصريحة لسحقه . ولم يتم لهم سحقه ، ولكن تم لهم إفساد مشروعه ، وسارت الدولة نحو ماقدره لها محمد على : الانحلال التام . وتفرقت كلمة هذا العالم العثمانى إلى مانراه اليوم .

السيد جمال الدين الأفغانى

لانستطيع أن نعدد نواحى النهضة الفكرية فى العالم الإسلامى دون أن نسجل فى هذا المقام جهود رجل من جهابذة الفكر فى الإسلام ، ألا وهو السيد جمال الدين الأفغانى .

فبينما كان السلطان عبد الحميد يحكم العالم الإسلامى من الاستانة حكم المستبد الغشوم ، كان جمال الدين يطوف بأنحاء العالم الإسلامى من أفغانستان إلى ايران إلى الهند إلى الحجاز إلى مصر .

واتجه بعد ذلك إلى الاستانة ، فأكرم السلطان عبد الحميد وفادته اكراما بالغا ، ورحب به العلماء وأصحاب المناصب السامية ، وبدأ كعادته يمتزج فى حمية بحياة الدوائر التى فتحت له صدرها ، ولم يضيع فرصة لأعلان آرائه واذاعة تعاليمه ، فما لبث أن علا ذكره وعظم نفوذه ، ويقول المؤرخون أن هذا أحفظ عليه شيخ الإسلام وأثار فى صدره الغيرة والحسد ، فاتهمه باستعمال عبارات منافية للدين ، ماسة بحرمته ، فى المحاضرات التى كان يلقيها فى دار الفنون « الجامعة التركية » ، ولهجت الصحف التركية بهذه التهمة ، وأكثرت من الكتابة فيها ، وأنبرى جمال الدين للرد عليها ، وعظم الأمر حتى طلبت اليه الحكومة التركية مغادرة البلاد تسكينا للخواطر ، فرحل عنها إلى مصر ودخلها فى أواخر مارس سنة ١٨٧١ ، وفى تقديرنا أن الحملة التى دبرت ضد السيد جمال الدين فى الأستانة كانت ترجع إلى عاملين : الأول أن السلطان عبد الحميد لم يكن غافلا عما ستحدثه آراء جمال الدين فى شعب الأستانة الذى يستمع إليه ، فدبر له - على الطريقة الحميدية - مؤامرة لا تظهر يده فيها ، فكانت الحملة عليه من علماء الأستانة وعلى رأسهم شيخ الإسلام ، ومن صحافة الاستانة التى أنساقت وراء حملة العلماء ، أو تقاضت الثمن على ما تكتب .

أما السبب الثانى فهو أن الآراء التى كان جمال الدين يقوم بالدعوة لها كانت من النوع الذى لا تستسيغه رجعية التفكير عند علماء الدين فى ذلك الوقت . فهبوا - فى براءة - ينقدون آراءه ، فانتهزها السلطان فرصة لتزكية نار العداوة بين القديم الذى يتمسك به العلماء ، والجديد الذى يدعو إليه جمال الدين ، فأيد السلطان العلماء ، وربما دفعهم إلى المزيد .

وأيا كانت الحال ، فقد ارتحل جمال الدين عن الاستانة إلى مصر ، فأجرت عليه حكومة رياض باشا معاشا شهريا قدره عشرة جنيهات « تقديرا لفضله وإجلالا لمكانته » ، والتف حوله كثير من طلبة العلم ، فقرأ لهم بعض الكتب العالية فى الكلام والفلسفة وأصول الفقه والهيئة والتصوف ثم وجه عنايته إلى إنشاء جيل من الكتاب الناشئين ليذيعوا فى الناس آراءه الجديدة ، وولى جمال الدين وجهه شطر السياسة المصرية فبذل جهداً منقطع النظير فى تنبيه الأذهان إلى مضار التدخل الأجنبى فى شئونها .

وقد قاوم العلماء المحافظون آراءه الطريفة ، واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته للفلسفة ، التى كانت الدوائر المحافظة تحرم النظر فيها . وتعتبرها عدوة للدين الصحيح .

وأثارت أعماله السياسية شبهات الحكومة فى نواياه ، وكانت النكبة المالية قد انتهت بعزل الخديوى اسماعيل ، وإجلاس الخديوى توفيق على عرش مصر فى سنة ١٨٧٩ . ولم يكد توفيق يعتلى العرش حتى أصدر أمره بأخراج جمال الدين من مصر ، فغادرها إلى الهند ، ونزل فى حيدر آباد ، ومنها انتقل إلى لندن ثم بارحها إلى باريس وأقام بها .

وفى سنة ١٨٨٤ دعا إليه صديقه وتلميذه الأمام الشيخ محمد عبده إلى باريس ، وبدءا معا فى إصدار صحيفة عربية هى « العروة الوثقى » كانت تهدف إلى دعوة المسلمين إلى توحيد جهودهم لمكافحة الاعتداء الأوربى .

ومناهضة الاستعمار ، فمنعتها الحكومة البريطانية من دخول مصر والهند . ومع أن الصحيفة لم يكتب لها البقاء طويلا ، إذ نشر منها ثمانية عشر عددا فقط ، فقد عظم تأثيرها فى العالم الإسلامى أجمع ، ووفقت فى إيقاظ الروح الوطنية فى الأمم الإسلامية .

وزار جمال الدين بعد ذلك لندن وموسكو وبطرسبرج ، حيث طال بقاؤه فى روسيا حوالى أربعة أعوام ، كتب فيها مقالاته الخالدة عن سياسة أفغانستان وإيران وتركيا وبريطانيا ، فكان لها أعمق الأثر فى الدوائر السياسية .

وانتهى به المطاف - بعد جولات موفقة فى ربوع العالم الإسلامى ، إلى الاستقرار بالأستانة سنة ١٨٩٣ ، حيث كان موضع رعايه السلطان عبد الحميد وإكرامه ، إلا أنه كان فى الواقع أسيرا فى قفص من ذهب .

وقد ظل بالأستانة حتى وافته منيته فى ٩ مارس سنة ١٨٩٧ .

ولقد عمت جهود هذا الرجل النابه البلاد الإسلامية بأسرها ، فأفغانستان ، وفارس ، وتركيا ، ومصر ، والهند ، اتصلت به جميعا ، وأحست بأثره القوى الذى هزها هزاً عنيفاً . فهو الذى أوحى بالثورة الفارسية ، التى بدأت بالهياج ضد احتكار التمباك فى سنة ١٨٩١ وانتهت بوضع الدستور فى ٥ أغسطس سنة ١٩٠٦ . وهو الذى أمد بتهييجه المتواصل - عندما كان مقيما فى الأستانة - الحركة التركية الموفقة التى قامت فى سنة ١٩٠٨ . وكان هو الدافع الأول للحركة المصرية الوطنية ، وإن كان ختامها قد ساء بفشل الثورة العرابية . والمتتبع لكثير من أحداث الشرق الإسلامى فى أوائل القرن العشرين . يستطيع أن يستشف أثر السيد جمال الدين الأفغانى وآرائه فى كافة النهضات التى قامت على أيدى تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه .

وكانت الغاية التى يرمى اليها جمال الدين ، والغرض الأول من جهوده التى لم تعرف الكلل . ومن أثارته للنفوس ، ومن تهيجه المتواصل للشعوب. توحيد كلمة الإسلام ، ولم شمل المسلمين فى سائر أقطار الأرض ، فى حوزة دولة واحده تحت ظل الخليفة الأعظم .

وقد آلمه أشد الألم أن يرى الأمم الإسلامية يضعف أمرها وترث قواها ، وكان يعتقد أنها لو نفضت عنها كابوس الاحتلال الأجنبى ، وتحررت من تدخل الدول الأوروبية فى شئونها ، والتزم المسلمون تعاليم دينهم الحنيف ، بعد ايمانهم بأنه يوافق مقتضيات العصر الحديث ، لأصبح المسلمون قادرين على تدبير أمورهم تدبيراً حسنا ، دون أن يعتمدوا على الدول الأوروبية أو يصطنعوا وسائلها .

وكان يرى أن الإسلام ، فى جميع المسائل الجوهرية ، دين عام للعالم أجمع ، قادر تمام القدرة - بما فيه من قوى روحية - على ملاءمة الظروف المتغيره فى كل جيل .

وكان من خاصة مزاجه أن الوسائل التى تخيرها لتحقيق غاياته ، كانت وسائل الثورة السياسية ، فقد كان يؤمن بأنها أسرع الطرق وآكدها فى تحرير الشعوب الإسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شئونها . أما وسائل الإصلاح التدريجى ، فكان يرى أنها بطيئة غاية البطء ، غير محققة العاقبة .

كان يريد أن يرى — قبل موته — تحقيق الأهداف التى كان ينادى بها ويسعى إليها . فكافح لقلب النظم القائمة . وكان يرى جواز خلع الأمراء المسلمين وقتلهم إذا كانوا يشجعون الاعتداء الأجنبى ، أو يرضون عنه ، فيقيمون بذلك الحوائل بين الناس وبين حصولهم على ما يحبون لأوطانهم من عزة ورفعة .

وكانت جهوده فى عقد أواصر الألفة والوحدة بين أهل السنة والشيعة تعتمد على التوفيق الودى والتسامح ، ولهذه النزعة خطرها السياسى فى لم الشمل والقضاء على الفرقة التى قدم عهدها فى العالم الإسلامى .

وخير مانختتم به سيرة السيد جمال الدين الأفغانى أن نقتبس مما كتبه عنه المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق .

« عاش جمال الدين متنقلا فى البلاد منذ طفولته ، فزار بلاد العرب ومصر وتركيا ، وأقام بالأفغان والهند وفارس ، واتصل بحكومة الأفغان فى شبابه مشتركا فى حروبها الدخلية . كما اتصل بحركات النهوض فى كل بلاد الشرق التى حل بها ، وزار كثيراً من العواصم الأوربية وكتب فى جرائدها . وخطب فى مجامعها . وخالط رجال السياسة والعلم والأدب فيها ، وشهد دسائس الاستعمار الانجليزى للأفغان والهند ، وطارده الإنجليز فى مصر وغيرها ، وأماتوا مجلة العروة الوثقى فى مهدها ، ووضعوا العقبات فى طريقه أنى سار .

من أجل ذلك لم يتعلق ببلد من البلاد على أنه وطن ، ولم تدخل فكرة الوطنية بهذا المعنى فى مذهبه الاجتماعى ، ومن أجل ذلك اشتد كرهه للإنجليز . وعاش عدواً لدوداً لهم ، وهو قد رأى الرقى فى بلاد أوربا ، ورأى الانحطاط فى بلاد الشرق التى زارها ، وشهد نفوذ الأجنبى فيها ، وسوء أثر الحكم الاستبدادى ، فتوجهت فكرته إلى إنهاض تلك البلاد جملة ، ولهذه الممالك الشرقية الإسلامية حب فى نفسه ينظمها جميعاً .

أما أساس النهوض لهذه البلاد عنده ، فهو خلاصها من سلطان الأجنبى ، وخلاصها من الحكم الإستبدادى ، ثم تلاؤمها بنوع من الوحدة يقوى التناصر بينها ، ويكفل لها الغلب .

وإن استيفاء النظر فى تاريخ السيد جمال الدين الأفغانى هو — كما يقول الأستاذ براون — إحاطة بتاريخ المسألة الشرقية كلها فى الأزمان الحديثة، ويدخل فيها بوجه أخص تاريخ تركيا ومصر وإيران، وفى هذه البلاد الثلاثة الأخيرة لايزال تأثيره حياً.

السيد أحمد خان فى الهند، والشيخ محمد عبده فى مصر

عاش الرجلان فى عصر واحد، أحدهما من خيرة مسلمى الهند، والآخر من خيرة مسلمى مصر، وكانا يفكران بأسلوب واحد.

يقول الأستاذ أحمد أمين:

«الإصلاح عندهما إصلاح العقلية بالتثقيف والتهذيب، والنظر إلى الدين نظرة سماحة. والإستقلال يأتى بعد ذلك تبعاً، فلا استقلال لجاهل ولا مخرف، إنما عماد الإستقلال العلم، والعلم بالدنيا والدين، العلم بكل شىء أتت به المدنية الحديثة، من طبيعة وكيمياء، ورياضة وفلك، ونفس واجتماع، ونظام الحكم والإدارة؛ ذلك كله إلى دين يحيى القلب ولا يقيد العقل، ويغذى النفس ولا يشل التفكير. والإسلام إذا فهم على أصوله كفيل بذلك.

«ثم كلاهما كان يرى أن السلطان فى مصر والهند فى يد الإنجليز، ولهم من القوة المادية من الأسلحة والذخائر فى البر والبحر، ومن القوة العلمية والسياسية مالا تستطيع مصر والهند مقاومته ... إذاً فالأولى مسالمة الإنجليز والتفاهم معهم، وأخذ مايمكن لخير الشعب منهم ... نأخذه من طريق الإقناع والمسالمة والمصالحة، وما نأخذه نستغله فى خير الشعوب وثقافتها خير استغلال، والزمن — بعد — كفيل بإظهار النتائج.

، ثم كلاهما عانى من المتاعب ماعانى الآخر من جهتين :

فمسألة المستعمرين لاترضى — عادة — دعاة الوطنية والاستقلال ، ويرون فيها خيانة ، وقد يرى بعضهم أن لامفاوضة ولا مطالبة ولا مسالمة إلا بعد الجلاء ، وكل من يطلب شيئا دون هذا بائع لوطنه يستحق أن يهاجم وينقد ويؤنب . ومن جهة أخرى هناك الطبقة الجامدة من العلماء التى ترى العلوم الحديثة التى أتت بها المدنية الأجنبية مفسدة ، والقول بأن قوانين الدنيا مفسدة ، والقول بأن قوانين الدنيا فى الزراعة والاجتماع والصحة والمرض وكل شىء مبنى على المسبب والسبب كفر بالقضاء والقدر ، وإنكار سلطة المشايخ والأولياء والأضرحة زندقة . فهؤلاء وهؤلاء يشنون الغارة على مثل الشيخ محمد عبده والسيد أحمد خان ، فيختطون هم دعوتهم وسط هذه الأشواك الحادة .

كانا على غير رأى السيد جمال الدين فى الإنجليز والاحتلال :

كان السيد جمال الدين يكره الإنجليز ويشنع عليهم مااستطاع ، بحكم مالقى منهم فى الأفغان والهند ومصر وباريس .... أما السيد أحمد خان والشيخ محمد عبده ، فيريان أن الإنجليز خصوم شرفاء معتدلون ، يمكن التفاهم معهم ، وأخذ أشياء من أيديهم تدريجاً لمصلحة الأمة ، حتى إذا نضجت الأمة أمكنها الحصول على حقوقها كاملة ، حيث لاتستطيع أن تنال شيئاً منها مع الجهل والغفلة .

بدأ السيد احمد خان خطته بأنشاء جمعية أدبية علمية فى عليكره كان الغرض منها نشر الآراء الحديثة فى التاريخ والاقتصاد والعلوم ، وترجمة أهم الكتب فى هذه الموضوعات من الأنجليزية التى كتبت بها إلى اللغة الأردية التى يتكلمها المسلمون فى الهند ، ايمانا منهم بأن هذه الكتب إذا ظلت على لغتها الأصلية ، اقتصر الانتفاع بها على من يعرف هذه اللغة وهم قلة ، أما ترجمتها فأنها تيسر المعرفة لأكبر عدد ممكن من مواطنيه المسلمين .

ولكن سرعان ما هاج عليه الرجعيون والمتزمتون من رجال الدين .

يقابل ذلك تلك الحملة الشعواء التي شنها رجال الدين في مصر على الشيخ محمد عبده عندما كان ينادي بضرورة أدخال العلوم الحديثة على المناهج الأزهرية .

زار السيد احمدخان انجلترا ، وأقام بها وقتاما ، فشهد الثقافة البريطانية في أرضها ، وتشبع بأفكار التجديد الذي شمل انجلترا وقتئذ في العلم والاقتصاد ، بمثل ما زار الشيخ محمد عبده فرنسا ، وشهد الثقافة الفرنسية في أرضها ، وتشبع بأفكار التجديد الذي شمل الحياة الفرنسية وقتئذ في العلم والاقتصاد .

وعاد كل منهما إلى وطنه معبأ للجهاد تعبئة ملؤها الأيمان والاستبسال . يقول الأستاذ أحمد أمين .

« جعل السيد احمدخان من أول خطته بعد عودته أن ينشيء في الهند جامعة تكون للمسلمين كأكسفورد وكمبردج في انجلترا ، تربي الخاصة ، ثم هم يربون العامة . وما زال يكد ويسعى ويجمع المال ، ويكافح العقبات التي توضع في سبيله ، وأخيرا فاز بإنشاء كلية عليكرة المشهورة ، وحدد لها أغراضاً ثلاثة :

١ — أن تعلم المسلمين الثقافة الشرقية والغربية في غير تعصب ولا جمود .

٢ — أن يعنى فيها بحياة الطلبة الاجتماعية . فيجدوا فيها سكنا يقيهم شرور المدن ومفاسدها ، فيطمئن الآباء ، حين يرسلون أبناءهم اليها ، الى أنهم في بيئة صالحة ، مراقبة لآدابهم .

٣ — أن يعنى في نظام الكلية بترقية العقل وتربية البدن وتهذيب الخلق معا ، وبعبارة أخرى يكون الغرض منها « التربية » لا التعليم فقط

وقد استبسل السيد احمد خان في الأنفاق على هذه الجامعة ، حتى

ليقال أنه مات فقيراً معدما ، لم يترك لأولاده سوى الذكر الحسن ، ولم يكن ليترك بابا من أبواب سراة المسلمين ، بل من أبواب فقرائهم ، إلا طرقه مستنديا الأكف لهذه الجامعة . وها هى ذى الجامعة اليوم ، تشيد بذكر مؤسسها الكبير ، وواضع نواة الأصلاح للبيئة الإسلامية .

ولا تستطيع أن تشعر - وأنت تزور جامعة عليكرة - بما لها من أثر اجتماعى خطير ، إلا أنك لا تكاد تخرج من الجامعة حتى تلقى شباب الهند المثقفين ، الذين احتلوا بحق أهم مراكز الحكم والحياة العملية ، وهم يفاخرون بأنهم عليكريون ، فتشعر بالأثر السحرى لهذه الجامعة فى تخريج عدد من الرجال هم زهرة شباب المجتمع الإسلامى اليوم . وإذا كان كثير منهم قد تخصص بعد ذلك فى أكسفورد أو كمبردج ، فانهم لا يعنون بذلك بقدر ما يعنون بالمفاخرة بأنهم من خريجى جامعة عليكرة الإسلامية .

أما الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده ، فلم تواته الظروف فى مصر لإنشاء جامعة إسلامية على غرار جامعة عليكرة . ولكنه قصر همه على استنهاض الهمم لأصلاح الأزهر الشريف ، وإدخال العلوم الحديثة فى مناهجه ، وتنظيمه تنظيما تربويا .

يقول المغفور له الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق :

« تنتظم دعوة الشيخ إلى الأصلاح الدينى أمورا ثلاثة :

١ — تحرير الفكر من قيد التقليد ، حتى لا يخضع العقل لسلطان غير سلطان البرهان ، ولا يتحكم فيه زعماء الدنيا ولا زعماء الدين .

٢ — اعتبار الدين صديقاً للعلم . لا موضع اتصادمهما ، إذ لكل منهما وظيفة يؤديها ، وهما حاجتان من حاجات البشر ، لا تغنى أحداهما عن الأخرى .

٣ — فهم الدين على طريقة السلف قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى »

وبمثل ما توفى السيد أحمد خان فقيرا بعد أن كافح فى سبيل عشيرته الإسلامية بماله ودمه ، توفى الشيخ محمد عبده رقيق الحال .

وفى هذا يقول الأستاذ مصطفى عبد الرازق :

« ولو شاء الشيخ محمد عبده لكان ذا غنى ، ولترك لأرملته المحترمة المريضة ثروة تكفل لها من بعده رفه الشيخوخة ، وتصونها من ذلة العسر ولكن الأستاذ الأمام كان أكبر نفسا ، وأشد احتقارا للدنيا من أن يبذل جهده فى جمع المال . فعاش عظيما فقيراً ، ومات فقيراً عظيما . »

وقد رأى الرجلان فى الصحافة ميدانا لنشر الدعوة لمبادئهم ، وبث آرائهم . فأصدر السيد احمد خان جريدة « تهذيب الأخلاق » وشارك الشيخ محمد عبده بجهود مضنية فى الصحافة المحلية ، ثم اشترك مع السيد جمال الدين الأفغانى فى إصدار مجلة « العروة الوثقى » من باريس .

ويختتم الأستاذ احمد أمين كلامه عن السيد أحمد خان فيقول :

« ثم ترى فى بعض المصلحين عيبا كبيراً ، وهو أنهم لا يربون من يحمل علمهم ويكمل خطتهم ، وكثيراً مايكون سبب ذلك اعتدادهم بأنفسهم مع شخصيتهم القوية التى لاتسمح لشخصية عظيمة أخرى أن تظهر بجانبهم فتلتف حولهم الشخصيات الضعيفة التى تتقن الملق والنفاق ، وتغذى بأقو[illegible] وأعمالها عظمتهم واعتدادهم بأنفس[illegible] وتنفر منهم الشخصيات القو[illegible]ـها ترى فى نفسها نداً أو شبه ند[illegible] ، لأن كرامتها تأبى أن تنزل عن ر[illegible] لرأيهم ، أو تصنع النفاق للقرب منهم ، فاذا مات مثل هؤلاء [illegible]ـحهم الا من الرؤوس أو ثنايا كتب التاريخ .

ولم يكن السيد أحمد خان من هذا الطراز ، فهو قوى جبار فى اعتناقه آراءه ومبادئه والجهر بها والعمل عليها ، ولكنه سمح النفس مع الناقد الشريف . باذر الحب للنفوس حوله حتى تنمو وتقوى ، مشجع لأتباعه وتلاميذه أن يروا رأيهم ، ويستعملوا حقهم فى صراحتهم كما يستعمل حقه فى صراحته .

ولذلك كان حوله وبعده من يكمل خطته ، ويسلك منهجه ، ويحمل رايته ، ويصلح ما أخذ عليه ، من مثل سراج على والسيد أمير على .

وتطابق هذه الأوصاف - التى وصف بها الأستاذ احمد أمين السيد احمد خان - أوصاف الإمام محمد عبده تمام المطابقة ، فأنه لم يكن صاحب رأى فحسب ، بل كان صاحب مدرسة ومعلم جيل ، طبع تلاميذه على الإقتداء به ، لا فى أفكاره فحسب ، بل فى جرأته فيما يعتقد أنه الحق . وفى استقلاله برأيه وتفكيره ، وفى استبساله فى إظهار آرائه مهما كلفه ذلك من عنت ، ولم يكن رحمه الله يحب المداراة أو الزلفى . وقد أنجب جيلا طبعه بطابعه ، فكان تلاميذه فى مصر كثيرون نذكر فى مقدمتهم المغفور لهما الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى والأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق .

مدحت باشا فى تركيا ، وخير الدين باشا فى تونس

لعب هذان البطلان دوراً خطيراً فى حركة الأصلاح التى كانت تدب فى العالم الإسـلامى فى النصف الأول من القرن تاسع عشر . وظلا متعاصرين على مسرح السياسة الإصلاحية الإسلامية إلى أواخر هذا القرن .

ولد مدحت لعالم دينى يقيم بالاستانة ، فنشأ نشأة دينية سليمة . أما خير الدين فكان مملوكا اشتراه باى تونس ثم أنشأه نشأة دينية سليمة كذلك . فكانت الغيرة الإسلامية هى الطابع الواضح فى شباب كل منهما .

ثم شاءت ظروف كل منهما أن يطوف بأنحاء أوربا ، وأن يشهد ، عن قرب ، تلك اليقظة العلمية والاجتماعية والسياسية التى كانت تعم أوربا فى ذلك الوقت ، فعادا — كل إلى بلده — متشبعين بفكرة أن لاصلاح لحال الإسلام عامة ، ودولة الخلافة ومايتبعها من ملك واسع خاصة ، إلا بالأخذ بأساليب الغرب فى الإصلاح ، مع محافظة شديدة على سلامة الدين فى أصوله . وكان كلاهما صريحاً لايتقن فن المجاملة ، مخلصا لفكرته .

أما حاشية السلطان فى الاستانة ، وحاشية الباى فى تونس ، فكانتا متماثلتين فى بعدهما كل البعد عن الإخلاص الحقيقى للبلاد .

ففى الاستانة كان محمد باشا القبرصلى صدراً أعظم ، فلم يلبث أن ضجر بشوكت ، فلما كانت ثورة البلقان ، انتهزها القبرصلى فرصة سانحة للتخلص من شوكت وآرائه ، فعينه قائداً الجيش الذى نيط به أخماد الثورة ، لعله يخفق فى أخمادها فتنهار بذلك سمعته التى جعلته محط أنظار الشباب المتوثبين للأصلاح ، ذلك الشباب الذى كان يحس بأحساس شوكت ، ويطالب فى غير هوادة بأن تنال البلاد حريتها ، وأن يعلن السلطان عبد العزيز الدستور .

وكانت انجلترا تعطف على مدحت إذ تدرك أن حركته الإصلاحية ستعوق الروسيا عن تحقيق أطماعها على حساب السلطان الضعيف ، أما روسيا فقد دأبت على تشجيع السلطان على التخلص من مدحت .

وتحت ضغط الظروف الوطنية المحلية . اضطر السلطان لتعيين مدحت صدراً أعظم ، ولكن وزارته لم تدم أكثر من خمسة وسبعين يوما إذ كانت الدسائس تحاك له من أوكار الرجعية كافة وتعمل على إحباط مشروعاته الإصلاحية كلها .

واشترك مدحت بعد ذلك فى وزارة أسعد باشا وزيراً للعدل ، فصاغ للسلطان تقريرا عدد له فيه معايب الحكم ، وقابل السلطان ليفاتحه فى شأن هذا التقرير ، ولكنه لم يكد يذكر كلمات الأصلاح والشورى والدستور حتى هاج هائج السلطان ، وأمر بعزله من الوزارة ، وإبعاده عن العاصمة واليا على سلانيك ، ثم لم يلبث أن عزله عن الولاية بعد ثلاثة شهور

استعرض مدحت وأصحابه حال الدولة ، فرأوا أن السلطان عبدالعزيز لايزال سادراً فى غوايته ، لايستمع إلا لبطانته التى تمدح له كل مايفعل ، وأن رحلته إلى أوربا لم تسفر عن اقتناعه بالأساليب الدستورية ، بل على العكس ، زادته تمسكا بحكم الفرد المطلق ، كما رأوا أن السلطان قدجمح فى سياسة الاستدانة من الدول الأجنبية ، إذ بلغت ديونها ٢٥٠ مليون ليره بعد أن كانت ٢٥ مليونا فقط فى أوائل عهد السلطان عبد العزيز .

لكل ذلك استقر الرأى على أنه لاسبيل لإصلاح الحال إلا بعزل السلطان . فعزل عبدالعزيز وبويع بعده السلطان مراد ، ولكن لم يمض عليه أيام حتى ظهر جنونه . فولى السلطان عبد الحميد السلطنة بعد ثلاثة أشهر .

وكانت سياسة السلطان عبد الحميد تتلخص فى أنه كان يتمشى ظاهريا مع الإصلاح ، بينما هو يكيد لمدحت ويشوه سمعته عن طريق الصحافة إذ نشرت كثرة من الصحف — وكأنها على ميعاد — أنباء تقول بأنه ضبطت عند مدحت أوراق تدل على خيانته ، وأنه يريد أن يجعل من السلطنة العثمانية جمهورية ، وأنه أوقع الدولة فى مشاكل خطيرة ، وأظهر كثير من المعممين ابتهاجهم بنكبة مدحت وقالوا أنه يريد أن يفصل السلطة الدنيوية عن السلطة الدينية .

ويصف لنا الأستاذ أحمد أمين هذه الفترة العصيبة من تاريخ الإصلاح فى الدولة العثمانية فيقول :

« سكت الناس بين الدهشة والعجب . والشك واليقين، وشرد رجال مدحت ممن أخلصوا له ولمبادئه ، ووسط هذه البلبلة الفكرية ، صدر الأمر الشاهانى بتعطيل الدستور (وكان قد أعلنه عبد الحميد فى مستهل حكمه) تعطيلا مؤقتا . ولكن ، ألا تعرف - أيها القارىء الكريم - مدة هذا التعطيل المؤقت ؟ ثلاثون سنة .

لم يكن الرأى العام حذرا فحذر ، ولا عاقلا فخدع ، ولا قويا فامتهن.

ارتحل مدحت إلى أوروبا بفكرة « أنقاذ ما يمكن أنقاذه » فطوف بأنحاء أوربا يؤلف دول الغرب على روسيا التى كانت تحارب بلاده ، مبينا لهذه الدول ما فى سكوتها من خطر عليها إذا أسفرت الحرب عن انتصار روسيا وانفرادها بحل المسألة الشرقية .

ثم رضى عنه السلطان - عن طريق العطف عليه دون تقدير جهوده - فسمح له أن يقيم مع أسرته فى جزيرة كريد . فذهب إليها وعاش فيها مع أسرته نحو شهرين ، ثم عين واليا لسورية ، ثم لأزمير ثم كانت مأساته التى ختمت بها حياته . إذ قبض عليه وأرسل إلى الأستانة لمحاكمته بتهمة أشتراكه فى قتل السلطان عبد العزيز ، وبعد محاكمة صورية ، حكم عليه وعلى مشايعيه بالأعدام ، ثم استبدل الأعدام بالنفى ، فحملوا إلى جده ومنها إلى الطائف حتى سجنوا فى قلعتها فذاقوا الأمرين ثلاث سنين ، وأجرى عليهم العذاب ألواناً ، وبذلت المحاولات لأماتتهم جوعاً . فلما تبينت قوة احتمالهم ، ضاق ولاة الأمور بهم ذرعا فقرروا أن يسمومهم ، ولكن مدحت وصحبه اكتشفوا المؤامرة . فلما أعيتهم الحيل أوعزوا بخنق مدحت فخنق .

يقول الأستاذ أحمد أمين :

« وقد خدمت أفكارَه شناعةُ وفاته ، أكثر مما خدمها جهاده

فى حياته . فقد ألمت النفوس الخيرة بما أصابه ألما ممضا ، وتأججت النار فى أفئدتهم وأفئدة من يتصل بهم ، فلما التهبت النيران التهمت عبد الحميد ، كما التهمت من قبل عبد العزيز ، بل لعلها هى التى التهمت فكرة الخلافة من أساسها فيما بعد .

أما فى تونس فكان الباى أحمد رجلا طموحا يعمل على مصلحة شعبه ، ولكنه ابتلى ببطانة سوء يتزعمها مصطفى خزنة دار ، تولى وزارة العمالة (المالية والداخلية) خمسا وثلاثين سنة أثقل فيها كاهل الشعب بالضرائب والمظالم ، على الرغم من أنه كان متدينا ، فكان يقوم الليل متهجداً ، ويقضى النهار سارقا . رأى فى خير الدين شابا طموحا يخشى منه فى مستقبله ، فزوجه ابنته ضمانا لولائه .

وحوالى سنة ١٨٥٣ م . رأى مصطفى خزنة دار أن سوءاته قد انكشفت ، وأنه يوشك أن يفتضح هو وشريكه فى المآثم والمغانم محمود بن عياد ، فهربا أموالهما إلى فرنسا حيث ادعى بن عياد أنه يداين الدوله التونسية بديون باهظة ، واتخذت القضية دوراً خطيراً .

أوفد الباى خير الدين باشا إلى فرنسا لمكافحة ادعاءات بن عياد فأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عن مصالح بلاده . فأحيلت قضية بن عياد — كقضية سياسية — إلى التحكيم فى لجنة يرأسها نابليون الثالث .

ومن أغرب المصادفات أن تقع بين مصر وفرنسا — فى نفس هذا الوقت — مشكلة التحكيم بين الخديوى إسماعيل وفردناند دلسبس حول مشاكل قناة السويس ، وأن يرأس لجنة التحكيم الإمبراطور نابليون الثالث .

عاد خير الدين إلى تونس فعينه الباى محمد وزيراً للحربية فقام

بأصلاحات كثيرة ، أهمها أن جعل للوزارة سجلات تسجل فيها كل الأعمال بعد أن كانت الأمور تسير ارتجالا .

وقد أسفرت سياحات خير الدين باشا فى أوربا ، واختلاطه بعظماء رجال الفكر فى فرنسا ، أن صار يبشر فى تونس ، بمثل ما كان يبشر به مدحت فى تركيا ، بضرورة اقتباس النظم النيابية فى الحكم . وأن يوكل التشريع فى البلاد إلى مجلس شورى منتخب ، فكان له ما أراد .

ولكن العقلية التونسية الحديثة اصطدمت بمثل ما اصطدمت به العقلية التركية الحديثة .

فالعلماء فى الأستانه كانوا يقولون : سلطان غشوم خير من فتنة تدوم . وفى تونس لم يرض العلماء عن مجلس الشورى وصاحبه ، لأن بعض أحكام القانون سياسة لا شرعية ، وأن القانون يقضى بالحكم بالأغلبية ، وقد ترى الأغلبية مالا يرتضى الدين .

على أن خير الدين استطاع التغلب على هذه الصعوبات المحلية فصدر الأمر بتأسيس مجلس الشورى . ولكن المجلس اصطدم بعقبات ثلاث : الأول أن العلماء قد ظهر رأيهم فى الحياة النيابية ومدى بعدها — فى نظرهم — عن مبادىء الدين . والثانى أن بطانة الباى ، وعلى رأسها مصطفى خزنه دار ، كانت تريد المجلس أداة طيعة لأغراضها . أما الثالث فهو أن الحكومة الفرنسية لم يكن يرضيها هذا النظام الشورى وما يستتبعه من سهر المجلس على مصالح الشعب ، إذ أن ذلك يضيع على فرنسا مطمحها فى الاستيلاء على البلاد .

وبإزاء هذه الملابسات ، آثر خير الدين أن يعتزل العمل الحكومى ، وقد كان المفروض فيه أن يتزعم حركة إصلاحية كالتى تزعمها مدحت

بعد اعتزاله ، إلا أنه آثر المسالمة نظراً لارتباطه بصداقة الباى من ناحية وبمصاهرة خزنة دار من الناحية الأخرى .

إلا أنه عكف أثناء عزلته على وضع كتابه «أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك» . وقد بحث فى مقدمته حال البلاد الإسلامية وأسباب انحطاطها بعد ازدهارها ، وكيفية إصلاحها .

وباعتزاله الوزارة خلا الجو لصهره خزنة دار ، فطوى الباى تحت جناحه ، وألغى مجلس الشورى ، وانطلقت يده فى الاستدانة حتى بلغ دين تونس ١٥٠ مليونا من الفرنكات فى سبع سنوات .

وابتليت تونس بما ابتليت به مصر فى ذلك الوقت من تدخل الدول الأجنبية للمحافظة على ديونها . فشكلت لجنة من فرنسيين وإنجليز وإيطاليين يرأسها موظف تونسى . وجعلت مهمتها توحيد الدَين وتحديد الفوائد وإدارة المرافق التى خصصت لسداد هذا الدين أو فوائده .

عندئذ اتجه الباى إلى خير الدين يطلب منه أن يرأس هذه اللجنة فاعتذر ، فألح عليه حتى قبل . ومن الغريب أن الباى احتفظ لمصطفى خزنه دار بمنصبه على الرغم مما تبين من أنه سبب النكبة .

وقد واجه خير الدين من المشاكل ما كان كفيلا بفشله ، ولكنه كان رجلا لا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا . فاستطاع بكياسته وقوة شكيمته أن يحد من تدخل اللجنة الثلاثية فيما لا يعنيها ، ونازل صهره ، وكشف عن مساوئه فاستطاع أن يعزله ، وأصدر قراراً بمحاكمته لخوكم ، وألزم بدفع ٢٥ مليون فرنك . وبذلك تفتحت أمامه أبواب الإصلاح .

إلا أنه لم يكد يستقر حتى انطلقت عليه أفاعى الرجعية . تؤيدها الدول الأجنبية ذات المطامع ، فباعدوا بينه وبين الباى . فلما أحس بالجفوة قدم استقالته إلى الباى فقبلها .

وقضى خير الدين — بعد اعتزاله الوزارة — أعواماً سودا ، فقد كان أشبه بسجين لا يزور ولا يزار . ثم سافر إلى أوربا ، ولكن الأقامة لم تطب له فيها فعاد إلى تونس .

وأخيراً استدعاه السلطان عبد الحميد إلى الأستانة ، وأحسن استقباله وقربه ، ولم يلبث أن عينه صدراً أعظم فى وقت كانت الدولة فيه تعانى أعوص مشاكلها مع الدول الأوربية ، كما كانت تعانى مشكلة تدخل الدول الأوربية لعزل الخديوى إسماعيل عن مصر . وكان يرى فى كل هذه المشاكل أنه يجب أن يتحمل المسئولية على جسامتها باعتبار كونه رئيسا للوزراء وعليه تقع المسئولية الوزارية ، بينما كان السلطان عبد الحميد يرى أن يفرض رأيه ، وعلى رئيس الوزراء أن يتحمل المسئولية . لهذا نفر منه السلطان كما نفر منه الباى من قبل .

وتألب عليه رجال الدين ، إذ كرهوا منه الوقوف فى وجههم والضغط عليهم .

يقول الأستاذ أحمد أمين :

« لكن هذا عزل خير الدين بعد ثمانية أشهر فى قسوة ، وما كان أقرب مأتمه من عرسه ! وأدرك عبد الحميد أن قد خابت فراسته فيه . وظل بعد ذلك عشر سنين فى مقاعد النظارة ، لا يمثل على المسرح شيئا . وكل ما يرى مآس لا ملهاة فيها .

ومات وهو فى الأستانة عام ١٨٨٩ م عن نحو سبعين عاما ، ودفن فى جامع أيوب ، وخلف تاريخا فى الأصلاح حافلا ، وكفاحا للفساد طويلا ، وذنبه أنه لم يجد مواتيا من الشعب ولا مؤازراً من السلطان .

ولقد كان مصلحا اجتماعيا وسياسياً من جنس مدحت باشا ، غير أن الفرق بينهما كالفرق بين السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده ، فمدحت يصلح ، فإن عجز عن الإصلاح ثار ودبر الانقلاب ، وخير الدين

يصلح ، فإن عجز عن الإصلاح رفع يديه إلى السماء وقال « اللهم إنى قد بلغت » .

عبد الرحمن الكواكبي

يقول الأستاذ جورج أنطونيوس فى كتابه « يقظة العرب » :

ظهرت فى الميدان شخصية جذابة عندما شارف القرن الماضى على الانتهاء ، وهى شخصية الكواكبي ، الذى ساهم فى سير الحركة مساهمة قيمة ، بمؤلفين لماعين ، تشع من سطورهما آثار فكر مبدع وفطنة مرحة وساهم كذلك بأحاديث كثيرة تفيض حيوية وملاحة .

كان عبد الرحمن الكواكبي عربياً مسلماً ، من أسرة سورية معروفة ، وقد ولد عام ١٨٤٩ فى حلب ، حيث تلقى العلم فى أكبر كلية إسلامية ... وكان فى بدء حياته العامة صحفياً وقانونياً ثم انتقل إلى الوظائف الحكومية حيث أكسبه تهجمه العلنى على الاستبداد غضب رؤسائه ، ثم السجن ، فلما أطلق سراحه سنة ١٨٩٨ غادر الشام ليتمتع بجو أوسع من الحرية فى مصر ، وبعد سنتين ، قام برحلة لدراسة الحياة بين سكان بعض المناطق العربية البعيدة ، فزار الصومال وزنجبار ، وتغلغل داخل اليمن ، وبعد إقامة طويلة فى مكة ، عاد إلى القاهرة حيث توفى فجأة عام ١٩٠٣ ، وهو فى الرابعة والخمسين من عمره .

لم يكتب عن الكواكبي شيء يذكر ، ولكن بعض معاصريه الذين كانوا يعرفونه معرفة جيدة ما زالوا لحسن الحظ فى قيد الحياة ، (أ[illegible] سنة ١٩٣٨) ، ويخيل لنا أن الانطباع الذى تركه فى نفوسهم ينطبق [illegible] صورة شخصيته المنعكسة فى كتاباته . والظاهر أنه لم يكن بين هؤلاء المعاصرين من يعرفه معرفة صحيحة ، إلا أن من يعرفونه أكثر

وصفوه بأنه رجل ذو أحساس عميق ، وقلب رؤوف حقا ، يستمد منه الوحى الأول فى جميع حركاته وسكناته ، وأن أفكاره كانت هادئة وواضحة ، برغم النار المتأججة فى نفسه . ومما لا شك فيه أنه كان يؤمن إيمانا عميقاً بمستقبل الإسلام والأمة العربية ، ويكره كرها عميقا كذلك أى نوع من أنواع التعصب والظلم ، ولا سيما ظلم الفقراء . ومما وصفوه به أنه كان محدثا رائعاً ، يسحر سامعيه بآرائه وما تنطوى عليه من إبداع وجرأة ، كما يأخذهم بالفكاهة التى تتخلل تلك الأحاديث فى جلسات يومية فى مقهى « سبلندد بار » بالقاهرة ، وكانت حلقة صحابه كبيرة ومنوعة ، تضم جماعات من النصارى واليهود بالإضافة إلى المسلمين ، لأنه كان يطبق ما يدعو اليه كثيراً ، وهو أن الوطنية فوق الفوارق الدينية ، ومع ذلك فقد كان الفقراء هم أصدقاءه الحقيقيين ، ولعلنا لا نعثر على ناحية من سيرته تعطينا صورة صادقة عن طبيعة نفسه مثل المكتب الذى أنشأه من حسابه الخاص فى حلب ليقدم للفقراء من جميع الأديان الاستشارات الحقوقيـــة ، والمساعدات التى قد يطلبونها . فلقبه الناس فى حلب بأبى الضعفاء . . . .

حوى كتابه الأول « أم القرى » مجموعة من الآراء التى تبحث فى مصير الإسلام . وفيه يتخيل أن اثنين وعشرين شخصاً يمثلون العلماء والفقهاء فى اثنين وعشرين قطراً من أقطار الإسلام اجتمعوا فى مكة لأداء فريضة الحج . وبعد تبادل الآراء فى أكثر من اثنتى عشرة جلسة رسمية . اتفقوا على تشكيل جمعية غايتها بعث الإسلام . ويتألف الجزء الأكبر من الكتاب من جزء يمكن اعتباره ضبطا حرفيا للجلسات الخيالية ، ويعقب ذلك ثبت بقوانين الجمعية الجديدة . وينحرف فى ختامه عن الموضوع الأصلى ليبحث موضوع الخلافة . فهو مؤلف قيم وعلى جانب كبير من

سرعة الخاطر والملاحة ، كما أنه ، بالقالب الذى لبسه ، كان أداة صالحة جداً لعرض أفكار الكواكبى الجريئة .

أما كتابه الثانى «طبائع الاستبداد» فهو يضم مقالاته عن الاستبداد التى سبق له نشرها فى الصحف المصرية مع بعض الإضافات . ويعكس هذا الكتاب أيضا تأملاته وعمق تفكيره كما يتدفق فى شرح فلسفته بهدوء وسلاسة . أما كرهه الواضح للاستبداد . فهو عامل منشط لهذا الشرح . ولا يعكره فى قليل أو كثير .

صدر الكتابان فى القاهرة فى حياة المؤلف مع أغفال اسمه . فكان إنتشارهما واسعا ، والاهتمام بهما كبيرا ، وقد هربت بعض النسخ إلى بلاد الشام ، حيث جرى توزيعها بالسر .

فإذا ألقينا على الكتابين معا نظرة إجمالية ، وجدنا أنهما يحويان تحليلا عميقا ورائعا لحالة التداعى التى بلغها العالم الإسلامى بصورة عامة ، وأجزاؤه العربية بصورة خاصة ، وفيه كذلك تحليل لعلل هذه التداعى ، وعلاجها المحتمل ، مع الدعوة بحرارة إلى وجوب الأخذ بالدواء الناجع ؛ وفى نظره أن هناك أمرين لابد من تحقيقهما ، وهما أساسيان ، وعلى جانب كبير من الأهمية : الأول وجوب القيام بعمل جدى ومنظم لمكافحة جاهلية علماء الدين ، وجهل الجماهير ، والثانى أن يستعيد العرب مركزهم الطبيعى فى تسيير دفة الإسلام .

وهو يرى أن جمعية كالتى تخيلها فى كتابه « أم القرى » ذات فروع فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، تصلح لتحقيق الأمر الأول ، أما الأمر الثانى ، فقد دعا إلى تحقيقه بفصاحة وحرارة فى بحث « الخلافة » وفى كتابه عن الاستبداد .

لقد ساهم هذان المؤلفان بالحركة العربية ، فكان لهما مكانة خاصة ،

إحتفظا بها بفضل ما امتازا به من إبداع وأفق واسع وجرأة .

أما عنصر الإبداع فى الدعوة التى حركها الكواكبي ، فهو تفريقه مابين الحركة العربية ، والحركة العامة ، التى تستهدف الوحدة الإسلامية والبعث الإسلامى ، والتى تولى جمال الدين الأفغانى إثارتها ، ثم سخرها عبد الحميد لأغراضه الخاصة . ومما لاشك فيه أن الكواكبي تأثر بسلفه ، فهناك نقاط توافق بينهما فى الشكل وفى الأساس ، تدل على وجود رابطة وثيقة بين الفكرين . ولكن بينما كان جمال الدين يعتبر عالم الإسلام جميعه ميدانا واحداً يجب توحيده تحت حكم خليفة واحد ، ولايهتم بجنس ذلك الخليفة ، سواء أكان تركيا أم أفغانيا أم مصريا ، مادام قويا وسيدا فى داره ، كان الكواكبي يفرق تفريقا واضحا مابين العرب والأجناس الإسلامية الأخرى ، ويعود منشأ هذا التفريق إلى ماشاهده فى التاريخ من دروس وعبر ، أى الدور الذى لعبه العرب فى قيام الإسلام وانتشاره ، والصلة الوثيقة بين عبقرية العرب وروح الإسلام ، والمركز الخاص الذى يحق للعرب إحتلاله فى تسيير دفة الإسلام ، بفضل لغتهم وأصلهم ، وعلى هذا فإن الكواكبي ، فى الوقت الذى أيد فكرة الوحدة الإسلامية تأييدا تاما ، راح يدعو إلى إلغاء حق السلطان فى الخلافة ، وإلى المناداة بتنصيب خليفة فى مكة ينتمى إلى قريش .

كان من الطبيعى أن تساعد المبادىء التى بشر بها الكواكبي على انتقال زعامة الحركة العربية بالتدريج إلى المسلمين[1] وهذا بالرغم من أن حملته

---

(١) يذهب الأستاذ جورج انطونيوس فى كتابه الى أن الحركة العربية بدأت على أيدى المسيحيين العرب فى بلاد الشام ويرى أن الاستنارة قد طرأت على العرب على أيدى المبشرين الأمريكيين الذين كانوا يعملون فى حقل التعليم . ويضع فى مقدمة المفكرين فى مستقبل العرب الأستاذين نصيف اليازجى ، وبطرس البستانى .

كانت بعيدة كل البعد عن التحيز إلى طائفة دون أخرى ، بل كانت على العكس تحث النـاس بحرارة على نبذ الخلافات الطائفية ، حتى أن بعض المقاطع من كتاباته دعت بصراحة إلى المسـاواة بين الأديان فى سبيل صيانة التضامن القومى .

ولم يكن أدنى شك فى حرارة هذه الدعوة وصدقها . ولما كانت حملته تتضمن فى الوقت نفسه العمل على نهضة الإسلام بالأضافة إلى نهضة العرب ، فقد كان له تأثير أعمق فى نفوس المسلمين ، لأنها كانت تحركهم بدافع مزدوج .

عبد الله نديم

ولد عبد الله نديم سنة ١٨٤٥ لأب رقيق الحال ، ولم تتح له فرصة تعليم منظم ، ولم يلبث وهو فى سن الخامسة عشرة أن هجر « جامع الشيخ » الذى كان يتلقى فيه العلم على الأسلوب الأزهرى القديم ، وصار يغشى مجـالس الأدباء حيث مال بقلبه إلى شعر الشعراء وزجل الزجالين ، فضاق به أبوه ذرعاً . وقبض عنه يده على تفاهة ما كان يعطيه .

واضطر عبد الله أن يشق طريقه فى الحياة بنفسه ، فتقاذفه أمواج الحياة ، فاختلط بطبقات الشعب المصرى كافة ، وذاق من ألوان الحياة المصرية مرها وحلوها ، وتأدب بأدب الطبقة الراقية التى استطاع أن يشق طريقه اليها ، بمثل ما عرف من شئون العامة ومتاعبهم الشىء الكثير ، وذلك إلى ميل الى القراءة والاطلاع فى مختلف العلوم والفنون . وعاصر أهم أحداث القرن التاسع عشر فى مصر : الأزمة المالية ، والرقابة الأجنبية ، وعزل إسماعيل ، وتولية توفيق ، وقيام الثورة العرابية ،

وتولية عباس الثانى ، والأزمة بينه وبين اللورد كرومر ؛ كما عاصر تطور العلاقات بين حكام مصر والباب العالى ، وانتهى به المطاف إلى إقامة فى الأستانة فى عصر السلطان عبد الحميد حيث التقى بالسيد جمال الدين الأفغانى .

اشتغل فى مصر بالصحافة ، فأصدر جريدة « التنكيب والتبكيت » وكان يعالج فيها عيوب المجتمع الذى كان يعيش فيه ، ثم أصدر بعد ذلك « الأستاذ » فجمعت بين الإصلاح الاجتماعى والإصلاح السياسى .

وقد لعب « الأستاذ » دوراً خطيراً فى السياسة المصرية ، بل فى السياسة الإسلامية والسياسية الشرقية فى مستهل حكم الخديوى عباس الثانى

يقول الأستاذ أحمد أمين :

« والمطلع على ما كتبه فى هذا العهد يرى أنه بعد رجوعه من مخبئه (كان النديم قد اختفى على أثر الثورة العرابية وفشلها ، وظل فى مخبئه عشر سنوات) قد فوجىء بموجة من الانحلال الخلقى فى البلاد : فأفراط لم يكن معهوداً من قبل فى شرب الخمر ، وعدم اكتراث الشاربين بنقد الناقدين ، وانتشار للخمارات فى المدن والبلاد والقرى ، وابتزاز الأروام للأموال عن طريقهما ، وشعور النساء بالحرية، فهن يكثرن فى الخروج فى الشوارع متبرجات بزينتهن ، ثم الحشيش والمعاجين والإفراط فى تعاطيها والاحتفاء بمجالسها . ثم استعمال كلمة الحرية وسيلة للانهماك فى اللذات والشهوات . وأعجب من ذلك السقوط فى تقليد المصرى للأوربى تقليداً أعمى فى لسانه بالقول ، والتشدق باستخدامه كلمات أجنبية أثناء حديثه بالعربية ، ولبس الضيق المحبوك من الثياب الافرنجية فنقد كل ذلك فى أسلوب قوى جرىء ، واتهم الأوربيين بتشجيعهم هذه الأمور حتى يسقط الشرق وتنحل أخلاقه، ونقد كذلك مناهج التعليم فى

البلاد ، وخلوها من بث الروح القومية والعصبية المصرية . وحث أبناء البلاد على إنشاء الجمعيات الخيرية التى تسد هذا النقص ، ونحو ذلك .

« وعجب بما رأى من أن كثيراً من أولى الرأى فى الأمة أصابتهم الدهشة والرعب من الاحتلال (البريطانى) : فانطووا على أنفسهم ، ولزموا دورهم . فإن تكلموا فى الشئون العامة فمن وراء حجاب . وتركوا النـاس مبلبلة أفكارهم ، مضطربة نفوسهم ، لا يعرفون أين يتجهون ؛ فدعا إلى خروج ذوى الرأى من عزلتهم . واختلاطهم بالرأى العام فى المجامع العامة . يخطبون فيهم . ويشرحون ما حدث وما يحدث . حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم .

« فى كل ذلك كتب عبد الله نديم فى الأعداد الأولى من « الأستاذ » ووجـد النفوس مستعدة لهذه الدعوات . وكأنها حائرة تنتظر الدليل ، ضالة تلتمس الهادى . فانتشر الأستاذ انتشاراً فاق ما كان يتوقع ، فقد كان يطبع منه حول ثلاثة آلاف كأكبر جريدة يومية إذ ذاك . وأعيد طبع الأعداد الأولى منه ..

ثم نرى نغمته تعلو شيئاً فشيئاً فى الميدان السياسى . ومناصرة الحركة الوطنية . ومؤازرة الخديوى عباس ومناهضة الاحتلال . حتى بدا ذلك واضحا فى العدد الصادر فى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ . فيفتتح العدد بمقال جرىء عنوانه « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وهى كلمة كانت ترد على لسان بعض الأوربين يخاطبون بها الشرقيين . . . يصف فيها حالة الغرب وحالة الشرق ووسائل الاستعمار . وما إلى ذلك . ويندد بالغربيين فى أساليبهم وبالشرقيين فى غفلتهم ويشرح ما تفعله الحكومات الغربية لترقية شعوبها وما تنشره فى أمم الشرق لانحلالهـا ، وما يفعله المصريون فى تخاذلهم وتواكلهم . ويدعو إلى الالتفاف حول الخديو ومطالبته بالمحافظة على حقوقه الشرعية ، ويختم المقال بقوله « وبالجملة فقد بلغ السيل الزبى . فإن

رفونا هذا الخرق . وشددنا إزر بعضنا . وجمعنا الكلمة الشرقية : مصرية وشامية وعربية وتركية ، أمكننا أن نقول لأوربا : نحن نحن وأنتم أنتم ؛ وأن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجنبى فريقا بعد فريق . حق لأوربا أن تطردنا من بلادنا وتصدق فى قولها : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » . . . . .

ثم علت نغمته طبقة أخرى . فأخذ ينقد الإنجليز صراحة فى سياستهم فى الهند ومصر . ويسب من يلوذ بهم ويهيج الناس على المبشرين وطرق التبشير ويقول : أن السياسة تؤيدهم وتلعب ألاعيبها من ورائهم ؛ فتألبت عليه الجرائد المخالفة له فى مذهبه من انجليزية وعربية ، وحذرت منه . وقالت أنه يعد البلاد لفتنة بين المسلمين وغيرهم ، وبين المصريين بعضهم وبعض ، ويحرك الضغائن بين المصريين والأجانب ، ويهيء لثورة كالثورة العرابية ، ونصحت لأولى الأمر من الانجليز أن يأخذوا حذرهم منه ، وإلا ساءت العاقبة ، وشهرت به بعض الجرائد الإنجليزية كالتيمس والديلى تيوز ، وقالت أنه متعصب للدين ، مقبح لجميع أعمال الأوربيين ، وأنه ثورى مهيج ، وأيدتها المقطم ، ودافع عنه المؤيد والأهرام والوطن وبعض الجرائد الفرنسية .

وكانت هذه الحدة وهذا الجدل المتتابع فى المسائل العامة أكبر موقظ للرأى العام النائم ، يفهمه موقفه وما يضره وما ينفعه .

وكانت جريدة « الأستاذ » هى جريدة مصطفى كامل ، تعلم منها الاتجاه والنغمة ، وإن اختلفا من حيث الثقافة والأسلوب بحكم الزمن والأحداث والظروف .

وتتلخص سيرة عبد الله نديم فيما حدث عن نفسه وهو فى من التاسعة والثلاثين ، قال :

« وأخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة ، وأدركت ماهم فيه من جهالة ، ومم يتألمون ، وماذا يرجون ، وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين ، وألممت بما انطبع فى صدورهم من أشعة الغربيين : وصاحبت جما من أفاضل الشرقيين المتعلمين فى الغرب ، وعرفت كثيراً من الغربيين ، ورأيت أفكارهم — عالية أو سافلة — فيما يختص بالشرقيين ، والغاية المقصودة لهم ، واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ما هم عليه من السير فى المعاملة أو السياسة ، وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنسا ووطنا ودينا ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب . وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة ، واستخدمت فى الحكومة المصرية زمنا ، واتجرت برهة ، وفلحت حينا ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتا ، وبالخطابة والجرائد آونة ، واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذى وصلت اليه بعناء كساني نحول الشيخوخة فى زمن بضاضة الصبا ، وتوجني بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء . فصورتى تريك هيئة أبناء السبعين وحقيقتى لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين .

ويختتم الأستاذ احمد أمين حديثه عنه فيقول :

« وربما كان أعظم شيء فيه ثباته على مبدئه . باع نفسه لأمته حسبما يعتقد الخير لها ، ولم يتحول عن ذلك على كثرة من تحول فى مثل مواقفه .. وكان جديرا بمن لقى ذلك كله أن يهدأ ، وإذا هدأ فلا لوم عليه . ولكنه ظل يجاهد ، وينفى فيجاهد ، ويعفى عنه فيجاهد ، ويحذر فلا يحذر ، ويطمع فلا يطمع ، حتى لقى مولاه .

الأمير شكيب أرسلان

وهـذا زعيم من زعماء الفكر فى العالم الإسلامى . خدم الإسلام بلسانه وقلمه فأحسن ، وتنقل بين ربوعه منبهاً لأخطار الاستعمار ، وداعيا المسلمين فى كافة أنحاء العالم الإسلامى إلى يقظة تنبههم إلى ما فى التمسك بقواعد دينهم من مزايا ، لا تقتصر على الآخرة ، بل تتعداها إلى عرض الدنيا فتزيح عن الإسلام كابوس الاستعمار .

ولد الأمير شكيب بجبل الدروز سنة ١٨٧٠ ونشأه والده نشأة دينية إسلامية ، ثم أرسله إلى بيروت ، وكانت سنه اثنتى عشرة سنه ، لتلقى العلم فى مدارسها الإسلامية ، يوم أن كانت هذه المدارس قلة نادرة ، ومدارس المبشرين كثرة ساحقة .

وفى سنة ١٨٨٢ ، عند ما نزل الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده بيروت كان الأمير شكيب طالبا فى مدرسة الحكمة . فلما تناقلت بيروت أخبار الأمام ، اشتاق الأمير للتحدث إليه ، ولكن الفرصة لم تسنح له إلا بعد ذلك بأربع سنوات . وكان الأمير ميالا للأدب والشعر ، فتيسر له أن يقابل الأمام ، وأن يتحدث إليه ، وأن يتتلمذ عليه روحيا .

وقد كان الأمير شكيب معجبا بالإمام كل الأعجاب ، أخذ عنه الكثير من أفكاره فى أصلاح العالم الإسلامى ، تلك الأساليب التى تميزت بقوة الحجة وسلامة التعبير ، وهدوء المناظرة . فلما انتقل الأمير شكيب سنة ١٨٨٩ إلى دمشق ، وكانت سنه إذ ذاك لا تجاوز العشرين ، استطاع أن يشق طريقه إلى مجلس مفتى الشام العلامة محمد المنينى ، وكان لا يجلس إليه إلا خيرة الشيوخ ، فأعجب به المفتى ، وبشره بمستقبل زاهر فى خدمة الإسلام .

وفى سنة ١٨٩٠ زار الأمير شكيب مصر ومنها تنقل بين ربوع العالم الإسلامى . وله من هذا الطواف غايتان : الأولى أن يشبع روحه بمشاهدة معالم المدنية الإسلامية الغابرة ، والثانية أن ينبه المسلمين أينما نزل لخطر الاستعمار .

وقد صور الأمير شكيب حال العالم الإسلامى فيما نقتبسه له فى هذا المقام من كتابه « لماذا تأخر المسلمون ؟ » يقول رحمه الله .

« لقد أصبح الفساد إلى حد أن أكبر أعداء المسلمين هم المسلمون ، وأن المسلم إذا أراد أن يخدم ملته أو وطنه قد يخشى أن يبوح بالسر من ذلك إلى أخيه ، إذ يحتمل أن يذهب هذا إلى الأجانب المحتلين ، فيقدم لهم بحق أخيه الوشاية التى يرجو بها الزلفى ، وقد يكون أماه بها فارغا .

وكان الأمير شكيب ينعى على العالم الإسلامى إسراف أمرائه وبعدهم عن تعاليم الإسلام . ولا غرابة فى ذلك فقد عاصر من الأحداث ما يسر له اعتناق هذا الرأى . وكان ينعى على علماء الدين تقاعسهم عن العمل على ما يصلح حال المسلمين . وفى ذلك يقول :

« ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص وظن هؤلاء — إلا من رحم ربك — إن الأمة خلقت لهم ، وأن لهم أن يفعلوا بها ما يشاءون ، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى إذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادة ، بطشوا به عبرة لغيره . وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الأمراء ، المتقلبون فى نعمائهم ، الضاربون بالملاعق فى حلوائهم ، وأفتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح ، بحجة أنه شق عصا الطاعة وخرج على الجماعة .

ولقد عهد الإسلام إلى العلماء بتقديم أود الأمراء ، وكانوا قديما ، فى الدول الإسلامية الفاضلة ، بمثابة المجالس النيابية فى هـــذا العصر ،

يسيطرون على الأمة ويسددون خطوات الملك ، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة ، ويهيبون بالخليفة فمن بعده إلى الصواب ، وهكذا كانت تستقيم الأمور ، لأن أكثر هؤلاء العلماء كانوا متحققين بالزهد ، متحلين بالورع ، متخلين عن حظوظ الدنيا ، لا يهمهم أغضب الملك الظالم الجبار أم رضى ، فكان الخلائف والملوك يرهبونهم ، ويخشون مخالفتهم ، لما يعلمون من انقياد العامة لهم ، واعتقاد الأمة أمامتهم . إلا أنه بمرور الأيام ، خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للتعيش ، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا ، فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم ، وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين ، هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء ، وعلو مناصبهم ، يظنون فتياهم صحيحة ، وآراءهم موافقة للشريعة ، والفساد بذلك يعظم . ومصالح الأمة تذهب . والإسلام يتقهقر ، والعدو يعلو ويتنمر ، وكل هذا أثمه فى رقاب هؤلاء العلماء .

ويقارن الأمير شكيب أرسلان بين دعاة التجديد المطلق ، والأخذ بأساليب المدنية الغربية دون تفكير أو تدبر ، وبين دعاة الرجعية المطلقة والجمود ، الذين يأبون على الشرق أن يقتبس من الغرب شيئا ولو كان صالحا ، فيقول :

« ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين : الجمود والجحود ، فكما أن آفة الإسلام هى الفئة الجاحدة التى تريد أن تلغى كل شىء قديم ، بدون نظر فيما هو ضار منه أو نافع ، كذلك آفة الإسلام هى الفئة الجامدة التى لا تريد أن تغير شيئا ، ولا ترضى بادخال أى تعديل على أصول التعليم الإسلامى ، ظنا منهم أن الاقتداء بالكفار كفر ، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار .

« فقد أضاع الإسلام جاحد وجامد .

« أما الجاحد فهو الذى يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ، ويخرجهم عن جميع مقوماتهم وشخصياتهم ، ويحملهم على أنكار ماضيهم، وهذا الميل فى النفس إلى أنكار الإنسان لماضيه مخالف لسنن الكون الطبيعية ، التى جعلت فى كل أمة ميلا طبيعيا للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى وغير ذلك إلا ما ثبت ضرره ...

أما المسلم الجامد ، فانه ليس بأخف ضرراً من الجاحد ، وإن كان لا يشركه فى الخبث وسوء النية ، وإنما يعمل ما يعمله عن جهل وتعصب.

فالجامد هو الذى مهد لأعداء المدنية الإسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية ، محتجين بأن التأخر الذى عليه العالم الإسلامى إنما هو ثمرة تعاليمها ؛ والجامد هو سبب الفقر الذى ابتلى به المسلمون ، لأنه جعل الإسلام دين آخرة فقط ... وهو الذى طرق لأعداء الإسلام على الإسلام ، وأوجد لهم السبيل إلى القالة بحقه ، حتى قالوا إنه دين لا يأتلف مع الرقى العصرى، وأنه دين حائل دون المدنية ، والحقيقة أن هؤلاء الجامدين هم الذين لا تأتلف عقائدهم مع المدنية ، وهم الذين يحولون دون الرقى العصرى ، والإسلام براء من جماداتهم هذه .

ويتحدث الأمير شكيب عن التعصب الدينى فيقول :

« ومن الغريب أن ترى الأوربيين ودعاتهم وتلاميذهم من الشرقيين يتهمون المسلمين بالتعصب الدينى ، وينبزونهم بلقبه ، وينتحلون لأنفسهم التساهل فى الدين » .

« فاذا انبرى قوم يبغون منع الأعتداء على الإسلام ، وينادون المسلمين ليتنبهوا للخطر المحدق بهم ، اتهموا بالتعصب الدينى ، لا بين غير المسلمين فقط ، بل بين المسلمين الجغرافيين أيضا — أعنى الذين يتباهون بأن سياستهم

« لادينية » وطالما صرحوا بأنهم لا يقيمون للدين وزنا ، وطالما تزلفوا إلى المسيحيين بكونهم هم لا يدافعون عن الدين الإسلامى كما يدافع زيد وعمرو

« فالمسلم إذن لا يخلص من لقب « متعصب » إلا إذا علم أن الفرنسيين يحاولون تنصير البربر فى المغرب ، فمر بذلك كأنه لم يسمع شيئا ، وإلا إذا سمع أن الهولنديين نصروا مائة ألف ، وهز كتفه قائلا : أنا لا يهمنى أكان الجاوى مسلما أو مسيحيا ... هنالك يصير المسلم « راقيا » ويعد « عصريا » ويصير محبوبا . ويقال فيه كل خير .

« أما الأوربى ، فله أن يبذل القناطير المقنطرة على بث الدعاية المسيحية بين المسلمين ، وله أن يحميها بالمدافع والطيارات والدبابات ، وله أن يحول بين المسلمين ودينهم بالذات وبالواسطة ، وله أن يدس كل دسيسة ممكنة لهدم الإسلام فى بلاد الإسلام ، وليس عليه حرج فى ذلك ، ولا يسلبه هذا العمل صفة « راق » و « متمدن » و « عصرى »

« وبرغم أمور كثيرة لا يسعنا الآن شرحها ، لا يزالون يخدعون المسلمين قائلين لهم : أن أوربا قد رفست الدين برجلها ، وصارت على خطة لادينية ، وبذلك اتسق لها الرقى ونجحت ، ونحن لن نفلح مادمنا سائرين على خطة إسلامية .

محمد أقبال

ولد أقبال عام ١٨٧٦ فى البنجاب ، وتلقى دراسة محلية بجامعة لاهور فلما نال درجته العلمية ، وظف معيداً بكلية الآداب .

أهل القرن العشرون ومحمد أقبال لايعدو أن يكون واحداً من آلاف الموظفين ، وإن ميزته مهنة التدريس التى هيأت له فرصة الاختلاط بطلبة الجامعة . ولم يلبث اسم أقبال أن لمع فى الوسط الجامعى ، إذ كان ينظم

الشعر باللغة الفارسية ، وقد جمع فى شعره بين الأدب والفلسفة ، فذاع صيته وتغنى طلاب الجامعة بشعره منذ حداثة سنه . وكان أقبال ، فى مستهل القرن العشرين ، يؤمن بما يؤمن به شباب الهند عامة ، من مسلمين وهندوس ، بأن الوحدة القومية هى السبيل الوحيد لتحقيق الأمانى الوطنية .

وفى عام ١٩٠٥ سافر أقبال إلى أوربا ، وأقام بانجلترا ، ثم سافر إلى ألمانيا ، وعاد إلى انجلترا . وقد قضى فى رحلته هذه ثلاث سنوات طبعته بطابع جديد : درس الفلسفة فى كمبردج ، ثم درس التصوف فى ميونخ ، ثم عاد إلى كمبردج فدرس القانون .

وقد كان لرحلته هذه أثر عظيم فى تكييف حياته مستقبلا ، فقد شهد الحيوية والنشاط فى المجتمع الأوربى ، واستعرض ما يقابلهما من ركود وموات فى حياة الجماهير فى الشرق : وأدرك الآفاق البعيدة التى يمكن للبشرية أن تدركها ، مما كانت أوربا تسمى إلى تحقيقه بهمة . بينما كان الشرق يغط فى أحلامه بها ، إلا أنه شهد كذلك التنافس الجنونى بين الأفراد والدول ، ونزعة التطاحن والتكالب على التفوق . بما تنطوى عليه من شهوة التدمير والتخريب .

وقد آمن أقبال بأن تعاليم الإسلام الصحيحة كفيلة بأن تنيل الشرق محاسن الحضارة الأوربية ، خالية من المثالب والآثام التى شهدها

عاد أقبال إلى الهند يحمل هذه الأمانى الحلوة . وعمل على نشرها ببلاغته وفصاحته ، فدعا إليها نثراً وشعراً ، وألهب الحماس فى نفوس الطبقة الوسطى دون الطبقتين العليا والدنيا . أما الطبقة الدنيا فلم ترتفع إلى مستوى آرائه الفلسفية ، وأما الطبقة العليا فلم تقبل على أقبال لأنه كان اشتراكى النزعة .

كان أقبال يدعو إلى يقظة المسلمين من سباتهم ، وكان يقول : « لايجوز عقلا أن يتحرك العالم والمسلمون نيام ، أو أن يتقدم وهم قانعون بالتطلع

إلى ما يجرى تطلع المتفرج ، دون اشتراك فعلى فيما يجرى . وأنه لابد للإسلام من ثورة ، إذا أريد له البقاء .

ومن أروع الأمثلة التى ضربها أقبال فى شعره أن المسلم فى القرون الوسطى كان إذا توفى له ولد بداء استسلم فقال «الحمد لله الذى لايحمد على مكروه سواه » أما مسلم اليوم فيجب عليه أن يعمل على حماية ابنه من أن يلقى مثل ذلك المصير ، وذلك بأن يحصنه ، منذ الصغر ، ضد الأمراض المتفشية بالتطعيم . وبذلك يكتب الله له النجاة .

وكان يبشر بين قومه برسالته التى تتلخص فى أن الإسلام يوجه إليهم دعوة تقدمية . لاترفعهم إلى مستوى الحياة الأوربية الدائبة الحركة فحسب ، بل إلى مستوى أرفع منها من الناحية الخلقية ، وأسرع منها نحو الهدف ، وهو الكمال .

ويعبر عن هذه المعانى فى إحدى قصائده ، فيتحدث عن النهضة الكمالية فى تركيا فيقول : إن قيثارة الترك لا تأتى بألحان جديدة ، فإن جديدها ما هو إلا ما أبلاه الزمن من الألحان الأوربية .

وكان يدعو إلى نهضة فى الشرق ، تلقائية لاتقليدية ، وفى ذلك يقول : إن أوربا قد وضعت أحد قدميها فى القبر ، ولذلك أصبحت عاجزة عن إنقاذ الشرق .

وكان يكره الرأسمالية بمقدار ما يكره الاستعمار ، ولذلك اجتذبت دعوته إليه الطبقة المتوسطة عن إدراك وفهم ، كما اجتذبت إليه الملايين من الطبقة الدنيا عن طريق التقليد . وكان لا يكره الرأسمالية لذاتها ، بل يكرهها عن طريق العطف على ضحاياها البشرية .

وفى صدر القرن العشرين ، آمنت أكثرية المسلمين المستنيرين بالهند بأن الدعوة القومية التى يدعو إليها حزب المؤتمر تنطوى على استهداف مصالح الأقلية الإسلامية للخطر ، وظهرت فكرة التكتل الإسلامى فأنتجت

« الرابطة الإسلامية » ، فلم يتردد أقبال فى اعتناق الفكرة ، بل زاد فجعل مستقبل المسلمين فى الهند مسرحا لجولاته الفلسفية الأدبية فى شعره ونثره .

وقد كان من حسن حظى أنى قابلت أقبال فى يناير سنة ١٩٣٧ ، وتحدثت إليه فى هذا الشأن ، فإذا به يعرض للمشاكل السياسية والاقتصادية والدينية والعنصرية والتاريخية ، ثم يعرض للجهود الجبارة التى يبذلها المسلمون المستنيرون للتحرر من التحكم الهندوسى فى مصائر شعب لم يألف الاستكانة أو الخضوع ، ثم يخرج من كل ذلك بنتيجة واحدة ، هى : أن لا مندوحة للمسلمين من أن يستقلوا عن غيرهم من سكان الهند ، حتى يمكن لهم — فى كنف هذا الاستقلال — أن يرفعوا من شأنهم وأن يسهروا على مصالحهم . وإذا به يخرج من كل ذلك بفكرة « باكستان » . وقد كانت هذه الجلسة التاريخية ، بالنسبة إلىّ ، مفتاح العلم بفكرة الباكستان ، أيام أن كانت مجرد أمنية فى نفس « أقبال » .

وقد هيأ أقبال الأذهان لقبول فكرته بأن أصدر ديوانا يقوم فيه الشعر على فلسفة القوة . فبعث ذلك فى نفوس المسلمين بالهند رغبة ملحة فى أن يستعيدوا مجدهم الفائت ، وقوتهم الضائعة ، ودفعهم إلى أن يؤمنوا بأن لا سبيل إلى تحقيق الأحلام إلا إذا استيقظ النائم وسعى القائم ، وخرج الناس من حيز الفكر إلى حيز العمل ، العمل القوى الفعال .

وكانت دعوة التجديد فى الإسلام ، التى كان ينادى بها أقبال ، غير قاصرة على مسلمى الهند ، فإنه كان يتحدث إلى العالم الإسلامى بأجمعه ، يحاول أن يرفع الروح المعنوية للمسلمين أينما كانوا ، ويشكك فى الحضارة الأوربية ويرى أن مستقبل المسلمين رهن بعدم الاستسلام لهذه الحضارة التى جلبت على أوربا مصائب الحروب .

وخير ما نختم به الحديث عن أقبال أن نقتطف من مقال لصديقنا

الأستاذ محمد مظهر سعيد نشرته له مجلة « رسالة الباكستان » عن فلسفة أقبال .

يستهل الأستاذ مظهر حديثه عن أقبال فيقول :

ورث أقبال حكمة الهند عن أسلافه البراهمة الذين أسلموا منذ ثلاثة قرون ، وورث حب الإسلام ورسوله عن آبائه المسلمين ، ونهل من معين الفلسفة الغربية فى أوربا ، وحصل على أجازاتها الجامعية من كمبردج وميونخ ، وقدم رسالته فى تطور الميتافيزيقيا عن الفرس ، وتأثر إلى حد كبير بتعاليم « نيتشه » فى السوبرمان ، و « برجسون » فى التطور المبدع ، و « كنت » فى النقد والاتجاه العملى ، ثم هو من جانب آخر تأدب بأدب الفرس ، وتأثر بشعر « حافظ » ، ثم عرج على التصوف فتأثر بمذهب « جلال الدين الرومى » .

أفلا يحق لنا إذن أن نقول عنه كما قال « مهيار » عن نفسه « جمع المجد من أطرافه ، حكمة الهند ، وفلسفة الغرب ، وأدب الفرس ، ودين العرب » .

ثم يحلل الأستاذ مظهر دراسات أقبال وآراءه الفلسفية . فيتكلم عن آرائه فى فلسفة الشرق ، وفلسفة الغرب . وفلسفته الخاصة ، وإيمانه بالذات ، ورأيه فى السؤال وذل السؤال ، ورأيه فى الحب وفكرته فى تربية الذات .

ثم يختم مقاله بالحديث عن رسالة أقبال فيقول :

هذا هو أقبال رسول العصر الذى يقول عن نفسه : « لست فى حاجة إلى الأذن (التى تسمعنى) اليوم ، فأنا صوت شاعر الغد ، أهدى الضال ، وأنادى بروح جديدة .

وهذه هى فلسفة أقبال ، الفلسفة الإسلامية التى لا تعرف وطنية جغرافية ، ولا شعوبية ، غير الأخوة الإسلامية التى تجعل المسلم سيد الدنيا

يا أيها المسلم إن الأرض والسماء لك
ضياؤك القدسى أعلى من شرارات الفلك

* * *

ما جئت فى الدنيا لتفنى وهى بالخلد تدوم
هل تصبح الشمس أقل قيمة من النجوم

هذه هى فلسفة أقبال المثالية ، التى تسعى للحق والكمال ، والخير والجمال ، فى ظل الإسلام .

رحم الله أقبال ، وطيب ثراه ، وخلد ذكراه .

حسن البنا
وجماعة الإخوان المسلمين

فى أخريات العقد الثالث من القرن العشرين ، ظهرت فى مصر دعوة جديدة ، إسلامية فى أساسها ، تجديدية فى أسلوبها ، إصلاحية فى أهدافها ، عالمية فى توجيهاتها : تلك هى دعوة الإخوان المسلمين .

ولد الشيخ حسن البنا فى مستهل القرن العشرين ، لأبوين مسلمين صالحين ، فى مدينة الرحمانية بمديرية البحيرة ، وهى المديرية التى أنجبت من قبله الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده طيب الله ثراه .

تلقى الشيخ العلم فيما بين الرحمانية ودمنهور والقاهرة ، وانتهى به الأمر إلى التخرج فى دار العلوم عام ١٩٢٧ ، ثم عين مدرسا للعلوم العربية والدينية بالمدرسة الابتدائية بمدينة الاسماعلية .

منهاج دراسى لا تظهر فيه للشيخ عبقرية ، وأن ميزته على أترابه ، فى كل مراحل دراسته ، مجموعة من المظاهر ، هى فى نظرنا مقدمات الدور الذى قام به فى عالم الإصلاح الإسلامى ، فأقض به مضجع دول الاستعمار وعلى رأسها بريطانيا .

ورث الشيخ عن أبيه تدينا مثاليا ، فى غير إفراط ، بمثل ما ورث عنه خلقاً عمليا أدى به إلى تعلم صناعة الساعات وقتما كان طالبا ، ولعل هذه الصناعة قد علمته الدقة والنظام أكثر مما تعلمها من حياته المدرسية .

كاد أن يسلك سبيل الدراسة الأزهرية فاتجه به حظه إلى مدارس المعلمين ، وكاد أن يكون مدرساً محدود المجال فى مديرية البحيرة ، فاتجه به حسن طالع دعوته إلى إتمام دراسته فى دار العلوم العليا ، وكاد أن يسافر فى بعثة إلى الخارج لا يعلم إلا الله مدى تأثيرها فيه ، فأراد الله له أن يبقى فى وطنه ، وأن يسهر على دعوته ، وأن يستشهد فى سبيلها .

ولع الشيخ منذ صباه بالدراسات الدينية ، فقرأ كل ما تيسر له من كتب الفقه والتفسير والحديث ، فأشرب بذلك لبان الدعوة الإسلامية الحقة وهو لا يزال يافعا . ويبدو ذلك فى اتجاهه ، وهو لا يزال طالبا مبتدئاً ، إلى جماعات الإصلاح الخلقى يكونها من بين أقرانه من التلاميذ ، فنراه يشترك فى جمعية الأخلاق الدينية ، ثم جمعية منع المحرمات ، ثم نراه ينتسب إلى إحدى الطرق الصوفية ، وهى الطريقة الحصافية ، ويعجب بنقيبها بمقدار ما يعجب به النقيب ، فلا يلبث إلا أن يؤلف من بين أتباع هذه الطريقة جماعة إصلاحية هى الجمعية الخيرية الحصافية .

ثم يسافر الشيخ إلى القاهرة ، فيصل إليها فى أواخر صيف سنة ١٩٢٣ طالبا الالتحاق بدار العلوم العليا فيتحقق له ذلك .

ويشهد الشيخ العاصمة لأول مرة فى حياته ، وقد استرعى انتباهه مشهدان : أما الأول فالحركة السياسية الحزبية التى تمخضت عنها ثورة سنة ١٩١٩ وما تلاها من أحداث ، فنرى الشيخ يقف من هذه المعارك الحزبية موقف المتفرج ، لا تجذبه إليها جاذبة ، ولا يرضى بأن يقحم نفسه فيها .

أما المشهد الثانى . فإن الشيخ قد رأى فى القاهرة حالة من التفكك

الخلق والابتعاد عن الدين بعداً يهدد كيان المجتمع الإسلامى ، وهنا يبدو على الشيخ هم مقيم مقعد ، فهو ينظر إلى خبائث المدنية الغربية نظرة القروى المتدين فيهوله الأمر . فيهرول إلى مجالس علماء الدين . ويلتق بأئمتهم من أمثال الشيخ الدجوى ، ويحدث الشيخ الدجوى بما فى دخيلة نفسه ، ويطالب بأن يكون لعلماء الأزهر موقف بأزاء هذا الخطب الجلل ، فلا يستجيب له الشيخ الدجوى بمقدار ماكان يتوقع من استجابة ، فتثور نفسه ، ويخرج عن الحدود المرسومة بين كبار الشيوخ وصغارهم ، وتتولد فى نفسه عقدة اليأس من إصلاح الحال على أيدى هؤلاء المعمرين من رجال الدين ، ويؤمن بأن الدعوة الفتية لابد لها من شباب فتى يتعهدها .

يتخرج الشيخ فى دار العلوم ، ويعين مدرساً فى مدينة الإسماعيلية فيحاول أن يقضى وقته بين مدرسته وبيته ، ولكنه لا يلبث أن تترامى إليه أنباء المدينة الدينية ، وظروفها الاجتماعية . وعرف فيما عرف أن هذا البلد الذى تغلبت عليه النزعة الأوربية ، إذ تحيط به المعسكرات البريطانية من غربيه ، وتكتنفه مستعمرة شركة القنال من شرقيه ، ومعظم أهله يعملون فى هاتين الناحيتين ، ويتصلون بالحياة الأوربية من قريب ، هذا البلد ، مع هذا كله ، فيه شعور إسلامى قوى ، والتفاف حول العلماء وتقدير لما يقولون .

ويرى الشيخ ، وقد لبس الملابس الإفرنجية تلبية لدعوة وحدة الزى بين أبناء دار العلوم ، أن بيئة الإسماعيلية صالحة لنشر الدعوة الإسلامية فقام بالدعوة فى المسجد ، ثم انتقل من المسجد إلى القهوة ، فذاع ذكره فى المدينة ، وأقبل عليه الناس ، واستطاع أن يشق طريقه بدعوته بين أشواك ألقى بها فى طريقه قصار النظر .

فإذا جاء شهر مارس من عام ١٩٢٨ ، رأينا ستة من أصدقائه ومريديه ، وجميعهم من عمال مدينة الإسماعيلية ، يقصدون داره فيتحدثون إليه ، وفى

صوتهم قوة ، وفى عيونهم بريق . وعلى وجوههم سنا الإيمان والعزم .
يتذاكرون معه فى الوسيلة العملية لتحقيق دعوته ، ولا ينفض الجمع إلا
وقد بايع الإخوان الستة الأستاذ على العمل للإسلام والجهاد فى سبيله ،
وأن يؤلفوا من بينهم جماعة تعمل على تحقيق أهدافهم ، فقرت منه العين
بذلك ، ولما كان غير طبيعى أن تلتئم الجماعة ، ولا تتخذ لها اسما ، فقد
طلبوا إليه أن يختار لها اسما ، وبذلك تألفت من بين هؤلاء جماعة
« الإخوان المسلمين »

لم تكن فكرة الإخوان المسلمين فكرة طارئة ، ولم يكن الأستاذ البنا
مجرد رئيس أتته الرياسة منقادة ، بل إنه كون فى نفسه هذه الجماعة منذ
أن كان طفلا ، ونمت فى رأسه الفكرة وترعرعت بقدر ما كان جسمه
ينمو ويترعرع . فهى بذلك جزء منه ، وهو جزء منها ، لا غنى لأحدهما
عن الآخر .

وما دام الأمر كذلك ، فلا غرابة فى أن تولد الجماعة عام ١٩٢٨
كاملة الخلق محددة الأهداف .

ولم يسبق لزعيم من زعماء الفكر الأسلامى فى العصر الحديث أن
خرجت أفكاره إلى خير التنفيذ فأعتنقها مئات الآلاف على منهاج
منظم ، ووفق سياسة موضوعة ، واضحة الأهداف ، إلا دعوة الأخوان
المسلمين .

وأنا إذ أقرر ذلك من الناحية التاريخية ، أبادر بانتهاز الفرصة
فأدرأ عن نفسى شبهة التحيز ، فأنا لم أنتسب لهذه الجماعة فى يوم من
الأيام . ولم ألق المغفور له حسن البنا إلا مرة واحدة ،فى زيارة عابرة ،
برفقة صديق من أصدقائه ، وقد آمنت بعد هذه الزيارة بأن الرجل جاد
غير هازل ، وأن دعوته جدية لا هزل فيها .

أما أهداف هذه الدعوة ، الدعوة الاسلامية الكبرى فى القرن العشرين ، فتتلخص فيما يلى .

نظر الإخوان إلى ما وصلت إليه الحال فى وادى النيل من فساد تغلغل فى كل المرافق ، من فشل فى المطالب الوطنية ، إلى تحطم فى الروح المعنوية ، إلى شقاق وخلاف تملك نفوس القادة والزعماء ، إلى جهاز إدارى أفسدته المطامع الشخصية ، إلى قانون صغف سلطانه على النفوس ، إلى إنحطاط فى مستوى المعيشة ، إلى أخلاق قد عصف بها الجهل والفقر ، إلى إنحلال خلقى فى كل مكان .

ويتسع أفق الجماعة ، فتخرج من وادى النيل إلى ما جاوره من أرض العروبة والأسلام . فتطلع إلى ما وصلت إليه حال تلك البلاد من مشاكل تدور كلها حول تحكم المستعمرين الأجانب فى الوطن العربى الأسلامى ، فأشرب المسلمين ذلا بعد عز ، وسامهم ظلماً بعد عدل ، وقد انحدرت الأوضاع الاجتماعية فى العالم الأسلامى بمثل ما انحدرت فى وادى النيل .

ثم يتزايد إتساع الأفق ، فينظر الأخوان إلى ما اتجه إليه التفكير بين زعماء العالم وساسة الشعوب ، إذ اختفت المثل العليا ، وغابت عن الأنظار والقلوب تلك الأهداف التى نادى بها هؤلاء الناس ساعة العسرة ، وساد العالم بأ كمله فلسفة المصالح المادية ، والمطامع الاستعمارية ، ومناطق النفوذ ، والإستيلاء على المواد الخام ، وكل ذلك على صورة من الجشع والنهم لم تر الدنيا لها مثيلا .

وقد عرضت الجماعة للأمر من نواحيه الثلاث : المصرية البحتة ، والعربية الأسلامية ، والدولية العامة ، ورسموا لها الحلول الآتية :ـ

أما فى مشكلة وادى النيل ، فأن الأسلام يعلن الحرية ويزكيها ، ويقررها للأفراد والأمم والجماعات بأفضل معانيها ، ويدعوهم إلى

الاعتزاز بها والمحافظة عليها ، ويقول نبيه صلى الله عليه وسلم « من أعطى الذلة من نفسه طائعاً غير مكره فليس منى » ، وهو يحارب هذه اللصوصية التي يسمونها إستعماراً بكل ما فيه من قوة ، ولا ترضى تعاليمه أبداً بأن تسود أمة أمة ، أو يزهو شعب شعباً آخر .

ويوم قرر الأسلام هذا، قرر الطريق العملى إلى حماية هذه الحرية ، وأفترض الجهاد بالنفس والمال ، وجعله فرض كفاية لتأمين الدعوة ، وفرض عين على كل أبناء الأمة لرد العدوان على الوطن ، إذا واجهته قوات الغزاة من غير المسلمين .

ومع هذا فقد رحب الأسلام بالوسائل السلمية وأنهاء الخصومة متى أدت هذه الوسائل إلى الاعتراف بالحق الكامل لأصحابه ، ومن السلم المفاوضة إذا أوصلت إلى الحق الكامل ، ومن السلم التحاكم إذا أدى إلى هذا الحق أيضاً . فأذا فشلت هذه الجهود السلمية ، فأن رأى الأسلام صريح فى « النبذ » الذى يتضمن أعلان الخصومة ثم الأخذ توا بكل وسيلة من وسائل الجهاد .

لقد فاوضنا فلم نصل إلى شىء لتعنت الانجليز وتصلبهم ومناورتهم ، واحتكمنا فلم نصل إلى شىء أمام تغليب المصالح الدولية والمطامع الاستعمارية ، لم يبق إذن إلا « النبذ على سواء » بأن نعلنهم بالخصومة الصريحة السافرة ، ونقرر فى صراحة إلغاء ما بيننا وبينهم من معاهدات واتفاقات ، ونعلن إعتبار أمة الوادى معهم فى حالة حرب (ولو سلبية) وننظم حياتنا على هذا الاعتبار — إقتصادياً بالاكتفاء والاقتصار على ما عندنا وعند إخواننا العرب والمسلمين والدول الصديقة إن كانت — وإجتماعياً بتشجيع روح العزة والكرامة وحب الحرية — وعملياً بتدريب الشعب كله تدريباً عسكرياً حتى يأتى أمر الله ، وتهيأ النفوس لذلك بدعاية واسعة تامة كاملة ، كما تفعل الأمم إذا واجهت حالة الحرب الحقيقية ، وبتغيير كل الأوضاع الأجتماعية على هذا الأساس .

أما فى بقية أنحاء العالم الأسلامى فترى الجماعة أن القضية كلها قضية واحدة، معناها استكمال الحرية والاستقلال، وتكسير قيود الاستغلال والاستعمار .

ولذلك لابد أن نتكتل ونتوحد . وقد بدأنا بالجامعة العربيه، وهى وأن كانت لم تستقر بعد الاستقرار الكامل، إلى أنها نواة طيبة مباركة على كل حال . فعلينا أن ندعمها ونقويها، ونخلصها من كل ما يحيط بها من عوامل الضعف والتخلخل . وعلينا بعد ذلك أن نوسع الدائرة حتى تتحقق رابطة أمم الأسلام — عربية وغير عربية — فتكون نواة لهيئة الأمم الأسلامية بأذن الله .

أما نظر الجماعه إلى المشكله العالمية، فإنها ترى أن قيام كتلتين تتنازعان العالم اليوم — الديمقراطية والشيوعية — سيؤدى بهذا العالم إلى حرب ثالثة . عدتها القنابل الذرية والغازات الخانقة والأسلحة المهلكة . وأنه لا منجاة للعالم من هذه المحنة إلا بأن يسود العالم روح الأخوة العالمية التى نادى بها الأسلام . كما ترى أن تكتل الدول العربية والأسلامية لتكوين جبهة ثالثة قد يكون فيه الخلاص السلمى من المشاكل التى تهدد العالم فى صميم كيانه .

هذه هى نظرة الأخوان المسلمين إلى المشاكل المحلية والعالمية، قد لخصناها فى أضيق نطاق مستطاع، ولعل السبب فى هذا الأختزال — الذى قد يكون مخلا فى بعض المواضع — أن الأخوان المسلمين جماعة معاصرة لا يسهل على من يؤرخ لها أن يستوفى كتابته دون أن يتهم بأنه وقع تحت تأثير .

نشأت جماعة الإخوان — كما قدمنا — بمدينة الإسماعيلية، ثم انتقل مركزها الرئيسى إلى القاهرة فاتسع مجال نشاطها، ونودى بالأستاذ حسن البنا مرشداً عاما للجماعة، وانضم إليها خلق كثيرون ممن بهرتهم الدعوة

بسلاستها ونقائها ، على الرغم مما حدث من خروج فريق لم يكن من رجال الصفوف الأولى ، ظهرت على أثره جماعة جديدة باسم « شباب محمد » سنة ١٩٣٩ ولكن جماعة الإخوان المسلمين سارت فى طريقها تتقبل البيعة من عشرات الآلاف ، بل مئاتهم، فى مختلف أنحاء الوادى ، فكان لها من الشعب ما لم تحظ به أية هيئة دينية أو سياسية أو اجتماعية من قبل .

واتصل الإخوان فى وادى النيل بإخوانهم ومن على شاكلتهم فى أنحاء العالم العربى ، فتأسست جماعات على غرارها، أو فروع للمركز العام بالقاهرة، فى معظم أنحاء العالم العربى . وحظى أقطاب الجماعة بتقدير ولاة الأمور فى البلاد الإسلامية المستقلة .

وانصرف القائمون على شئون الجماعة إلى تحقيق أهدافها ، فأنشأوا مراكز لتربية الشباب تربية تهدف إلى تنشئتهم على فضائل الإسلام العملية وألفوا فى صفوفهم نظام الأسرة والكتائب الروحيه وهو نظام لا تخلو منه شعبة بحال من الأحوال ، وقد كان لهذا النظام أثره فى تنشئة شباب الإخوان على أسس من الاستبسال لا تتوافر لغيرهم ، كما أنشأوا أندية لتدريب الشباب تدريباً كشفيا وعسكريا ، وأسسوا المستشفيات والعيادات الخارجيه لعلاج المرضى من الفقراء ، وأنشأوا لهم جريدة يوميه تسهر على بث مبادئهم الإصلاحيه ، وأمطروا العالم العربى بالمطبوعات التى يهدفون بها إلى تحقيق رسالتهم الدينية والثقافية والاجتماعية .

أما رسالة الجماعة الروحية ، فتتلخص فى العمل على إقامة حكم إسلامى قوامه الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية ، ووسيلتها إلى ذلك العمل على إيجاد رأى عام يفهم الإسلام ، ويعمل به ، ويتحمس لمبادئه ، وينادى بإحلال قوانينه محل القوانين الوضعية . وقد نجح الإخوان المسلمون فى ذلك نجاحاً ملموساً ، فإن من يقارن بين قوة الرأى المطالب بالتشريع الإسلامى اليوم ، وما كانت عليه يوم قامت الجماعه لأول مرة ، يجد البون شاسعاً .

ومن أهم ما امتازت به رسالة الإخوان أنها رسالة إيجابية ، فلطالما نادى المصلحون بضرورة إصلاح حال المسلمين ، ولكنهم لم يرسموا لذلك طريقا واضحة المعالم ، فكانوا أشبه شيء بطبيب يشخص الداء ولكنه لا يصف الدواء . أما الإخوان المسلمون فكانوا حين يعرضون لمشاكل العالم الإسلامى وعلله ، يحرصون على ذكر أسبابها : وهى البعد عن الإسلام والتخلى عن تعاليمه ، والانسياق مع الموجة المادية التحللية التى يرمينا بها الغرب . أما العلاج كما تصفه الجماعة فهو العودة إلى الإسلام والأخذ بتعاليم القرآن .

ثم أدلوا بدلوهم فى عالم الاقتصاد ، فأسسوا المؤسسات الصناعية ، برؤوس أموال إسلاميه ، تنشد تدريب البلاد على الاستكفاء وتكافح الاستعمار الاقتصادى للبلاد .

وقد أيقن البريطانيون — فى فزع بالغ — مدى ما يمكن أن يؤول إليه أمر هـذه الجماعة من تهديد لسياسة الاستعمار الأوربى على وجه العموم ، والاستعمار البريطانى لمصر بوجه خاص .

فلما كانت الحرب العالمية الثانية ، انتهزها البريطانيون فرصة للعمل على القضاء على هـذه الجماعة قضاء ينقذ الاستعمار مما يراد به ، فأغروا الحكومات المصرية المتعاقبة بهذه الجماعة ، وصوروا لها خطر الجماعة على هذه الأحزاب من الناحية الحزبيـة ، ومن المؤسف أن الحكومات المتعاقبة قد استجابت لهـذا الأغراء فاضطهدت الجماعة أيما اضطهاد ، واستعانت عليها بسيف الأحكام العسكرية المسلط على الرقاب .

ولم يقتصر أغراء البريطانيين بالجماعة على الحكومات المتعاقبة ، بل تعداه إلى القصر الملكى ، لجعل الملك فاروق ينظر إلى هذه الجماعة نظرة عداء ، كما جعله يوقن أن فى نشاط الجماعة تهديدا للملك ، فاتخذها عدوة له ، وما كان أحراه بأن يتخذها ناصحة صديقه . ومن يدرى فلعله لو فعل ذلك لتغيرت مصائر الأمور !

أغلقت أندية الجماعة فى كل أنحاء البلاد ، وصودرت أموالهم ، وصفيت مؤسساتهم العلاجية والاقتصادية ، وقذف بالبارزين ، بل وبغير البارزين من الإخوان ، فى غياهب السجون ، وأذيقوا من العذاب مالا يتحمله ويصمد له إلا المؤمنون .

وفى مساء ١٢ فبراير من سنة ١٩٤٩ نكبت الجماعة فى أعز أبنائها إذ اغتيل المغفور له الأستاذ حسن البنا وهو خارج من مبنى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة .

وكثرت الأقاويل فى ذلك ، وظل السر مكبوتا لا يتحدث به الناس وطمست معالم الجريمة على أيدى رجال الحكم الذين ناصبوا الجماعة العداء السافر .

فلما خلع الملك السابق فاروق عن عرشه فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ، أثيرت القضية من جديد ، وقد أسفرت إعادة التحقيق عن اتهام أعوان الملك السابق ورجال حكومته وقتذاك — وعلى رأسهم الأستاذ إبراهيم عبدالهادى — بأنهم دبروا الجريمة التى أودت بحياة المرشد العام ، طيب الله ثراه ، وجعل الجنة مأواه .

الباب الثالث

الفصل الأول

الهجرة ، الاستعمار ، الاحتلال

قبل أن نتحدث بالتفصيل عن النزعات الاستعمارية لكل دولة من الدول الأوربية التى كان العالم الإسلامى ميدانا لنشاطها ، يجدر بنا أن نتحدث عن ثلاث من الظواهر التاريخية : الهجرة ، والاستعمار ، والاحتلال .

الهجرة

الأصل فى الهجرة أن تنتقل مجموعة من السكان — رجالا ونساء — من بلد مزدحم بهم إلى بلد آخر بقصد الاستيطان . وطبيعى أن يكون البلد الذى يقع عليه اختيار المهاجرين أقل ازدحاما بالسكان من البلد الذى يهاجرون منه .

وقد كانت حركات الهجرة من أهم العوامل فى تكييف الاوضاع فى العالم فى العصر الحديث ، كما كانت أبعد أثرا من الغزو المسلح ، ذلك أن المنتصر العسكرى لا يستطيع الاحتفاظ بالأرض المفتوحة إلا على أسنة الرماح ، وغالبا ما يصطدم بشعب ينطوى على ثورة قد تفرخ فى أى وقت ، أما المهاجرون فأنهم ينزلون بالمهجر ثم لا يلبثون أن يصبحوا أصحاب السلطان فيه .

ولقد بدأت الهجرات الحديثة بعد كشف أمريكا ، وتطورت معاصرة للمغامرات التجارية .

فنرى أن أسبانيا فتحت الطريق ، فنزل المهاجرون الأسبان مساحات

شاسعة من أمريكا الشمالية ، وأمريكا الجنوبية ، التي لا يزال يغلب عليها الطابع الأسبانى فى اللغة والعادات وأساليب المعيشة . ولعبت البرتغال وهولنده دوراً لا يستهان به فى هذا الميدان . وكان من حسن حظ هذه الدول الثلاث أن المهاجرين منها كانوا طلاب رزق وغنى ، ولم يكن عامل الاستعمار السياسى يلعب دوراً بارزاً فى مستهل هذه الهجرات . إلا أن المنافسة بين المهاجرين ، وكل منهم ينتسب إلى دولة لا يستطيع تجاهل انتسابه اليها ، أقحمت الدول فى هذه المنافسة . ومع كل ، فقد كانت المنافسة بين هذه الدول الثلاث فى ميدان الهجرة ذات أثر محدود ، ولكن المنافسة لم تصبح ذات أثر فعال فى مستقبل العلاقات بين الدول إلا بعد أن نزلت كل من انجلترا وفرنسا فى هذا الميدان ، فأن مغامرات البحارة البريطانيين قد مكنت لبريطانيا أن تؤسس لها نفوذاً فى جزيرة نيوفوند لاند (الأرض الجديدة ، فى الشمال الشرقى من أمريكا الشمالية) ، ومنها انتشر المهاجرون البريطانيون فى أمريكا الشمالية حتى أدركوا المحيط الهادى غربا ، وبلاد المكسيك جنوبا

وبينما كان ذلك يجرى ، كانت فرنسا قد أدلت بدلوها فى غمار الهجرة ، فنزل الفرنسيون أنحاءاً شتى فى أمريكا الشمالية ، ولم يلبث الفرنسيون والبريطانيون أن وقفوا أنداداً متسابقين فى هذا التوسع الامبراطورى

وقد لعب الدين دوراً كبيراً فى حركات الهجرة الأولى ، فإن الغيرة على الكنيسة الكاثوليكية دفعت بأسبانيا إلى أن تحاول أن تخلق أمة كاثوليكية مثالية فى أمريكا الجنوبية . أما ملوك فرنسا فقد دفعتهم الغيرة الدينية الى أن يحاولوا خلق شعب جديد يتغلبون به على ما طغى على القارة الأوربية من نزعات الإلحاد ، فأسسوا على ضفاف نهر السنت لورنس فى كندا دولة فرنسية جديدة . كما أن المهاجرين البريطانيين الذين ركبوا

البحر من ميناء بليموث بانجلترا عام ١٩٢٠ ، كانوا دعامة الولايات المتحدة الأمريكية الحالية .

وثمت عامل آخر دفع إلى الهجرة وهو الفقر ، وأروع الأمثلة على ذلك السيل الدافق المتواصل من المهاجرين الأرلنديين إلى أمريكا فى أيام المجاعة التى اجتاحت أيرلندة فى القرن التاسع عشر .

أما الدافع الثالث من دوافع الهجرة فهو الطموح وحب المخاطرة ، ويتمثل ذلك فى اندفاع المغامرين الطامحين من انجلترا واسكتلنده نحو القارة الأمريكية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر .

وعندما آذن نجم كل من أسبانيا وهولنده بالأفول ، ودب الضعف والاضمحلال إلى كفايتهما البحرية ، بتفوق البحرية البريطانية عليهما ، وقف سيل المهاجرين منهما أو كاد ، وتلاشت أغلبية المهاجرين الهولنديين بأمريكا الشمالية ، فى الغالبية الساحقة من المهاجرين البريطانيين .

ويعتبر جنوب أفريقية مثلا أعلى للهجرة الهولندية الناجحة ، ولا تزال هذه البلاد إلى اليوم محتفظة بالطابع الهولندى فى اللغة والتقاليد ، على الرغم من أنها أصبحت بريطانية فى نظم الحكم .

وقد أدى إسكان المجرمين البريطانيين فى استراليا إلى خلق مستعمرتى استراليا وزيلنده الجديدة ، اللتين أصبحتا بعد ذلك من أهم الأعضاء فى منظمة الأمم البريطانية المعروفة باسم الكومنولث Commonwealth

وقد كان كشف الذهب فى كاليفورنيا (فى غرب أمريكا الشمالية) واستراليا فى القرن التاسع عشر من أهم الأسباب التى ساعدت على تعمير استراليا واستيطان شواطىء المحيط الهادى .

وقد كانت هزيمة الحركة التحريرية ، وقيام الامبراطورية فى ألمانيا ، سبباً فى هجرة الألمان نحو الغرب ، تلك الهجرة التى شجعتها الروح العسكرية

ودفع بها الفقر. على أن الشعب الألمانى لم يستأنس الهجرة إلى المستعمرات الألمانية ، بل إندفعت غالبية المهاجرين إلى الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية قبل الحرب العالمية الأولى . أما بعد انتهاء تلك الحرب. فان هجرة الألمان الى الولايات المتحدة قد قيدت ، ولذلك اندفعت سيول المهاجرين الألمان إلى أمريكا الجنوبية .

ولقد كانت الآفاق الصناعية ، وارتفاع أجور العمال فى الولايات المتحدة ، من أهم الأسباب التى جعلت المدن الأمريكية الكبرى كعبة يحج اليها المهاجرون .

ولقد فشلت كندا فى اجتذاب مهاجرين جدد ، حتى كان القرن التاسع عشر ، فلما ازدحمت الولايات المتحدة بالمهاجرين ، نزح المهاجرون الزراعيون إلى كندا حيث توجد المراعى الكبرى ، واتجهت أنظار القادمين من أوربا إلى كندا ، وقد عمدت الحكومة الكندية وقتا ما إلى وقف الهجرة خوفا من تأثير المهاجرين – وكلهم من العمال – فى حركة الانتخابات النيابية .

ومن أهم الهجرات التى عرفها العالم فى العصر الحديث ، الهجرات اليابانية إلى سواحل المحيط الهادى والجزر الواقعة فيه . وقد تمت هذه الهجرات تحت تأثير الازدياد المضطرد فى عدد السكان . ولقد خلقت هذه الهجرات كثيراً من المتاعب للجنس الأبيض الذى نزل بهذه السواحل وخاصة فى كاليفورنيا ، التى اضطرت إلى سن تشريع توقف به سيل الهجرة اليابانية ، فكان ذلك سببا فى الجفوة بينها وبين اليابان ؛ فإن اليابانيين يطالبون بأن يعاملوا معاملة الجنس الأبيض على قدم المساواة فى الحقوق والواجبات ، بينما يرى أهل كاليفورنيا أن تطبيق هذه القاعدة سيجعل بلادهم يابانية الطابع .

واليابانيون أغلبية فى جزر الهواى ، كما أن أعدادهم تكثر فى سيبريا الشرقية . كما أن لليابان جالية فى كل ميناء أو مركز تجارى فى شرق آسيا .

هذه هى أهم الهجرات التى عرفها العالم منذ القرن السادس عشر. وقد وضح أن الهجرة ظاهرة اجتماعية فى دوافعها، اجتماعية فى أساليبها، لا تلعب فيها الحكومات إلا دوراً ثانويا : هو حماية رعاياها فى المهجر عندما يهددهم خطر . فاذا اجتمع من المهاجرين عدد كبير فى مكان بذاته . بحيث يكونون غالبية السكان فى العدد أو فى النفوذ . تطلعت الدولة إلى استغلال هذا المظهر . فى حدود الصلة التى يمكن أن تقوم بين المهاجرين من ناحية ، والحكومة التى كانوا ينتمون اليها قبل الهجرة من الناحية الأخرى . فاذا تغلبت الروح الوطنية الأصلية على المهاجرين ، أسست الدولة الأصلية نفوذها السياسى فى هذا المهجر ، وصار المهجر بلداً تابعاً للدولة الأصلية كما حدث فى استراليا وزيلنده الجديدة .

أما إذا تغلبت فى نفوس المهاجرين النزعة الانفصالية ، تغذيها الأسباب التى من أجلها حدثت الهجرة . كالاضطهاد الدينى أو السياسى ، فأن المهجر يصبح دولة قائمة بذاتها كالولايات المتحدة الأمريكية . ولا يعنى ذلك أن تتقطع الأسباب كلها بين المهجر والوطن الأصيل . فقد تجمعهما جامعة اللغة والثقافة والتقاليد . ولكنهما يختلفان فى السياسة وإن أتحدت بينهما أساليب الحكم .

وواضح أن العالم الإسلامى لم يستهدف لشىء من هذه الهجرات . اللهم إلا إذا اعتبرنا أن نزوح الفرنسيين من الأرض الفرنسية إلى الساحل الأفريقى المقابل لها — فى تونس والجزائر — من نوع هذه الهجرات . يؤيد هذا الرأى أن غالبية المهاجرين الفرنسيين قد استوطنت الساحل الأفريقى ، ومارست من الأعمال ما يمارسه الوطنيون من زراعة وفلاحة بفارق واحد : هو أن المزارع الفرنسية مزارع نموذجية . يعمل فيها العلم وتسودها أساليبه ، بينما ظلت المزارع الوطنية — إلى اليوم — نموذجا للمزارع القديمة . ذات الأساليب البالية .

ويعلل أهل البلاد هذه الظاهرة بأن الفرنسيين نزلوا بلادهم مستعمرين تؤيدهم دولتهم بالمال والمستحدث من الآلات . وتغدق عليهم من المزايا مايرجح كفتهم فى الزراعة على كفة الوطنيين .

وكذلك هجرة الإيطاليين إلى ليبيا وتونس . فأنها مثل آخر لنزوح المهاجرين من سواحل اوربا الجنوبية الى سواحل أفريقية الشمالية .

وثمت هجرة أخرى ، هى هجرة اليهود من كافه أنحاء العالم إلى فلسطين ، فإنها قامت وترعرعت بتأثير الدعاية التى يبثها الصهيونيون فى كل مكان ، يظهرون رغبتهم فى إنشاء وطن قومى لليهود ، فلما نزل المهاجرون اليهود بأرض فلسطين ، كانوا أقدر من العرب على استغلال مصادر الثروة فيما وقع تحت أيديهم من أرض ، سواء أكان ذلك الاستغلال زراعيا أم صناعيا . وقد كان نجاحهم فى هذا الاستغلال حافزاً لغيرهم من اليهود فى أنحاء العالم على الهجرة إلى فلسطين ، مما تسبب عنه قيام مشكلة من أعقد المشاكل فى العصر الحديث . وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل عند الكلام على القضيه الفلسطينية .

الاستعمار

الاستعمار لغة هو طلب التعمير ، ومقتضى هذا المعنى اللغوى أن ينزل قوم بأرض يطلبون تعميرها . والكلمة العربية لا تختلف فى هذا المعنى اللغوى عن مقابلاتها من اللغات الأجنبية ، فنجد مثلا لفظة Colonisaton باللغة الانجليزية مشتقة من المصدر اللاتينى Colonus بمعنى مزارع ، وتطبيقا لهذا المعنى اللغوى ، لا نجد فرقا بين الهجرة والاستعمار اللهم إلا أن الهجرة عملية الانتقال ، والاستعمار عمليه الاستقرار ، فالرجل أو مجموعة الرجال يهاجرون من وطنهم الأصلى إلى أى مهجر يتيسر لهم

فاذا نزلوا به أصبح مهجراً أو مستعمرة ، وأصبحوا هم مهاجرين أو مستعمرين .

وواضح أن الاستعمار على هذا الوضع اللغوى البحث لا بد أن تكون له أسبابه ، فمن غير المعقول أن يفكر قوم فى الهجرة بغية الاستعمار إلا إذا قامت ، فى وطنهم الأصلى ، الدوافع المهمة التى تجعل الانسان يخالف غريزة حب الوطن ، فيهجر وطنه إلى غيره .

ومن أهم هذه الأسباب :

١ — عدم الرضى بالأوضاع السياسية أو الإقتصادية أو العمرانية فى الوطن .

٢ — الاضطهاد الدينى لمخالفى المذهب الدينى الذى يعتنقه ولاة الأمور فى أرض الوطن .

٣ — الرغبة فى الثراء السريع بالتحلل من قيود الاستغلال فى أرض الوطن ، كالضرائب وغيرها .

٤ — حب المخاطرة ، وقد لعب هذا السبب دوراً لا يستهان به أيام الفروسية فى العصور الوسطى .

وواضح كذلك أن للهجرة ، بغية الاستعمار ، شروط يجب توافرها فى المهاجرين أو المستعمرين من ناحية ، وفى المهجر أو المستعمرة من الناحية الأخرى .

فيجب أن تتوافر فى المهاجرين أو المستعمرين صفات عقلية وجسمية خاصة ، تؤهلهم للتفوق فى الكفاح ضد السكان الأصليين فى البلاد التى يختارونها مهجراً أو مستعمرة .

ولما كانت المهاجر أو المستعمرات غالبا ما تكون « وراء البحار »

فقد لزم أن تكون الشعوب البحرية أكثر الشعوب اقبالا على الاستعمار نظراً لقدرة البحارة على الكفاح المفاجيء ، ومهارتهم فى تبادل السلع وإغراء الشعوب البدائية .

يضاف إلى ذلك ضرورة أن يكون مناخ الأقليم المستهدف للاستعمار ملائما لأقامة المستعمرين . وقد أثبتت التجارب أن هجرة الأوربيين أو إستعمارهم للمناطق المعتدلة قد نجحت ، بينما فشلت كل المحاولات التى بذلوها للاستقرار الطبيعى فى المناطق الحارة .

* * *

هذا هو الاستعمار بمعناه اللغوى ، وهو عمل لا يخلو من نزعة إنسانية إذ يعود بكثير من الفوائد على القوم المستعمرين من ناحية ، وعلى البلاد المستعمرة من الناحية الأخرى . ولو ظلت عمليات الاستعمار تجرى على هذا المنوال ، لما كان للبلاد المستعمرة أن تضج بهذا النوع من الاستعمار أو تضجر به .

إلا ان طموح الدول الأوربية ، ورغبتها فى توسيع رقعة الأرض التى تملكها ، وحاجتها إلى المواد الخام التى لا تخرجها أرضها . وتقدم الصناعة واعتمادها على خامات الأقاليم الحارة ، والتنافس بين هذه الدول رغبة التفوق فى البر والبحر ، كل ذلك ، وغيره من العوامل كثير ، دفع بالدول الأوربية إلى أن تعمل على أخراج عملية الاستعمار عن معناها اللغوى . ولعلهم أرادوا « الفتح » ولكنهم أسموه « إستعماراً » .

وبذلك فرض على بعض الأقاليم أن تستهدف للاستعمار السياسى ، فمن ذلك إستعمار الفرنسيين للشمال ألافريقى ، ذلك الاستعمار الذى بدأ بالهجرة كما ذكرنا ، ثم لم تلبث السياسة الفرنسية ، تحت ضغط ظروفها الخاصة

وضياع المستعمرات الفرنسية فى أمريكا ، أن قلبت الاستعمار بمعناه اللغوى إلى إستعمار سياسى . وكذلك فعلت إيطاليا فى ليبيا .

ومنها إستعمار الأنجليز للهند ، إذ بدأ ذلك الاستعمار بقيام شركة الهند الشرقية ، وكانت شركة تجارية خالصة ، فلم تلبث الدولة البريطانية أن تدخلت فقلبت الحال إلى استعمار سياسى .

وأينما نظرت فى أنحاء العالم فى أخريات القرن التاسع عشر ، وجدت أن الاستعمار الانسانى انقلب استعمارا سياسيا

ولا حاجة بنا الى التدليل على أن الاستعمار السياسى يحمل بين ثناياه كثيراً من المساوىء التى يقتضيها فرض السلطان . فبينما تتحكم فى الاستعمار البرىء عوامل طبيعية ، إذ بنا نرى الدول المستعمرة تلجأ إلى الوسائل التى تبرر غرضها فى الوصول الى السلطان ، مهما بعدت هذه الوسائل والأساليب عن النظريات الطبيعية ومقتضيات العدل والانسانية .

وهذا النوع من الاستعمار هو الذى استهدف له العالم الأسلامى فلم يستطيع رده ، وظل يئن تحت نيره إلى أن تهيأت الظروف للخلاص منه فى العصر الحديث .

الإحتلال

تعارف الناس على أن ينظروا إلى الاحتلال وكأنه عملية أقل شأنا من الاستعمار . ظنا منهم أن الاحتلال يحمل بين ثناياه طابع الوقتية

والواقع أن الاحتلال عملية أشد وطأة على الأرض المحتلة من الاستعمار ، فللاستعمار عادة مقدمات هى الهجرة ،ومسببات هى حماية المهاجرين ، فى حين أن الاحتلال لاتتقدمه سوابق ، ولا تؤيده أسباب . وهو مظهر من مظاهر الجبروت يفرض على الشعوب فرضا .

فاذا رأت دولة قوية أن تنزل بأرض ليست لها ، فأنها تجند أساطيلها — كما لو كانت فى حرب — وتنزل بهذه الأرض رغم أنف أصحابها ، ولا تنزل فى هذه الأرض مهاجرين أو مستعمرين ، بل تنزل بها جنوداً يفرضون

إرادة دولتهم ؛ وينكلون بأصحاب البلاد بقدر مايبدى هؤلاء من المقاومة للجيش المحتل ، وقلما يتذرع المحتلون بأسباب لهذا الاحتلال

وأقرب الأمثلة على ذلك احتلال الانجليز لمصر فى عهد الخديوى توفيق ، فان أساطيلهم ضربت الاسكندرية وهى عاجزة عن الصمود ؛ ونزلت جنودهم البرية فى منطقة القنال وهى منطقة لها وضع دولى كان يأبى عليهم هذا النزول ، ولم يلبثوا ان انتشروا فى البلاد ، ففرضوا عليها إرادتهم دون أن تربطهم بأهل البلاد أية صلة ، مما يربط المستعمرين بالمستعمرات .

وإذا رجعنا إلى المعنى اللغوى للكلمة وجدناها تعنى التملك ولو بطريق « وضع اليد » وهى تدل على إحراز الشىء والتمتع به ؛ ومباشرة المحتل أو المتملك لنفوذه على الشىء المحتل أو المتملك وفقما يريد ، دون غيره من الناس .

وواضح من هذا التعريف أن الاحتلال أكثر تمكيناً للأجنبى من الاستعمار ، وان كانت الدلالة السطحية للفظ الاحتلال لاتنبىء عن ذلك .

* * *

الانتداب

صيغة من صيغ التسلط السياسى ، استنبطها الوضع السياسى الدولى بعد الحرب العالمية الأولى . ذلك أن رئيس الولايات المتحدة ـــ الرئيس ولسن ـــ دعا المتحاربين فى هذه الحرب إلى وقف القتال على أن يعاد تنظيم العالم من الناحية السياسية وفق قواعد سميت بشروط ولسن الأربعة عشر ، وكان من أهم هذه المبادىء مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها

وقفت رحى الحرب . وانعقد مؤتمر الصلح فى فرساى سنة ١٩١٩

وإذا بالدول التى كانت ولا تزال خاضعة للاستعمار أو النفوذ الأوروبى تطالب بحق تقرير المصير ، ورأت الدول الكبرى أن إجابة هذه الدول إلى ماتريد مضيع للسيادة الأوربية ، وأنها إذا جابهت هذه الشعوب بما لايحقق أمانيها ، استهدفت شروط ولسن للنقد ، ولم تؤمن عاقبة ذلك فى البلاد المطالبة بتقرير المصير .

عندئذ تفتقت العقلية الأوربيــة عن حل وســط ، يحفظ للدول الأوربية نفوذها ، ويحقق للطالبين مطالبهم من الناحيــة النظرية . ذلك هو نظام الانتداب .

يقرر المؤتمر للبلد المطالب باســـتقلاله حقه فى الاستقلال . ويقرر فى الوقت ذاته أن الدولة لم تصبح بعد صالحة لممارسة الحقوق والالتزامات التى تترتب على الاستقلال . ولذلك يعمد المؤتمر إلى ندب إحدى الدول الأوربية للوصاية على الدولة الجديدة ، انتدابا موقتاً ، ينتهى بأهلية البلد لممارسة حقوقه والتزاماته فى ظل الاستقلال

هذه هى الصورة النظرية للانتداب . أما حقيقــة الأمر فان الدولة المنتدبة تمارس فى الدولة الجديدة جميع ماتمارسه الدولة المستعمرة فى مستعمراتها من استغلال ، وقدجرت العادة ، منذ أن قام نظام الانتداب ، على أن تعمل الدولة المنتدبة على التفرقة بين أبناء الوطن الواحد . حتى ينصرفوا بالنزاع الداخلى عن مطالبة الدولة المنتدبة بإنهاء الانتداب .

الفصل الثانى

بريطانيا والشرق الأقصى

ليست قصة الاستعمار البريطانى للشرق الحلقة الأولى من حلقات الكفاح المتواصل الذى قامت به بريطانيا لأحراز السيادة البحرية ، والغلبة على غيرها من الدول الاستعمارية المنافسة لها ، فكانت لها من ذلك الغلبة التى فتحت لها أبواب الشرق . تستعمر فيه ما تشاء .

أما المرحلة الأولى من هذا الكفاح فقد تجلت فى التسابق نحو الأمريكتين . ولا يتسع لنا المقام — فى هذا المجال الضيق — لشرح الظروف التى أحاطت بالبحرية الانجليزية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، مما بعث فى نفوس الانجليز الروح البحريه الكامنة . ويقول الانجليز فى ذلك : إن الغرام بركوب البحر قد يخبو فى النفوس ولكنه لايموت ، وهم يشيرون بذلك إلى أن الشعب الانجليزى ، بطبيعة تكوينه وطبيعة بلاده ، كتب عليه أن يركب البحر .

ويوازن المؤرخ تريفليان بين الأرض المنبسطة المربعة الشكل التى يتكون منها شمال فرنسا وبين الجزيرة البريطانية ذات السواحل الطويلة والتضاريس المتعددة ، فيقول أن طبيعة الأرض الفرنسية كان من شأنها أن يجنح المتفوقون من أفراد الشعب إلى فرض نظام الإقطاع ، أما طبيعة الجزيرة البريطانية وسواحلها ، فقد جعلت من سكانها رجال بحر مغامرين .

ولم تكن طبيعة المغامرة البحرية وحدها هى الحافز للأنجليز على ركوب البحر ومقاساة أهواله ، بل أن ظروف العالم الأوربى فى أخريات القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر هى التى كتبت على

الانجليز أن يركبوا هذا المركب الصعب ، . وإن كان محببا إلى قلوبهم ، بطبيعة تكوينهم ، ذلك أنه كانت لميناء برستول بانجلترا علاقات تجارية بحرية مع أسبانيا والبرتغال ، ومن هذه الموانى تطلع البحارة الانجليز الى جهود الأسبان والبرتغاليين فى ركوب البحر والاتجاه عبر المحيط الهادىء إلى الأمريكتين . وظهر فى محيط الملاحة الأنجليزية « جون كابوت » التاجر الإيطالى الأصل ، وكان يؤمن بما آمن به كولومبس من كروية الأرض ، فأعد خطة بحرية للبرهنة على صحة مايؤمن به ، وذلك قبل أن تصل إلى أوربا أنباء كولومبس الذى سافر قبله متجها نحو الغرب .

وقد دأب ملوك آل تيودور على تشجيع المغامرين من الأنجليز على ركوب البحر وممارسة أهواله ، فكان كلما عاد إلى الموانىء الإنجليزية مغامر احتفلت به المدينة أعظم احتفال ، وحظى من الملوك بما لا يحظى به الفاتحون من تقدير .

ويصور لنا الأستاذ ستيفن ليكوك روح العصر ، إذ يصف عودة المغامر جون كابوت إلى ميناء برستول فيقول : « وقد صور أحد معاصرية (وهو بندقى يعيش فى لندن) فى خطاب أرسله إلى البندقية ، الشرف الرفيع الذى أغدق على كابوت ، فقد ألبس ثيابا من حرير ، وكان أفراد الشعب يعدون خلفه فى الطرقات كمن أصابتهم لوثة ، طالبين منه أن يجند منهم لرحلته المقبلة أى عدد يشاء . ويقول أن الملك هنرى السابع (جد الملكة اليصابات) أبدى اغتباطه بنجاحه ، ووعده بعشر سفن تسافر معه فى رحلته المقبلة ، كما ضم اليه ـ بناء على طلبه ـ كل المساجين ، إلا من أدين بتهمة الخيانة العظمى .

وعلى هذا الوجه بدأت تلك الصفحة من تاريخ انجلترا البحرى ،

ودعامتها كل رافض لطاعة سيده ، وكل ثائر محكوم عليه ، وكل خارج على قانون بلاده . وقد كتبت من آلام هؤلاء جميعاً صفحة من التاريخ البريطانى ، وتأسست عظمة البلاد على أطلال يأسهم من الحياة »

غير أن ظروف السياسة المحلية ، وانصراف انجلترا إلى التدخل فى شئون القارة الأوربية ، وخلافها مع البابا حول سلطته الدينية على الملوك ، كل ذلك قد صرف الشعب عن متابعة ركوب البحر فترة ، فانكمشت روح المغامرة بعض الوقت ، ولكنها لم تلبث أن ظهرت مرة أخرى فى عهد الملكة اليصابات .

فقد تخلصت الملكة ، بحسن سياستها ، وتدبير من جندتهم لخدمتها من رجال ، من المشاكل الداخلية والأوربية معا ، وبذلك بعثت الروح البحرية فى عهدها من جديد .

وقد دأبت الملكة اليصابات على تشجيع المغامرات التى يقوم بها رجال البحر من الانجليز ، وخاصة بعد أن بدأ هؤلاء يناوءون السفن الاسبانية فى عرض البحر ، فيشتبكون معها فى قتال مرير ، ويغنمون منها حمولتها من الأمريكيتين . وفى سبيل التفوق على المنافسة الاسبانية ، لم تعبأ الملكة بأن يقال أنها تشجع القرصان . ومن الأمثلة على ما كانت تغدقه على هؤلاء الملاحين — وهم فى حقيقة الأمر قراصنة — انها أنعمت على المغامر البحرى الجرىء جون هوكنز بلقب سير على أثر عودته من احدى رحلاته البحرية الموفقة .

ضجرت اسبانيا بهذا السلوك من جانب القرصان الانجليز ، وحاولت أن تضع له حداً عن طريق دولتهم ، فلم تجد أذنا صاغية ، فآمنت عندئذ بأن لامناص من حرب سافرة تعلنها على انجلترا ، وخاصة عندما قام « دريك » بالإغارة على جزر الهند الغربية الاسبانية ، ثم هاجم ميناء قادس الاسبانى ، وأشعل النار فى السفن الراسية فيه .

وجه فيليب الثانى ملك أسبانيا أسطوله المعروف باسم « الأرمادا » إلى سواحل انجلترا لغزوها ، وقد ساد القلق الدوائر الانجليزية من هذه الحركة الاسبانية التى كانت تؤيدها الدول الأوربيه المتحالفة مع اسبانيا ، ولكن كان من حسن طالع انجلترا أنها خرجت من هذه المحنة سيدة على البحار ، ذلك أن الانجليز كانوا يعملون فى أسطولهم على أساس أنهم أبناء البحر ، وأن الفنون البحرية هى وحدها التى يقاس بها التفوق البحرى ، ولذلك بنوا سفنهم صغيرة فى حجمها كيما تستطيع الكر والفر على سطح الماء ، أما الأسبان فكانوا ينظرون إلى الأسطول على أنه أداة لحمل جيش برى يحارب على ظهر السفن ، ومن هنا كانت عنايتهم بضخامة السفن ، بصرف النظر عن قدرتها على الحركة فى معركة بحرية كبرى .

وفى شهر يوليه عام ١٥٨٨ ، وهو تاريخ خالد عند البريطانيين ، التقى الأسطولان فى بحر الشمال ، ولم تلبث الدائرة أن دارت على الأرمادا ، فكان يوم نصر للإنجليز ، وفاتحة عهد سيادتهم البحرية .

خرجت السفن البريطانية بعدئذ تتحدى الأسبان فى كل مرفأ ، وعلى ظهر كل ماء ، معلنة أن انجلترا أصبحت سيدة البحار .

عند ذلك بدأ عهد جديد فى تاريخ انجلترا البحرى ، هو عهد ازدهار التجارة عبر البحار ، ذلك أن النصر الذى أحرزته انجلترا فى ميدان التفوق البحرى كان دافعا بالتجار البريطانيين إلى الثقة بالتجارة البحرية ، ومن ثم بدأ استغلال رؤوس الأموال فيها .

ولنعد إلى الوراء قليلا ، لنتعرف معالم الحركة التجارية البحرية .

فى خلال القرن الخامس عشر وما قبله ، كانت خيرات الهند تنقل إلى أوربا بطرق شتى ، أهمها الطريق المائى الكبير : كانت المتاجر تنقل من موانى الهند إلى ميناء عدن على سفن عربية ، ومن عدن إلى السويس

عبر البحر الأحمر على سفن مصرية ، ثم تمر عبر الديار المصرية على ظهور الجمال إلى موانىء البحر الأبيض المصرية حيث يتسلمها تجـــار البندقية وجنوه ، فينقلونها إلى أوربا على سفنهم ، ويتجرون بها ، بما يعود عليهم بالربح الوفير ، رغم الضرائب الكبيرة التى تدفع على السلع خلال الطريق .

ويلخص لنا الأستاذ محمد رفعت فى كتابه « التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض المتوسط » الأحداث الهامة فى هذا العصر فيقول : أدرك العثمانيون بعد تثبيت أقدامهم فى المضايق ما للقوة البحرية من الأهمية لاسيما أن جمهورية البندقية كانت واقفة لهم بالمرصاد فى شرق البحر المتوسط فوجهوا همتهم للعناية بالأسطول ، واستولوا على جزر بحر أيجه ، واحدة تلو أخرى .

وما زالت تركيا تناوىء البنادقة حتى اضطرتهم فى نهاية القرن الخامس عشر إلى دفع الجزية لتركيا . وقد قوى مركز الأتراك فى البحر المتوسط إثر فتح مصر وسوريا فى عهد السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ ، وفتح رودس وسواحل أفريقية الشمالية فى عهد سليمان القانونى ، وبذلك أصبحت سيادة تركيا البحرية غير مقصورة على شرق البحر الأبيض ، بل تجاوزته إلى الغرب .

وبينما كان السلطان سليمان القانونى يوطد أركان الدولة التركية براً وبحراً ، طالع الناس أنباء انقلاب بحرى عظيم شغل حكومات الغرب فصرفها شيئاً فشيئاً عن البحر المتوسط ، وفتح أمامها عالماً جديداً مليئاً بالثروات التى كانت تتضاءل أمامها تجارة الشرق وموارده ، فقد استطاع كريستوف كولمبس أن يكشف عن قارة أمريكا الجديدة سنة ١٤٩٢ كما استطاع فاسكودى جاما أن يسيح إلى الشرق حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ ، وبذلك انتقل نشاط الحكومات والشعوب الغربية إلى المحيط

الأطلنطى ، وتحول مركز الثقل فى العالم إلى ناحية الغرب، ولم يعد البحر المتوسط كما كان مركزاً للعالم المتمدين ومصدراً للنشاط التجارى .

وعبثا حاولت مصر فى آخر أيام سلاطين المماليك الجراكسة أن تسترد تفوقها التجارى والبحرى فى البحر الأحمر ، فقد أخضع البرتغاليون سواحل الدكن فى الهند، وجزيرة هرمز عند مدخل الخليج الفارسى ، وهاجموا عدن وصنعاء ومصوع ، وأخذت سفنهم تجوب مياه البحر الأحمر وخليج العجم ، وتسطو على سفن المصريين والغربيين والبنادقة وتستولى عليها .

ووصلت أنباء هذه القرصنة إلى مسامع السلطان الغورى ، فشكا أولا إلى بابا روما، طالبا وقف البرتغاليين وعدم تعرضهم للتجارة المصرية من الشرق ... ولما لم تفد الشكوى ، جهز الغورى حملة بحرية قامت من السويس، واشترك معه البنادقة ، لمعاقبة البرتغاليين ، فانتصر المصريون أولا ، ووقع القائد البرتغالى أسيراً ، ولكن البرتغاليين عادوا فانتصروا سنة ١٥٠٩ فى موقعة ديو وهى جزيرة صغيرة قرب ساحل الهند الغربى .

وعلى أثر ذلك تحولت التجارة من موانى عدن وجده وسواكن والسويس إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وانقطع طريق التجارة بين مصر الهند ، فكان لذلك أثر عظيم فى سوء الحالة الاقتصادية والسياسية ، لافى مصر وحدها ، بل فى جمهوريات ايطاليا أيضاً ، وهى التى كانت تعتمد على تجارتها وأسواقها فى الشرق

وقد ملكت البرتغال زمام الموقف فى أوائل القرن السادس عشر ، وتوالت غزواتهم التجارية على الشرق الأقصى عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وأسسوا لأنفسهم مستعمرات تجارية ، تنطوى على أهداف سياسية ودينية ، على سواحل الهند . ولم يصادف البرتغاليون فى جهودهم

هذه مقاومة تذكر، ذلك أن الجو كان خاليا لهم فى هذا الجزء من العالم بانصراف بقية الدول الغربية الأوربية إلى الميدان الجديد فى الأمريكتين

إلا أن البرتغاليين كانوا يحملون معهم — فى رحلاتهم هذه — العوامل التى كان فيها القضاء على سيادتهم : ذلك أنهم ساسوا أمورهم مع أهل الهند سياسة باعدت بينهم وبين ما يريدون من تثبيت أقدامهم . كما كانوا قدوة سيئة فى معاملاتهم التجارية وأساليب المدنية التى جاءوا بها من أوربا إلى هذه البلاد الفطرية .

ومما عجل بنهاية السلطان البرتغالى فى الشرق أن ملكهم سباستيان جرد حملة على مراكش فانهزمت فى معركة القصر الكبير سنة ١٥٧٨ ، وقد فنى فى هذه الحملة زهرة شباب البرتغال ، كما كلفت المعركة الملك حياته، وفى سنة ١٥٨٠ استطاع الملك فيليب ملك أسبانيا أن يضم البرتغال إلى ملكه ، وبذلك قبرت السياسة البرتغالية فى الشرق .

ولقد اقترنت نكبة البرتغال فى سياستها الاستعمارية التجارية بمجموعة الأحداث التى كان من شأنها أن ظهرت كل من هولنده وانجلترا فى الميدان، كانت هولنده جزءا من أملاك أسبانيا فى الأراضى المنخفضة، وفى منتصف القرن السادس عشر، رسخت الديانة البروتستانتينية أقدامها كقوة سياسية فى شمال ألمانيا واسكندناوه وهولنده وانجلترا ، فأدى ذلك فى هولنده إلى ثورة أسفرت عن قيام الجمهورية الهولندية سنة ١٥٨١ . وكان الهولنديون قد قنعوا فى الماضى بأن يكونوا حملة المتاجر الأسيوية بعد وصولها إلى لشبونة لتوزيعها على موانىء الشمال ، فلما استقلت هولنده عن أسبانيا ، أمر فليب الثانى بأن تغلق ميناء لشبونه فى وجه التجار الهولنديين ، فاضطر الهولنديون أن يشقوا طريقهم إلى الموطن الأصلى لهذه المتاجر — وهو الشرق — عن طريق رأس الرجاء الصالح، وأسسوا

مجموعة من الشركات التجارية ، وخاصة بعد أن هزمت اسبانيا فى موقعة الأرمادا سنة ١٥٨٨ ، وتضافرت جهود الشركات الهولندية فأسسوا فيما بينهم فى سنة ١٦٠٢ شركة الهند الشرقية الهولندية .

ولم يكن طريق الهولنديين فى الشرق الأقصى معبدا ، فقد كافحوا سلطان بقايا البرتغاليين فى جزيرة جاوه ، ثم أسسوا مدينة باتافيا وجعلوها مركزا للشركة ، وفيما بين سنتى ١٦١٢ ، ١٦٢٨ نزل الهولنديون بسواحل استراليا الغربية ، ولا تزال الأسماء التى أطلقت على كثير من معالم هذه القارة الجديدة تنبئ عن علاقاتها بالكشف الهولندى . وفى سنة ١٦٥٢ أسس الهولنديون مدينة الرأس فى الطرف الجنوبى الأقصى من القارة الأفريقية، وقد ظلت بأيديهم إلى أن ضمت إلى الامبراطورية البريطانية سنة ١٨١٤

ولقد تأثرت السياسة الهولندية فى الشرق بظاهرتين أساسيتين :

أما الظاهرة الأولى فهى شهوة الانتقام من اسبانيا والبرتغال ، اللتين كانتا تحت عرش واحد عندما وصل الهولنديون إلى الشرق، أما الخلاف المذهبى، فقد كان عاملا ثانويا إلى جانب العامل السياسى . على أن مقاومة المذهب البروتستانتى من جانب أسبانيا والبرتغال كانت من الأسباب التى دفعت انجلترا إلى مناوأتهما فى سياستهما الخارجية فى أخريات القرن السادس عشر . إلا أنه عندما أصبحت هولنده — وهى تدين بالمذهب الدينى الذى يدين به الانجليز — مالكة لناصية الحال فى الشرق الأقصى فى أوائل القرن السابع عشر ، لعبت المنافسة الاقتصادية والسياسة دورها ، فكان عداء البريطانيين ومناوأتهم للهولنديين أشد وطأة وأعظم أثرا من مناوأتهم للبرتغاليين .

أما الظاهرة الثانية فتتلخص فى أن الهولنديين لم يقنعوا بأن يكونوا حملة السلع من الشرق إلى الغرب ، ولكنهم أقحموا أنفسهم فى ميدان

الانتاج فى جزر البهار، وحاولوا أن يحتكروا تجارة التوابل . وباتباع هذه السياسة انصرفت أنظارهم وجهودهم عن الهند إلى جزر الهند الشرقية، وحدث أن اضطهدت اسبانيا اليهود فى بلادها ، فهاجر هؤلاء إلى هولنده وكونوا جالية لها أهميتها تحت العلم الهولندى ، وساهموا فى المشروعات المالية والاستعمارية التى تتصل بالشرق .

وبانصراف الهولنديين إلى جزر الهند الشرقية ، بدأت انجلترا فى تركيز اهتمامها فى شبه القارة الهندية ، وخاصة بعد سنة ١٦٢٣

على أن نظرة الانجليز إلى الموقف كانت تختلف عن نظرة الهولنديين فلقد جرت السياسة الانجليزية على الاقتصار على المصالح الاقتصادية والبحرية، ثم تدرجت من ذلك إلى التوسع السياسى (الى أن آلت اليهم استراليا ومستعمرة الرأس) أما من الناحية الاستعمارية ، فكانت أنظار الانجليز وقتذاك مركزة فى العالم الجديد فى أمريكا . فلما أصيبت سياستهم فى أمريكا بنكسة الاستقلال الأمريكى ، اتجهت انظارهم الاستعمارية إلى الشرق .

هذه هى قصة بريطانيا فى الشرق الأقصى ، وهى قصة لعب فيها الخلق البحرى البريطانى دورا لا يستهان به ، وشارك فيها الحظ فلعب الدور الأول فى مأساة الأرمادا ، كما لعب الإصلاح الدينى وانتشار المذهب البروتستانتى على شواطىء بحر الشمال دوراً تردد صداه فيما قام به الهولنديون من مغامرات استفاد منها الانجليز .

أما تفاصيل السياسة الاستعمارية فى الهند ، فسيكون لها موضع آخر من هذا الكتاب إن شاء الله .

الفصل الثالث

الشرق العربى والمواصلات الأمبراطورية

شهد القرن العشرون كفاح الشعوب العربية للتحرر من ربقة الاستعمار، أو الاحتلال، أو الأنتداب البريطانى . وظلت بريطانيا، فى مفاوضاتها مع الدول العربيـــة عامة، ومع مصر خاصة، تتذرع فى تبرير بقائها بذريعتين : أحداهما « تأمين المواصلات الامبراطورية » والأخرى « أهمية الدفاع عن الشرق الأوسط » .

أما قصه « تأمين المواصلات الأمبراطورية » فليست وليدة الظروف العالمية الأخيرة، بل أنها ترجع فى أصولها إلى قرون خلت .

فى القرون الوسطى

ظلت السلع الشرقية، الواردة إلى أوربا من الشرق الأقصى، تشق طريقها إلى أوربا منذ أقدم العصور، ولكن أهل الشرق الأقصى والأوربيين لم يتعارفوا : ذلك أن متاجر الشرق الأقصى كانت تصل إلى أوربا عن طرق ثلاثة : أحداها برية والأخريان بحريتان .

أما الطريق البرية فكانت عبر آسيا مارة بكشمير أو أفغانستان، ومنها إيران فالعراق فسورية فموانى البحر الأبيض الشرقية .

أما الطريقان البحريتـان، فكانت أولاهما تسير بمحاذاة السواحل الأسيوية الجنوبية، فالبحر الأحمر، حتى تصل السلع إلى القلزم (السويس) ثم تنقل برا إلى القاهرة، وعن طريق النيل إلى إحـــدى موانى البحر الأبيض المصرية .

أما الطريق البحرية الثانية فكانت عن طريق الخليج الفارسى، فنهر الفرات، ثم تنقل السلع برا عبر الطرف الشمالى لبيداء سورية، ومنها الى

موانئ البحر الأبيض الشرقية ، ومن هذه الموانئ ، أو الموانئ المصرية يتلقف التجار الأوربيون من أهل جنوة والبندقية هـذه المتاجر ، فيحملونها إلى الموانئ الأوربية .

وفى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى ، كانت مصر تتحكم فى موانئ السواحل المصرية والشامية ، وكانت الضرائب التى يتقاضاها المماليك مقابل مرور السلع بأرضها من النوع الذى يثقل كاهل التجار ويرفع قيمة السلعة عند بيعها فى أوربا .

ويمتاز القرن الخامس عشر بأنه قرن المخاطرات البحرية ، التى حاول بها كثير من الأوربيين الوصول إلى الهند عن غير طريق مصر ، تفاديا لتحكم المماليك ، واشباعا لروح المخاطرة البحريه التى كانت طابع ذلك العهد .

وباكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح ، والاتصال عن طريقه بالشرق الأقصى رأسا ، أصبح البحر الأبيض غير ذى موضـوع فى المنافسات التجارية .

ولم يكن الانصراف إلى الشرق الاقصى هو العامل الوحيد فى تضاؤل أهمية البحر الأبيض ، فأن القرن السادس عشر كان قرن الاهتمام بالمحيط الأطلنطى والأمريكتين .

ويتحدث الأستاذ محمد رفعت عن هذا البحر فى هذه الفترة فيقول :

« ولما ضعف شأن الملاحة فى البحر المتوسط ، وتسابقت الدول الغربية نحو الأرض البكر فى أمريكا ، وفى الهند عن طريق الأقيانوس ، خلا الجو فى البحر المتوسط لفئات من المرتزقة والقراصنة الذين اغتنموا تلك الفرصة ، وأسسوا لأنفسهم ولحكوماتهم مجدا أقاموه على الأتاوات والعطايا التى كانوا يفرضونها على السفن التجارية التى كانت تخاطر بالملاحة

فى تلك الأرجاء ، وكان من أثر ذلك تدهور شأن المدن الأيطالية وزوال سلطانها التجارى والسياسى، وقد شمل هذا التدهور حوض البحر المتوسط شرقيه وغربيه .

وقد نشط الأتراك فى عهد السلطان سليمان ، وأقاموا لأنفسهم دولة بحرية من الدرجة الأولى بفضل جهود القــواد البحريين الذين اشتهروا بالمهارة والبطولة الدينيـة التى كانت تدفعهم أحيانا إلى القرصنة ، وألمع هؤلاء القواد ذكرا هو خــير الدين باربروس الذى أخضع الجزائر وتونس للدولة ، وطورغوث الذى أخضع طرابلس وجعلها ولايه عثمانية .

وغير أن هذا التفوق لم يلبث أن تصدع بعد وفاة السلطان سليمان إمام اتحاد البندقية وأسبانيا والبابوية ، فقد كون الجميع حلفاً مقدساً ضد تركيا سنة ١٥٧١ برياسة أمير نمسوى ، ونشبت بين الطائفتين معركة بحرية حاسمة فى لبانتو غربى شبه جزيرة المورة ، وفيها انهزم الأتراك وبدأ يغشاهم الضعف والركود الذى نشر رواقه على البحر الأبيض .

وفى سنة ١٥٨٨ كتب لانجلترا التفوق البحرى على أسبانيا فى موقعة الأرمادا ، فوجدت الثقة طريقها إلى نفوس التجار الإنجليز ، وبدءوا يستغلون أموالهم فيما وراء البحار .

وكان طريق رأس الرجاء الصالح قد عرف منذ أكثر من تسعين عاما ، ولكن الطواف حول أفريقية كان يحمل بين ثناياه من المخاطرة والبطء الشىء الكثير ، فتضاءل التحمس لهذا الطريق، وتاقت التجارة إلى طريقها القديم ، ولكن على أيدى أقوام آخرين .

اتجهت أنظار الإنجليز والفرنسيين إلى هذا البحر .

أما الإنجليز ،فقد أسسوا الشركة التركية التجارية قبيل معركة الأرمادا،

فلما انتهت الموقعة بالنصر الحاسم للانجليز ، ازدادت الثقة فى مستقبل هذه الشركة ، فازداد نشاطها وسميت شركة الليفانت وذلك عام ١٥٩٢ .

وكان ذلك قبيل تأسيس شركة الهند الشرقية ، فلما تكونت هذه الشركة اقتسم النفوذ الإنجليزى فى الشرق بين الشركتين ، فاختصت شركة الليفانت بالبحر الأبيض والطريق البرية ، واختصت شركة الهند الشرقية بتجارة الشرق الأقصى ، وإن كانت هذه القسمة غير واضحة المعالم ، فقد حدث مراراً أن ادعت كل منها لنفسها شيئاً من اختصاص الشركة الأخرى .

أما الفرنسيون ، فقد أسسوا عام ١٦٠٤ شركة لتجارة الهند الشرقية . ولكنهم عجزوا عن تدبير المال اللازم لها ، إلا أن هذا الفشل لم يمنع من استمرار التبادل التجارى بين مارسيليا (الميناء الفرنسى الأول فى حوض البحر الأبيض) والاسكندرية . فلما كانت أيام الكاردينال ريشيليو ، تكونت الشركة العمومية للتجارة عام ١٦٢٩ وهى شركة احتكارية على غرار شركتى الليفانت والهند الشرقية ، تستهدف الاتجار ونشر النفوذ الأوربى على العالم الشرق .

وبينما كانت انجلترا وفرنسا تتنافسان فى البحر الأبيض منافسة تجارية ، رأت كل منهما أن سبيل التفوق على المنافسين لا يكون إلا باستمالة السلطان العثمانى إلى جانبه ، ومن هنا بدأ تدخل كل من السفيرين الفرنسى والبريطانى لدى بلاط السلطان ، للحصول على امتيازات لا يتمتع بها رعايا الدولة المنافسة .

وفى هذه الأثناء ظهرت الدولة الروسية فى ثوبها الجديد ، وقد رسم لها بطرس الأكبر سياستها البحرية التى تنطوى على أن تخلق الروسيا لنفسها طريقاً مائياً إلى بحر الشمال من ناحية الغرب وإلى البحر الأبيض من ناحية الجنوب ، وقد حقق بطرس الأكبر الشطر الأول من هذه

السياسة البحرية ، ثم جاءت كاترين الثانية فحاولت أن تحقق الشطر الثانى من هذه السياسة .

ولما كانت تركيا هى المالكة لهذا الطريق المائى ، الذى يعتبر أعظم أهمية من الطريق الذى فتحه بطرس الأكبر ، نظراً لأنه المنفذ الوحيد إلى البحار الدفيئة التى لا تتجمد مياهها ، وبذلك لا تتعطل فيها الملاحة بعض شهور العام كما هى الحال فى البحار الشمالية ، فقد التزمت كاترين الثانية منازلة الترك براً وبحراً رغبة فى إضعافهم والاستيلاء منهم على بوغازى البوسفور والدردنيل ، وهما المنفذ الوحيد للبحر الأبيض ذى المياه الدفيئة .

وفضلا عن ذلك ، فقد أدعت روسيا لنفسها حق حماية المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ، وبذلك تتابعت الحروب بين الدولتين إلى أن استطاعت الروسيا — على حساب تركيا التى تطرق إليها الضعف وتكاثرت عليها المشاكل — أن تنتزع من تركيا حرية الملاحة عبر المضايق إلى البحر الأبيض .

وعندئذ ظهرت لهذا البحر أهمية جديدة فى عالم السياسة الدولية ، إذ أصبح النفوذ فيه رهنا بالمنافسة بين دول ثلاث : الروسيا ، وفرنسا ، وانجلترا .

وفى سنة ١٦٦٤ أمر لويس الرابع عشر بأنشاء شركة سماها « شركة الهند » ومنحها تجارة بلاد الهند الشرقية والبحر الأحمر وجزر فرنسا فى فى البحر الأبيض وجزيرة مدغشقر فى المحيط الهندى . وكان من رأى وزيره كولبير أن يصدر المرسوم لشركتين : إحداهما شركة الهند لمباشرة الاتجار فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ، والآخرى شركة الليفانت للاتجار فى حوض البحر الأبيض .

وواضح أن الذى أوحى إلى كولبير بهذا التوزيع ، بل وهذه التسمية ، هو تأسيس شركتين بريطانيتين ، بهذين الإسمين ، لنفس الأغراض التى تنشىء فرنسا من أجلها هاتين الشركتين .

وواضح كذلك أن وجود دولة من الدول الأوربية ، تقوم بالتجارة البحرية ، إن صح أنها تجارة فحسب ، فى البحر الأبيض من ناحية والبحر الأحمر من الناحية الأخرى ، يوحى بضرورة العمل على وصل البحرين بقناة مائية ، توحيداً لعملية النقل البحرى . ومن هنا نشأت فكرة قناة السويس فى العصور الحديثة .

وواضح كذلك أن هذه المحاولات تقوم بها دول مسيحية ، وإن تفاوتت درجة تحمسها للدين المسيحى ، بأزاء دولة إسلامية ، فى عصر أشتهر بالتعصب المسيحى ضد الأسلام ، وإن سمى هذا التعصب تدينا . وتكاتفت الدول الأوربية على أن تنزل الدولة العثمانية الأسلامية عن المكانة التى تبوأتها فى شرق أوربا وفى حوض البحر الأبيض .

ويبدو هذا الشعور واضحا فى الوثيقة التى ننقلها عن الدكتور مصطفى الحفناوى من كتابه « قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة » الجزء الأول وسنقتصر هنا على الاقتباس من هذه الوثيقة ما يوضح وجهة نظرنا :

فى ١٥ مارس سنة ١٦٧٢ رفع شاب ألمانى يدعى ليبنتز إلى لويس الرابع عشر رسالة يقول فيها بعد الديباجة :

« أريد أن أتحدث إليكم يا مولاى فى مشروع غزو مصر . لا يوجد بين أجزاء الأرض جميعاً بلد يمكن السيطرة منه على العالم كله وعلى بحار الدنيا بأسرها غير مصر . وهى تستطيع أن تلعب هذا الدور لسهولة إستيعابها لعدد كبير من السكان ، ولخصب أرضها المنعدم المثال .... وقد استقيت معلوماتى من السائحين ، وقد أكدوا لى أن الحملة على مصر

مضمونة النجاح . وعن يسار مصر بوجد العرب ، وعن يمينها يرابط البدو ، وأولئك وهؤلاء أعداء للترك ، وسيعملون لحساب من يدفع لهم الحساب ....

« وإذا كان لا بد من تبسيط المسائل والنظر إليها نظرة منطقية ، فأنى أرى أن غزو هولنده (كان لويس الرابع عشر يفكر فى غزوها) عن طريق مصر أسهل من غزوها فى عقر دارها ؛ لأنكم بغزو مصر تنتزعون من يدها (يد هولنده) أعز ما تملك وهو خزائن الشرق ونفائسه ، وأهم من ذلك أنها لن تشعر على الفور بضربتكم ، وإذا فطنت فلن تقدر على الخلاص منها ، وإذا ما تجاسرت على تحدى غزوكم لمصر ، فأنها ستكبل نفسها بسخط العالم المسيحى ، فى حين أن غزوها فى عقر دارها يجعلها تظهر بمظهر المعتدى عليه ، ويدفعها إلى الانتقام ، مؤيدة برأى عام أوربى لا ينظر إلى مطامع فرنسا فى أوربا بعين الارتياح ، فأولئك الذين يمقتون الكفار (ويعنى المسلمين) وكذا الذين يحقدون على فرنسا ، سينظرون بعين الرضى والارتياح لهجومكم على المسلمين ، والأولون تحدوهم روح مسيحية ، والآخرون يرجون أن تتعرض فرنسا لخصم جديد يستنفذ قوتها العسكرية فيريح أوربا منها .... ا ﻫ

على أن الدول الأوربية المسيحية وقفت لبعضها بالمرصاد ، فاستفاد العالم الإسلامى فائدة سلبية : هى أن النزاع السافر والمستتر بين هذه الدول كان من شأنه أن لا يصاب العالم الإسلامى بسوء مباشر خلال مائة عام تقريبا .

فى العصور الحديثة

ثم فوجىء الشرق بالحملة العسكرية التى جردها نابليون على مصر ، وإذا كانت هذه الحملة مفاجأة لسكان الشرق ، فإنها لم تكن كذلك بالنسبة لمجريات الأمور فى أوربا الغربية خاصة : ذلك أن هذه الحملة ترتبط ارتباطا

وثيقاً بالتنافس بين انجلترا وفرنسا على الاتصال بالشرق الأقصى ، والاتجار معه ، وتدعيم النفوذ فيه ، وما يقتضيه كل ذلك من حيازة النفوذ فى الشرق الأدنى ، وهو المنفذ العملى القريب للشرق الأقصى .

وكان الشرق الأدنى وقتئذ مقتسما بين الدولة العثمانيه التى كانت تعانى سكرات الانحلال ، ومصر التى استقل بها المماليك . وكان قناصل كل من فرنسا وانجلترا ، ومن ورائهم حكوماتهم ، يتسابقون لإحراز النفوذ لدى السلطان من ناحية ، والمماليك من الناحية الأخرى .

ومن أهم مظاهر التنافس بين الدولتين الغربيتين على إحراز النفوذ أن سلطان تركيا أصدر فى سنة ١٧٧٤ فرماناً ننقله هنا عن الدكتور مصطفى الحفناوى الذى نقله بدوره عن مجموعة البارون دى تستا « معاهدات الباب العالى » :

« علمنا التاريخ أن المسيحيين جنس مخادع ومغامر ، وأنهم يسعون منذ أقدم العصور ، مستعينين بطرق الحيلة ، ووسائل العنف ، لتحقيق أطماعهم ، وبعضهم يتسللون إلى البلاد متنكرين فى هيئة التجار ، ظهروا فى دمشق وبلاد المقدس ، وعلى نفس الوتيرة وبنفس الأسلوب ، اقتحموا بلاد الهند بحيث استطاع الإنجليز أن يذيقوا أهلها الذل والاستعباد ، وأخيراً استطاعوا بمساعدة بعض البكوات أن ينفذوا إلى مصر ، وبعد أن يدرسوا خريطتها ، سيرحلون عنها ثم يرجعون إليها غزاة فاتحين . ولكى نقطع عليهم خط الرجعة ، وبمجرد أن وقفنا على حركاتهم وسكناتهم ، كلفنا سفيرهم (السفير البريطانى) بمخابرة حكومته لمنع وصول المراكب البريطانية ورسوها فى مدينة السويس . وقد أجابنا لما طلبنا ، وعلى ذلك إذا تجاسرت سفينة إنجليزية على الرسو فى السويس فإنها تصادر ويلقى القبض على جميع ركابها ، ويظلون سجناء إلى أن تصدر منا أوامر أخرى »

وواضح أن هذا الفرمان - الذى استهل بتوجيه التهمة إلى المسيحية عامة ، لم يكن يقصد به إلا الأنجليز . وتدل الظروف التى صدر فيها هذا الفرمان ، والحوادث التى أعقبته ، على أن السلطان لم يتنبه من تلقاء ذاته ، أو لم يكن ليصدر هذا الفرمان ، إلا بتشجيع السفير الفرنسى .

ويعقب الدكتور مصطفى الحفناوى على هذا الفرمان قائلا :

« على أن هذا الفرمان السلطانى لم يمنع محمد بك أبو الذهب من عقد معاهدة مع بريطانيا بتاريخ ٧ مارس سنة ١٧٧٥ (ولما يمض على صدور الفرمان عام واحد) تنص على حرية التجارة والملاحة بالنسبة لرعايا مصر وبريطانيا . فى مصر وبلاد الهند ، .... وجاء فى المادة العاشرة منها أن البحارة الأنجليز يخطرون إلبك فى القاهرة عن سفنهم حال وصولها إلى السويس ، ويبلغون عن الجهات التى يأتون منها ، ويقدمون لمحافظ السويس ما يثبت أنهم أنجليز وأنهم يحترفون التجارة . وجاء فى المادة الحادية عشرة أن البضائع الأنجليزية تنقل من السويس إلى القاهرة تحت رعاية ومسئولية البك وباقى البكوات »

وواضح من عقد هذه المعاهدة مع زعيم المماليك أنه فى الوقت الذى كان الفرنسيون يسيطرون على السلطان ، كان الأنجليز يسيطرون على المماليك .

ويلفت النظر فى هذه المعاهدة أنها تبدو فى بعض نصوصها معاهدة تكافؤ ، إذ تنص على حرية التجارة والملاحة بالنسبة لرعايا مصر وبريطانيا فى حين أن المقصود هو منح امتياز للبريطانيين ، كما يلفت النظر أن هذه النغمة بعينها هى التى اتبعت فى المعاهدة التى عقدت بين مصر وبريطانيا فى سنة ١٩٣٦ . وفى السياسة البريطانية : ما أشبه الليلة بالبارحة !

ثم تندلع نار الثورة الفرنسية، فإذا بالتجار الفرنسيين فى مصر يكتبون لحكومة الثورة يطلبون تدخلها لحماية مصالحهم من عسف المماليك الواقعين تحت تأثير الانجليز . ومن أهم الفقرات الواردة فى كتبهم لحكومتهم قولهم : إذا أردنا أن نتخلص من منافسة الانجليز لنا فى البنغال ، فلا بد لنا من السيطرة على السويس والبحر الأحمر .

وإذا كانت حكومة فرنسا قد أسعفت رعاياها فى مصر اسعافاً مؤقتاً بأن أرسلت بعض السفن الحربية إلى الاسكندرية ودمياط ارغاما للماليك على منح التجار الفرنسيين بعض الامتيازات ، فإن هذه الحكومة — فى الواقع — كانت مشغولة بأحداث الثورة المتوالية ، تلك الأحداث التى لم تمكن لها من الانصراف إلى حل مشكلة تعتبر فرعية إلى جانب مشاكلها الكبرى فى أرض الوطن .

وثمة ظاهرة أخرى من ظواهر المنافسة : كان الانجليز فى الهند قد اختلفوا مع سلطان ميسور المسلم ، وراحو يؤلبون عليه خصومه ومنافسيه فكتب سنة ١٧٨٧ إلى لويس السادس عشر يستنجد به ، ولكن أحداث الثورة لم تمكن للويس السادس عشر أن يجيب سلطان ميسور إلى ما يريد، فلما اندلعت نار الثورة الفرنسية ، شايع سلطان ميسور أهداف الثورة وسمى باسم « المواطن يتبو » ، وكتب لزعماء الثورة بمثل ما كتب للويس السادس عشر ، ولما لم يهرعوا إلى نصرته ، كتب إلى سلطان تركيا ولكن السلطان لم يستطع أن يسعفه بأكثر من أن يكتب الى نابليون يطلب اليه التدخل ، وقد كتب نابليون لسلطان تركيا يقول له أنه سيقوم بحملة بحرية تقطع على انجلترا سبيلها إلى الهند .

من كل ذلك يستنتج أن الحملة الفرنسية على مصر لم تكن عملا ارتجاليا ، بل كان حلقة من حلقات التنافس البحرى والتجارى بين انجلترا ،

وفرنسا، وإذا كانت انجلترا لم تتوقع تسيير حملة فرنسية على مصر ، فأن ذلك لم يكن لأنها كانت لا تكاد تلق إلى البحر الأبيض وسياسته بالا ـ كما يذهب بعض المؤرخين ـ بل كان السبب فى المفاجأة أن نابليون بالغ فى أخفاء غرضه ، وجعل العالم أجمع يعتقد أنه يعد العدة لغزو انجلترا ، ويقوم بزيارة السواحل المقابلة لأنجلترا فى إسراف ، بينما كان يعد العدة سراً لغزو انجلترا ـ لا فى الجزيرة البريطانية ـ بل فى طريقها الحيوى إلى الشرق الأقصى .

وبنزول الحملة الفرنسية فى مصر ؛ أدركت انجلترا مدى الخطر الذى تتعرض له مصالحها ، كما أدركت أن مجرد المناورات السياسية ـ لدى الباب العالى مرة ولدى المماليك فى مصر مرة أخرى ـ أصبحت وسائل لا تجدى فى تأمين مواصلاتها الأمبراطورية . فأنتقلت من مرحلة المناورات السياسية إلى مرحلة الحرب السافرة مع فرنسا .

أرسلت انجلترا أسطولها إلى مصر بقيادة أمير البحر نلسن لإجلاء الفرنسيين عنها فلما تم لها ذلك ، بدأت فى التدخل المباشر فى شئون مصر . ولما ظهر محمد على فى أفق السياسة المصرية قاومته انجلترا على أساسين : الأول أنه كان متأثراً فى سياسته بصداقة فرنسا ، والثانى أن قيام حكومة قوية فى مصر يرأسها محمد على لا يمكن للسياسة البريطانية من الاستيلاء على مجريات الأمور فى هذه البلاد ، وبالتالى لا يحقق لانجلترا سيطرتها على مصر ، وإشرافها منها على الطريق الأمبراطورى نحو الشرق الأقصى وتأمين مواصلاتها إليه .

وظلت بريطانيا تتربص بمصر الفرص حتى استطاعت احتلال البلاد أيام حكم الخديوى توفيق سنة ١٨٨٢ ، وبذلك أمنت على مواصلاتها الأمبراطورية أن تصاب بصدع فى أهم حلقة من حلقاتها وهى مصر .

فلما تنبه الوعى القومى فى البلاد ، وطالبت بجلاء جنود الاحتلال عن أرض مصر ، كانت انجلترا تحرص كل الحرص على تأمين مواصلاتها الامبراطورية ، وكان ذلك يتنافى — على الدوام — مع أمانى مصر القومية فى الجلاء عن منطقة القنال جلاء تاماً، وهو مالاترضى به بريطانيا بحال من الأحوال ، ومن هنا تعثرت جميع المفاوضات بين الحكومتين فيما يختص بالجلاء ، إذ كانت انجلترا تعتقد عن يقين أن مجرد جلائها عن منطقة قناة السويس سيتلوه فى الحال تساقط مستعمراتها فيما وراء البحار عن التاج البريطانى الواحدة تلو الأخرى .

وإنى لا أزال أذكر حديثاً جرى بينى وبين المغفور له السيد محمد إقبال ، عندما قال : يخيل لمن لا يدرك الموقف على حقيقته أن مصر والهند (كانت شبه القارة الهندية لم تتجزأ بعد إلى هندوستان وباكستان) لاتربطهما صلة تستدعى اهتمام كل منهما بشئون الأخرى ، والواقع غير ذلك . إذ أن القضية الكبرى بين البلدين واحدة ، فاذا استطاع المصريون إجلاء الانجليز عن قناة السويس ، تهيأت للهند فرصة ذهبية للاستقلال عن التاج البريطانى ، وإذا ما تهيأت للهند فرصة لإخراج الانجليز من أرضها ، كان جلاؤهم عن قناة السويس أيسر مما هو الآن . فواجب على البلدين أن يتضافرا على تحقيق استقلالهما بأن يعمل كل فريق على إخراج هؤلاء الغاصبين من أرضه . فاذا نجح أحد البلدين فى ذلك ، كان البلد الآخر مديناً له بالفضل .

* * *

هذه هى قصة المواصلات الامبراطوية ، التى اتخذتها إنجلترا ، ذريعة للبقاء فى مصر ، بل للتدخل فى شئونها الداخلية البحتة ، والتى كانت من أهم الأسباب التى نكبت مصر فى أمانيها القومية .

فلما قامت الحرب العالمية الثانية ، وساهمت فيها الهند الى جانب البريطانيين مساهمة فعالة ، وكان الوعى الاستقلالى فى الهند قد استيقظ ، يقظة كاملة فيما بين الحربين ، قام أهل الهند قومة رجل واحد ، فانتزعوا استقلالهم من بريطانيا إنتزاعاً .

وحدث قبل ذلك أن قامت فى استراليا وزيلنده الجديدة حكومتان مستقلتان ، وأصبحت كل منهما مجرد عضو فى منظمة الأمم البريطانية ، واستنبطت وسائل السفر على متن الهواء ، فتضاءلت أهمية الدعاية التى كانت تعتمد عليها بريطانيا فى بقائهـا فى منطقة قناة السويس ، وهى حماية المواصلات الأمبراطورية .

ولكن الحرب العالمية الثانية جاءت بوضع جديد فى هذا الجزء من العالم ، جعل البريطانيين ، ومن ورائهم ، بل ومن أمامهم ، الولايات المتحدة الأمريكية ، يطالبون بأمر جديد : هو الدفاع عن الشرق الأوسط أو ما يسمونه « الدفاع المشترك » ، وهو ما سنفرد له الباب التالى .

الفصل الرابع

الدفاع عن الشرق الأوسط

هذه نغمة جديدة فى العلاقات بين بريطانيا والدول العربية ، لم تظهر بوضوح إلا بعد تكتلت أوربا فى مجموعات فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .

ويطول بنا الحديث إذا حاولنا أن نستقصى تاريخ هذه التكتلات ، والأسس التى قامت عليها ، لذلك سنقتصر على الحديث على ما له علاقة مباشرة بالشرق الأوسط .

فى القرن التاسع عشر

شهدت السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر منافسة خطيرة بين بريطانيا وفرنسا حول النفوذ فى الشرق الأدنى . فلما كان القرن العشرون ظهرت فى عالم السياسة الدولية عوامل كسرت من شوكة هذا التنافس . ذلك أن ألمانيا قد بدأت فى مناهضة السياسة البريطانية، وحاول غليوم الثانى ، أمبراطور ألمانيا إذ ذاك ، أن يمكن لألمانيا على الساحل الأفريقى فاندفعت السياسة البريطانية تتحدى هذه الرغبة ، فاستفادت فرنسا — صاحبة النفوذ وقتذاك فى الشمال الأفريقى — من موقف إنجلترا بإزاء ألمانيا كما استفادت إنجلترا فى الشرق الأدنى ، ذلك أنها عقدت مع فرنسا عهداً تطلق به يد فرنسا فى الجزائر وتونس ومراكش، مقابل أن تطلق يد انجلترا فى مصر ، وبذلك حل الوئام بين الدولتين المتنافسين محل الخصام . وشهد حوض البحر الأبيض انسجاما بينهما كانت البلاد العربية الأسلامية ضحيته .

عندئذ اتجهت ألمانيا بسياستها نحو تركيا ، ويصح أن يقال إن ألمانيا نهجت هذا النهج راغبة مرغوبة ، إذ أن دعاة الأصلاح والتجديد فى تركيا ، وغالبيتهم من شباب ضباط الجيش، أعضاء حزب الأتحاد والترقى كانوا ينظرون إلى العسكرية الألمانية نظرة أكبار، ويعتقدون فيها المثل الأعلى للعسكرية البرية الحديثة ، فلما هموا بأصلاح الجيش التركى ، استخدموا الخبراء الألمان ، الذين مالبثوا أن تدخلوا فى أدق شئون الدولة السياسية . وكانت السياسة الألمانية ترمى من وراء هذا التدخل إلى النفوذ إلى داخل الدولة العثمانية ، حتى تصل إلى الخليج الفارسى ، حيث تستطيع أن تناوىء السياسة البريطانية فى احتلالها للهند ونفوذها فى إيران .

وظلت العسكرية الألمانية تشحذ فى همتها، وتبالغ فى التسلح ،وتتحدى السياسة البريطانية علانية . واستطاعت ألمانيا أن تضم اليها فى سياستها هذه دول أوربا الوسطى، وبذلك انقسمت أوربا إلى معسكرين : إنجلترا وفرنسا فى جانب ، وألمانيا والنمسا والمجر وتركيا فى الجانب الآخر ، وقد استطاع الجانب الثانى ، المسمى بدول الوسط ، أن يضم إلى جانبه إيطاليا إعتمادا على مناوأة فرنسا لها فى رغبتها فى التوسع الأقليمى فى الشمال الأفريقى ، كما أستطاع المعسكر المقابل ، الذى سمى بمعسكر الحلفاء ، أن يضم اليه روسيا التى اعتراها القلق السياسى من جراء التكتل بين ألمانيا والدول التى تدور فى فلكها ، كما أن انحياز تركيا إلى جانب ألمانيا كتب على روسيا أن تقف فى المعسكر المقابل ، نظراً لانعدام الانسجام بين الروس والأتراك فى السياسة ، لما كان بينهما من تنافس وعراك مستمر خلال القرنين الماضيين .

وظل العالم يتطلع فى قلق بالغ إلى نتيجة التنافس الجنونى فى التسلح بين المعسكرين ، ويترقب اندلاع نار الحرب بينهما .

فى الحرب العالمية الأولى

ثم اندلعت نار الحرب العالمية الأولى بين هذين المعسكرين ، ولسنا فى هذا المقام بصدد الأسباب المباشرة التى إندلعت من أجلها ، ولا بصدد تفاصيل الحوادث خلال هذه الحرب ، بل نكتفى بأن نقرر أن الحرب فى دورها الاول كانت فى صالح دول الوسط ، ثم انقلبت الكفة بعد دخول الولايات المتحدة الأمريكية فى جانب الحلفاء ، وبذلك انهارت دول الوسط ، وعقد صلح فرنساى فكان نكبة على هذه الدول .

وقد استطاع البريطانيون خلال هذه الحرب أن يؤلبوا العالم الأسلامى على تركيا ، وبذلك تيسر لهم تجنيد الملايين من الجنود المسلمين للحرب ضد تركيا وحلفائها .

إلا أنه حدث ، والحرب فى آخر مراحلها ، أن نشبت ثورة فى روسيا ، أطاحت بعرش القياصرة وأعلنت المبادىء البلشفية ، فخرجت روسيا بذلك من دائرة الدول الديمقراطية التى شاركتها أهوال الحرب ، ولم تستطع روسيا أن تنعم بشىء من نتائج النصر ، بمثل ما نعم حلفاء الغرب .

ومنذ سنة ١٩١٩ عزلت روسيا ، بمبادئها الجديدة عن بقية الدول الأوربية . وأصبحت تدين بمبدأ البلشفية ، ذلك المبدأ التى لا تستسيغه الديموقراطية ولا تطيقه .

أما ألمانيا ، فأنه على الرغم من الشروط القاسية التى أمليت عليها ، قد استطاعت خلال سنوات قلائل ، أن تثير فتنة سياسية بين انجلترا وفرنسا ، على أساس أن الاحتلال المرير الذى كان يمارسه الفرنسيون فى الأرض الألمانية يوشك أن يرجح كفة فرنسا فى التسلح على كفة انجلترا ، وبذلك تستهدف السياسة البريطانية لمناوأة السياسة الفرنسية ، كما كانت الحال فى أخريات القرن التاسع عشر ، وقد ساعد على رسوخ هذه

الفكرة فى أذهان الساسة البريطانيين أن فرنسا كانت قد احتلت ، بناء على معاهدة فرساى ، وادى الروهر الألمانى ، وهو غنى بالفحم والحديد وبه مصانع كروب التى جهزت الألمان وحلفاءهم خلال الحرب بمعدات الدمار التى ذاق الحلفاء منها الأمرين

عندئذ اتجهت الحكومة البريطانية وجهة جديدة ترمى إلى تخفيف الضغط عن ألمانيا . وقد عللت هذه السياسة أمام الفرنسيين بأنها تريد أن تجعل من ألمانيا ردعا يقى غرب أوربا من غارات الروس فى المستقبل ، بعد أن خرجت روسيا من فلك الديموقراطية ، واتخذت لنفسها البلشفية نظاما اجتماعيا .

وقد استطاعت ألمانيا أن تنتفع بهذا الموقف أيما انتفاع ، فأنها لم تلبث أن نشطت نشاطا اقتصاديا وعسكريا واجتماعيا عوض عليها الكثير مما خسرته فى معاهدة فرساى .

وقد كانت السنوات التى تلت الحرب العالمية الأولى ذات أثر فعال فى خلق أوضاع جديدة فى العالم .

فى تركيا

فما كادت الحرب أن تنتهى ، وتملى شروطها المذلة على دول الوسط ، حتى ظهرت فى تركيا حركة عسكرية أزالت دولة السلاطين ، وأحلت محلها دولة عسكرية حديثة التكوين على يدى الغازى مصطفى كمال . وبذلك افتتحت تركيا صفحة جديدة فى تاريخها قلما تتناسق مع تاريخها الماضى . ومن أهم مظاهر النهضة التركية الجديدة أنها انطوت على التحلل من النفوذ الألمانى الذى كان طابع العهد القديم . وقد دب الأصلاح فى جميع مرافق الدولة حتى أصبحت تركيا ، خلال سنوات قلائل ، قوة يحسب حسابها فى شرق البحر الأبيض .

ولم يكد العالم الأوربى يفيق من صدمة النهضة التركية الحديثة ، حتى فاجأته أحداث أوربية جسام .

فى إيطاليا

كانت أحوال ما بعد الحرب قد أثرت فى معنويات إيطاليا ، فانهارت الأحوال الاجتماعية بين الطبقات الفقيرة إلى درجة العرى والجوع ، وجمعت الفاقة بين فئات العمال فى المصانع ، فانتشر الأضراب وعم الاضطراب ، بينما كانت حال الفلاحين قد بلغت من السوء درجة تثير القانع وتستفز الصبور ، فتفتحت الأذهان لتقبل الدعوة الاشتراكية المتطرفة ، وخيف أن تندفع إيطاليا إلى ما اندفعت إليه روسيا من قبل ، إلى البلشفية .

وقامت فى إيطاليا دعوة جديدة . هى الدعوة الفاشستية . إذ قام بنيتو موسولينى عام ١٩١٩ بتأسيس حزب الفاشست لمناوأة الاشتراكية المتطرفة على أساس أنها تتجه نحو العالمية ، وتقاوم التعصب للقومية .

وقد لجأ الفاشست إلى الارهاب فى مقاومة الاشتراكيين ، فكثيراً ما اعتدوا على جرائدهم ، وفضوا إجتماعاتهم بالعنف والشدة ، وقبضوا على زعمائهم ، وقد ساعد على نجاح الحركات الفاشستية الاجتماعية إتخاذ هذه الجماعة لنفسها زيا موحدا هو القميص الأسود .

وقد نظرت الرأسمالية الأيطالية إلى الفاشستية نظرة المنقذ للبلاد مما انحدرت اليه من نزعة اشتراكية فيها الخطر كل الخطر على رؤوس الأموال . أما الحكومة فقد تجنبت التدخل بين الطرفين المتنازعين إذ رأت فى تنكيل الفاشست بالاشتراكيين شيئا من أقرار النظام ، غير أنها تناست أن قيام الفاشست بالدور الذى كان يجب على الحكومة أن تقوم به ، فيه تمكين لسلطان الفاشست ، لا على الاشتراكيين فقط ، بل على الحكومة نفسها .

ولم يدخر موسولينى وسعا فى توكيد هذا المعنى ، إذ قام يندد بضعف السلطة التنفيذية ، متهما إياها بالاستكانة والاستسلام ، وانتهزها فرصة صالحة للدعاية لحزبه ، فانهالت عليهم الجماهير . تشترك فى الحزب أفراداً

وجماعات . ومن أقوال موسولينى فى ذلك : « فى ايطاليا حكومتان : احداهما صورية خيالية ، يشرف عليها فكتا (رئيس الوزراء) والثانية حقيقية واقعية يشرف عليها جماعة الفاشست ، وقد دقت الساعة التى يجب فيها على الحكومة الأولى أن تخلى مكانها للثانية » .

وفى أواخر أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، زحف الفاشست على روما ، فدخلوها ظافرين ، فلم يسع الملك فكتور عمانويل إلا أن يعين موسولينى رئيساً للوزارة .

وبهذا أصبح موسولينى الرئيس الفعلى الأعلى للدولة ، تنفذ كلمته دون كلمة الملك ، ويناصره حزب الفاشست الذى حل محل البرلمان ، وبذلك خرجت ايطاليا من فلك الدول الديمقراطية ، واتخذت لنفسها مكانا وسطا لا هو بالبلشفية التى كان موسولينى يكرهها ويعمل على استئصال شأفتها من ايطاليا ، ولاهو بالديموقراطية التى تقول بالمسئولية البرلمانية فى أوسع حدودها .

وفى ظل هذه السياسة الجديدة ، وما عاصرها من نهضة فى كل مرافق الحياة ، تطلعت ايطاليا إلى التفوق السياسى والعسكرى ، ففى سنة ١٩٢٣ اصطدم موسولينى مع اليونان ورفض تحكيم عصبة الأمم ، ووجه الأسطول الايطالى لحل المشكلة بضرب جزيرة كورفو ، فاستجابت اليونان لمنطق القوة ، وتخاذلت عصبة الأمم عن أن تضع الأمور فى نصابها . وقد كان لذلك أكبر الأثر فى طغيان موسولينى فى تحدى عصبة الأمم والاستهانه بها . فاستولى على ميناء فيوم من يوغسلافيا ، وفى سنة ١٩٢٦ فرض سيادة ايطاليا على البانيا .

ثم تطلع موسولينى إلى أحياء الامبراطورية الرومانية القديمة على حساب الشمال الأفريقى . ولما كانت هذه المنطقة خاضعة للنفوذ الفرنسى ،

فقد خشى موسولينى أن يقع مع فرنسا فى صدام حربى قد لا يتيسر له فيه املاء سياسته بمثل مافعل باليونان ويوغسلافيا ، لذلك اتجه موسولينى نحو صداقة ألمانيا التى كانت بدورها تسير فى نفس الطريق الدكتاتورى الذى سلكه هو فى بلاده . ومن هنا تأسست الصداقة الايطالية الألمانية التى سميت فيما بعد بمحور « روما — برلين » .

فى ألمانيا

أما ألمانيا ، فقد عرفت المشاكل السياسية والاجتماعية قبل أن تنتهى الحرب العالمية الأولى ، ذلك أن النزعة العسكرية ، التى دفعت بألمانيا إلى أتون تلك الحرب ، كانت وليدة السياسة الخاصة بالامبراطور غليوم الثانى الذى كان يعتقد أنه مبعوث العناية الإلهية لرفع شأن الامبراطورية الألمانية ، ومن أدلة ذلك أن رباط الحزام الذى كان الجنود الألمان يلبسونه قد كتبت عليه العبارة الآتية « الله معنا » .

فلما بدأت العسكرية الألمانية فى الانهيار ، على أثر وقوف الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب الحلفاء ، تحركت عوامل المعارضة لسياسة الامبراطور ، وضاعت ثقة الشعب فى النظام الامبراطورى .

وقامت فى ألمانيا نظريتان : الاولى الاشتراكية المتطرفة ، وكانت ترى ضرورة الاندفاع وراء النظرية التى سادت روسيا وقتئذ وهى البلشفية ، أما النظرية الثانية فكانت الاشتراكية المعتدلة التى تنادى بالاخذ بالمبادىء الديمقراطية مع بعض تعديلات اشتراكية ، فكأنها كانت بذلك وسطا بين البلشفية والديمقراطية .

على أن الشعب الألمانى لم يستسغ أيا من هذين المبدأين ، فلا هو بالراغب فى السير فى موكب البلشفية ، لأسباب اقتصادية واجتماعية

كثيرة ، ولا هو بالراغب فى السير فى موكب الديمقراطية نظراً لما ذاقه من آلام على يديها فى مؤتمر الصلح ، وبذلك أنهارت الاشتراكية الديمقراطية لضعفها ، وانمحت الاشتراكية المتطرفة ، لأنها تعمل للهدم أكثر مما تعمل للبناء ، وتتآخى مع البلشفية بما فى ذلك من أضعاف للروح القوميه ، وقام على أنقاضهما « الحزب الوطنى الاشتراكى » . وكان قطب الحزب الجديد شاب فى مقتبل العمر هو أدولف هتلر .

كان هتلر جنديا عاديا فى الحرب ، ثم عين فى أعقابها مراقباً للاجتماعات السياسية فى ميونخ ، فاتصل بحكم عمله بحزب العمال الألمانى ، ولم يلبث أن أصبح عضواً فيه ، ولم تمض مدة وجيزة حتى أصبح رئيس الحزب ، وأطلق على الجماعة اسم « النازى » أى الاشتراكيين الوطنيين .

وفى سنة ١٩٣٢ حاول النازى القيام بانقلاب حكومى ، إلا أنهم فشلوا ، وحكم على هتلر بالسجن خمس سنوات ، فوضع فى السجن كتاب « كفاحى » فلما أطلق سراحه بعد ثمانية عشر شهراً ، ذاع اسمه فى ألمانيا ، وانتخب بعض أعضاء حزبه نوابا فى مجلس الريخستاج .

وكانت مبادئ الحزب وقتئذ تتلخص فى أهداف أربعة : إلغاء معاهدة فرساى لما كانت تنطوى عليه من مذلة لألمانيا ، وتعديل النظام الجمهورى الذى أعلن فى ألمانيا على أثر أنهيار الأمبراطورية ، والتخلص من اليهود إذ إتهمهم الحزب بأنهم أصل البلاء فيما وصلت إليه البلاد لإيثارهم المال على حب الوطن ، والقضاء على النزعات البلشفية بين أفراد الشعب الذين أستهوتهم دعوة الاشتراكيين المتطرفين .

وفى أبريل سنه ١٩٣٢ رشح هتلر نفسه لرياسة الجمهورية منافسا للمارشال هندنبرج ، فنال هتلر ٤٣ ٪ من الأصوات ونال هندنبرج ٥٧ ٪ ، فلما تولى هذا رياسة الجمهورية ، لم يشأ أن يعين هتلر مستشاراً

للريخ ولا رئيسا للوزارة ، ولكنه عدل عن ذلك بعد بضعة أشهر فصار هتلر مستشارا للدولة فى يناير سنة ١٩٣٣ .

فلما أضمحلت صحة هندنبرج فى العام التالى ، وتوفى فى ٢ أغسطس سنة ١٩٣٤ خلفه هتلر رئيسا للدولة ، ولم يعين أحدا مستشاراً للدولة كما جرت العادة ، فجمع فى يده رياسة الدولة ورياسة الوزارة ، ولقب بالفوهرر أى الزعيم .

وقام الفوهرر بعملية تطهير واسعة النطاق ، أقصى بها عن مناصب الحكم الكثيرين ممن حامت حولهم شبهات ، ولم يستطع - خلال هذه الحركة - أن يعصم نفسه من انتهاز الفرصة والتنكيل بخصومه أيا كان نوع هذه الخصومة .

وقد دبت الحياة إلى جميع مرافق البلاد ، وازدهرت التجارة الألمانية الخارجية ، فعم الرخاء أنحاء البلاد ، وتطلع النازيون إلى التفوق العسكرى من تدريب وتسليح ، وبدأ العالم والأوربى يتطلع إلى ألمانيا مرتقبا ما تسفر عنه الحركة النازية من أحداث .

ضرب النازى بمعاهدة الصلح عرض الحائط ، وأدركوا أن أوربا قد أصبحت عاجزة عن أن تلزمها خطة بعينها ، وأنها قد أخفقت فى مثل هذه المحاولة مع ايطاليا ، فازدادت فى نفوس النازى شهوة التوسع ، وداعبت خيالهم أحلام الامبراطورية الألمانية ، فصاروا يلتمسون أوهى الأسباب لاجتياح الدول الأوربية : فنى مارس سنة ١٩٣٦ اجتاحت الجيوش الألمانية منطقة الرين ، ولم تعبأ باحتجاج فرنسا على ذلك ، وفى مارس سنة ١٩٣٨ اجتاحت النمسا ، ولم تعبأ باحتجاج أوربا بأكلها على ذلك ، وفى سبتمبر من هذه السنة ضمت ألمانيا جزءاً كبيراً من تشكوسلوفاكيا على أعين الحلفاء وبإقرارهم ، خوفا من اندلاع نار الحرب ، وفى مارس

سنة ١٩٣٩ وضعت ألمانيا يدها على ما بقى من تشكوسلوفاكيا ، وفى أغسطس سنة ١٩٣٩ اتجهت أنظار النازى إلى بولنده فبدأوا باحتلال دانزج ، ثم لم يلبث الجيش الألمانى أن اجتاح بولنده . فكان ذلك سبباً مباشراً فى الحرب العالمية الثانية .

فى الحرب العالمية الثانية

بدأت الحرب العالمية الثانية وأوربا منقسمة إلى معسكرات ثلاث :

المعسكر الأول : معسكر الديموقراطية وكان يشمل بريطانيا وفرنسا متحالفتين ، وتنطوى تحت لوائه بلجيكا وهولنده آخذتين بالمبادىء الديموقراطية ، ولكنهما غير متورطتين مع الحليفتين فى حلف عسكرى ، أو ما يشبه ذلك . ينضم إلى هؤلاء كثير من الدول التى كانت لا تزال على عضوية عصبة الأمم ، تتأثر للديموقراطية ولكنها لا تغامر فى سبيلها . ثم انضمت الولايات المتحدة الأمريكية إلى هذا المعسكر خلال الحرب .

المعسكر الثانى : معسكر الشيوعية ، تتزعمه روسيا البلشفية ، وتدور فى فلكها مجموعة من الدول المجاورة . بما فى ذلك مجموعة الدويلات التى تناثرت من روسيا القيصرية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وتأثرت بالمبادىء البلشفية تأثراً يتزايد أو يتناقص وفقاً لظروف كل دولة .

المعسكر الثالث : وهو ما كون فى الحرب العالمية الأولى دول الوسط وقد كان من أثر الهزيمة التى منى بها ، والشروط القاسية التى أمليت عليه ، حائراً بين مبادىء المعسكرين الشرقى والغربى . حتى استهدف للدكتاتورية العسكرية فنراها فى تركيا ممثلة فى مصطفى كمال أتاتورك ، الذى ألف حزب الشعب على يده ليكون له أداة طيعة فى تنفيذ إصلاحاته ، إلا أنها آثرت ، عند قيام الحرب ، أن تظل على الحياد ، لا تنضم لأى من هذه المعسكرات ،

على الرغم مما بذله كل من هذه المعسكرات فى اجتذابها إلى جانبه ، وفى ألمانيا وقد ظهرت فيها النازية يتزعمها هتلر زعامة عسكرية ، مستنداً إلى حزب واحد هو الحزب الاشتراكى الوطنى ، وفى إيطاليا حيث ظهرت الفاشستية بزعامة موسولينى يستند إلى حزبه .

وقد ظهرت فى حوض البحر الأبيض المتوسط دكتاتورية رابعة هى دكتاتورية الجنرال فرانكو يسندهاالحزب الواحد فى البلاد وهو الفالانج . إلا أن الجنرال فرانكو رأى من مصلحة بلاده أن تقف فى الحرب على الحياد ، وأن لا يشترك فى معسكرمن المعسكرات الثلاث .

وفى الأيام الأولى من الحرب ، وقفت دول المعسكر الأول ، وهو المعسكر الديموقراطى ، تحارب دول المعسكر الثالث ، وهو معسكر الدول الدكتاتورية ، المعروف بمحور روما — برلين (ولم تشترك تركيا فى هذه الحرب كما قدمنا) .

وبمثل ما رجحت كفة دول الوسط فى بداية الحرب العالمية الأولى ، فإن النصر كان من نصيب المحور فى بداية الحرب العالمية الثانية . وبمثل ما انهارت دول الوسط على أثر تدخل الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب العالمية الأولى ، انهارت كفة دول المحور على أثر تدخل الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الثانية .

أحداث عالمية

وقد تميزت الحرب العالمية الثانية بالأحداث العالمية الآتية :

أولا : كانت ألمانيا وإيطاليا قد استطاعتا قبل الحرب استهواء اليابان إلى جانبهما ، فاشتركت معهما ، وقامت بالهجوم المفاجىء على الميناء الأمريكى بيرل هاربور ، فكان ذلك من أهم الأسباب التى دفعت بأمريكا إلى الحرب ، مما رجح كفة الحلفاء .

ثانيا : بعد أن دخلت روسيا الحرب فى جانب دول المحور ، دب الخلاف بينها وبين ألمانيا ، وبذل الحلفاء وسعهم فى جذب روسيا إلى جانبهم فنجحوا ، وبذلك كانت ألمانيا تحارب فى جهتين : شرقية وغربية ، بمثل ما كانت عليه الحال فى الحرب العالمية الأولى ، فكان ذلك سببا فى توزيع جهودها الحربية ، مما أدى إلى هزيمتها عند ما دخلت الولايات المتحدة الحرب ، فأنزلت جيوشها فى الميدان الغربى ، وبعثت بمعونتها العسكرية من عتاد ومال إلى الميدان الشرقى .

ثالثاً : نظراً للعداء المستحكم بين اليابان والصين ، انضمت الصين إلى جانب الحلفاء ، وساهمت معهم فى الحرب . فلما انتهت الحرب فى صالح الحلفاء ، جلست الصين فى مؤتمر الصلح باعتبارها إحدى الدول الكبار بينما وقفت اليابان على الأبواب تتسمع إلى ما يراد بها .

رابعاً : دخلت هولنده الحرب إلى جانب الحلفاء ، فانتهزتها اليابان فرصة وأغارت على جزر أندونيسيا التى كانت تابعة لهولنده واحتلتها ، فلما انتهت الحرب ، وخرج اليابانيون من أندونيسيا ، وطالب أهل البلاد ، وغالبيتهم الساحقة من المسلمين ، باستقلال بلادهم عن هولنده التى فقدت مستعمرتها فى الحرب . وظل أهل البلاد يكافحون فى سبيل استقلالهم حتى نالوه . وسنفرد بحثا خاصا فى هذا الكتاب لأندونيسيا .

خامسا : توغلت الجيوش اليابانية فى الشرق الأقصى ، فاحتلت جزر الأرخبيل التابعة لبريطانيا ، فكان ذلك مدعاة لمطالبة هذه الجزر بتقرير مصيرها بالاستقلال .

سادسا : قامت فى الهند ، على أثر اقتراب اليابان منها ، حركة ترمى إلى تحقيق المطالب الوطنية ، وهى الاستقلال ، تحقيقاً عمليا . فكان لها بعد الحرب ما شاءت ، على ما سيرد عند الكلام عن الهند والباكستان .

سابعا : عندما انهارت فرنسا ، وزالت حكومتها الشرعية من أرض الوطن صارت حال المستعمرات الفرنسية فى الشمال الأفريقى ، وبلاد الانتداب

الفرنسى فى سورية ولبنان ، فوضى من ناحية الوضع السياسى. أما الشمال الأفريقى فلم يلبث أن عاد إلى وضعه الأصلى ولكن على ولاء للحكومة الفرنسية المطرودة من أرض الوطن ، وهى التى سميت بحكومة فرنسا الحرة ، وقد بذلت هذه الحكومة لأهل الشمال الأفريقى من الوعود ما حملهم على مساعدة الحكومة الحرة على البقاء الى أن استعادت فرنسا مكانتها ، فلم تقابل أهل الشمال الأفريقى بشىء من عرفان الجميل ، بل تناست نكبتها خلال الحرب ، وظلت تعاملهم على النهج الإستعمارى القديم ، فكان من نتائج ذلك تلك الثورات المتوالية ضد الفرنسيين، مما سنعرض له بالتفصيل عند الكلام ـ عن الجناح الغربى من العالم الإسلامى .

أما فى سورية ولبنان ، فأن أحوال السياسة العالمية ، وخوف الحلفاء من أن تقع البلاد فريسة فى أيدى الشيوعيين ، ويقظة أهل البلاد فى السهر على حقوقهم ، كل ذلك كان من شأنه أن تنال هذه البلاد استقلالها ، وقد كان لبريطانيا موقفا بازاء هذا الاستقلال سنتحدث عنه بأسهاب عند الكلام على سورية ولبنان .

ثامناً : انهارت الدكتاتوريتان الألمانية والإيطالية ، أنهارتا على أثر الهزيمة التى نزلت بدول المحور ، كما أطاحت هذه الهزيمة فى الشرق الأقصى بامبراطور اليابان، الذى كان موضع العبادة من شعبه . ولم يكن ذلك غريباً ، فأن الهزائم البالغة ، وإذلال هذه الشعوب الثلاثة ، كان كافيا لفقدان ثقة هذه الشعوب بقوادها . يضاف إلى ذلك أن استهواء الحلفاء بالترفق بهذه الدول كان من شأنه أن يحدث فيها ما حدث .

بين الديمقراطية والشيوعية

أوقفت الحرب ، وأنشئت هيئة الأمم المتحدة لتحل مكان عصبة الأمم ، وتزعم النشاط داخل الهيئة الدول التى كسبت الحرب : الولايات المتحده ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، والصين .

ولم تمض أيام معدودات على انشاء الهيئة حتى انقسمت الزعامة داخل الهيئة وخارجها إلى معسكرين متنافرين : روسيا فى ناحية وبقية الدول الكبرى فى ناحية أخرى ؛ هى تدين بالشيوعية ، وكلهم يدين بالديمقراطية . وانقسمت عامة الدول إلى معسكرين ، معسكر يدور فى فلك الديمقراطية والآخر يدور فى فلك الشيوعية ، وأصبحت كل مسألة تعرض على الهيئة مسرح المناقشة والمنافسة بين الفريقين ، حتى أصبحت جلسات الهيئة معرضا للأخذ والرد بين الفريقين ، ومسرحا لتبادل الانتقادات ، بل النكبات ، بل التشائم ، بين مندوبى الفريقين واجتاحت العالم موجة من الحرب الباردة تشنها روسيا الشيوعية على المعسكر الديمقراطى ، وموجة من القلق تعترى الدول الديمقراطية خوفا من مصير العالم ، لا بل مصير الديمقراطية ، إذا وقعت حرب عالمية ثالثة .

بأزاء هذه الحالة ، رأت الدول الديمقراطية أن تتكتل لدرء الخطر الشيوعى . وانبرت الولايات المتحدة تساعد الدول التى تسير فى فلك الديمقراطية ماليا واقتصاديا وعسكريا تشجيعا لها على الثبات على موقفها ، وعدم الانحياز إلى المعسكر الشيوعى تحت تأثير الفقر أو الضعف الذى تعانيه الشعوب فى تلك البلدان .

ومن أهم المناطق التى ترى الديمقراطية أنها ستكون ميدانا لهجوم مفاجىء من الجانب الشيوعى الشرق الأوسط ، وكل دوله عربية أسلامية .

ومن هنا نشأت قصة الدفاع عن الشرق الأوسط ، أو ما يسمونها فى هذه الأيام قصة الدفاع المشترك .

فأن الولايات المتحدة تتدخل تدخلا سافرا بين أمم الشرق العربى الأسلامى والدول الذى تحتله ، سواء أكانت بريطانيا أم فرنسا ، وتعمل جادة على أن لا تتسع الهوة بين هذه البلاد المطالبة باستقلالها التام ، وبين بريطانيا وفرنسا اللتين لا تريدان التخلى عن شىء مما تحت أيديهما .

الفصل الخامس

الاستعمار الفرنسى فى الشمال الأفريقى

نكبت دول الشمال الأفريقى خلال القرن التاسع عشر بالاستعمار الفرنسى ، وهى لاتزال تكافح حتى اليوم تلك القوات الغاشمة التى اعتدت على استقلال البلاد ، فأذلت أهلها ، وساقتهم الى الحروب التى لم يكن لهم فيها ناقة ولاجمل، فألقت بزهرة شباب المسلمين العرب فى أتون الحرب العالمية الأولى ، ومن بعدها فى الحرب العالمية الثانية ، دون أن يدرى المجندون فى أى طريق هم مساقون ، ولأى عرض يحاربون .

وسنتناول بالبحث فى هذا الفصل الأسباب التى أدت الى استعمار الفرنسيين لتلك البلاد . ونرى ، أن نقسم الأسباب إلى مجموعات ثلاث : أسباب فرنسية ، وأسباب أفريقية ، وأسباب عالمية .

أما الأسباب الفرنسية فتتلخص فى أن فرنسا كانت دولة استعمارية كبرى ، أيام أن كانت تملك الأملاك الشاسعة فى أمريكا ، كما كانت تملك على سواحل الهند مستعمرات لها أهمية اقتصادية كبرى ، فلما جاء القرن الثامن عشر ، وفى ثناياه الثورة الفرنسية الكبرى ، وظهور نابليون ، ودارت الدائرة على سياسته فى أخريات أيامه بعد أن تألبت عليه الدول الأوربية ، فقدت فرنسا مستعمراتها فى أمريكا ، وتأثرت مستعمراتها فى الشرق الأقصى تأثراً أقض مضجع المستعمرين الفرنسيين ، وفوت على الحكومة ماكانت تبغيه من عظمة ونفوذ ، على حساب هذه المستعمرات .

عندئذ بدأت فرنسا تتطلع إلى مجال حيوى أقرب إلى أرض الوطن من تلك المستعمرات التى أصبحت لا تملك الأسطول الذى يستردها أو

يحميها إذا ماعادت اليها . ونظرت إلى الشاطىء الأفريقى المقابل لها على أنه المجال الحيوى الذى يناسب ظروفها .

ومماشجع على ذلك أن حملة نابليون على مصر، وإن كانت قد أخفقت، إلا أنها فتحت أعين الأوربيين عامة ، والفرنسيين خاصة ، إلى أنه من السهل التغلب على جيوش المسلمين فى أرضهم ، وأنهم ليسوا من الانسجام مع الباب العالى بحيث يخشى تدخله المسلح لحماية هذه الأملاك التى أصبحت لا تدين للباب العالى إلا بولاء أسمى . فكان فى هذا الاعتقاد تشجيعاً على غزو الشمال الأفريقى .

يضاف إلى ذلك أن الحكومة الفرنسية كانت تنظر إلى الشمال الأفريقى، ومن ورائه الصحراء الكبرى الأفريقية ، نظرتها إلى ميدان لتدريب جنودها على أساليب الحرب واحتمال المصاعب ، بعيدا عن أعين الدول الأوربية ، وكان طابعها وقتذاك أن تتحسس استعداد بعضها البعض للحرب ، وكان مقياس الاستعداد كثرة عدد الجند ، وتوافر معدات القتال .

ومن الطريف أن نذكر أن العلماء الفرنسيين قدجندوا أنفسهم لاثبات الحق الشرعى لفرنسا فى النزول بالشمال الأفريقى ، مهاجرين أو مستعمرين أو كيفما كانت الحال ، فقد ذهب العلماء الجيولوجيون إلى أن الشمال الأفريقى كان منذ القدم متصلا بالساحل الجنوبى لفرنسا فى سلسلة جبال واحدة تصدعت فى العصور الجيولوجية القديمة فكان بوغاز جبل طارق ومضيق مسينا، وأن البحر الأبيض الغربى كان فى تلك العصور بحيرة فرنسية. وقال ساسة الفرنسيين أن الشمال الأفريقى ألزم لفرنسا من الناحية الاجتماعية والعمرانية من سهول نورماندى بشمال فرنسا نفسها .

أما الأسباب الأفريقية، فتتلخص فى أن العداء الذى استحكم بين محمد على والسلطان كان من شأنه أن ضعف كل من الجانبين ، فلما رأت فرنسا فرط

انشغال بال السلطان بمقاومة محمد على ، آمنت بأنها فرصة ذهبية لها للإغارة على الشمال الأفريقى فى وقت لايتسنى للسلطان أن يمدله يد المساعدة فضلا عن أن سكان الشمال الافريقى كانوا يعيشون فى عزلة عن مجريات الأحداث فى العالم، فلمافوجئوا بنكبة التدخل الفرنسى، لم يستطيعوا له دفعاً.

أما فى أوربا ، فقد رحبت كافة الدول بانصراف فرنسا إلى فتوحات خارجية ، ولم تفكر فى معارضة الفرنسيين، إيمانا منها بأن انشغالها بشئون الشمال الأفريقى سيصرفها وقتاً ما عن مجريات الأمور السياسية فى أوربا، وبذلك تستريح أوربا وقتاً ما من المنافسات المسلحة التى كانت طابع عهد نابليون . ولكن الدول الأوربية كانت فى ذلك قصيرة النظر ، فإن فرنسا لم تتخذ من الشمال الأفريقى معسكراً لتدريب الجندى الفرنسى على القتال فحسب ، بل جندت من أهل البلاد مئات الآلاف كانوا عدتها فى كل حرب أوربية .

فى الحرب العالمية الأولى

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى ، واشتركت فيها فرنسا ـ كما قدمنا ـ إلى جانب الحلفاء ، وإذا بالميدان الغربى (وهو جهة القتال بين فرنسا وألمانيا ، وقد سمى بالميدان الغربى لوقوعه فى غرب ألمانيا ، تمييزاً له عن الميدان الشرقى الذى كان مسرح القتال بين الألمان والروس) يعج بالكتائب المؤلفة من جنود الشمال الأفريقى .

وقد استبسل هؤلاء فى القتال استبسالا منقطع النظير . سألت زعيما من زعماء المغرب الأقصى عن رأيه فى وطنية أولئك الذين ذهبوا إلى فرنسا يحاربون بغير هدف من دفاع عن الوطن أو مصلحة أخرى فى القتال فقال : لقد اندفع الجندى المغربى إلى الميدان الأوربى يحدوه عاملان : الأول روح البسالة الفطرية ، وحب القتال الذى طبع عليه ، أما الثانى فإيمانه بأنه يقتل الكفار، وهو يرجو من وراء ذلك ثوابا .

إلا أن فرنسا كانت تسوق هذه الآلاف المؤلفة من أهـــل المغرب والسنغال ومدغشقر والهند الصينية ، وغالبية هـــؤلاء من المسلمين ، تسوقهم إلى الموت وتدفع بهم إلى الصفوف الأمامية فى القتال .

وتوقع أولو الأمر من الوطنيين أن تحفظ فرنسا لبلادهم هذا الجميل ، وزادوا إيماناً بذلك عند ما نودى بحق تقرير المصير . وانعقد مؤتمر الصلح فإذا بهذه الأحلام الذهبية تتبدد ، وإذا بالشمال الأفريقى أسوأ حالا مما كان عليه قبل أن يشترك فى الحرب إلى جانب فرنسا ، ويحرز لها النصر الذى مكنها من الخروج من المؤتمر بنصيب الأسد .

يقول الأستاذ أحمد رمزى فى كتابه «الاستعمار الفرنسى فى الشمال الأفريقى» :

« فإذا نظرت إلى خريطة لأفريقية ، تجد الأمبراطورية الفرنسية كتلة ضخمة ملونة بلون واحد ، تقع جنوب فرنسا وكأنها جزء متمم لها ، أو امتداد لأراضيها ، لا يفصلها عنها غير البحر الأبيض المتوسط ، ولكنه طريق سهل قريب ، لأنه يجمع بين الشاطئين فى ساعات معدودة ، وهذه الأمبراطورية ، أو المجموعة من المستعمرات ، تبدو أمام الناظر ، والبحر يحيط بها من ثلاث جهات : المتوســـط فى الشمال ، والمحيط الأطلسى فى الغرب والجنوب ، ويفصلها عن بعضها الصحراء الكبرى ، وهى فى صمتها وتحديها للإنسان لا تزال كالربع الخـالى فى جزيرة العرب ، تسخر من الإنسان الذى لم يفك أسرارها بعد ، ولم يخضعها لإرادته ، فقد فكر المستعمرون فى استثمار أراضيها وفى اختراقها بعدة طرق ممهدة للسيارات ، أو إنشاء خط حديدى يقطعها من الشمال إلى الجنوب ، ولم يتحقق للآن شىء من ذلك لأن مجهودات فرنسا محدودة ، وهى لن تسمح لغيرها من الدول أن يتولى هذا العمل عنها .

ويخيل إلى الباحث أن هذا العمل الاستعمارى الذى بدأ بعد خروج

نابليون طفرة فأصبح حقيقة فى عصرنا الحالى ، يبدو كعمل عظيم ساهمت فيه أمة برجالها ودمائها وتفكير أبنائها ، وأنه إن دل على شيء ، فهو يدل على عبقرية الذين جاهدوا فى إنشائها ، وجمعوا بصبر شتاتها ، فحققوا للبلادهم حكم أمبراطورية موحدة كافية لإسعاد أى بلد أوربى يمكنه أن يتحول ، باستغلال خيرات هذه الأمبراطورية وثرواتها وأراضيها ، إلى بلد عظيم فى الصف الأول من العالم . فهل وصلت فرنسا إلى أن تحكم، بعقل وحكمة ودراية ، هذه الأمبراطورية ، وأن تحسن سياستها مع الشعوب التى تسكنها ، فتسعدها وتزيد من عدد سكانها، وتأخذ بيدهم فى طريق الحضارة والعلم والحكم الذاتى ، حتى تجنى مافى هذه الأراضى من الخيرات والثمرات؟

الواقع أن فرنسا لم توفق كثيراً فى مضمار الاستعمار كما يفهمه العالم الغربى ، وإن وفقت ، فألى حد لايتناسب مع جهودها ، أو هو ضئيل بجانب ماكان يمكن أن تصل إليه ، ذلك لأنها بقيت ولا تزال تعيش على أساليب الماضى فى إدارة مستعمراتها ، وفى علاقاتها مع البلاد الخاضعة ، وإلا فلماذا يواجه الباحث فى أنحاء أمبراطوريتها ما يشعره بأنه داخل حصن كبير ، أو معسكر من المعسكرات ، وحوله نطاق من الأسلاك الشائكة ، يحرسه جنود من السنغال ، يسيطر عليهم رجال أشداء ، أعظم همهم قطع كل العلائق بين هذه البلاد والعالم الخارجى ، ولا يعرفون سوى قانون البطش فى علاقاتهم مع السكان . لماذا يلازم الناس هذا الشعور دائماً ؟ لأن عيوب الادارة الفرنسية للمستعمرات ظاهرة واضحة ملموسة ، وموقف الحكومة المركزية وممثليها يشعرك باستمرار ان فرنسا لم تنجح كأمة حاكمة ، ولذلك لم تستطع أن تقدم دليلا واحدا على رغبتها فى تحرير الشعوب المظلومة ، ولا فى الأخذ بيدها فى طريق العلم والنور ، ولا فى أعطائها ما تطلب من حرية أو حكم ذاتى ، أو اشراكها فى أدارة الأمور العامة ، أو تسليم البعض منها إلى أهلها ، كما أنها لم تقدم للعالم برنامجا إنسانيا يمكن أن يحقق شيئا من ذلك ...

وهناك ظاهرة أخرى لها أهميتها ، وتكاد تنفرد بها المستعمرات الفرنسية وما يشبهها من ممتلكات بعض الدول الأوربية ، التي احتفظت بمستعمراتها كتراث تاريخي لماض قديم . وهذه الظاهرة هي أن التقدم المادي الذي صحب العالم في السنوات الماضية ، والذي فرض نفسه على أغلب المستعمرات، لم يشمل الأمبراطورية الفرنسية . ولذلك إذا تحدث الفرنسيون عن مجهودهم الاستعماري وملأوا العالم بكتبهم ونشراتهم ، فهو مجهود عظيم من وجهة نظرهم وحدهم ، ولكنه مجهود متواضع إذا قيس بما قامت به الأمم الاستعمارية الأخرى، فإذا نزلت بشمالي أفريقيه، وهي من البقاع الخصبة الغنية بمواردها وثرواتها المعدنية ، وقارنت ما عملته فرنسا هناك بالمجهود الذي بذله الاستعمار في نواح مماثلة ، لوجدت أن مجهودها لم يصل إلى الدرجة التي تسمح بها حضارة القرن العشرين ، بما تضعه بين أيدي الأنسان من وسائل تمكنه من السيطرة على الطبيعة ، ومن إخضاعها لأرادته : والأمثلة على ذلك كثيرة ، إذ تجدها في كندا واستراليا ، وأفريقية الجنوبية ، وزيلندة الجديدة .

* * *

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى ، والمناداة بحق تقرير المصير ، تصايح زعماء العرب والمسلمين في كل مكان يطالبون بالاستقلال عن دول الاستعمار، وقد سرت هذه العدوى إلى الشمال الأفريقي ، وتصدر الحركة لفيف من الشباب الذين تلقوا العلم في الخارج ، فأذا بالاستعمار الفرنسي ينزل بهم أفظع النكبات من سجن وتشريد . ويكبت الحركة الوطنية بكل ما أوتي من وسائل العسف والتنكيل .

في الحرب العالمية الثانية

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية ، فلم تلبث فرنسا أن جندت من

شباب الشمال الأفريقى مئات الآلاف ، وبعثت بهم ، على غرار ما فعلت فى الحرب العالمية الأولى، إلى ميدان القتال ، وكانت فرنسا تعتمد فى ذلك على ولاء فريق من الشعب ، هم أولئك الذين تخيرتهم للوظائف الادارية من أعيان الريف ، وكان هؤلاء ، ومن قدموهم إلى فرنسا قربانا على مذبح «الولاء» ، على جهل تام بمصيرهم ، وأنما حشدوا فى السفن الفرنسية حشداً .

وقد يكون من قبيل تقرير الوقائع أن كثيراً من هؤلاء كانت قد تنورت أذهانهم بالدعاية الوطنية فيما بين الحربين ، ولذلك لم يكن حشد هؤلاء فى الجيش الفرنسى أمراً ميسوراً ، وقد حدثت بضعة حوادث فى الموانى الأفريقية تدل على عصيان الجند الأفريقى ، إلا أن السلطات الفرنسية لم تتلكأ فى الضرب على أيدى العصاة ، فكان لها ما أرادت رغم أنف الوطنيين المتحمسين لبلادهم ، الذين كانوا يقيمون العراقيل فى وجه الدولة المستعمرة .

وبهجوم الألمان المفاجىء على فرنسا ، لم تستطع فرنسا أن تصمد ، فتوالت عليها الهزائم ، واضطرت للتسليم بعد قتال لم يدم طويلا . وعقدت الهدنة بين ألمانيا وفرنسا ، فأذا بوضع الشمال الأفريقى غاية فى الشذوذ : إذ أن الحكومة الفرنسية قد استسلمت ، فى الأرض الأوربية ، للألمان الظافرين ، ولكنها اتفقت معهم على أن تبقى فرنسا فى الشمال الافريقى ، بل فى المستعمرات الفرنسية عامة ، على ما كانت عليه قبل الهزيمة .

ولعل الألمان قبلوا هذا الوضع مقابل أن تستكين فرنسا للهزيمة ، وأن تبقى على الحياد إلى أن تنتهى الحرب . أو لعلهم قبلوه مؤمنين بأن الفرنسيين الذين كانوا على اتصال بهم قد أفهموهم أن فرنسا نفسها سائرة فى طريق الأشتراكية الوطنية بدلا من تمسكها بالديمقراطية ، فأرادوا

أن يتساهلوا معهم فى هذا الشرط رغبة فى اجتذابهم نهائيا نحو المبدأ الاجتماعى الذى تدين به ألمانيا النازية .

وأيا كانت الأسباب ، فأن الشمال الأفريقى ظل — على تعبير الفرنسيين — جزءاً من الأمبراطورية الفرنسية ، أو فى الحقيقة مستعمرة فرنسية .

وقد لابس انهيار فرنسا تغير فى طرق التفكير عند زعماء الشمال الأفريقى . فلقد كانت الفكرة قبل نشوب الحرب أن فرنسا دولة بالغة القوة لاسبيل إلى إستقلال البلاد إلا بالتفاهم معها ، ووسيلة هذا التفاهم أن يتوصل إلى الاستقلال تدريجيا . فكانوا يدعون إلى الأصلاح ، ويعتبرونه وسيلة إلى الاستقلال الذى يطالبون به عن طريق إثبات استحقاقهم له .

أما قد عجزت فرنسا عن أن تصمد فى ميدان الحرب فى أوربا ، فقد أصبح الزعماء فى الشمال الأفريقى يعتقدون أن بلادهم لن تستطيع أن تصل إلى اليوم الذى تجد فيه نفسها قادرة على تولى شئونها مادام فيها المحتلون ، كما أن هؤلاء يمكن اجلاؤهم عن البلاد ، وكسر شوكتهم بمثل ما كسرت فى الميدان الأوربى .

كنت فى زيارة للمغرب الأقصى أيام أن بدأت فرنسا فى الانهيار ، وكنت انتقل بين تطوان (عاصمة المنطقة الخاضعة للنفوذ الأسبانى) وبين ميناء طنجة الدولى . وكان فى كل من البلدين مكتب للدعاية الألمانية ، فى المدينـــة الأولى بحكم أن النفوذ فيها كان للجنرال فرانكو ديكتاتور أسبانيا والمتحالف — إجتماعيا — مع كل من النازية والفاشستية ، وفى المدينة الثانية باعتبار كونها ميناء دولياً .

وقد رأيت الشباب المغربى يتهافت على مكاتب الدعاية الألمانية ، متنسما

أخبار انتصارات الألمان وانهزامات فرنسا ، وكنت أرى هذا الشباب يقف فى الشوارع ليستمع إلى الأذاعة الألمانية باللغة العربية عن أنباء الحرب فأذا أذاع المذياع أخبار الانتصارات هلل الشباب وكبروا. ولقد عرفت أن شبانا كثيرين كانوا يحضرون من منطقة الاحتلال الفرنسيه ليشهدوا الخرائط المنشورة فى مكاتب الدعاية ويستمعوا — فى حرية — إلى الأنباء التى تذيعها محطة برلين .

ويمثل لنا الأستاذ عبد المجيد بن جلون هذه العقلية فى كتابه « هذه مراكش » تعليقا على هذا الموقف فيقول :

« كان الأهالى ينظرون إلى فرنسا على أنها دولة عظمى قبل أن يهزمها الألمان ، وكانت صفة القوة التى تتمتع بها داخل البلاد تصورها فى صورة القاهر الذى لا يغلب ، وصورة « دولة الحضارة » التى تدين لها الانسانية جمعاء فى النواحى الأدبية والثقافية . ولكن هذه الصورة انهارت كلها أمام انهزام الجيش الفرنسى ، وما تكشفت عنه تلك الهزيمة من عدم القدرة والكفاءة وسوء النظام وهلهلة النفوس ، وذلك أمام البراعة الألمانية فى الفنون المختلفة ، ثم أمام روعة الصمود الأنجليزى ، والمثال الذى ضربه ذلك الشعب فى الصبر على المكاره وتضحية المصالح والإخلاص للوطن ثم بعد ذلك أمام الصناعة الأمريكية وقدرة الولايات المتحدة الهائلة فى أحدث الفنون — كل ذلك صور فرنسا أمام الاهالى فى صورة دولة لا يمكن أن يرد لها ذكر عند التحدث عن الدول العظمى.

وظل الشمال الأفريقى يدار خلال ذلك لحساب حكومة فيشى الموالية للألمان ، ونزل به كثير من الخبراء الألمان ، ولو أن هؤلاء فعلوا شيئاً من أجل البلاد ، أو قاموا بدرس المسألة السياسية بمثل ما كانوا يدرسون الشئون الاقتصادية ، لتغيرت مصائر الأمور قبل أن تنتهى الحرب .

وفى أواخر سنة ١٩٤٢ ، أنزل الحلفاء (بريطانيا والولايات المتحدة وحكومة فرنسا الحرة التى كان يتزعمها الجنرال ديجول وتقيم فى لندن) أنزلوا حملة عسكرية على شواطىء مراكش ، فقاومتهم السلطات الفرنسية المحلية التى كانت تدين بالولاء لحكومة فيشى ، ولكن سلطان مراكش استدعى المقيم العام وطلب إليه أن لا يورط البلاد فى حرب ، وكان المقيم قد شهد بعينيه ضخامة العمارة الأمريكية ومدى استعداد الحلفاء ، فاستجاب لطلب السلطان وأمر بوقف القتال .

وفى يناير سنة ١٩٤٣ قدم إلى مدينة الدار البيضاء الرئيس روزفلت والمستر تشرشل لتنسيق الخطط الحربية .

ولقد كانت زيارة الرئيس روزفلت ذات أثر بالغ فى مجريات الأمور ، لا فى مراكش وحدها ، بل فى الشمال الأفريقى بأكمله . فلقد سمع عنه أنه قال : « إن الاستعمار الفرنسى أسوأ ما يمكن أن ينكب به شعب من الشعوب » . وتناول الرئيس الغذاء يوماً مع سلطان مراكش وكان ثالثهما المستر تشرشل ، وقد قال الرئيس فى هذه المأدبة للسلطان بأن يشتد فى المحافظة على ثروة بلاده المعدنية إذا كان يريد الحصول على الاستقلال ، وحذره من تسرب هذه الثروة إلى أيدى الأجانب ، وعبر له عن استعداد أمريكا لتقديم المعونة اللازمة لتكوين طائفة من الفنيين المراكشيين فى معاهدها العلمية بصفة عاجلة ، تمكنهم من استغلال المعادن فى البلاد ، وكان تشرشل خلال ذلك ممتقع الوجه يحاول أن يقطع الحديث أو يغير مجراه دون جدوى .

تطايرت أنباء الحديث الذى جرى بين الرئيس والسلطان ، فألهبت حماس أهل الشمال الأفريقى بأكمله ضد الفرنسيين ، وتوقع الفرنسيون الثورة عليهم فى كل مكان ، إلا أن ظروفاً طارئة جمعت الحركات الوطنية

أقل حدة مما توقع الفرنسيون ، ذلك أن البلاد أصبحت تحت السيطرة الفعلية لأولئك الذين أكد رئيسهم للسلطان صداقة بلاده ومن ورائها السهر على مصالح البلاد الاستقلالية .

ومع كل ذلك فقد انبرت فرنسا للقضاء على الحركات الوطنية أينما ظهرت ، فاعتقلت الزعماء زرافات ، وألقت بهم فى غياهب السجون .

الشمال الأفريقى والشرق العربى

وفى خلال هذا الاضطهاد المرير ، استطاع بعض الزعماء الإفلات من براثن الفرنسيين ، ويمموا شطر مصر التى أصبحت ، بعد إنشاء الجامعة العربية ، موئلا للمضطهدين من أبناء العروبة ، فاحتضنت مصر هؤلاء الزعماء ، ويسرت لهم سبيل الدعاية لقضية بلادهم ، كما سافر بعض هؤلاء الزعماء إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، للدعاية فى مقر الأمم المتحدة لقضية بلادهم ، وقد أبلى كلهم فى هذين الميدانين أحسن البلاء .

ولا تزال أمور الشمال الأفريقى معلقة بين العناصر الوطنية التى تطالب بالاستقلال التام ، والسلطات الفرنسية التى لا يخطر لها ببال أن تتنازل عن شىء مما وقع تحت يدها فى هذه المنطقة الحيوية .

وتندلع الثورات فى الشمال الأفريقى ضد المستعمرين بين حين وآخر ، وآخرها الثورة الحالية ، وقد رفعت القضية برمتها إلى هيئة الأمم المتحدة فكان نظرها ، أو عدم نظرها ، مسرحا للمنافسة بين الدول المشتركة فى الهيئة .

الفصل السادس

فرنسا فى سورية ولبنان

كان وجود بيت المقدس ، وهو قبلة الحجاج المسيحيين ، فى ديار الإسلام ، محكا لاتصال الشرق بالغرب . فعندما كان الشرق الإسلامى قوياً ، نرى المسيحيين يتقربون إلى أولى الأمر فيه ، وقصة اتصال شرلمان بهرون الرشيد معروفة ، ويقال إنها أول حادث كانت له نتائجه فى علاقة المسلمين بالمسيحيين ، إذ يقال أن هرون الرشيد منح المسيحيين بعض الامتيازات فى بيت المقدس .

فى العصور الوسطى

وفى عصر الفروسية بأوربا ، وقد كان كذلك عصر اهتمام بالدين وتحمس للمسيحية ، اتجهت الحملات الصليبية من الغرب إلى الشرق بفكرة تخليص ببت المقدس من أيدى المسلمين . وكانت حروب بين الفريقين ليس من شأننا هنا ذكر تفاصيلها ، إنما نقرر هنا ان كثرة الصليبين كانت من الفرنسيين ، وكذلك كانت الأمارات الصليبية التى ظهرت فى الشرق فى أخريات القرن الحادى عشر المسيحى ، والتى ظلت باقية نحو قرنين من الزمان ، مظهراً من مظاهر الإقطاع الفرنسى فى العصور الوسطى ، وان هذه الأمارات كانت تقوم فى صميم الشرق الإسلامى : ومما لاشك فيه أن نوعا ما من التزاوج قد جرى بين القادمين من أوربا للاستقرار فى الشرق ، وبين أهل الشرق أنفسهم ، مما أنتج مع الزمن جيلا مسيحياً مختلط الدم ما بين أوربى وأسيوى — ومما لا شك فيه كذلك ان هذه العناصر المختلطة الدم كانت تتأثر لأوربا عامة ، ولفرنسا خاصة ، أكثر مما تتأثر للإسلام والمسلمين .

وحدث أن إحدى تلك الحملات الصليبية اتجهت صوب مصر بقيادة لويس التاسع ، ملك فرنسا ، الذى لقب بالقديس لويس ، وكان مصير الحملة الهزيمة ، ومصير الملك لويس التاسع الأسر فى موقعة المنصورة، وقد فك أسره بعد أن دفع دية عظيمة ، ومما لا شك فيه أن هذه الحملة تركت فى نفوس المسيحيين الفرنسيين مرارة دينية بقى أثرها طويلا فى أنفسهم

ثم دان العالم الإسلامى بالطاعة للدولة العثمانية الفتية ، وبدأت الدبلوماسية تحل تدريجياً محل الحروب ، فاذا بالحكومة الفرنسية تتقرب من السلطان ، وتنجح فى سنة ١٥٣٥ فى عقد معاهدة نال بها الفرنسيون فى أملاك الدولة مركزاً يميزهم عن بقية رعايا الدول الأجنبية . ولم يكن السلطان ليتحرج فى ذلك الوقت فى أن يمنح الفرنسيين أو غيرهم بعض المنح ، وهو الرجل القوى الذى يعتبر نفسه سيدالموقف على الدوام. إلا أن تطرق الضعف الى كيان الدولة العثمانية جعل من هذه المنح امتيازات دينية وأدبية وسياسية فى أملاك الدولة ، ومن أهم هذه الامتيازات حق فرنسا فى حماية المسيحية الكاثوليكية فى الشرق

فى العصر الحديث

وقد زاد استمساك فرنسا بامتيازاتها بعد أن ظهرت — فى القرن الثامن عشر — أهمية الشرق الأوسط فى التنافس الدولى الذى كان قائماً بين انجلترا وفرنسا . وقد ركزت فرنسا جل اهتمامها فى نشر الثقافة اللاتينية والديانة الكاثوليكية عن طريق مؤسساتها العلمية . ومما يلاحظ أن روسيا كانت قد حصلت من الباب العالى على حق حماية المسيحية الأرثوذكسية فى أرض الدولة ، أسوة بحماية فرنسا للمسيحية الكاثوليكية .

وبهذا الوضع ، تركز سلطان فرنسا — المكتسب من الامتيازات — فى المنطقة التى كانت فى وقت من الأوقات أمارات لاتينية تدين

بالكاثوليكية ، وهى المنطقة المشرفة على البحر الأبيض المتوسط فى ناحيته الشرقية ، وكانت هذه المنطقة تعج بالديانات المختلفة فمن مسيحيين إلى دروز إلى مسلمين .

وحدث فى سنة ١٨٦٠ أن وقعت مذبحة فى جبل الدروز قتل فيها عدد من المسيحيين ، فأرسلت فرنسا حملة حربية احتلت الجبل ، واشتد ضغط الدول الأوربية على الباب العالى حتى أصدر فرمانا ينظم به شئون الحكم فى لبنان ، وقد نص فيه على أن يكون حاكم البلاد المحلى مسيحياً ، يعاونه مجلس مكون من اثنى عشر عضواً يمثلون الطوائف الثلاثة : المسيحيين والدروز والمسلمين .

وفى سنة ١٩٠٤ عقد الوفاق بين بريطانيا وفرنسا ، وبه أطلقت يد فرنسا فى الشمال الأفريقى ، وفى سورية ولبنان ، مقابل إطلاق يد انجلترا فى مصر وفلسطين ، وإن لم تذكر الأخيرة نصاً فى الاتفاق . وبهذا أمنت فرنسا شر الدسائس البريطانية لدى الباب العالى ، وبدأت تعمل فى سورية ولبنان « على المكشوف » .

وحدث بعد ذلك أن ركزت ألمانيا جهودها فى مناوأة الدولتين — بريطانيا وفرنسا — بالاتصال بالحكومة العثمانية ، واتباع سياستها الجديدة « نحو الشرق » ، فبدأ النفوذ الألمانى يتسرب من الأستانة إلى أملاك الدولة ، واستهدفت كل من سورية ولبنان لهذا التدخل الجديد ، الذى اتخذ فى أول الأمر صيغة الدراسات الهندسية لأنشاء خط حديدى يربط الدولة العثمانية بالحجاز ، ويمر فى الأراضى السورية .

وقد أقض هذا النشاط الألمانى مضجع الاستعمار الفرنسى ، فوقف المسيو بوانكاريه . رئيس الحكومة الفرنسية — فى مجلس الشيوخ الفرنسى ذات يوم من أواخر عام ١٩١٢ يقول . إن لفرنسا فى سورية ولبنان مصالح قد عقدنا العزم على ضرورة احترامها والمحافظة عليها » .

وحدث أن اتجهت ايطاليا إلى التوسع الاستعمارى فى حوض البحر الابيض على حساب سلطة السلطان المتداعية . فأحتلت طرابلس سنة ١٩١١ بعد أن عجز السلطان عن نجدتها . وبذلك قامت المستعمرة الايطالية الجديدة حائلا بين منطقة النفوذ الفرنسية فى الشمال الأفريقى ، ومنطقة النفوذ البريطانى فى مصر ، فاختلت مقاييس الوفاق بين دولتى الاستعمار وتضاءلت أهمية الاتفاق الذى عقد بينهما سنة ١٩٠٤ ، فصارت كل منهما تشك فى تصرفات الأخرى .

وقد بعث البريطانيين على عدم الاستمساك باتفاق سنة ١٩٠٤ ماكان يعتقده ساستهم من أن فرنسا ، المنفردة بالنفوذ فى سورية ولبنان ، لن تستطيع أن تكبح جماح التدخل الألمانى فى أملاك الدولة . ولم تنظر فرنسا بعين الارتياح إلى الدور الجديد الذى كانت بريطانيا تعمل على أدائه فى الشرق الأوسط ، بينما ترى بريطانيا ضرورة تدخلها فى الموقف ، حماية لنفوذها فى فلسطين واحتلالها لمصر .

وقد بلغ تشكك الفرنسيين فى نوايا البريطانيين أقصاه : كان بعض أعضاء السلك السياسى البريطانى يقضون أجازتهم فى الشام ، حيث اختار أحدهم ـ وهو سكرتير فى دار المعتمد البريطانى بالقاهرة ـ أن يقضى وقته بالسفر على ظهر جواد من حيفا إلى بيروت بطريق الساحل ، ومن ثم إلى جبل الدروز ، فنقل بعض العمال الفرنسيين خبر هذه الزيارات ، فلم تتوان الحكومة الفرنسية فى مطالبة وزارة الخارجية البريطانية بتوضيح الأمر ، فاستطاعت بريطانيا أن تؤكد لفرنسا بأن تلك الزيارات لا تخفى أى معنى وراءها من الناحية السياسية ، وأن بريطانيا لا تفكر ، ولن تفكر ، فى الحصول على نفوذ سياسى فى الشام ، فاستغل رئيس الوزارة الفرنسية هذا التصريح ، وأذاعه فى مجلس النواب ، فجاء بيانه دليلا واضحاً

على أن فرنسا تنظر إلى سورية كمنطقة خاصة بها ، وأنها تطلب من الغير أن ينظروا إليها بهذا المنظار .

وقد أثبت الحوادث التى وقعت بعد ذلك بسنوات قليلة أن بريطانيا كانت تظهر سياسة الوفاق، وتبطن سياسة الأنانية فى تصرفاتها فى هذا الجزء من العالم ، بل فى جميع أنحاء العالم .

وقد عاصر كل هذه التطورات فى السياسة الدولية سياسة محلية ، ذلك أن الأمانى القومية ، والرغبة فى استقلال العرب عن الترك ، كانت قد داعبت خيال الزعماء العرب ، فكانت جمعيات سرية وعلنية ، ومؤتمرات فى سورية وفى أوربا ، ونشرات توزع فى كل مكان ، مما نؤثر أن نتحدث عنه فى فصل مستقل .

فى الحرب العالمية الأولى

جاءت الحرب العالمية الأولى ، وخاضتها تركيا إلى جانب ألمانيا ، بينما كانت بريطانيا تحتل مصر . فتوالت الأحداث الجسام ، فمن محاولة تركيا أقتحام مصر على البريطانيين ، وما بذلته بريطانيا من جهود فى تأليب العالم الأسلامى كافة ، والبلاد العربية خاصة على السلطان .

ونظرت تركيا إلى أهل سورية ولبنان ، فلمست فيهم خروجا على الولاء لها ، ولم تفرق بين نزعة الاستقلال ونزعة التأثر لفرنسا ، والواقع أنه كان من الصعوبة بمكان أن يميز بين أصحاب النظريتين ، ولعل السبب فى ذلك أن النزوع إلى الاستقلال كان وليد انبعاث الروح القومية ، والقومية من المبادىء التى جاءت بها أمريكا إلى لبنان على أيدى المبشرين ، أو جاءت بها فرنسا على أيدى المبشرين والمعلمين الذين أزدحمت بهم البلاد منذ أواخر القرن التاسع عشر .

وانبرى جمال باشا ، قائد الحملة التركية على مصر ، والمتصرف وفق مشيئته فى سورية ولبنان وفلسطين ، لإنزال جام غضبه على كثير من الزعماء لاشتباهه فى تصرفاتهم ، وخص بالقسط الأوفى من تنكيله المسيحيين فى لبنان ، إذ كانوا موضع الشبهة فى الانحياز إلى جانب الحلفاء (ومن بينهم فرنسا) إذ لا تربطهم بالدولة رابطة دين أو لغة أو ثقافة أو أصل . ولم يسلم من يديه أولئك المسلمون الذين ساهموا فى حركة الاستقلال . فقد نفذ حكم الإعدام شنقا فى فجر يوم ٢١ أغسطس سنة ١٩١٥ فى أحد عشر شخصا فكان من هؤلاء عشرة من المسلمين ومسيحي واحد . ولكن ذلك لا يعنى أن النسبة كانت مضطردة فى كل الأحوال .

تناقض الوعود البريطانية

وكانت بريطانيا تعمل على كسب الحرب مهما كلفها الأمر ، ومهما تناقضت وعودها للعرب واليهود والفرنسيين . ورأى البريطانيون أن من مصلحتهم مفاوضة حليفتيهم فرنسا وروسيا فى مصير أملاك الدولة العثمانية بعد هزيمتها ، فحددت روسيا حصتها بالقسطنطينية وجزء كبير من الأناضول ، واحتفظت فرنسا لنفسها بالقسم الأكبر من بلاد الشام مع جزء كبير من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل فى العراق ، أما حصة بريطانيا فتمتد من طرف سورية الجنوبي حتى العراق وتتوسع على شكل مروحة لتضم البصرة والبلاد الواقعة غربى خليج فارس ، كما تضم ثغرى حيفا وعكا مع جزء صغير من ساحلهما . أما فلسطين فقد رؤى أن تقوم فيها إدارة دولية خاصة . ويعرف هذا الاتفاق باسم « اتفاق سايكس — بيكو » وقد عقد فى ربيع سنة ١٩١٦

ويكفى ما ورد بهذا الاتفاق بشأن فلسطين للتدليل على ما كان كامناً فى النفوس بين الحليفتين العظيمتين . بريطانيا وفرنسا .

وبعد أن هزم جمال باشا فى هجومه على مصر ، سارت الجيوش البريطانية ، تشد أزرها حملة مصرية سميت باسم « فيلق العمال المصريين » ويناصرها رأى عام عربى فى البلاد التى اتجهت الجيوش لفتحها ، وجيوش عربية جندت بمعرفة آل الحسين ، ففتحت فلسطين وبدأ الزحف على سورية .

وقام شكرى باشا الأيوبى ، أحد زعماء الثورة العربية ، فأعلن قيام السيادة العربية باسم الأمير فيصل فى بيروت ، حيث رفع العلم العربى فى ٣ أكتوبر سنة ١٩١٨ قبل وصول طلائع الجيش البريطانى والفرنسى بعدة أيام ، فاستاء الفرنسيون من هذا العمل استياء كبيراً ، وحملوا الجنرال اللنبى على أن يأمر بإنزال العلم ، فولد ذلك هياجاً عنيفاً فى دمشق .

ومما زاد فى شدة الهياج ما ترامى من أن فرنسا ستحتل بيروت وغيرها من الموانىء ، وكذلك ما علم عن وعد أعطاه الإنجليز لليهود بأن يكفلوا لهم وطناً قومياً فى فلسطين ، وما تلا ذلك من نشاط للصهيونيين بها ، ومن ثم بدأ الشك يتسرب إلى نفوس العرب فى نوايا الحلفاء .

إزاء هذا القلق ، ومخافة تطور الأمور إلى غير ما يحب الحلفاء ، أصدرت القيادة البريطانية بلاغاً رسمياً نشر فى العالم العربى ، ويحتوى على بيان سياسى مشترك من الحكومتين الفرنسية والبريطانية ، تبغيان به تهدئة الخواطر .

وقد أعلن هذا البيان المشترك أن بريطانيا وفرنسا تعملان على تحرير الشعوب الرازحة تحت مظالم الترك تحريراً تاماً ونهائياً ، وإنهما تعملان على إقامة حكومات وطنية يختارها الأهلون بمحض إرادتهم الحرة ، وإنهما مجمعتان على الرغبة فى إقامة حكومات كهذه ، وتأييدها والاعتراف بها عندما تؤسس بالفعل ، وأن همهما الوحيد هو القيام بدور المرشد المجرد

عن الغاية لهذه الدول العربية التي ستختار الحكم الذي تريده ، وتحكم نفسها بنفسها .

وفي يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ طبعت ملايين النسخ من هذا الإعلان باللغة العربية ، ووزعت في كل مكان ، فلم تمض أيام قليلة حتى هدأ الغليان .

* * *

انتهت الحرب باندحار دول الوسط ، وعقد مؤتمر الصلح ، فسافر زعماء العرب يستنجزون الحلفاء وعودهم ، فإذا بهم يتحققون أن هذه الوعود كانت سرابا خداعا .

اشتد طرق العرب على أبواب المؤتمر ، وشاءت الدبلوماسية البريطانية أن تحتضن الأمير فيصل فمهدت له سبيل عضوية المؤتمر ، وفي ٢٩ يناير سنة ١٩١٩ قدم الأمير فيصل مذكرة للحلفاء ، وخطب أمام المؤتمر ، مطالباً بأن يعين المؤتمر لجنة تحقيق تزور سورية وفلسطين ، حيث تقوم باستفتاء شامل للتعرف على رغبات السكان .

أعجب الرئيس ولسن (رئيس جمهورية الولايات المتحدة) بالاقتراح ، وتظاهر المستر لويد جورج (رئيس الوزارة البريطانية) بالموافقة عليه ، أما المسيو كليمانصو (رئيس الوزارة الفرنسية) فقد تناوله بروح العداء وبذل جهده لعدم الأخذ به . ومن الواضح أن بريطانيا كانت تعلم بالسليقة أن فرنسا لن توافق على الاقتراح ، ولذلك لم تعارض فيه ، كسباً لصداقة العرب . .

وبعد حوالي شهرين في أخذ ورد ، أقر مؤتمر الصلح فكرة الاستفتاء ، وأبحر الأمير فيصل في أواخر ابريل سنة ١٩١٩ إلى سورية ليكون في انتظار اللجنة التي عينها الحلفاء .

وأسفر الاستفتاء عن تقرير حبذ بسط الانتداب على سورية وفلسطين والعراق ، على شريطة أن تكون مدته محدودة ، وأن يكون هدفه الوحيد إيصال البلاد إلى الاستقلال بما يمكن من السرعة ، وبحسب الظروف والأحوال ، وقد أوصى التقرير بمعاملة بلاد العراق على أنها قطر واحد ، والمحافظة على وحدة سورية وفلسطين ، مع الاحتفاظ بالحكم الذاتى فى لبنان داخل إطار الوحدة السورية ؛ كما أوصت بأن تكون الدولة المنتدبة على كل العراق واحدة ، وكذلك الدولة المنتدبة على سورية ومعها فلسطين ، وأن يقوم الحكم فى كل منهما على أساس الملكية الدستورية ، فيولى الأمير فيصل ملكا على سورية ، ويولى ملك عربى آخر عرش العراق على أن يجرى استفتاء بشأنه .

وأوردت اللجنة رأى أهل البلاد فيمن ينتدب من الدول ، فأكدت أن السوريين يرفضون انتداب فرنسا ، فإن وجودها غير مرغوب فيه بأى شكل من الأشكال . وعلقت اللجنة على ذلك بأنها لاتستطيع الإيصاء بالانتداب الفرنسى حيث أنه ـ إذا وقع ـ سيكون سبباً فى نشوب الحرب بين العرب والفرنسيين .

قدم هذا التقرير إلى الرئيس ولسن ، ولكنه كان قد بدأ رحلته الخطابية التى انتهت بمرضه الخطير ، ولا يعرف ما إذا كان الرئيس اتخذ بشأنه أى إجراء ، أم اكتفى بإرسال صورة منه إلى الحكومات الحليفة . وكان من المنتظر أن تقريراً كهذا ، ينطوى على الصراحة والقوة ، لا يروق للمنتصرين الجالسين فى فرساى ، وهذا ما حدث بالفعل ، إذ أمروا بحفظه ولم يأخذ به أحد . وقد ظل التقرير وثيقة سرية غير قابلة للنشر ثلاث سنوات ، استطاعت بريطانيا وفرنسا أن تخلق خلالها تسوية من صنعهما ، وبدأتا بفرضها على البلاد .

ومن أهم محتويات هذه التسوية انتداب فرنسا فى سورية . نزولا على اتفاق سايكس - بيكو من ناحية ، وتخفيفاً لنفقات الاحتلال البريطانى بعد أن هاج الرأى العام البريطانى ضد الحكومة بشأنها .

وقد نشر المسيو روبير دوكاى ، وهو من الكتاب المعروفين ، ومن الثقاة فى السياسة الاستعمارية الفرنسية ، مقالا فى مجلة «آسيا الفرنسية» قال فيه :

«إن اتفاق سايكس - بيكو ، على الرغم من أنه وثيقة مزورة لأنه مسبوق باتفاق مكماهون مع الحسين ، إلا أن حقوق فرنسا فى الانتداب على سورية إنما هى وليدة لتقاليد قديمة ، فلا يمكن أن ينازعها أحد عليها ، والرأى الفرنسى يحتم اعتراف بريطانيا بهذه الحقوق كشرط أساسى لأيجاد التفاهم بينهما»

وبمجرد أعلان هذه القرارات ، سافر الأمير فيصل إلى لندن يستنجز سادتها وعودهم ، فاذا بالجو غير صالح للتفاهم . وقد نصحه المستر لويد جورج بأن يحاول الأتفاق رأسا مع المسيو كليما نصو فى باريس .

سافر فيصل إلى باريس ، بعد أن آمن بأن الأمل شىء والواقع شىء آخر ، وقابل كليما نصو ، فاستطاع الداهيةالفرنسى أن يقنعه بقبول اتفاقية مؤقتة تقضى بأن تحترم المملكة العربية احتلال فرنسا للبنان والمناطق الساحلية لسورية ، على أن لا يمتد هذا الاحتلال إلى البقاع الذى يصبح منطقه حياد بين الإدارتين الفرنسية والعربية ، وتقضى كذلك بأن الدول العربية لها أن تعتمد على فرنسا للحصول على أية معونة قد تحتاجها ، وذلك ريثما تتم التسوية النهائية فى مؤتمر الصلح .

وعاد فيصل إلى سورية فوجدها تلتهب بغضا للاتفاقية ، وتتهمه بأنه لم يحسن الدفاع عن القضية السورية العربية . وقدحاول أن يشرح وجهة نظره فى قبول الاتفاق فلم يستمع إليه أحد .

واجتمع المؤتمر السورى فى دمشق فى ٨ مارس سنة ١٩٢٠ ، وقرر إعلان استقلال سورية ومعها فلسطين ولبنان ، كدولة ذات سيادة ، تقوم فيها ملكية دستورية ، ونادى بالأمير فيصل ملكا عليها ، وقد تضمن قرار المؤتمر تحفظا خاصا بلبنان يحفظ له حقه المكتسب فى الحكم الذاتى ضمن نطاق الوحدة السورية .

وأعلنت بريطانيا وفرنسا عدم اعترافها بقرارات المؤتمر ، ووجهتا الدعوة إلى الأمير فيصل لزيارة أوربا لحضور المجلس الأعلى للحلفاء الذى يعقد فى سان ريمو فى أبريل .

اجتمع المجلس الأعلى واتخذ فى ٢٥ أبريل قراراً بوضع الأراضى العربية الممتدة من ساحل البحر الأبيض إلى حدود أيران تحت الانتداب ، وتقسيم سورية إلى ثلاثة أقسام مستقلة هى : فلسطين ، ولبنان ، وما تبقى من سورية ، وعدم تجزئة العراق . ووضعت سورية ولبنان معاً تحت الانتداب الفرنسى ، ووضعت فلسطين والعراق منفصلتين تحت الانتداب البريطانى .

ولم تتوان فرنسا فى تنفيذ قرار المؤتمر ، فتولت سلطة الانتداب فى سورية ولبنان بزعامة الجنرال غورو ، وكان مركز الملك فيصل غاية فى الحرج ، فرسائل الوعيد تتوالى عليه من الجنرال غورو ، ورجالات العرب يتهمونه بممالأة الفرنسيين ، والرضى بالوضع الجديد ، المنافى للأمانى الوطنية .

كان فيصل رجلا واقعيا ، يرى أن الصيحات المنادية بالاستقلال شىء ، والاحتلال الفرنسى الفعلى شىء آخر ، فوقف موقفاً وسطا بين الفريقين ، ولكنه لم يستطع أن يرضى أيهما .

وفى يوليو سنة ١٩٢٠ تطورت الأمور تطوراً فجائيا ، إذ تلقى الملك فيصل انذارا من الجنرال غورو يتضمن خمسة طلبات يلزم تحقيقها فى أربعة

أيام ، وإلا فالحكومة الفرنسية تهدد بأن تكون لها الحرية الكاملة فى العمل .

والمستعرض لهذا الأنذار لا يستطيع أن ينزع من فكرة قصة الذئب والحمل ، وقد كان الأنذار ، وما تلاه من أحداث ، دليلا على أن فرنسا قد بدأت تنفرد بالعمل لحسابها فى سورية ولبنان، مهما كانت أمانى العرب، ووعود البريطانيين لهم .

رأى الملك فيصل ، بعقلية الرجل السياسى المحنك ، أن خير ما يمكن أن يفعل ، هو أن يقبل الأنذار جملة وتفصيلا ، ليفوت على فرنسا الهدف الذى كانت ترمى إليه ، وهو احتلال دمشق ، إذا ما تلكأ فى قبول الإنذار ، وقد كانت فرنسا تتوقع أنه لن يقبله .

ومما ساعد فيصل فى محنته هذه أن « صديقه » اللورد كيرزون بعث إليه ببرقية من لندن ينصحه فيها بقبول الأمر الواقع ، ويمنيه بأن المستقبل كفيل بتوسط بريطانيا لدى فرنسا للتخفيف من حدة الأنذار .

وقد تصرف الملك فيصل هذا التصرف دون الرجوع إلى أصدقائه ومستشاريه العرب ، فلما عرفوا ما صنع ، تشككوا فى إخلاصه للقضية العربية ، فازدادت بذلك متاعبه .

على أنه ، على الرغم من أنه نزل على أرادة الفرنسيين فى إنذارهم ، وفى أقل من المهلة التى حددوها ، لم يعدل الفرنسيون عن تنفيذ كل ما هددوا بتنفيذه لو لم يقبل الأنذار . إذ سارت الجيوش الفرنسية فى طريقها إلى دمشق لاحتلالها .

فلما ترامت هذه الأنباء إلى الأراضى السورية ، تألفت المظاهرات العدائية لفرنسا فى كل مكان ، واكتظت شوارع دمشق بالمتظاهرين ، فلم ير الملك فيصل مفراً من أن يعمل على إقرار النظام فى العاصمة ، فخرج

رجال البوليس يقمعون المظاهرات ، فكثرت الضحايا من أهل البلاد ، فازداد بذلك غضب الزعماء من سلوك الملك .

ولم يقتصر التكتل الوطنى على العاصمة ، بل تكتل بضعة آلاف عند ممر ميسلون — وهو مضيق جبلى فى الطريق الرئيسى بين سورية ولبنان — يعتزمون مقاومة تقدم الفرنسيين فى هذا الموقع الحصين ، ولكن الطائرات الفرنسية أمطرت الوطنيين بسيل منهمر من القنابل ، فأفنت زهرتهم ، وفتحت الطريق أمام الجيش الفرنسى إلى دمشق . فدخلتها ولما يمض على تقديم الأنذار الفرنسى عشرة أيام .

قرر الفرنسيون إبعاد الملك فيصل عن البلاد ، بعد أن اتهموه بتدبير المقاومة الوطنية للجيوش الفرنسية . فاستسلم فيصل ورحل عن دمشق فى ٢٨ يوليه ؛ وسافر إلى ايطاليا ينتظر تطور الأمور .

* * *

وفى خلال سنة ١٩٢٠ هذه ، تطورت الأحوال فى العراق تطوراً أثر فى مجريات الأمور ، ذلك أن أهل العراق لم يرتضوا وضعهم تحت الانتداب البريطانى ، فقاموا بثورات ؛ متوالية ضد البريطانيين .

وفى أخريات ذلك العام ، كان العراق يغلى بالثورة ، والأموال البريطانية والأرواح البريطانية تلق مصرعها فى فيافى العراق ، مما أثار الرأى العام فى بريطانيا ضد سياسة الأنفاق على الجيوش فيما وراء البحار ، مما كان سببا فى مضاعفة الضرائب ، وحرمان الشعب من كثير من ضرورياته .

وهنا وجدها السياسيون البريطانيون فرصة سانحة لأصابة هدفين فى وقت واحد . اتصلت الحكومة البريطانية بفيصل ورشحته ملكا للعراق ، ففى ذلك أرضاء العرب وتحقيقا لشىء من أمانيهم ، وتقليلا لنفقات الانتداب وما استلزمه من مال وعتاد لقمع الاضطرابات .

وفى شهر نوفمبر سنة ١٩٢٠ ، بعد أن سافر فيصل إلى ايطاليا ، وصل أخوه الأمير عبد الله إلى معان (بالمنطقة المعروفة الآن بشرق الأردن) على رأس عدد من الأتباع ورجال العشائر ، محاولا تشكيل جيش عربى لمهاجمة الفرنسيين فى سورية للأخذ بثأر أخيه ، ومناصرة العرب السوريين فى كفاحهم . وكانت المنطقة التى نزل بها داخلة فى نطاق الإنتداب الفرنسى ، فاستطاعت بريطانيا أن تقنع فرنسا بالتخلى عن هذه المنطقة بما فيها من مشاكل ، على أن تضم لمنطقة الانتداب البريطانى . وقد كانت هذه اللعبة السياسية التى قامت بها بريطانيا نواة مملكة شرق الأردن .

* * *

ويتحدث الأستاذ جورج أنطونيوس فى كتابه « يقظة العرب » عن موقف الانتداب الفرنسى فى سورية ولبنان فيقول :

« لم يفز الانتداب الفرنسى فى سورية ولبنان بنتيجة تستحق الثناء ، فإن القسم الأعظم من تاريخه ما هو إلا سجل لنزاع ضائع ، ولا نبالغ إذا قلنا أن الضرر الذى أصاب المصالح الفرنسية والعربية باسم الانتداب كان أعظم من المنافع التى نشأت عنه عفوا ، وذلك بين عامى ١٩٢٠ ، ١٩٣٦ ، أى فى السنوات التى مرت بين مؤتمر سان ريمو الذى تقرر فيه الانتداب ، وإبرام المعاهدة الفرنسية السورية ... إن قصة الانتداب هى فى الغالب قصة العراك بين المطامع الفرنسية وبين أمانى العرب القومية ، وقد دام ست عشرة سنة ، وأوقع بالطرفين ضرراً بالغاً .

« كان السبب الخفى والأساسى لهذا الوضع فقدان الثقة بين الطرفين ، فكما أن سمعة الأساليب الاستعمارية الفرنسية كانت سيئة فى عرف الزعماء العرب ، كانت الحركة العربية فى نظر الفرنسيين مصدر اضطراب وتهديد لمركزهم ، وكان موقف الطرفين قائما على الشك والخوف ، كان العرب

يستنتجون الشيء الكثير من الأنباء المنقولة - وأحيانا مشوهة - عن الحكم الفرنسي في شمالي أفريقية ، ويعتقدون أن السيطرة الفرنسية قد تأتي بكل شيء خلا الحرية والمساواة ، كما أن ما عرفوه عن حركات الأوربيين السياسية في الشام قبل الحرب جعلهم يوقنون بأن تأييد فرنسا للبعثات الكاثوليكية ، وميلها نحو الموارنة ، يخفيان وراءهما دافعا آخر ، وأنها على كل حال قد أزكت نار الخلاف المذهبي التي كانت نية الزعماء النصارى والمسلمين في الحركة العربية معقودة على إخمادها ، ...... وكان الفرنسيون مدفوعين بعاملين رئيسيين : لقد كانوا يعلمون بأن أقامة حكومة عربية في دمشق لا بد أن يكون له نتائج سياسية في سائر البلاد العربية ، حيث يغذي الوعي القومي بقوة دافعة ، فكانوا لهذا يخافون أثر ذلك في أمبراطوريتهم في شمالي أفريقية ، كما كانوا يعدون الحركة العربية عقبة في طريق مطامعهم في سورية لسببين : دعوتها إلى الوحدة والاستقلال ، وعلاقتها ببريطانيا . ولقد اتهموا السياسيين البريطانيين المقيمين في دمشق بأنهم يسعون سراً إلى تقويض النفوذ الفرنسي في سورية ، واعتقدوا أن هناك سياسة غادرة هدفها أفساد الأمر على فرنسا في سورية ، وأن فيصلا قد أصبح آلة طيعة لتحقيقها ، كما أمست الحركة العربية الحجاب الكثيف الذي تستتر وراءه .

« هذه هي العقلية التي حملت الحكومة الفرنسية على دخول دمشق وطرد فيصل واحتلال القسم الداخلي من البلاد ، وهي نفسها العقلية التي رسمت الخطة لأدارة البلاد ، فلما شرعت في تطبيقها بالتدابير التي اتخذتها ، والأحكام التي أصدرتها ، تبين أن مخاوف العرب كانت في محلها .

* * *

وفي ٣١ أغسطس سنة ١٩٢١ أصدر الجنرال غورو قراراً نص على إيجاد دولة « لبنان الكبير » مكونة من سنجق لبنان في العهد التركي ،

مضافا إليه مساحات جديدة من الأرض السورية القديمة تضاعف مساحته الأصلية ، وتجعل معظم الساحل السورى فى أيدى لبنان الكبير .

وقد كانت المصلحة التى توخاها الجنرال غورو من ذلك أن يوسع الأقليم الذى يتأثر تاريخيا لفرنسا ، بما يجعله دولة تستحق الوجود المستقل ، إلا أنه كان قصير النظر فى ذلك ، إذ أن معظم الأضافات الجديدة كان أهلها من المسلمين ، وبذلك تطورت النسبة المئوية للمسيحيين ، فبعد أن كانوا كثرة ساحقة فى سنجق لبنان القديم ، أصبحوا لا يكونون فى الوضع الجديد أغلبية تستطيع فرنسا المسيحية الاعتماد عليها ، فكان ذلك - حتى من وجهة نظر الاستعمار - عملا مرتجلا ينبئ عن قصر النظر ، فضلا عن أنه خلق سببا جديداً من أسباب الخلاف فى بلد يشكو من كثرة الخلافات .

أما بقية الأرض السورية ، بعد أن اقتطع منها ما صار بعد ذلك « شرق الأردن » فقد قسمها الجنرال غورو إلى أربعة أقسام :

١ - منطقة اللاذقية ، وهى تشمل بقية الساحل السورى على البحر الأبيض ، ممتدة من شمالى طرابلس إلى الاسكندرونة .

٢ - منطقة الاسكندرونة ، وهى آخر الحدود السورية من ناحية تركيا

٣ - منطقة جبل الدروز ، وهى فى أقصى الجنوب متاخمة لمنطقة الانتداب البريطانى .

٤ - بقية الأرض السورية .

وقد علل الفرنسيون هذا التقسيم بأنه استجابة لرغبات إقليمية محلية ، والواقع أنه ما كان إلا وسيلة للسيطرة على البلاد ، ومحاولة لإفناء روح الجماعة فيها .

وما لبثت فرنسا أن طبعت التعليم والاقتصاد بطابع فرنسى سافر مفروض ، وقد زاد الحالة سوءاً أن النقد فى فرنسا نفسها كان منهاراً ،

فما بالك ببلد فرض عليها أن تتبع هذا النقد فى تقلباته ، وهى لا ترتبط به ارتباطا طبيعيا .

وظلت الوطنية السورية تكتوى بنار الانتداب خمس سنوات ، تقلب فيها على « عرش » الانتداب أربعة من قواد فرنسا لم يكن واحداً منهم خيراً من سابقه أو لاحقه ، وازداد اتساع الهوة بين سورية ودولة الانتداب باندفاع الفرنسيين وتطرفهم فى أساليب الاستعمار ، وتهيأت النفوس لرد الطغيان مهما كلفها الأمر .

ففى يوليو سنة ١٩٢٥ ، وفى جبل الدروز ، قامت ثورة محلية ، فجرد الفرنسيون على الجبل حملة تأديبية ، فتغلب عليها الثوار ، فأرسلت حكومة الانتداب حملة كبيرة كان مصيرها أشبه بمصير سابقتها .

وبانتصار الثوار فى جبل الدروز ، امتد لهيب الثورة إلى أنحاء البلاد حتى تمكن الثوار من تهديد بيروت مقر المقيم الفرنسى العام ، فانبرت فرنسا لقمع الثورة بأساليب وحشية ، فضربوا مدينة دمشق بقنابل الطائرات ، وأفنوا عدداً كبيراً من السكان . فما لبثت المقاومة الشعبية أن تحولت إلى حرب عصابات ، واعتدى على الجند الفرنسى فى كل مكان ، وعندئذ فقد الفرنسيون أعصابهم ، وجانبوا الأساليب الإنسانية فى قمع الحركة .

ويعزى ذلك - إلى جانب الخلق الفرنسى فى ذاته - إلى أن هذه الفترة كانت هى بعينها فترة خروج الأمير عبد الكريم الخطابى على الفرنسيين فى منطقة الريف فى الشمال الأفريقى . وقد ظن الفرنسيون أن الثورتين على ميعاد ، وأن بينهما - مع بعد الشقة بين الموطنين - ارتباطا يوشك أن يودى بالسياسة الاستعمارية الفرنسية .

كانت خسائر الجانبين تتزايد فى كل يوم ، واشتدت وطأة الحرب

على الميزانية الفرنسية المتداعية ، وواجهت الحكومة نقداً مريراً فى سياستها الخارجية ، فاضطرت إلى أن تكلف مفوضها العام فى سورية (دو جوفونيل) بأن يعلن أن فرنسا تنوى تعديل سياستها ، فكان ذلك مدعاة لهدوء الحالى وقتاً ما .

وشفع هذا البيان باعلان قيام الجمهورية فى لبنان ، والتصريح بأن فرنسا ستعمل على عقد معاهدة تحالف مع سورية تحل محل الانتداب .

وأدركت الحكومة الفرنسية أن مفوضها السامى (دو جوفونيل) - بما بينه وبين السوريين من دماء - لا يصلح لتولى الحكم فى فترة المصالحة فاستدعته وعينت بدلا منه المسيو (بونسو) .

كان بونسو أول مفوض سام عينته فرنسا من غير رجال الحرب ، بل إنه كان من رجال السلك السياسى والإدارى ، فاستطاع أن يشق طريقه إلى نفوس السوريين ، وحلت الدبلوماسية المرنة محل العسكرية الغاشمة ، ولعبت نظرية كسب الوقت دورها .

قضى المسيو بونسو أربع سنوات فى الاعتراف بالجمهورية السورية، أما عقد محالفة الصداقة ، فقد استطاع أن يدلل للزعماء السوريين على أن مصلحة البلدين تقتضى أن تكون المفاوضة مع ممثلين للأمة السورية ممن لا يجوز الطعن فى أهليتهم ، فحول بذلك التيار إلى إجراء انتخابات عامة فاستطاع بذلك أن يكسب عاما ونصفا أخرى ، فضلا عن أنه استطاع أن يخلق لنفسه حيثية بين الزعماء سهلت له التدخل والتأثير فى الانتخابات ، فلما تمت الانتخابات ، وانعقد مجلس النواب ، تلكأ فى فتح باب المفاوضة عاما آخر ، ثم عرض بعد ذلك مشروع المعاهدة ، مؤكداً أنه صيغ على غرار المعاهدة التى عقدتها بريطانيا مع العراق ، فلما أطلع الزعماء على المشروع ، وجدوه مخالفا لما اتفق عليه مخالفة جوهرية ، وخاصة فى شئون

السيادة والوحدة ، بل أكثر من ذلك أنه كان لا يحقق للبلاد استقلالا ذاتيا ، وعندئذ اتسعت الهوة بين بونسو وأصدقاء سياسته من السوريين ، الذين تورطوا معه وناصبوا إخوانهم فى الجهاد العداء ، وتعقدت الأمور من جديد .

كان بونسو قد قام بالدور الذى كلف بتمثيله خير قيام ، وأصبح لايستطيع أن يؤدى لبلاده خدمة جديدة فى هذه البلاد ، فاستدعته حكومته لتعين محله مفوضا ساميا من نوع آخر .

عين المسيو (دى مارتيل) سـفير فرنسا فى طوكيو مفوضا ساميا لسورية ولبنان . وقد استهل عهده (أكتوبر سنة ١٩٣٣) بأن عرض مشروع المعاهدة على البرلمان فرفضته الأكثرية الساحقة ، فأمر بتعطيل المجلس الى أجل غير مسمى ، وأعلن بأن البلاد بحاجة إلى حالة من الهدوء الحزبى تمكنها من معالجة مشاكلها الاقتصادية .

استكان الشعب لهذه الصدمة ، واستطاع منطق دى مارتيل ، وأعماله الأصلاحية التى تمشت مع هذا المنطق ، أن يجد طريقة الى كثير من النفوس ، وخيل له أن الأمور تسير وفق ما يشتهى ، ولكنه كان يجهل أن تحت رماد الهدوء نار وطنية تشتعل .

ففى يناير سنة ١٩٣٦ ، كانت سورية تحتفل بذكرى زعيمها الوطنى إبراهيم هنانو . هاجمت الشرطة مكاتب حزب الكتلة الوطنية ، وعلى الرغم من أنهم لم يجدوا بها شيئا يدين الحزب ، فقد أغلقت دار الحزب وقبض على عدد كبير من الوطنيين ، فأعلن الأضراب العام فى دمشق احتجاجا ، وتوقفت الأعمال التجارية فى كافة أنحاء البلاد ، واستمرت حركة المقاومة السلبية ستة أسابيع دون أن تظهر على الناس بادرة تدل على رغبتهم فى إنهائها .

عندئذ أذاع المفوض السامى بيانا باستعداده للدخول فى المفاوضات وأعلن أنه مستعد لأطلاق سراح المعتقلين السياسيين . وقد تلقى الناس هذه الاذاعة بالابتهاج ، وقبلوا اقتراح المفوض السامى بتأليف وفد يسافر إلى باريس لمفاوضة وزارة الخارجية فى مستقبل البلاد . وبذلك أعلن انتهاء الاضراب .

وبتاريخ ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٦ عقدت معاهدة تحالف بين سورية وفرنسا ، وفى ١٣ نوفمبر من نفس العام عقدت معاهدة مماثلة بين فرنسا ولبنان وكان كل من المعاهدتين على وتيرة المعاهدة التى عقدتها بريطانيا مع العراق إذ نص فيهما على الغاء الانتداب بمجرد قبول كل من الدولتين فى عصبة الأمم ، وقد تعهدت فرنسا بترشيح الدولتين لعضوية العصبة ، وضمان قبولهما فيها خلال ثلاث سنوات من تاريخ التصديق على المعاهدة . وقد نص على أن تكون مدة كل منهما خمس وعشرون سنة قابلة للامتداد باتفاق الطرفين المتعاقدين .

والمستعرض لهاتين المعاهدتين يلاحظ عليهما ما يأتى :-

أولا : أن الفرنسيين احتفظوا لأنفسهم فى سورية بحق إبقاء حاميتين عسكريتين ، واحدة فى جبل الدروز ، والاخرى فى منطقة اللاذقية ، لمدة خمس سنوات ، تبدأ من تاريخ وضع المعاهدة موضع التنفيذ ، كما اشترطوا على سورية حق استعمالهم لقاعدتين جويتين فى الارض السورية طوال مدة المعاهدة — أما فى لبنان فقد احتفظوا بحق ابقاء قواتهم العسكرية طوال مدة المعاهدة دون تحديد للمناطق التى ترابط فيها أو العدد الذى تتألف منه .

ثانياً : لم ينص فى المعاهدة السورية على الحدود الفاصلة بينها وبين لبنان . وقد أظهر السوريون براعة سياسية بتركهم الأمر للظروف بدلا من أن يوقفوا المفاوضات وقد يؤدى ايقافها إلى عدم عقد معاهدة .

ومنطقهم فى هذا أن التجزئة التى صممت عليها فرنسا أمر غير طبيعى ، ومصير البلدين الانضمام بعضهما لبعض ؛ إلا أن أهمال هذا التحديد كان سببا فى قيام بعض الاضطرابات فى لبنان ، ذلك أن سكان المناطق التى ضمت قسرا إلى لبنان الكبير ـ وغالبيتهم من المسلمين ـ كانوا يرغبون فى العودة إلى سورية ، وقد استطاعت الحكومة اللبنانية ، بتدخل الجيش الفرنسى ، قمع هذه الاضطرابات .

ثالثاً : اشترطت فرنسا أن يبرم كل من البرلمانين السورى واللبنانى المعاهدة الخاصة به قبل أن تقوم الحكومة الفرنسية بعرضها على البرلمان الفرنسى ، فنفذ كل من الدولتين ما تعهد به ووافق كل من البرلمانين على المعاهدة ، إلا أن فرنسا لم تقم بانجاز ما وعدت فلم تعرض المعاهدتين على البرلمان الفرنسى .

بإزاء هذه الأحداث ، تزلزلت ثقة السوريين فى وعود الفرنسيين ، فاضطرب النظام ، وفى يوليو سنة ١٩٣٩ عطل الدستور ، وعين مجلس من المديرين ليحكم البلاد بمقتضى مراسيم ، فى حين أرجعت إلى كل من جبل الدروز واللاذقية إدارتها المنفصلة . وفى سبتمبر سنة ١٩٣٩ اتخذت إجراءات مماثلة فى لبنان .

في الحرب العالمية الثانية

أعلنت الحرب العالمية الثانية والأحوال فى سورية ولبنان على ما ذكرنا ، فلما انهارت فرنسا أمام قوات الألمان الجارفة ، واستسلم الفرنسيون للألمان ، وعقدوا معهم هدنة قامت على أثرها حكومة فيشى الموالية للألمان ، خرج الأحرار الفرنسيون بزعامة الجنرال ديجول وألفوا حكومة فرنسا الحرة ، واتخذوا لها مقرا فى لندن إلى جوار حليفتهم الأولى بريطانيا ، وأنشأوا فى مصر جيشاً فرنسيا أسموه « قوات فرنسا الحرة » تنفق عليه وتتعهده وتوجه بريطانيا

وكانت الهدنة تقضى بأن تعامل الأرض الفرنسية الأصلية (فى أوربا) معاملة الدولة المهزومة . غير أنها لم تتعرض للأمبراطورية الفرنسية فيما وراء البحار ، لأسباب قامت فى ذهن الألمان ، وقد انهارت ألمانيا فى أخريات الحرب ، وفنى الزعماء الذين قالوا بهذه السياسة ، فقبر معهم المنطق الذى أملى عليهم هذا التصرف ، ولا يزال المؤرخون والعسكريون حيارى فى بيان الأسباب التى جعلت الألمان يسلكون هذا المسلك المخالف لكل ما كان يتوقعه الخبراء .

وبترك شئون المستعمرات الفرنسية دون تحديد ، خلقت أوضاع شاذة فى هذه الأقاليم . وإذا جاز أن يستمر هذا الوضع المائع فى الشمال الأفريقى وقتا ما ، فإن الوضع فى سورية ولبنان كان يختلف عن ذلك كثيراً . فإن موقع هاتين الدولتين من الناحية الجغرافية والاستراتيجية يهدد سلامة بريطانيا إذا ما خضع للنفوذ الألمانى الذى يمكن أن يتسرب إليه عن طريق حكومة فيشى ، وقد يتخذه الألمان قاعدة لهجوم على قناة السويس يكون غاية فى الخطورة على بريطانيا ، إذ يقطع عليها الطريق نحو الشرق الأقصى ، ذلك الطريق الذى يعتبر الدعامة الأولى فى تسيير دفة الحرب ضد اليابان .

أما محاولة التدخل فى شئون سورية ولبنان من جانب بريطانيا ، فيحتاج إلى موافقة حكومة فرنسا الحرة ، وكانت هذه تخشى على الدوام أن يرث البريطانيون فرنسا فى مستعمراتها عامة ، وأرض الانتداب فى سورية وفلسطين خاصة .

وبريطانيا لا تستطيع أن تقف مكتوفة الأيدى حتى تفاجئها الأحداث خصوصا بعد أن تبين أن النفوذ الألمانى قد بدأ يتسرب إلى سورية ولبنان .

ويقص علينا الأستاذ أحمد رمزى ، وكان ممثل مصر السياسى فى سورية ولبنان ، حادثا واحداً يلقى ضوءاً على الموقف حيث يقول :

« كنت فى بيروت عند بداية الحرب وبعد عقد الهدنة ، ولقد شعرنا وشعر الناس جميعاً أن الحياد الذى أرادت فرنسا أن تظهر به غير موجود ولا يمكن التمسك به نظريا أو عمليا ، فقد كانت الطائرات الايطالية والألمانية تضرب فلسطين . وكان بعضها يصاب بنيران المدفعية ، فيضطر للهبوط فى أراضى سورية ولبنان ، فاتخذت السلطات الفرنسية معها فى الحوادث الأولى التى ينص عليها باب الحياد فى القانون الدولى . وكان للألمان لجنة عليا فى فيسبادن تشرف على أمور الهدنة وتفسير شروطها. أبلغت هذه اللجنة الحكومة الفرنسية رسمياً أن شروط الهدنة مع ألمانيا لاتجعل من فرنسا ومستعمراتها بلداً محايداً ، وما يسرى على المستعمرات يسرى على الأراضى المشمولة بالانتداب . وبناء على ذلك أفرجت السلطات العسكرية الفرنسية عن الطائرات والطيارين ، وسمحت بالمرور والنزول فى المطارات ... »

وبأزاء تعدد الحوادث المماثلة ، وبعد أن بد للعيان مدى استسلام السلطات العسكرية الفرنسية فى بلاد الانتداب لرغبات حكومة فيشى ، ومن ورائها الألمان والطليان ، أصدرت الحكومة البريطانية تصريحا فى يوليو سنة ١٩٤٠ بأنها « لن تسمح لأية دولة معادية باحتلال سورية ولبنان أو أن تستعمل هذين البلدين قاعدة للهجوم على أقطار الشرق الأوسط . التى تعهدت بحمايتها ، أو أن تكون مسرحا للقلاقل التى تعرض هذه الأقطار للخطر ، وأنها ترى نفسها حرة فى اتخاذ أى أجراء تراه ضروريا لمراعاة مصالحها الخاصة » . وختمت التصريح بعبارة رأتها ضرورية لاستمالة العناصر الوطنية إلى جانبها بأن قالت : « ولن يكون فى أى أجراء من ذلك أى تعد على الوضع المستقبل للبلدان التى هى الآن تحت الانتداب الفرنسى » .

لم تعبأ حكومة فيشى بالتصريح البريطانى ، واستمرت على العمل بتوجيهات المحور . وبعد أن يئست بريطانيا من الزام حكومة الانتداب الحياد التام ، سيرت جيوشها صوب سورية ولبنان، وفى ركابها وحدات من قوات فرنسا الحرة . وذلك فى شهر يونية سنة ١٩٤١ .

وقد رأى الحلفاء ضرورة استهواء العناصر الوطنية ، مخافة أن يستميلها اليهم عملاء فيشى فينضمون اليهم فى مقاومة الحملة . فأصدر الجنرال كاترو القائد العام للقوات الفرنسية الحرة ، تصريحا جاء فيه : « لقد أتيت لوضع حد لنظام الانتداب ، ولأعلن لكم أنكم أحرار ومستقلون. وعلى هذا ستكونون منذ هذه اللحظة شعوبا مستقلة ذات سيادة ، وسيكون فى امكانكم أن تنظموا أنفسكم فى دول مستقلة ، أو أن تتحدوا فى دولة واحدة ، وفى أى الحالتين سيؤكد استقلالكم وسيادتكم فى معاهدة تحدد فيها علاقاتنا المتبادلة ، وسوف تبدأ المفاوضات حول هذه المعاهدة بين ممثليكم وبينى فى أقرب فرصة . »

كما أصدر السفير البريطانى فى مصر « السير مايلز لامبسون » باسم حكومته التصريح الآتى : « إننى مخول من قبل حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة أن أعلن أنها تعضد وتشترك فى تأكيد الاستقلال الذى أعطاه الجنرال كاترو باسم الجنرال ديجول لسورية ولبنان »

وقفت القوات الفرنسية فى سورية ولبنان ، وهى التى كانت تأتمر بأوامر حكومة فيشى، موقف الدفاع ، وقاومت مقاومة لم تكن فى الحسبان إلا أنها سرعان ما انهارت خلال شهر واحد. ووقعت مع القوات المتحالفة هدنة لا يلفت النظر فيها الا تعهد المنتصرين بحماية المؤسسات الثقافية الفرنسية .

وفى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤١ أعلن الجنرال كاترو استقلال سورية دون شرط ولا قيد ، وفى ٢١ نوفمبر أعلن استقلال لبنان مشروطا بعقد معاهدة تحدد العلاقات بينها وبين فرنسا .

وعلى الرغم من اعلان فرنسا استقلال سورية ولبنان ، واعتراف الحكومة البريطانية باستقلال سورية فى أكتوبر وباستقلال لبنان فى ديسمبر سنة ١٩٤١ ، وتعيين السير أدوارد سبيرز مبعوثا فوق العادة ووزيرا مفوضا فى بيروت ودمشق، بما يؤكد اعتراف بريطانيا بالوضع الجديد ، على الرغم من كل ذلك ، فان فرنسا لم تبد أية رغبة فى أقامة الحياة الدستورية ، أو نقل سلطتها إلى الحكومتين السورية واللبنانية . أما الخطوة الوحيدة التى اتخذها الفرنسيون ، فكانت المناداة بالشيخ تاج الدين الحسنى رئيساً للجمهورية وتعيين أحمد الداعوق رئيسا للوزارة اللبنانية ، وكان هذان الرجلان ممن تعاونوا مع الفرنسيين أيام الانتداب فسقطت مكانتهم فى أعين الوطنيين .

ولقد كان من نتائج تصرفات الفرنسيين هذه أن عاودت النفوس موجة القلق والشك فى نوايا الحلفاء جملة ، لا فى نوايا فرنسا وحدها ، وبدأت الكتلة الوطنية تعمل — بزعامة شكرى القوتلى — بمعزل عن السلطات الفرنسية .

وفى أخريات سنة ١٩٤٣ أجريت الانتخابات العامة فى سورية، فانتخب شكرى القوتلى رئيسا للجمهورية وعين سعد الله الجابرى رئيسا للوزارة أما فى لبنان فقد انتخب بشاره الخورى رئيسا للجمهورية وعين رياض الصلح رئيسا للوزارة . وكل هؤلاء من الزعماء الوطنيين الذين لم ترق إلى مسلكهم شبهات العمل بارادة الفرنسيين .

وتوالت الأحداث على غير ما تهوى فرنسا ، فقد أسفرت الانتخابات عن نجاح أكثرية ساحقة من دعاة عدم التعاون مع فرنسا ، وأكدت الحكومة اللبنانية استقلالها بأن أعلنت أن اللغة الفرنسية لم تعد لغة رسمية، وعدل الدستور بألغاء كل المواد الخاصة بحقوق فرنسا فى ظل الانتداب

هاج هائج الفرنسيين ، فأصدر المقيم العام الفرنسى — المسيو هلو — بلاغا فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٤٣ يذكر فيه أن النصوص الخاصة بالتعهدات الدولية التى أقرتها فرنسا ، والتى لا تزال نافذة ، لا يمكن تعديلها دون الاتفاق مع فرنسا ، وأعلن بطلان المشروعات اللبنانية الخاصة بتعديل الدستور .

فأجابت الحكومة اللبنانية على ذلك بأن عرضت التعديلات على البرلمان ، وبجلسة ٨ نوفمبر (أى بعد بلاغ المقيم بثلاثة أيام) وافق البرلمان اللبنانى على التعديلات موضع الخلاف باجماع ٤٨ صوتا ضد لا شىء

وأجابت الحكومة الفرنسية على ذلك بأن ألقت القبض على رئيس الجمهورية اللبنانية ووزرائه .. وحلت المجلس ، وأعلنت الأحكام العرفية وفرضت الرقابة الصحفية . »

وقد أهاج هذا التصرف الرأى العام ، لا فى لبنان وسورية وحدهما بل فى جميع أنحاء العالم العربى . وشايعت كل من بريطانيا والولايات المتحدة العالم العربى فى شعوره ، فقدمتا احتجاجا إلى اللجنة الفرنسية للتحرير الوطنى ، وهنا أدرك الفرنسيون أن تصرف عاملهم فى سورية ولبنان سيفتح عليهم أبوابا من الشر ، فنزلوا على حكم الظروف ، وبعثوا بالجنرال كاترو إلى بيروت مكلفا من الجنرال ديجول « بأن يدرس مع اللبنانيين أفضل الوسائل لتسوية الحادث » .

وفى ٢١ نوفمبر أصدرت اللجنة الفرنسية للتحرير الوطنى بيانا أعلنت فيه أنها تمشيا مع توصيات الجنرال « كاترو » ، قررت أن تعيد الرئيس اللبنانى والوزراء اللبنانيين إلى مناصبهم ، وأن ينقل المسيو « هلو » إلى الجزائر » .

وبذلك هدأت النفوس فى لبنان ، وأتيح للجنرال « كاترو » أن يتم ما بدأه ، فوافق على أن تنقل إلى الدولتين — سورية ولبنان — السلطات التى تتمتع بها السلطات الفرنسية باسمهما ، وأن تنقل إليهما كذلك « المصالح المشتركة » وهى الجمارك والبريد والبرق ، على أن يبدأ بتنفيذ الاتفاق من أول يناير سنة ١٩٤٤ . وفى ٣ يناير نقل إليهما احتكار التبغ ، واتخذت الإجراءات الكفيلة بأن ينتقل إلى الحكومتين حق الإشراف على إصدار أوراق النقد .

وظن للمرة الثانية أن سورية ولبنان لن تصبحا بعد ذلك مسرحا لخصام جديد بينهما وبين فرنسا ، ومع ذلك فقد خابت آمال المتفائلين ، فقد حدث أثناء المفاوضات التى قام بها الجنرال « كاترو » أن أبدى الجانب الفرنسى رغبته فى الاحتفاظ بما سمى بالقوات الخاصة . وهى قوات عسكرية جندتها فرنسا سنة ١٩٤١ وكانت خليطا من العرب والأكراد والجراكسة والأرمن ، وأن تبقى هذه القوات تحت تصرف القيادة الفرنسية مباشرة ، ولما كان ذلك يتنافى بطبيعته مع الاستقلال الذى اتفق عليه ، فقد جرى فى هذه المسألة أخذ ورد بين الجانبين المتفاوضين ، بحيث ظلت معلقة خلال عامين .

وفى خلال ذلك كان العرب قد اتحدت كلمتهم على تكوين جامعة الدول العربية ، فأرسلت كل من سورية ولبنان ممثلين إلى مؤتمر الإسكندرية

فى أواخر سنة ١٩٤٤ . وانضمتا إلى الجامعة العربية عند تكوينها فى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ ، وبذلك توطد مركز الدولتين فى عالم الدول المستقلة. وفيما بين اجتماع الاسكندرية وإنشاء الجامعة ، أعلنت كل من الدولتين الحرب على ألمانيا واليابان . وفى ١٢ ابريل اشتركت كل منهما فى مؤتمر سان فرنسسكو ، فأطاشت كل هذه الأحداث بلب الفرنسيين .

وفى هذه الأثناء كانت كفة الحلفاء فى الحرب الأوربية قد رجحت وحلت الحكومة الفرنسية المؤقتة محل «اللجنة الفرنسية للتحرير الوطنى» وصار مركز ديجول وحكومته بإزاء الحلفاء خيراً مما كان ، فعادت إلى الفرنسيين طبيعتهم الاستعمارية ، وإذا بالجنرال ديجول يصدر تصريحا فى ٢٥ اكتوبر ١٩٤٤ ويشفعه بآخر فى ٢٥ يناير سنة ١٩٤٥ يقول فيهما «كانت فرنسا أول دولة اعترفت باستقلال هاتين الدولتين اللتين لها فيهما مركز ممتاز يجب عليها أن تحافظ عليه ، وإن فرنسا لمصممة على أن تمنح أصدقاءها السوريين واللبنانيين استقلالا حقيقيا ، ولكن التدخل الأجنبي هو الذى يزيد فى تعقيد المسألة » ويقرر أن « سياسة فرنسا هى المحافظة على مركزها المتفوق فى المشرق ، ومطالبها تقوم على أساس الحقوق التى يعطيها أياها صك الانتداب »

وفى ٢ فبراير سنة ١٩٤٥ أدلى المسيو بيدو وزير الخارجية الفرنسية بتصريح قال فيه « إن فرنسا مسئولة عن حفظ النظام فى سورية ولبنان ، وأنها تدافع عن امتيازاتها بالقوة المسلحة التى تحت تصرفها .

وفى مايو أبدت فرنسا رغبتها فى تسوية الموقف ، ورغبت أن تدور مفاوضات بين فرنسا والدولتين بشأن تسليم القوات الخاصة وقيادتها الى سورية ولبنان ، ولكنها اشترطت أن تقبل سورية ولبنان المطالب الآتية كأسس للمفاوضات :

الأولى : ضمان استقلال المؤسسات الفرنسية الثقافية .

الثانية : ضمان حقوق فرنسا الاقتصادية .

الثالثة : ضمان إبرام معاهدة تخول لفرنسا إنشاء القواعد البحرية والجوية وتضمن الاحتفاظ بقيادة فرنسية فى الجمهوريتين .

واتفق على أن تبدأ المباحثات يوم ١٩ مايو سنة ١٩٤٥ ، ولكن الحكومة الفرنسية أرسلت إمدادات عسكرية وصلت إلى بيروت قبل موعد بدء المفاوضات بأربعة أيام ، فكان ذلك سبباً فى وقوع الاضطرابات والاحتجاج الرسمى من جانب الحكومتين اللتين قررتا قطع المفاوضات .

واشتد التوتر ونشب القتال بين القوات الوطنية والفرنسية . وفقد الفرنسيون أعصابهم كعادتهم وضربوا دمشق . وامتدت الثورة ضد الفرنسيين فشملت كافة أنحاء البلاد .

وفى ٣١ مايو سنة ١٩٤٥ ، وقف المستر أيدن ، وزير الخارجية البريطانية ، فى مجلس النواب البريطانى ، وقال : إن حكومة صاحب الجلالة قد رأت أنها لاتستطيع أن تقف بمعزل عن هذه الحوادث ، وأن المستر تشرشل قد أرسل الرسالة التالية إلى الجنرال ديجول : « إزاء الموقف الخطير الذى نشب بين قواتكم وبين دولتى المشرق ، ونشوب القتال العنيف بينهما ، آسف كل الأسف أن أبلغكم أننا قد أمرنا القائد العام فى الشرق الأوسط بأن يتدخل ليحول دون الاستمرار فى إراقة الدماء محافظة على الأمن فى منطقة الشرق الأوسط كلها ، وهى المنطقة ذات الأهمية فى المواصلات التى تقتضيها الحرب ضد اليابان . إننا ، تجنباً للاصطدام بين القوات البريطانية والفرنسية ، نطلب منكم أن تأمروا القوات الفرنسية بأن تكف فى الحال عن إطلاق النار ، وأن تنسحب إلى ثكناتها . وبمجرد وقف إطلاق النار ، ورجوع النظام إلى نصابه ، فأننا نكون على

إستعداد لأن نبدأ محادثات ثلاثية فى لندن »

لم يسع الجنرال ديجول ، بأزاء هذا التصريح الحازم ، إلا أن يصدر أوامره الى قائد القوات الفرنسية فى سورية بأن يكف عن ضرب النار ، وأن لا يعارض أوامر القائد العام البريطانى الذى وصل الى بيروت فى أول يونيه ، فانسحب الجنود الفرنسيون إلى ثكناتهم ، وعاد النظام بوجه عام .

وعملت بريطانيا بجد على أن تبدد مخاوف الفرنسيين ، إذا لم تدخر وسعا ، ولم تترك مناسبة ، إلا وأعلنت أن لامطمع لها فى أن تحل محل فرنسا فى سورية ولبنان ، وذلك تهدئة لخواطر الرأى العام الفرنسى ، ومحاولة للوصول الى وضع فى سورية ولبنان يكفل استقرار الأمن فيهما ، مخافة أن تندلع فى الشرق نار العداء للحلفاء ، الذين لم تستقر بهم الأحوال العالمية بعد .

وعلى الرغم مما كانت تبذله بريطانيـــا من جهود ، وما تذيعه من تصريحات ، فان رجال الحكومة الفرنسية لم يطمئنوا الى مسلك حلفائهم ، وقد كان محور المباحثات — على الدوام — ضرورة خروج بريطانيا من سورية ولبنان قبل خروج الفرنسيين ، بينما ترى بريطانيا أنها لاتستطيع مبارحة هذين البلدين قبل التأكد من خروج آخر جندى فرنسى فيهما ، وإلا كانت الحالة الدولية عرضة للاضطراب فى أية ساعة .

وفيما بين هؤلاء وهؤلاء ، تلفت السوريون واللبنانيون ، فوجدوا جيشين يتنافسان على البقاء . أحدهما وضحت عداوته للبلاد فى مناسبات عديدة (وهو الفرنسى) . أما الآخر ، اختلفت عليه الآراء ، ولم يعد من الممكن فى تاريخ البلاد الحديث أن تصبر على هذا الوضع . ومما زاد

النفوس تشككا فى موقف البريطانيين صدور بعض التصريحات المشتركة من الفرنسيين والبريطانيين معاً . ومن أهم هذه التصريحات ما أذيع فى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٥ حيث جاء فيه : « سينفذ برنامج الجلاء على نحو يضمن أن تبقى فى الشرق قوات كافية للمحافظة على الأمن ، حتى تقرر هيئة الأمم المتحدة تنظيم أمن جماعى خاص بهذه المنطقة . وإلى أن ينفذ ذلك ، تحتفظ الحكومة الفرنسية بقوات يعاد تجميعها فى لبنان » .

اعترضت الحكومتان السورية واللبنانية على هذا التصريح ، وقدمتا احتجاجا بشأنه إلى جامعة الدول العربية ، وهيئة الأمم المتحدة . وقدم الاحتجاج إلى مجلس الأمن فى ٤ فبراير مؤكداً أن بقاء القوات الفرنسية والبريطانية فى سورية ولبنان أمر يتضمن اعتداءاً خطيراً على سيادة الدولتين .

وبعد مناقشات عدة ، وتدخل من جانب الولايات المتحدة الأمريكية واستعمال الروسيا لحق الفيتو ، لم يصل المجلس إلى قرار نهائى . وأحيلت المسألة إلى المفاوضة بين وفدين عسكريين : بريطانى وفرنسى ، يجتمعان فى باريس لحل مشكلة الجلاء .

وفى ٤ مارس سنة ١٩٤٦ أعلن أن الوفدين قد وافقا على الجلاء فى وقت واحد ، على أن يبدأ الجلاء فى ١١ مارس وينتهى فى ٣٠ ابريل فيما يختص بسورية وقد تم ذلك فعلا .

أما فيما يختص بلبنان ، فقد اتفق على أن تبرح الجنود البريطانية البلاد فى ٣٠ يونية ، وقد أنجز الانجليز ما تعهدوا به . أما جلاء الفرنسيين فقد استلزم وقتاً أطول نظراً لثقل المهمات العسكرية ، فتم الجلاء فى آخر أغسطس سنة ١٩٤٦

الفصل السابع

بريطانيا فى فلسطين

نشر المعهد الملكى للشئون الدولية فى سنة ١٩٤٦ كتابا بعنوان « بريطانيا وفلسطين — ١٩١٥/١٩٤٥ » نرى أن نعرب منه هنا بعضا من الفصل الأول وعنوانه أهمية فلسطين . بعد أن نسجل أننا لانشارك المعهد آراءه ، وإنما هى آراء تستحق أن توضع تحت أنظار المهتمين بشئون فلسطين :

« إن أخطر مظاهر النزاع بين اليهود والعرب فى فلسطين : الحقيقة الواقعة وهى أن الفريقين ليسا من سكان البلاد الأصليين ، ولكنهما جزءان من مجموعتين لكل منهما كيان دينى وعنصرى فى كافة أقطار العالم . ولذلك نرى أن أى صدام يحدث فى فلسطين سرعان مايتخذ شكلا دوليا ، فيؤثر فى حوالى اثنى عشر مليونا من اليهود منتشرين فى معظم دول العالم ، كما أنه يصبح أمرآ ذا بال للدول العربية ومصر ، وهو إلى جانب ذلك أمر حيوى بالنسبة لبريطانيا كدولة منتدبة ، ولمجموعة الأمم البريطانية ، بصداقتها التقليدية للفريقين وبسكانها المسلمين الذين يبلغ عددهم مائة مليون . وفضلا عن كل ذلك ، فأن فلسطين ، مهما كان نوع الحكومة التى تقوم بالأمر فيها ، لها من الأهمية ما لمصر من ناحية المواصلات الإمبراطورية . أما من الناحية الاستراتيجية ، فأنها مركز الاستكشاف الشرقى ضد أية محاولة عدائية ضد قناة السويس ، وهى إلى ذلك مصب أنابيب البترول الآتى من كركوك ، ومهبط لطائرات الخطوط الدولية إلى الهند وما وراءها ، وهى بداية طريق السيارات الصحراوى إلى العراق .

« وهناك مأزق أشد حرجا من مجرد الوفا بالوعود البريطانية التى أعطيت خلال الحرب العالمية الأولى أو الوفاء بالتزامات الانتداب ؛ نعنى بذلك المشكلة النفسية التى تتلخص فى محاولة التوفيق بين حركتين قويتين : الرغبة القديمة الكامنة فى نفوس اليهود للعودة إلى أرض الميعاد، وتملك وطن يعتقدون أن من حقهم أن يتملكوه ، ورغبة العرب فى فلسطين الارتفاع بمكانتهم السياسية إلى مستوى الكيان الوطنى ، ويخشى العرب فى فلسطين اليهود بغلبتهم العددية ، وتفوقهم المالى ، وحسن تنظيمهم وقوتهم الاقتصادية .

« وعلى الرغم من أن أصول النزاع كامنة فى أرض فلسطين ، فأن المؤثرات الخارجية كان لها أثر هام متزايد . ففى المكان الأول ، نرى أن تحرر الدول العربية (من نير الاستعمار الأجنبى) قد زاد العرب صلابة . ويعزو عرب فلسطين استقلال شرق الأردن ، الذين يحسدون أهله عليه ، إلى عدم وجود اليهود فيه . وقد شهدوا كيف عقد البريطانيون معاهدة مع أمير شرق الأردن فى سنة ١٩٢٨ ، وكيف عقدوا معاهدة مع العراق فى سنة ١٩٣١ وأخرى مع مصر فى سنة ١٩٣٦ . ومما زاد فى مرارة ألمهم عقد معاهدة فى ٩ سبتمبر ١٩٣٦ بين فرنسا وسورية (ولو أن الفرنسين رفضوا فى يناير سنة ١٩٣٩ إبرامها نهائيا) . ولا يستطيع العرب فى فلسطين أن يؤمنوا بأن أحداث سورية ولبنان ، التى انتهت بأعلان استقلالهما وسيادتهما سنة ١٩٤١ ، كانت تبرر ذلك التفاوت الواضح على أن حالة القلق وعدم الاستقرار التى اجتاحت الشرق الأوسط بسبب الحرب الإيطالية الحبشية ، ونجاح الاعتداء الإيطالى على الرغم من الجهود التى بذلتها عصبة الأمم (بزعامة بريطانيا) لإيقافه ، قد زادت هذه الحالة من القلق زيادة طبيعية بمجريات الأمور فى الحرب العالمية الثانية ، التى لم تهمل خلالها

الفاشية أو النازية الدعاية فى العالم العربى . ولقد بدأ العرب فى القيام بدور إيجابى فى محاولة إيجاد خاتمة للصدام الواقع فى فلسطين عندما مثلوا فى مؤتمر قصر سان جيمس فى يناير سنة ١٩٣٩ . وكان إنشاء جامعة الدول العربية فى مارس سنة ١٩٤٥ مظهراً آخر من مظاهر تضامن العرب .

ويقابل ذلك أن قيام الرايخ الألمانى الثالث عام ١٩٣٣ ، بسياسته العنيفة من اضطهاد العنصر السامى ، وما ترتب عليها من اضطهاد اليهود فى أوربا الوسطى ، لم يقتصر على أن يؤكد رغبة اليهود فى العودة إلى فلسطين فحسب ، بل تعدى ذلك إلى إبراز ضرورة حيوية هى إيجاد مهجر أو جملة مهاجر ، الأمر الذى ضاعف فى نظرهم أهمية الوطن القومى ، كما زاد من الضغط الأجنبى على بريطانيا كدولة منتدبة فى فلسطين . وقد قامت دول أوربا الشرقية التى تضم عدداً كبيراً من اليهود ، كما قامت الدول التى يمم اليهود وجوههم شطرها مهاجرين ، قامت هذه وتلك ووجهت انتباهها إلى مجريات الأمور فى فلسطين ببالغ الاهتمام . فلما كانت الحرب العالمية الثانية ، حاول النازى القضاء على اليهود فى أوربا فضاعف ذلك فى حاجتهم إلى مهجر ، كما أن هذه الظاهرة بعينها قد ضاعفت — لسوء الحظ — مخاوف العرب من ناحية ، والضغط على دولة الانتداب من الناحية الأخرى . وحتى قبل عام ١٩٣٩ لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية ، التى يبلغ عدد اليهود بها أربعة ملايين ونصف ، لم تكن تستطيع أن تقف وقفة من لا يهمه الأمر بإزاء الأسلوب الذى كانت تجرى عليه سياسة الدولة المنتدبة ، أو بإزاء أى تغيير يطرأ على سياسة الانتداب . فمن ذلك أن نزوح اللاجئين اليهود من أوربا ، وعدم رغبة الحكومة البريطانية المنتدبة فى قبول عدد من اليهود يزيد على النصاب الذى نص عليه فى الكتاب الأبيض عام ١٩٣٩ ، زاد فى ضغط اليهودية الأمريكية على حكومة

الولايات المتحدة الأمريكية . ففى عام ١٩٤٢ طالب الصهيونيون فى الولايات المتحدة وبريطانيا وفلسطين بفتح باب الهجرة إلى فلسطين على مصراعيه للهجرة اليهودية، كما طالبوا بإنشاء «مجموعة أمم يهودية» (كومنولث) فلما انتهت الحرب فى خريف عام ١٩٤٥ تألفت لجنة إنجليزية — أمريكية مشتركة لاستعراض مركز اليهود فى أوربا مقارناً بالحالة فى فلسطين على أن تتقدم بتوصيات للحكومتين الأمريكية والبريطانية ، تكون سبيلا لحل مشكلة فلسطين . وعلى الرغم من المعونة المباشرة التى منحتها الولايات المتحدة ، والآمال التى عقدت على مجلس الوصاية التابع لهيئة الأمم المتحدة المنشأة حديثاً بصفة كونه وارثا لسلطات اللجنة الدائمة للانتداب التابعة لعصبة الأمم المنحلة ، على الرغم من ذلك لايزال من الصواب القول بأن بريطانيا لا تستطيع أن تخلى بينها وبين النزاع القائم فى فلسطين بين العرب واليهود . ولا يقل صوابا عن ذلك أن يقال إن النزاع فى ذاته لا سبيل إلى إنهائه إلا بالاتفاق بين الطرفين .

* * *

هذا هو الأسلوب الذى يكتب به عن فلسطين فى كتاب يصدر عن المعهد الملكى للشئون الدولية ، ذلك المعهد الذى أوضح سياسته فى أول صفحات الكتاب بأن قرأنه ممنوع — بحكم قوانينه — من إبداء الرأى فى الشئون الدولية ، وأن الآراء التى وردت فى هذا الكتاب ليست — بطبيعة الحال — آراء المعهد .

ولنا أن نتساءل عن مصدر هذه الآراء التى تعطى اليهود كل شىء وتبخس العرب كل شىء . على أن الإجابة على هذا التساؤل قد وردت فى صلب الكلام الذى نقلناه عن هذا الكتاب ، ففيه توكيد للنفوذ الدولى اليهودى ، وإثبات للضغط اليهودى على حكومات الدول التى يعيشون

فيها ، واستغلال للظروف الدولية ، وتحامل على العرب في كل مكان .

فإذا أراد العرب جديا أن يكون لمطالبهم الحقة صدى واقعى وتأثير عالمى ، فليدرسوا أساليب الدعاية الصهيونية عن كثب ، وبطريقة بعيدة عن المواربة ، وليعملوا على نشر دعاية مقابلة ، مدعمة بما يستسيغه الشرف العربى من أساليب الدعاية الصهيونية ، وليبدأوا بشرح قضيتهم من الناحية التاريخية بما ينقض الدعاوى الصهيونية الخاصة بأرض الميعاد . ولعل جامعة الدول العربية ، وهى تختط لنفسها سياسة إنشاء مكاتب الدعاية فى أنحاء العالم ، وبخاصة فى أمريكا ، لا تعتبر الأمر بجرد موظف ووظيفة ، وتوزيع لهذه الوظائف بين الدول العربية بمقدار مساهمة هذه الدول فى ميزانية الجامعة ، أو غير ذلك من الاعتبارات المكتبية البحتة ، فإن كبريات الأمور تستلزم كبريات الأساليب ، والإخلاص دون الكفاية يعيد إلى الأذهان قصة الدب والصياد .

* * *

منذ آلاف السنين ، لم تحظ فلسطين بالمقومات التى تجعل منها وحدة سياسية ، أو « دولة » بما يقتضيه تعريف الدولة ، وانما كانت بقعة من الأرض تداولتها الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية، والنصرانية، والاسلام

فاذا ما ادعى اليهود انها كانت وطناً لأسلافهم الأول فهم صادقون ، وإذا ادعاها النصارى فهم كذلك صادقون ، وإذا ادعاها المسلمون فهم بمثل ذلك صادقون .

على أن دعوى أصحاب الديانات ملكية أرض ما ، لمجرد أنها كانت مهبط رأس أسلافهم ، كلام لا يقره منطق ، ولا يسلم به عرف .

وقد ظلت فلسطين زهاء أربعة قرون خاضعة للحكم العثمانى ، لم تقع

خلالها فتنة ذات بال ، بين ذلك الخليط من السكان من مسلمين ونصارى ويهود .

قصة الوطن القومى لليهود

ويذهب البعض إلى القول بأن الانتداب البريطانى على فلسطين ، أو مجريات الأمور خلال الحرب العالمية الأولى ، هى التى خلقت قصة الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

ولكن الواقع أن قصة الوطن القومى لليهود أقدم عهداً من الحرب العالمية الأولى ، أو الانتداب البريطانى . وإنما يصح أن يقال إنه لولا تورط بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى مع زعماء اليهود ، لما اتخذت قصة الوطن القومى ذلك الوضع البارز بين مشاكل العالم ، ولما استيقظ اليهود من حلمهم الذهبى . وفى ذلك يقول الأستاذ محمد رفعت فى كتابه « التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض المتوسط » :

« كان أول من جعل لليهود قضية قومية وأمانى وطنية فى التاريخ الحديث هو النمسوى تيودور هرزل الذى نشر فى سنة ١٨٩٦ كتابه عن « الدولة اليهودية » فكان ظهور ذلك الكتاب فاتحة عهد جديد ، إذ أصبحت أمانى القومية اليهودية بعد إذاعته موضوعاً مدروساً يقرؤه الناس ، وكانت قبل ذلك خواطر مجردة وأحلاماً تهفو لها نفوسهم وتهتف لها قلوبهم دون ألسنتهم . وقد أثار ذلك الكتاب من الحماسة والاهتمام لدى اليهود فى مختلف البلاد ما دعا إلى اجتماع مؤتمر عام لليهود فى مدينة بال بسنة ١٨٩٧ وفيه حدد اليهود الهدف الذى ترمى اليه حركتهم الصهيونية : وهى السعى لايجاد وطن قومى لليهود فى فلسطين ، على أن يكون ذلك بمقتضى اجراءات

يؤيدها القانون العام . وقد أوضح المؤتمر الوسائل التى تتخذ لتحقيق ذلك فيما يأتى :—

ا- تنمية حركة الاستعمار فى فلسطين بايفاد عمال للزراعة والصناعة اليها

ب- تنظيم العناصر اليهودية وتوثيق الروابط بينها بانشاء المؤسسات المحلية والدولية وفقاً للقوانين المراعية فى الدول المختلفة .

ح- تقوية الشعور أو الوعى القومى اليهودى .

ء- اتخاذ الاجراءات — حينما تسمح الحال — للحصول على موافقة الحكومات على تحقيق أغراض الصهيونية .

ويتضح من ذلك أن الحركة الصهيونية فى بدء أمرها ، وإلى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، لم تكن أكثر من دعاية عاطفية اجتماعية يقصد بها اليهود أن يستدروا عطف الحكومات لتدبير مأوى فى فلسطين يلجأ اليه المضطهدون والمشردون منهم ، فيجدون فيه بلغة من العيش بالعمل فى الزراعة أو الصناعة ... »

هذا هو رأى الأستاذ محمد رفعت فى العلاقة بين اليهودية وأرض فلسطين .

أما نحن فنرى أن الأمر أبعد غوراً من هذا ، وأن علاقة اليهودية بفلسطين أقدم من ذلك ، فإن المستعمرات اليهودية فى فلسطين يرجع تاريخها إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وأن دعوة « هرزل » ماظهرت إلا لتؤكد أمراً واقعيا وهو هجرة اليهود إلى فلسطين . فقد تأسست أول مستعمرة يهودية بالقرب من يافا فى سنة ١٨٥٥ ، أسسها السير موسى مونتيفيورى ، وأنه ، منذ ذلك الحين ، استمرت الهجرات اليهودية وقوامها شباب اليهود فى روسيا ورومانيا ، وأن اليهود كانوا يفدون على

فلسطين زرافات ووحدانا وكلهم خلو من وسيلة يتعيش بها ، أو معرفة ينتفع بها ، ولكنهم وجدوا فى البارون ادموند روتشلد راعيا يساعدهم بماله ، ويهديهم بخبرته ، ويوجه نشاطهم وجهة بذاتها .

وفى عام ١٨٨٢ قام البارون موريس هرش بتكوين « الجمعية اليهودية الاستعمارية » وكانت ترمى إلى إسكان اليهود فى مستعمرات زراعية أينما كانت . وإلى هذه الجمعية آل نشاط روتشلد ومعونته ، فنشطت الجمعية واتجهت إلى فلسطين بالذات . ولم تقتصر حركة الاستعمار اليهودى على جهود هذه المؤسسة ، بل قامت إلى جانبها — مستقلة فى جهودها — المنظمة الصهيونية .

وما جاءت سنة ١٩١٤ حتى كانت هذه المستعمرات الزراعية اليهودية فى فلسطين تضم ١٢٫٠٠٠ يهودى من ٩٠٫٠٠٠ كانوا يسكنون فلسطين وكانت هذه المستعمرات تباشر كافة شئونها بنفسها ، بمعزل عن سلطة الحكومة العثمانية المتراخية وقتذاك .

كان كل ذلك يجرى فى فلسطين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وفى مستهل القرن العشرين ، والعرب فى فلسطين مسلمين ومسيحيين ، فى غفلة عما يراد بهم .

وإنى لأذكر فيما أذكر أننى اشتريت فى سنة ١٩١٤ كتاباً قديما من بائع متجول ، ولعلى اشتريت الكتاب مدفوعا بمجرد العطف على البائع الفقير ، أو تخلصا من إلحاحه ، فلما تصفحت الكتاب بعد ذلك لم يلفت نظرى فيه شىء يستحق الذكر . فلما دارت الأيام دورتها وأصبحت لليهود فى فلسطين قضية ، تذكرت الكتاب فبحثت عنه وتصفحته ، فإذا به دعوة توجهها المنظمة الصهيونية العالمية لشباب اليهود لاستيطان فلسطين

وقد جاء فى آخر الكتاب ملحق طريف ، هو عبارة عن مرشد للشباب اليهودى بعد هجرته ، يرشد المهاجر إلى نوع العمل الذى ينتظره فى فلسطين — كل حسب حالته — فإذا كان المهاجر ممن يملكون عشرة آلاف جنيه أو أكثر ، فأمامه باب الاستغلال مفتوحا فى صناعة كذا وكذا ، وإذا كان يملك نصف هذا المبلغ فأمامه كذا وكذا . ثم يتدرج نزولا ، فيحدد المشروعات التى تقوم على رؤوس أموال أقل من ذلك ، حتى ينتهى بالمهاجر المعدم فيرشده إلى المزارع أو المصانع التى تتسع له . . . عندئذ ، وعندئذ فقط ، آمنت بأن العمل الصهيونى فى فلسطين عمل جدى لاهزل فيه .

وفى يوم من أيام ١٩٣٩ ، على ما أذكر ، أقامت حكومة الانتداب فى فلسطين معرضا بالقاهرة للصناعات الفلسطينية ، فاذا بالمعرض يحتوى على حجرة واحدة عربية ، يقابلها أكثر من عشر حجرات يهودية ، وقد اشتملت الحجرة العربية على بضعة مصنوعات بدائية ، بينما احتوت الحجرات اليهودية آخر ما استحدثه العلم من آلات كهربائية وأدوات مكتبية ومستحضرات طبية ، تضاهى فى جودتها ما تنتجه المصانع الأوربية .

ووقع تحت يدى فى سنة ١٩٤٢ كتاب «العمل الصهيونى فى فلسطين» ، وهو دعاية حديثة الأسلوب ، ويحتوى الكتاب بيانا بالمشروعات الزراعية والصناعية التى نجحت فى فلسطين على أيدى اليهود ، ومدى نجاحها ، ويوازن بين الأساليب التى أدخلها اليهود على الصناعة والزراعة ، والأساليب الفطرية التى كانت ولا تزال تجرى على أيدى العرب ، وفى كل ذلك دعاية لأساليب اليهود فى النهوض بالزراعة والصناعة فى البلاد بالاستعانة بآخر المستحدثات العالمية .

وأنا إذ أقرر هذه الوقائع ، أقررها آسفا على أن العرب كانوا

منصرفين الى الدعاية لقضية العرب فى فلسطين ، ولكنهم اختاروا لنشر هذه الدعاية أوساطاً لاتحتاج الى دعاية . وبيئات تؤمن بالقضية العربية بقدر مايؤمن بها الدعاة على الأقل .

* * *

والآن ، وقد جعلنا عنوان هذا الفصل « بريطانيا فى فلسطين » فأننا سنحاول جلاء الحقائق بالأجابة على الأسئلة الثلاثة الآتية :

١ — أية مصلحة دفعت بريطانيا أن تصدر وعوداً للعرب ، ثم لا تلبث أن تصدر وعوداً لليهود تتنافى وما تعهدت به للعرب ؟

٢ — أية مصلحة دفعت بريطانيا إلى أن تعمل جاهدة فى المحافل الدولية حتى تنال قرار انتدابها على فلسطين ؟

٣ — أية مصلحة دفعت بريطانيا الى التخلى عن الانتداب وقتما تخلت عنه ؟

فى خلال الحرب العالمية الأولى ، كان الحلفاء يحرصون على كسب الحرب مهما كلفهم الأمر ، وبينما كانت تركيا ، ومن ورائها ألمانيا تعد العدة لمهاجمة الحلفاء فى مصر ، كان البريطانيون يلوحون للعرب بأن لا سبيل لاستقلالهم عن الدولة العثمانية إلا بالخروج عليها والانضمام الى صفوف الحلفاء ومحاربة الدولة والتغلب عليها .

ومادمنا بصدد الحديث عن فلسطين ، فاننا لن نتناول هذا التاريخ مفصلا فى كل نواحيه ، انما نقتصر على ماله علاقة بقضية فلسطين .

مما لاشك فيه أن بريطانيا كانت تحرص كل الحرص على تأمين مواصلاتها البحرية الى مستعمراتها فى الشرق الأقصى عبر قناة السويس ،

فاستطاعت أن تتدخل فى صميم الشئون الداخلية المصرية ، وأن تحتل البلاد عام ١٨٨٢ بحجة حماية العرش . غير أن هذا الاحتلال لم يكن فى نظر البريطانيين كافياً لتأمين هذه المواصلات ، طالما كان على الجانب الآخر من صحراء سينا بلاد لاتسيطر عليها بريطانيا .

وقد ظلت الدبلوماسية البريطانية ترنو الى الجانب الآسيوى من هذا الشريان الحيوى لها ، وتحاول جاهدة أن يكون لها فيه شىء من النفوذ يدفع عنها غائلة الغدر بها إذا تعقدت الأمور دولياً .

ولما كانت هذه المنطقة خاضعة لنفوذ السلطان فى تركيا، فقد انصرف هم البريطانيين الى التدخل لدى السلطان ، ولكنهم كانوا يصطدمون على الدوام بالنفوذ الفرنسى المتغلغل لدى السلطان ، تزكية المنافسة بين انجلترا وفرنسا قبل سنة ١٩٠٤ .

وفى مستهل القرن العشرين ، بدأ نفوذ ثالث يغلب كلا من فرنسا وبريطانيا لدى السلطان : ذلك أن الألمان استطاعوا أن يصبغوا شباب الضباط الأتراك بالصبغة العسكرية الألمانية ، وبلغ إعجاب هؤلاء الضباط بالروح العسكرية الألمانية ، وإيمانهم بأن الغلبة — فى السياسة العالمية — ستكون لهم فى المستقبل القريب ، بلغ كل ذلك حداً فتح للخبراء الألمان باب التدخل فى الشئون التركية على مصراعيه . ومن العاصمة امتد نفوذ الخبراء إلى أملاك الدولة بآسيا . وأقنعت السياسة الألمانية رجال الحكم فى الآستانة بضرورة إصلاح الحال فى هذه الأملاك ، إستبقاء لولائها للدولة . ومن هنا نشأت فكرة مد الخطوط الحديدية عبر هذه الأملاك . وقام الألمان على تنفيذ هذه المشروعات .

ذعرت بريطانيا وفرنسا لهذا التدخل الألمانى السافر فى شئون الدولة ،

فلم يكن هناك بد من أن تعقد بين الفريقين هدنة ، بل تحالف ، سمى باتفاق سنة ١٩٠٤ .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى ، واستطاع البريطانيون إغراء العرب على الخروج على الدولة العثمانية والانضمام إلى معسكر الحلفاء . ثم توالت الأحداث فهاجم الأتراك الحدود المصرية ثم ردوا عنها ، ثم خرج اللورد اللنبي على رأس جيش يتألف من بريطانيا ومستعمراتها ، يؤيده فيلق سمى وقتئذ بفيلق العمال المصريين ، خرجوا إلى شبه جزيرة سيناء ، ومنها إلى أرض فلسطين . فسقطت غزة فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ وسقطت بيت المقدس بعد ذلك بشهر واحد (فى ٩ ديسمبر) .

وكان الأمر الواقع يقتضى أن تصبح فلسطين تحت الإدارة العسكرية البريطانية ، وأن تظل كذلك إلى أن يقرر مصيرها فى مؤتمر الصلح ، ولذلك ظلت فلسطين فى يد إدارة حربية بريطانية ، على اعتبار أنها جزء من أرض العدو المحتلة .

وبينما كانت الإدارة الحربية البريطانية تباشر عملها فى فلسطين ، كانت المحافل الدولية ، والمفاوضات الدبلوماسية ، على قدم وساق .

المرحلة الأولى : بين بريطانيا والعرب

والآن ، لنعد قليلا إلى الوراء .

عندما أعلنت الحرب العالمية الأولى ، كانت البلاد العربية تغلى كالمرجل تغنيا بالقومية العربية ، التى تختلف عن القومية التركية ، وإن اتفق أصحاب القوميتين فى الدين .

ويطول بنا الحديث إذ حاولنا أن نتبع تاريخ ظهور القومية العربية

وقيامها كحركة مضادة للحركة التركية السياسية التى أودت بعرش السلطان عبد الحميد ووضعت للبلاد دستوراً سياسيا . فان العرب قد شاركوا الترك فى هذه الحركة ، ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا أن زملاءهم الأتراك قد انفردوا بالعمل على احياء قوميتهم التركية ، متجاهلين جهود زملائهم العرب . وعندئذ اجتمعت كلمة العرب على أن تكون لهم جهودهم الخاصة باحياء قوميتهم والعمل على ما فيه صالحهم .

فلما كانت الحرب العالمية الأولى ، وقف الأتراك إلى جانب حلفائهم الألمان ، ضد بريطانيا .

ولما كانت بريطانيا تحتل مصر وقتذاك . فقد توقعت أن يفتح الألمان وحلفاؤهم جبهة جديدة للحرب على حدود مصر الشرقية ، تشتيتا لقوى بريطانيا بين الجبهة الغربية فى أوربا ، والجبهة الشرقية على حدود مصر

استعرضت بريطانيا الموقف ، ولم تلبث أن تبينت أن من مصلحتها استغلال القومية العربية الناشئة الفتية . ولكنها لم تكن لتطمئن إلى جهود القائمين بالحركة العربية القومية لأسباب قد يطول شرحها ، فاستيسرت أن تستغل الآمال الكبار التى يجيش بها صدر رجل من زعماء العرب كان فى نظر البريطانيين أسلس قياداً من غيره ، وأصلح من وجوه عدة لقضاء مآربهم . ذلك هو الشريف حسين أمير الحجاز

درست بريطانيا أمير الحجاز عن كثب ، فأدركت أنها تستطيع اغراءه على الخروج على الأتراك والانضمام إلى معسكر البريطانيين مقابل وعود تحقق له أكثر مما كان يحلم به وقتذاك . فقد صور له عملاء بريطانيا أنه ، بصفة كونه من سلالة النبى عليه الصلاة والسلام ، أحق بالخلافة على المسلمين من الخليفة التركى . وأنه بهذا الوضع ، تستطيع بريطانيا أن

تجلسه على عرش لا يقل عظمة واتساعا عن عروش آبائه وأجداده من الخلفاء الأمويين والعباسيين ، وأن الجزيرة العربية لا تلبث أن تدين له بالطاعة ، وأن اليوم الذى تنتهى فيه الحرب هو اليوم الذى سيتوج فيه ملكا على العالم العربى الاسلامى فى آسيا .

وقد صور العملاء البريطانيون لأمير الحجاز أن تحقيق أحلامه رهن بتبادل بضعة خطابات مع المعتمد البريطانى فى مصر هنرى مكماهون يتعهد فيها الأمير بأعلان الخروج من ولائه الأتراك ، والانضمام إلى معسكر الحلفاء وعلى رأسهم بريطانيا ، مقابل أن يتعهد له مكماهون بالسيادة على الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها يوم أن تنتهى الحرب بانتصار الحلفاء .

وارتفع أمير الحجاز — فى نظر نفسه — إلى مرتبة التكافؤ مع رجل من أعظم رجال السياسة والحرب فى الامبراطورية البريطانية بتبادل الخطابات بينهما . وطرب للألفاظ المعسولة التى كانت تنطوى عليها هذه الخطابات ، فاتفق مع أولاده على إجابة البريطانيين إلى طلبهم بالخروج من ولاء الأتراك ، وتأليف جيش عربى يحارب مع بريطانيا جنبا إلى جنب ضد العدد المشترك : تركيا .

وانتهت أحداث الحرب بانتصار الحلفاء ، واحتلالهم لفلسطين وسورية ، وتقهقر الأتراك إلى آسيا الصغرى .

ثم جاء وقت الحساب .

فالعرب ، وقد ظنوا أنهم بانضمامهم إلى الحلفاء أصبحوا أصحاب حق مكتسب ، قوامه تنفيذ الاتفاق المعقود بين الشريف حسين والسير هنرى مكماهون . كانوا يطالبون بوطن عربى يشمل فلسطين . وقد أنكر عليهم

البريطانيون حق ضم فلسطين للوطن العربى الكبير . واستشهدوا على ذلك بخطاب كتبه السير مكماهون فى ٢٥ أكتوبر عام ١٩١٥ للشريف حسين يقول فيه : « إن مرسين واسكندرونه وبعض الأقسام السورية الواقعة غربى مناطق دمشق وحمص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال عنها أنها عربية محضة ، ويجب أن تستثنى من الحدود التى ذكرتموها ، وبالتعديلات التى أوردتها هنا ، ودون إخلال بالمعاهدات المعقودة مع الزعماء العرب ، نوافق على هذه الحدود » .

وعلى الرغم من الالتواء الواضح فى صياغة هذا الخطاب فيما يختص بفلسطين ، فإن الجانب العربى لم يتنبه إلى ما ترمى إليه السياسة البريطانية من وراء هذا الالتواء ، ولم يفكر فى ذلك الوقت الذى كانت بريطانيا فيه محتاجة إلى العرب كل الاحتياج ، لم يفكر فى مراجعة السلطات البريطانية للحصول منها على كلمة صريحة بشأن فلسطين ، بل قنع بأن اعتقد — فيما بينه وبين نفسه — أن فلسطين تدخل فى نطاق الدولة العربية الكبرى .

ولما كانت هذه المشكلة مما يعتبر أساسا لمشكلة فلسطين ، فقد رأينا أن نورد هنا ترجمة كاملة لما جاء فى كتاب « بريطانيا وفلسطين ١٩١٥ — ١٩٤٥ » الذى سبقت الإشارة إليه . ففيها شرح للموقف لا غنى عنه :

« ولو أن الجانب البريطانى قصد أن يستبعد فلسطين من هذه المساحة (يقصد الوطن العربى الذى كان العرب يطالبون به) فيجب أن نعترف أن اللغة التى كتب بها خطاب مكماهون فيما يختص بالاستبعاد لم تكن من الوضوح والبعد عن خطأ الفهم كما كان يظن وقت كتابتها » .

ويستدل على ذلك بما حدث خلال انعقاد مؤتمر فلسطين بلندن فى

شهرى فبراير ومارس عام ١٩٣٩ حيث تألفت لجنة مشتركة من المندوبين البريطانيين والعرب لاستعراض وثيقة مكماهون ، فقد فشلت هذه اللجنة فى الوصول إلى اتفاق على تفسير ما احتوته الوثيقة ، إذ قال الجانب البريطانى إن حكومته كانت ولا تزال تؤمن بأن عبارة « اجزاء سورية الواقعة غربى مناطق دمشق وحمص وحماه وحلب » تشمل جميع أجزاء سورية (بما فيها ما يسمى الآن فلسطين) الواقعة غربى المنطقة التى كانت تعرف إداريا باسم ولاية سورية . وقد اتفقوا على أن منطق الجانب العربى فيما يختص بمعنى العبارة المختلف عليها له قوة أكبر مما قدر لها وقتئذ ولكنهم تمسكوا بأن فلسطين — بناء على نص الوثيقة — تخرج عن نطاق ما يطالب به العرب .

« وقد دأبت الحكومة البريطانية على القول بأن نيتها اتجهت منذ أول وهلة على إخراج فلسطين مما وعد به مكماهون العرب ، وقد أوضح ذلك المستر تشرشل وزير المستعمرات وقتئذ فى مذكرة له عن الانتداب فى فلسطين تاريخها ٣ يونيو سنة ١٩٢٢ ، وقد جاء فى خطابين حررهما السير هنرى مكماهون فى سنتى ١٩٢٢ و ١٩٣٧ أنه قصد فعلا إخراج فلسطين (مما وعد به العرب) . وهنالك ما يدل على أن الحكومة البريطانية أوضحت نواياها فى مقابلة بين القائد هوجارث والملك حسين فى يناير سنة ١٩١٨ وقد بدا أن الملك وافق على إخراج فلسطين من نطاق الدولة العربية المستقلة . وفضلا عن ذلك ، فقد روى أن الأمير فيصل بن الحسين صرح فى مؤتمر الصلح بباريس « إن فلسطين — نظراً لدولية كيانها — يجب أن يترك أمرها جانبا للتفاهم بشأنها بين الجهات التى يهمها الأمر جميعا » ، وذلك على الرغم من أنه حدث فى سنة ١٩٢١ أن تحدث فيصل مع وزارة الخارجية البريطانية فطالب بأن تدخل فلسطين فى المنطقة التى

وافق البريطانيون على استقلال العرب بها . ولكنه لم يلبث أن تنازل عن ذلك . ولكن عرب فلسطين لا يأخذون بهذا المنطق وهم دائبون على إبراز وجهة نظرهم فيما يتقدمون به من مطالب وشكايات .

« ومما تجب ملاحظته أنه عندما كان السير هنرى مكماهون يراسل الشريف حسين عام ١٩١٥ ، لم تكن قصة وعد اليهود قد بدأت ، على أن الحلفاء كانوا على إدراك تام لأهمية الأماكن المقدسة — وقد بحث أمرها فى كثير من المعاهدات السرية المعقودة بينهم — ومما يؤسف له أن المفاوضين البريطانيين لم يوضحوا الأمر للعرب منذ البداية .

هذه ترجمة حرفية لما ورد فى كتاب « بريطانيا وفلسطين » الذى أشرنا إليه . وهى تبين وجهة النظر الدولية التى يدعيها الكتاب ، ولكنها فى الوقت ذاته تعتبر محوراً ساسيا لفهم قضية فلسطين التى دار عليها النزاع سنوات بين بريطانيا والعرب ، والتى آلت فيها الأمور إلى ما آلت إليه على أعين العرب .

ولنا هنا أن نتساءل :

(ا) إلى أى حد يعتبر العرب أصحاب حق واضح فى المطالبة — فى حدود الاتفاقات الدولية — فى اعتبار فلسطين جزءاً من الوطن العربى العام ؟

(ب) إلى أى حد يمكن أن يقال — فى حدود الاتفاقات الدولية — أن بريطانيا نكثت بوعودها للعرب فيما يختص بفلسطين ؟

فى رأينا أن بريطانيا قد بيتت الغدر بالعرب يوم أن عقدت معهم اتفاق الحسين — مكماهون ، وأن غفلة المفاوضين العرب من ناحية ، ورغبة آل الحسين وقتئذ بأن يخرجوا من المعركة بأى شىء ، ولو كان

تافهاً ، كل ذلك أغرى العرب بقبول الالتواء الذى ورد فى وثيقة مكماهون التى حوسبوا على صياغتها حرفا بحرف فيما بعد ، وأن أمير الحجاز لو تأنى فى قراءة الوثيقة ، واكتشف ما فيها من التواء ، وطالب بأيضاح لها ، لكان له ذلك ، إذ أن بريطانيا كانت تعانى وقتئذ أزمة يسهل معها أن تنزل على أرادة العرب مهما كانت .

ولا يصح أن يرد على ذلك بأن بريطانيا كانت مرغمة وقتئذ على النزول على أرادة اليهود ، مدفوعة الى ذلك بنفوذ اليهود العالمى من ناحية ، وبمالهم الوفير الذى كانت تريده بريطانيا للانفاق على كسب الحرب من الناحية الثانية .

ففى تقديرنا — بعد تقدير الزمن حق قدره — أن بريطانيا ، بعدما استغفلت العرب وضللت بهم فى وثيقة الحسين — مكماهون تضليلا ما كان يصح أن يفوت عليهم ، آمنت بغفلة العرب ، فتشجعت على الاستجابة للمطالب اليهودية .

أنا لا أذهب الى القول بأن بريطانيا كانت سترفض مطالب اليهود جملة ، وأنما اكتفى بالقول بأنه لو تقيدت بريطانيا بقيود صريحة مع العرب لكان مسلكها مع اليهود قد اختلف فى قليل أو كثير عما جرت به الأمور من وعد صريح بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، ولربما كانت الأزمة — بعد انتهاء الحرب — بين اليهود والبريطانيين ، لا بين اليهود والعرب .

ويجب أن لا نغفل من حسابنا أن بريطانيا تعرف جد المعرفة أن المفاوض العربى أسلس قياداً من المفاوض اليهودى ، وأن التربية السياسية لدى المفاوضين العرب وقتئذ لم تكن من النضج بحيث تخشاها بريطانيا .

وقبل أن نتحدث عن مجريات الأمور بشأن فلسطين ، يجدر بنا أن

نسجل أن الحروب تقترن عادة بالمعاهدات السرية بين المتحالفين . ولهذه المحالفات السرية آثار كبرى فى سلوك الحلفاء فى الحروب ، وقد تزعمت بريطانيا ، فى الحرب العالمية الأولى ، شأنها فى كل حرب بل فى كل مشكلة دولية ، سياسة عقد المعاهدات السرية . ومما يجدر بنا أن نقرره فى هذا المقام أن فكرة أعطاء فلسطين للعرب ، أو الموافقة على تأسيس وطن قومى لليهود بها ، لم ترد فى المعاهدات السرية التى وقعتها بريطانيا مع حلفائها قبيل اتفاقها مع الحسين .

ففى مارس سنة ١٩١٥ عقدت المعاهدة السرية الأولى بين بريطانيا وفرنسا وروسيا . وفى أبريل سنة ١٩١٥ ، بعد ما انضمت ايطاليا إلى الحلفاء ، عقدت معاهدة سرية ثانية، وقد تحدثت المعاهدتان السريتان عن ما يسمى بالحقوق ومناطق النفوذ التى تخصص لكل من المتحالفين فى رقعة الأرض الآسيوية التى تؤول إلى الحلفاء بعد هزيمة تركيا .

على أن هاتين المعاهدتين بقيتا فى طى الكتمان إلى أن قامت الثورة الشيوعية فى روسيا ، وأدالت دولة القياصرة ، فعثر على صورتى هاتين المعاهدتين فى محفوظات وزارة الخارجية الروسية ، ونشرت الصحافة الروسية نصوصهما ، وعندئذ اعترفت دول الغرب بوجودهما .

ويلاحظ أنه لم يرد فى هاتين المعاهدتين ، اللتين عقدتا قبيل الاتفاق مع الحسين ، ذكر لفلسطين بالذات .

فلما تم الاتفاق بين الحسين ومكماهون يتبادل الخطابات بينهما ، خشيت انجلترا أن تتهم من جانب حليفتها فرنسا بالانفراد بالعمل فى المناطق التى أشارت اليها الاتفاقات السرية السابقة الذكر ، كما خشيت أن تصطدم معها فيما يختص بتوزيع الاسلام ، وخاصة أن فرنسا تدعى لنفسها

مركزاً خاصا فى البلاد العربية الواقعة على ساحل البحر الأبيض. يضاف إلى ذلك أن بريطانيا كان يهمها كثيراً أن تحصل من فرنسا على موافقتها على ما تعهدت به للحسين .

وتقديراً لكل هذه الاعتبارات ، دارت مفاوضات فى أواخر سنة ١٩١٥ بين السير مارك سايكس والمسيو جورج بيكو انتهت بالاتفاقية التى عقدت بينهما فى مايو سنة ١٩١٦ وعرفت باسم اتفاقية سايكس بيكو

وتدور هذه الاتفاقية حول توزيع الأسلاب بين الحليفتين ، وقد تجاهل الفريقان بقية الحلفاء ، فتم الاتفاق بينهما على أن تقسم الأرض الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط وخليج العجم إلى خمس مناطق ، بعضها يخضع للإدارة البريطانية ، ويخضع البعض الآخر للإدارة الفرنسية ويصبح بعضها منطقة نفوذ بريطانية والبعض الآخر منطقة نفوذ فرنسية .

ومن المناسب أن نقرر أن فلسطين لم تكن من بين المناطق التى وردت الإشارة إليها ، فقد ورد بشأنها النص التالى : —

« ورغبة فى المحافظة على المصالح الدينية للدول المتعاقدة . فإن فلسطين بما فيها من أماكن مقدسة ، تخرج عن دائرة الأملاك العثمانية ، وتخضع لنظام خاص يتفق عليه بين روسيا وفرنسا وبريطانيا .

وقد كانت السرية الطابع الأول والأهم لهذه المعاهدة التى لم تبلغ محتوياتها لا للعرب ولا للإيطاليين ، ولم يعلم بها هذان الفريقان إلا فى نوفمبر سنة ١٩١٧ ، فقد عثر البلاشفة فى وزارة الخارجية الروسية على مذكرة سرية تاريخها ٦ مارس سنة ١٩١٧ بالمفاوضات التى جرت بين لندن وبتروجراد فى ربيع العام السابق فنشروها فى جريدتهم « اسفستيا » فى نوفمبر سنة ١٩١٧ .

ومن المعتقد فى المحافل الدولية أن الشريف حسين علم بهذه الوثيقة فى أوائل سنة ١٩١٧ ، أعلمه بها الأتراك .

أما إيطاليا التى يبدو أنها كانت تعلم بالوثيقة منذ أوائل سنة ١٩١٧ كذلك، فقد عوضوا عنها باتفاقية جان دى مورين فى ١٧ أبريل ١٩١٧ تلك الاتفاقية التى لم توضع موضع التنفيذ .

٢ — المرحلة الثانية : بين بريطانيا واليهود

كانت رغبة البريطانيين فى إيواء اليهود فى مكان بذاته سابقة للحرب العالمية الأولى بأكثر من عشر سنوات ، فقد حدث فى سنة ١٩٠٣ م عندما بدا من المستحيل الحصول من سلطان تركيا على امتياز يمكن اليهود من العودة إلى أرض الميعاد — أنها منحتهم وطنا فى أوغنده ، ولكن فلسطين كانت الوطن الوحيد الذى يرضى رغبات اليهود ، ولذلك اعتذر المؤتمر الصهيونى فى سنة ١٩٠٥ عن عدم قبول الهبة البريطانية .

ولم تعمد الحكومة البريطانية إلى إثارة القضية الصهيونية فى أوائل الحرب لسبب واضح : هو أن روسيا كانت بين عداد الحلفاء ، وأن حكومتها القيصرية لم تكن تنظر بعين الرضا للحركة الصهيونية عامة .

فلما اندلعت الثورة الشيوعية فى فبراير سنة ١٩١٧ ، كانت الصلة قد توطدت بين السير مارك سايكس والدكتور وايزمان — وهو من الزعماء المثقفين اليهود ، وكان يشغل إحدى وظائف التدريس فى جامعة مانشستر وكان قد ألحق بالبحرية البريطانية بين خبرائها الكيميائيين .

وكان وايزمان ، منذ سنة ١٩٠٦ قد اتصل بالمستر بالفور وأثار اهتمامه بشأن الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، وقد لعب معه دوراً هاما فى

المفاوضات التى جرت بين اليهود والحكومة البريطانية فى سنة ١٩١٧ وانتهت بما سمى وقتئذ بعهد بالفور ، وهو خطاب كتبه المستر بالفور إلى اللورد روتشلد فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ يتضمن ما يأتى :

إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وستبذل خير ما فى وسعها من وسائل لتسهيل الوصول إلى هذا الغرض ، على أنه يجب أن يفهم بوضوح أنه لن تتخذ أية إجراءات من شأنها أن تلحق الضرر بالحقوق الحالية ، من مدنية ودينية ، للجاليات غير اليهودية فى فلسطين أو فى الحقوق والكيان السياسى اللذين يتمتع بهما اليهود فى أية دولة أخرى .

وقد أبدت الحكومة الفرنسية موافقتها على هذا العهد فى ١٤ فبراير سنة ١٩١٨ وكذلك وافقت عليه الحكومة الإيطالية . ويقول كتاب بريطانيا وفلسطين أن الأمر قوبل فى الولايات المتحدة الأمريكية بتأييد من الرأى العام .

وقبل أن نسترسل فى سرد الأحداث التى وقعت بعد ذلك ، يجدر بنا أن نستعرض وجهات النظر المختلفة فى هذا العهد .

* * *

١ — يعلل الأستاذ محمد رفعت ، كتابه « التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض المتوسط » ، صدور هذا الوعد فيقول :

« ثم بدا للحكومة الانجليزية أن تستميل إليها الرأى العام الأمريكى لعلها أن تقنع الولايات المتحدة بالاشتراك فى الحرب الى جانب الحلفاء ، فترجح بذلك كفتهم ، وتنتهى تلك المأساة التى طال أمدها ولم يتح النصر فيها لأحد الفريقين . وكانت انجلترا تعلم أن جانبا قويا من الرأى العام

الأمريكى قوامه العنصر اليهودى فيها ، وكانت تعلم كذلك أن الحالة فى روسيا قد أصبحت من الحرج والخطورة بحيث بانت الثورة فيها قريبة الحدوث ، وأصبح خروج الروسيا من الحرب مترقباً فى أى وقت ، وكانت انجلترا الى ذلك تعد عدتها لغزو فلسطين وسوريا بعد أن مهدت لذلك بمعاهدة الثورة العربية على الترك ، كما كانت على علم بمطامع فرنسا فى لبنان وسوريا ومنطقة المشرق ، فلم تشأ أن تنتهى الحرب دون أن تمكن لنفسها فى منطقة الشرق الأوسط ليكون لها إزاء فرنسا سند تأمن معه على مصالحها فى هذه المنطقة العظيمة الخطر .

« وعلى ذلك سافر مستر بالفور وزير الخارجية الانجليزية فى أوائل سنة ١٩١٧ لمفاوضة زعماء اليهود فى الولايات المتحدة . وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، قبل دخول الجنرال اللنبي فلسطين بأسابيع قليلة ، أعلن تصريح بالفور الشهير ضمن خطاب وجهه الوزير المذكور إلى اللورد روتشلد زعيم اليهود فى انجلترا وفيه يقول :

ثم يورد الاستاذ محمد رفعت نص التصريح ويعلق عليه قائلا :

« وظاهر من هذا التصريح أن الحكومة الانجليزية لم تقصد بتصريحها الى تحويل فلسطين إلى وطن قومى لليهود ، ولكنها أرادت فقط تدبير وطن لليهود فى فلسطين ، والفرق بين المعنيين ظاهر . ثم إن الحكومة الانجليزية ، لعلمها بما يصادف هذه السياسة من اعتراض ، رأت أن تقيد تصريحها بشرطين على جانب عظيم من الأهمية .

أولا : أن وجود الصهيونيين فى فلسطين لن يؤثر فى حالة أصحاب البلاد من الوجهتين الدينية والمدنية .

والثانى أن اليهود فى الخارج لن يعتاضوا بفلسطين عن أوطانهم التى يعيشون فيها ويتمتعون بجنسياتها . وذلك لأن انجلترا كانت تعلم أن

فريقا قويا بين الانجليز والأمريكان كانوا يخشون أن يؤدى إنشاء الوطن القومى إلى أن يفقدوا جنسياتهم فى البلاد التى ينتسبون إليها ، وأن يتعرض اليهود فى الممالك الاخرى الى نوع جديد من الاضطهاد أو التشريد ما دام قد أصبح لهم موطن يلجأون اليه . وقد حدث فعلا فى ألمانيا ما خشى اليهود أن يكون ، فان الحركة العدائية المعروفة ضد اليهود والتى بلغت شدتها فى عهد تفوق النازيين فى أوروبا ، كان من أسبابها فكرة الوطن القومى لليهود .

« على أن أهم ما يعترض به على وعد بالفور أن بريطانيا . بتصريحها هذا ، قد أصدرت قراراً سياسيا هاما فى شأن إقليمى دون أى اكتراث بالمبادىء الديمقراطية ، وأنها أخلت بالوعود التى قطعتها للعرب قبل ذلك بسنتين ، وكان من أثرها أن قام العرب بزعامة الشريف حسين أمير مكة وأبنائه بثورتهم ضد الأتراك ، وبتأييد قضية الحلفاء بدمائهم وأرواحهم مقابل الحرية والاستقلال اللذين وعدوا بهما . »

* * *

٢ — أما السيدة سيتون ويلز ، وهى سيدة استرالية عملت فى وزارة الاستعلامات البريطانية وقت الحرب ، واستطاعت الحصول على معلومات من الدرجة الأولى عن العرب وبلادهم بحكم صلتها بالشئون العربية ، فتعلق فى مؤلفها « بريطانيا والدول العربية » على عهد بلفور فتقول :

« وتجدر الاشارة إلى أن كلمات وعد بلفور تتمشى تماما مع نص مذكرة قدمتها الهيئة الصهيونية إلى حكومة المملكة المتحدة بتاريخ ١٨ يوليو سنة ١٩١٧ . وليس هناك من شك فى أن تصريح بلفور قد أعلنته الحكومة البريطانية أثناء أزمة الحرب ، ودون تقدير كاف لما يتضمنه من التعقيدات ، أو لمطالب العرب التى سبق اعلانها .

ثم تزيد المؤلفة الموقف جلاء فتقول :

« وبعد نشر تصريح بلفور ، أرسل الكوماندور هوجارت إلى الملك حسين لكى يطمئنه فيما يختص بفلسطين ، وفيما يلى نص الرسالة : —

(٢) وفيما يختص بفلسطين تصر على أن لا يكون أى شعب خاضعا للآخر ولكن

(ا) بما أنه توجد فى فلسطين مخلفات دينية وأوقاف وبقاع مقدسة يقدسها فى الأحيان المسلمون واليهود والمسيحيون ، كل فريق على حدة ، وفى أحوال أخرى يقدسها فريقان أو الثلاثة جميعا ، ولما كان يهتم بهذه الأماكن خلق كثيرون خارج فلسطين وبلاد العرب ، فيجب أن يوضع لهذه الأماكن نظام خاص يقره العالم .

(ب) وفيما يخص بجامع عمر ، فانه سيعتبر شيئا خاصا بالمسلمين وحدهم ولن يخضع خضوعا مباشراً أو غير مباشر لأية سلطة غير إسلامية .

(٣) ولما كان الرأى اليهودى العالمى يميل إلى رجوع اليهود إلى فلسطين ولما كان هذا الرأى ينبغى اعتباره عاملا دائما ، وأبعد من ذلك ، لما كانت وجهة نظر حكومة صاحب الجلالة مصممة على ألا توضع أية عقبة فى طريق تحقيق هذا المثل الأعلى طالما كان يتمشى مع حرية السكان الموجودين ، سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية .

« وقد وضح الكوماندور هوجارت تماما فى محادثاته مع الملك حسين ، وهى التى نشرت فى الكتاب الأبيض ، أن « الملك لن يوافق على انشاء دولة يهودية مستقلة فى فلسطين ، كما أنى لم تكن عندى تعليمات بأن أحذره من تفكير بريطانيا فى انشاء هذه الدولة .. »

* * *

٣ — أما كتاب « بريطانيا وفلسطين » فيتناول الموقف بالتوضيح التالي : —

« كثيراً ما يقال : ان التصريح (وعد بلفور) قد أريد به إغراء الأغنياء من يهود أمريكا على استغلال نفوذهم لدفع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية إلى الاشتراك فى الحرب ، ولكن الدكتور وايزمان ينفى ذلك ، ويعزو صدور التصريح إلى الاعتراف برغبة ملحة لشعب قديم ، وإلى اتجاه النية إلى تصحيح الوضع بالنسبة لليهود فى العالم . وينفى كذلك ما يقال من أن رجال الحكومة البريطانية أصدروا هذا التصريح لأغراض استعمارية . مدللا على ذلك بأن الحكومة البريطانية ، عندما وافقت على إصدار التصريح ، وافقت فى الوقت ذاته على شرط واحد : هو أن فلسطين يجب أن لا يعهد بها الى بريطانيا » .

« ومما لا شك فيه أن إنكار الذات ، يزكيه شعور عميق تجاه الأماكن المقدسة ، هو ما أدى بالحكومة البريطانية إلى إصدار قرارها ، إذ أن هذه العوامل هى التى أثارت تحمس رجال من أمثال بلفور ودفعتهم إلى العمل . على أنه غير يسير أن نؤمن بأن وزارة الحرب البريطانية كانت خالية الغرض كلية عند ما أقدمت على اتخاذ هذا القرار فى وقت كان النصر مهما غلا ثمنه هدفا لا تحيد عنه الوزارة فى تصرفاتها ، فقد خطب المستر لويد جورج فى مجلس العموم فقال : كان من المهم لنا أن نلتمس كل معونة صادقة أنى وجدنا إلى التماسها سبيلا . وقد وافتنا التحريات التى جاءتنا من كل مكان على ظهر المعمورة بما استطعنا به أن نقرر أنه كان من الضرورات الحيوية لنا أن نستأثر بعطف الجاليات اليهودية .

« وتتبين قيمة هذا التصريح إذا استعرضنا ما كان له من أثر فى معسكر عدوتينا ألمانيا وتركيا ، إذ أن الأولى لم يقتصر التأثر فيها على الأعداد الهائلة من اليهود الذين كانوا يستوطنون ألمانيا . بل تعداه إلى اليهود الذين تتكون منهم نسبة مئوية لايستهان بها فى شرق أوربا الذى وقع تحت يد الألمان ، بما فى ذلك أوكرانيا ، وبولنده . ورومانيا .

« ولذلك فكر الأعداء فى إصدار تصريح يقابل وعد بلفور . ففى ٣١ ديسمبر سنة ١٩١٨ أدلى طلعت باشا بتصريح لمراسل لجريدة فولك زيتونج الألمانية بأنه على استعداد لأن يمنح الصهيونيين الألمان حكومة ذاتية محدودة النشاط ، مقرونة بالحق المطلق فى الهجرة الى فلسطين ، ثم أعقب ذلك مفاوضات دارت فى برلين أنتجت تكتل الجمعيات اليهودية ، وقامت الحكومة الألمانية بالحصول لها على بضعة امتيازات من الحكومة التركية فى يوليو سنة ١٩١٨ . ولكن ، بينما كان ذلك يجرى فى معسكر الألمان والأتراك ، كانت فلسطين قد وقعت فى أيدى الحلفاء ، وكانت اللجنة الصهيونية ، التى بدأت عملها فى مارس ، على وفاق مع زعماء العرب . ويرجع الفضل فى ذلك الى حنكة الدكتور وايزمان (وقد حدث أول اجتماع من هذه الاجتماعات فى مخيم الأمير فيصل فى جويره ، بين العقبة ومعان ، فى أوائل يونيو سنة ١٩١٨)

« وفى خلال ذلك ، ازدهرت آمال العرب بصدور تصريح مشترك من انجلترا وفرنسا فى ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ فصلت فيه الأهداف الحربية للحلفاء فى الشرق ، ووعدت فيه الحكومتان « بإنشاء إدارة تستمد كيانها من اختيار مطلق يقوم به السكان الوطنيون فى سورية والعراق . وقد اعتبر العرب أن هذا التصريح يؤكد أو يثبت على الأقل تصريح سايكس - بيكو

« وكثيراً مايقال ان هذا التصريح قد أهمل ذكر فلسطين، ويجيب عرب فلسطين على ذلك أنهم لايذهبون هذا المذهب ، ويستندون فى ذلك إلى أن لفظ فلسطين لم يذكر بالذات ، لأن المنطقة كلها كانت تعرف باسم سورية ، وأن التصريح قد وزع فى كافة أنحاء سورية الكبرى (بما فى ذلك فلسطين) والعراق .

« ويبدو أن الأمل كان كبيراً ، خلال انعقاد مؤتمر الصلح ، فى الوفاء بالوعود التى قطعت للعرب واليهود على السواء ، وفى وقت واحد ، وكان اليهود على استعداد تام على قبول مانص عليه عهد بلفور من أنه لن تتخذ أية اجراءات من شأنها أن تلحق الضرر بالحقوق الحالية ، من مدنية ودينية ، للجاليات غير اليهودية فى فلسطين . وكان العرب ، يمثلهم الأمير فيصل والكولونيل لورنس يساوون اليهود فى نزعتهم للوئام

ثم يقتبس الكتاب فقرة من المذكرة التى تقدم بها الأمير فيصل لمؤتمر الصلح ، مقتبسا أياها من كتاب «متر ميلر » مذكراتى عن مؤتمر الصلح فى باريس » يذهب فيها الأمير فيصل إلى القول بأن العرب يكونون غالبية فى فلسطين وأن اليهود يقربون من العرب من ناحية الدم ، وأنه لايوجد تنافر بين الشعبين فى الخلق ، وأن العرب لايستطيعون أن يخاطروا بتحمل المسئولية عن ايجاد توازن فى المصادمات المتعلقة بالجنس والدين ، فى منطقة كثيراً ما أقتحمت العالم فى المصاعب من جراء مثل هذه المصادمات وإن العرب ليطمعون فى أن يتولوا مركزاً ممتازاً فعالا بأن تسند اليهم الوصاية ، طالما أن أدارة محلية نيابية تستطيع أن تثبت جدارتها بالعمل الجدى على رفاهية البلاد (هذا النص العربى مترجم عن الانجليزية ، نظراً لتعذر حصولنا على النص العربى الأصلى)

« ويذهب هنتر ميللر فى مذكراته إلى أن فيصل، خلال انعقاد المجلس الأعلى الذى مثل فيه العرب مطالبا بتحقيق وعود الحلفـــاء ، قال أن فلسطين ، نظراً لطبيعة وضعها الدولى ، يجب أن تجنب حتى يتفاهم بشأنها كل من يهمهم الأمر . وبهذا الاستثناء طالب فيصل باستقلال المناطق العربية التى وردت فى مذكرته .

« وقد حدث فى يناير سنة ١٩١٩ ما يثبت الوداد والتفاؤل اللذين كانا يسودان المعسكرين (العربى واليهودى) فان فيصل كان فى ذلك الوقت فى لندن مع لورنس ، فقابلا الدكتور وايزمان الممثل للنظمة الصهيونية. لقد تقابل الطرفان خلال الشهور الستة السابقة على هذه المقابلة كثيراً ، ولكنهما ، فى هذه المرة ، وصلا إلى إتفاق كتابى ينبىء عن أقصى ما يستطاع من الوئام وحسن التفاهم . وقد كانا يؤمنان بإمكان ذلك، فقد جاء بالمادة الرابعة من الاتفاق ما يأتى : —

« ســـوف تتخذ كل الاجراءات لتشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين وتدعيمها على نطاق واسع ، وتوطين اليهود المهاجرين بإنشاء المستعمرات متقاربة وتركيز الزراعة ، على أن يحتفظ للفلاحين العرب والمستأجرين بحقوقهم ، وأن يؤخذ بيدهم نحو التقدم الاقتصادى .

وبالقاء النظر على هذا الحادث ، يشتد الأسف على أن كلا من الطرفين المتعاقدين لم يكن مفوضا من هيئة لها كيانها الرسمى فى فلسطين . صحيح أن فيصل ، بصفة كونه ابنا للشريف حسين ، كان يشعر بأنه يحق له أن يتحدث باسم العرب فى آسيا ، إلا أنه عندما قسمت أرض العرب إلى أكثر من دولة واحدة بعد ذلك ، على الرغم من آماله وآمال لورنس ، عاد إلى المفاوضة ، ولكن عن العراق فحسب ، ويبدو أنه كان يتوقع

هذا الاحتمال ، فقد جاء فى هذه الاتفاقية تحفظ هذه صيغته : —

« إذا أقيمت دولة العرب على المنهاج الذى فصلته فى خطابى المؤرخ ٤ ينـاير إلى وزارة الخارجية البريطانية ، فإننى أتعهد بتنفيـذ ما جاء بهذه الاتفاقية . أما إذا تغير هذا الوضع ، فإننى لا أسأل عن عدم القيام بتنفيذها » .

وبهذا التحفظ ، وفى ضوء ماجرى بعـد ذلك من أحداث . لايعتبر فيصل مسئولا عن هذه الاتفاقية ، ولـكنها تصبح وثيقة شخصية ذات قيمة تاريخية بحت .

* * *

والآن ، وقد عرضنا آراء ثلاثة من المصادر المهمة فى تاريخ وعد (بلفور) ، نرى أن نعلق عليها فيما يلى : —

١ — يؤكد الأستاذ محمد رفعت أن نفوذ اليهود فى أمريكا كان العامل الأساسى فى صدور صك الانتداب . ويرى أن النية لم تكن تتجه إلى تحويل فلسطين إلى وطن قومى لليهود . وإنما أرادت تدبير وطن لليهود فى فلسطين ، ويقطع بأن بريطانيا قد أخلت بالوعود التى قطعتها للعرب قبل ذلك بسنتين .

٢ — تقول السيدة (سيتون ويليمز) : « إن وعد بلفور لم يكن عملا ارتجالياً لا شأن لليهود به ، بل إنه يتمشى تماما مع نص مذكرة قدمتها الهيئة الصهيونية الى الحكومة البريطانية فى يوليو سنة ١٩١٧ كما تقول : إن التصريح قد صدر دون تقدير كاف لما يتضمنه من التعقيدات أو اعتبار لمطالب العرب التى سبق إعلانها .

٣ — أما كتاب بريطانيا وفلسطين فيحتوى على نبى الدكتور وايزمان

للرأى الذى أبداه الأستاذ محمد رفعت من أن يهود أمريكا كانوا من العوامل المهمة فى صدور هذا التصريح . ويعلل صدوره بعوامل تاريخية وأدبية .

ثم يعنى الكتاب عناية كبرى بإثبات أن الامير فيصل - ممثلا للعرب فى مطالبهم - لم يكن على وداد وتفاؤل مع اليهود فحسب ، بل جاوز ذلك بأن أدلى بتصريحات ، ووقع إتفاقا مع اليهود ، يرضى فيه بأن تصبح فلسطين مهجرا جديا لجماعات كبرى من اليهود .

أما نحن ، فنرى أن تلخص الموقف فيما يلى :ـ

(١) كانت بريطانيا تعمل على كسب الحرب مهما كلفها الامر ، وقد رأت أن اليهود فى أمريكا يسيطرون على مقاليد الأمور ، ففتحت صدرها للدكتور وايزمان الذى بشر فى انجلترا بالقضية الصهيونية واستطاع أن يقنع مستر بلفور أن إصدار مثل هذا التصريح هو الضمان الوحيد لكسب الحرب . وقد أثبتت الحوادث أن الطرفين المتحاربين كانا يعملان على كسب اليهود كل الى جانبه ، ولكن بريطانيا سبقت ألمانيا فى ذلك .

٢ — لم تعبأ بريطانيا بوعودها للعرب ، وذلك لأمرين

(ا) صيغت الخطابات التى أرسلها مكماهون للشريف حسين بصيغة دبلوماسية معقدة ، كان يصعب على العرب الأبرياء من أمثال الشريف حسين أن يتفهموا ما تستره الألفاظ المعسولة المطاطة من معان تأول ابان الحرب على وجه وبعد الحرب على وجه آخر . وكان الشريف حسين ، وولده فيصل ، حريصين على أن يقال أنهما تحالفا مع بريطانيا العظمى ، فلم يعمدا إلى تفهم نصوص الخطابات تفهما دبلوماسيا واضحا ، ومن هنا أتيح للبريطانيين أن يلعبوا بالعرب وأن ينفقوا — على حسابهم — مع اليهود .

(ب) كان الكولونيل لورنس موضع ثقة الامير فيصل . ومما لا شك فيه أنه وقع تحت تأثيره ، فتمكن بذلك لورنس أن يحقق للحكومة البريطانية ما أرادت من توريط فيصل فى تصريحات واتفاقات تنقض قضية فلسطين من أساسها . ومما لاشك فيه أن وعوداً خلابة ، وتهديدات منكرة ، قد توالت على فيصل فجعلته يرضى بما لم يكن ليرضى به لو لم يلوح له بعرش لنفسه ، وعرش آخر لأبيه ، وثالث لأخيه ، وهكذا .

٣ — حرصت الحكومة البريطانية على صيانة سمعتها السياسية بأن أبرزت بشكل واضح مبلغ رضاء العرب عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، فى شخص الأمير فيصل الذى ينوب عن أبيه ، وهو المرجع الأساسى فى الاتفاقات التى أبرمت مع العرب .

المرحلة الثالثة — صك الانتداب

فى ٢٨ يونيه سنة ١٩١٩ وقعت معاهدة فرساى وميثاق عصبة الأمم ومن أهم المواد التى وردت فى الميثاق المادة ٢٢ الخاصة بالانتداب ، فقد جاء فيها ما ترجمته : « فى المستعمرات والأملاك التى استقلت — كنتيجة لهذه الحرب — عن الدول التى كانت تحكمها ، والتى يسكنها اليوم أقوام لايستطيعون أن يمارسوا استقلالهم بإزاء الظروف التى تكتنف العالم فى الوقت الحاضر ، يجب أن يطبق المبدأ القائل بأن ازدهار هذه الشعوب وتقدمها واجب مقدس من واجبات المدنية . وأنه يجب أن تتخذ الاحتياطات الكافية للوفاء بهذا الالتزام ، وأن ينص عليها فى هذا الميثاق . وخير الوسائل لإدراك هذه الغايات هو أن يعهد بالوصاية على أمثال هذه الشعوب إلى دول أعلى منها كعبا ، تستطيع بما لديها من

موارد أو مران أو مركز جغرافى أن تتحمل هذه المسئولية ، بشرط أن تقبل الدول المنتدبة هذا التكليف عن طيب خاطر ، وأن يكون لوصايتها على هذه الأمم صورة انتداب من عصبة الأمم. وتختلف طبيعة الانتداب بين مكان وآخر باختلاف حال الشعوب ، والموقع الجغرافى للبلاد وأحوالها الاقتصادية وغير ذلك من الاعتبارات . ولما كانت بعض الأقاليم التى كانت تابعة فيما مضى للأمبراطورية التركية قد وصلت فى تقدمها إلى مرحلة تؤهلها لان تكون أمما مستقلة لذلك يمكن الاعتراف بها مؤقتا بشرط أن تستمر الدولة صاحبة الانتداب فى تقديم النصح والمعونة الاداريتين حتى يأتى الوقت الذى تستطيع فيه أن تعتمد على نفسها . ويجب أن تؤخذ بعين الاعتبار رغبات هذه الطوائف فى اختيار الدولة الى يوكل اليها الانتداب .

ولما كانت هذه الصفات تنطبق على كثير من الممتلكات التركية السابقة فى آسيا ، ومن بينها فلسطين ، فقد حاول الرئيس ولسن تطبيق النص الأخير من المادة القائل باستفتاء الشعوب فيما يختص باختيار دولة الانتداب بتأليف لجنة من الحلفاء للقيام بهذا الاستفتاء ، فلما تعذر الوفاق بين البريطانيين والفرنسيين فى هذا الشأن ، أوفد الرئيس ولسن لجنة امريكية خاصة عرفت باسم لجنة كنج وكرين إلى فلسطين حيث تلقت مئات الاقتراحات وتحدثت إلى وفود من كافة الجاليات فى سورية وفلسطين وكان ذلك فى يونيو سنة ١٩١٩ .

وقد ذهبت اللجنة فى تقريرها إلى أن غالبية السكان كانت تطالب بالاستقلال التام لسورية متضمنة فلسطين ، وعلى سبيل الاحتياط ، تقبل استقلالا مع انتداب ، أما عن الدولة التى يسند إليها الانتداب

فقد طالبوا بأن تكون هى الولايات المتحدة الامريكية وإلا فبريطانيا

أما اليهود فقد طالبوا بأن تقوم عصبة الأمم بندب بريطانيا لفلسطين على أساس أن هذه هى رغبة اليهود فى جميع أنحاء العالم ، وأن عصبة الأمم ، فى اختيارها لدولة الانتداب ، تلبي على قدر الامكان رغبة الشعوب التى يهمها الأمر

ونظراً للصعوبات التى اكتنفت الانتداب من الناحية الدولية ، وخاصة فيما يتعلق بمدى انطباق الوضع الجديد على معاهدة سيكس - بيكو ، ورغبة الأمريكيين فى أن يكون لهم رأى فى الموضوع ، وتمسك ايطاليا بحل المسائل المعلقة بينها وبين فرنسا قبل القطع بأمر الانتداب ، لم يكن من السهل الوصول إلى حل سريع فيما يتعلق بفلسطين .

وأخيراً انعقد المجلس الاعلى فى سان ريمو ، وفى ٢٥ أبريل سنة ١٩٢٠ قرر انتداب بريطانيا لإدارة شئون فلسطين . وأضاف إلى صك الانتداب ملحقا بضرورة التزام الدولة المنتدبة تطبيق وعد بلفور .

ومن المسلم به أن قرار ندب بريطانيا لفلسطين لم يصدر من المؤتمر عفو الساعة ، وانما سبقته اتصالات وبذلت فى سبيل الوصول اليه جهود

فإن بريطانيا كانت حريصة جد الحرص على ان لا تنسحب جيوشها من فلسطين بعد دخولها فاتحة ، وذلك تأمينا لمواصلاتها الامبراطورية وتدعيما لدفاعها عن قناة السويس . فقد كانت تحب ان تظل رابضة فى هذه البقعة الملائمة لها من الناحية العسكرية ، حتى يقضى فى شأن البلاد قضاءاً تطمئن به بريطانيا على مصالحها الحيوية . ومآل الامر، فى نظرها، ان اليهود سيتغلبون على العرب فى فلسطين، سواء أكان ذلك بالدبلوماسية التى برع اليهود فيها على حين ان العرب كانوا ولا يزالون فى اول الطريق

أو بالغلبة الاقتصادية وكفة اليهود فيها واضحة الرجحان . أو بالقوة وكفة اليهود قد ترجح فيها بفضل المعونة البريطانية .

لكل ذلك عقدت بريطانيا مع اليهود حلفا قلبيا على أن يتوطن اليهود أرض فلسطين حتى تصير لهم الغلبة فيها ، مقابل ان يستغل اليهود نفوذهم العالمى نصراً لقضية انتداب بريطانيا على فلسطين .

أما العرب ، فلم يحسب البريطانيون لهم حسابا يذكر ، فقد كان لسان حالهم فى أوربا وبريطانيا هو الأمير فيصل ، وهو رجـــل لا يعرف الفرنسية ولا الانجليزية ، زمامه فى يد صديقه وصفيه الكولونيل لورنس الذى كان فيصل يؤمن به إيمانا بعيد المدى . وقد انفرد — بالنيابة عن ابيه — بالدفاع عن قضايا العرب ، ولم تكن فلسطين إلا واحدة من هذه القضايا . وقد استطاع لورنس أن يروض الأمير فيصل على مقابلة الزعماء اليهود وعقد أواصر الصداقة معهم موهما أياه أن هذه هى الدبلوماسية الحديثة الكفيلة بتحقيق أهدافه . لكل ذلك لم يحسب البريطانيون للعرب حسابا وقتما كانوا يوطئون لأقدامهم فى فلسطين عن طريق مؤتمر سان

أما العرب ، فلم يحسب البريطانيون لهم حسابا يذكر ، فقد كان لسان حالهم فى أوربا وبريطانيا هو الأمير فيصل ، وهو رجـــل لا يعرف الفرنسية ولا الانجليزية ، زمامه فى يد صديقه وصفيه الكولونيل لورنس الذى كان فيصل يؤمن به إيمانا بعيد المدى . وقد انفرد — بالنيابة عن ابيه — بالدفاع عن قضايا العرب ، ولم تكن فلسطين إلا واحدة من هذه القضايا . وقد استطاع لورنس أن يروض الأمير فيصل على مقابلة الزعماء اليهود وعقد أواصر الصداقة معهم موهما أياه أن هذه هى الدبلوماسية الحديثة الكفيلة بتحقيق أهدافه . لكل ذلك لم يحسب البريطانيون للعرب حسابا وقتما كانوا يوطئون لأقدامهم فى فلسطين عن طريق مؤتمر سان ريمو .

وشرق الأردن ، وهى لاتزال على رأيها فيما يخص شرق الأردن على الأقل .

وقد استطاعت بريطانيا أن تنتزع من فرنسا موافقتها على انتداب بريطانيا فى فلسطين وشرق الأردن . مقابل اعتراف بريطانيا لفرنسا بالانتداب على سورية ولبنان ، وبذلك قسم العالم العربى فى آسيا إلى منطقتى نفوذ : احداهما لبريطانيا والأخرى لفرنسا ، بمثل ما حدث فى سنة ١٩٠٤ . ولم يبق من الملك الذى كان الحسين يحلم به الشريف حسين إلا أرض الحجاز التى كان يقيم فيها بالفعل ونجد التى ترك له أن ينازع عليها آل سعود ، ذلك النزاع الذى انتهى بالقضاء على أحلام الحسين جملة ، وفى كل ذلك لم تعبأ بريطانيا برجل وضع نفسه واولاده وبلاده وجيشه فى خدمتها ، بل جازته على ذلك جزاء سنمار

والمطلع على نصوص صك الانتداب لا يسعه إلا أن يؤمن بأن اليهود قد خرجوا منه بنصيب الأسد ، إذا اعترف لهم فى المادة الرابعة بضرورة قيام هيئة يهودية صالحة — كهيئة عمومية — لتشير وتعاون فى إدارة فلسطين فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر فى إنشاء الوطن القومى اليهودى ومصالح السكان اليهود فى فلسطين . . . . ويعترف بأن الجمعية الصهيونية هى هذه الهيئة المنصوص عليها فيما تقدم . . .

أما المادة السادسة فتنص على أنه « على حكومة فلسطين ... أن تسهل هجرة اليهود إلى فلسطين فى أحوال مناسبة ، وتنشط ، بالاتفاق مع الهيئة اليهودية ، لضمان إستقرار اليهود فى الأراضى الزراعية ... الخ

أما نصيب العرب فى هذا الصك فلا يعدو أن يكون مجموعة من العبارات المائعة ، يستشف منها أن مصالح أصحاب الديانات الأخرى —

غير اليهودية — يكفل لهم أن يعيشوا على هامش الحياة اليهودية ، وأن تكفل لهم — فى هذا النطاق — حقوقهم الدينية والإنسانية .

وقد وافقت عصبة الامم على صك الانتداب فى ٢٢ يوليو سنة ١٩٢٢ ولكن الانتداب لم يوضع موضع التنفيذ إلا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣

ويعلق الأستاذ جورج أنطونيوس فى كتابه « يقظة العرب على موقف بريطانيا بين العرب واليهود فى هذه المرحلة فيقول :

« ليس من السهل معرفة الدوافع الكامنة وراء هذا الموقف ، وهل السر هو أن التزاماتها للصهيونيين كانت أقوى مما تسمح بالتصريح به ، أو أنها أكثر انقياداً لضغطهم ، أم انها تعتقد بأن الدولة اليهودية إذا قامت فى تلك الزاوية الهامة من العالم كانت حليفا أقوى لبريطانيا ، ويعتمد عليه أكثر من دولة عربية تقوم فى البقعة نفسها، أو انها تريد الاحتفاظ فى فلسطين بسطيرتها التامة ، العسكرية والاقتصادية ، اقصى مدة ممكنة . أن الدلائل التى يمكن الحصول عليها لا تلق الضوء الكافى على ما يمكن أن ينطوى عليه موقف الحكومة البريطانية من دوافع أعمق من هذه ، ولا يمكن تفسير هذا الموقف تفسيراً عقليا ، حتى ولا نفسيا ، والتفسير الوحيد هو تاريخى بمقارنة فلسطين بأرلنده ، حيث ثابرت الحكومة بعناد مماثل على اتباع سياسة بغيضة ، وقد أغمضت عينها — كما فعلت فى فلسطين — لكيلا تقرأ الكتابات الماثلة أمامها على الجدران ، حتى أضاعت أرلنده »

المرحلة الرابعة ـ الانتداب

كانت الجيوش البريطانية ، إلى ذلك التاريخ تحتل فلسطين وتديرها إدارة عسكرية فى نطاق « ادارة أراضى العدو المحتلة » . فلما صدر صك

الانتداب وأقرته عصبة الامم وأذنت بتنفيذه ، حلت الادارة المدنية محل الادارة العسكرية ، وبدأت تباشر عملها فى فلسطين فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ .

ومن أهم المشاكل التى واجهتها حكومة الانتداب مشكلتا الهجرة وانتقال ملكية الارض من العرب الى اليهود .

الهجرة

سبق لنا أن دللنا على أن هجرة اليهود إلى فلسطين كانت تجرى وفق خطة مرسومة منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وأن الحكومة التركية ، صاحبة الشأن الأول فى فلسطين وقتذاك ، لم تقدر للأمر أهميته ؛ أما عرب فلسطين ، من مسلمين ومسيحيين ، فلم يكونوا من اليقظة بحيث يتخذون للأمر أهميته . وقد ظلت الحال على هذا المنوال حوالى نصف قرن يصل فيها المهاجرون اليهود إلى أرض الميعاد ، فرادى أو فى جماعات صغيرة ، فيشقون طريقهم فى الحياة الزراعية ، أو فى الصناعات الصغرى ، على حساب العرب .

فلما صار لليهود خلال الحرب العالمية الكبرى قضية ، وصدر وعد بلفور ، تنبه العرب من غفلة طويلة ، تنبهوا إلى ما يراد بهم . ولكن صحوتهم جاءت بعد أن صارت هجرة اليهود إلى فلسطين سياسة رسمية لبريطانيا وحلفائها

وقد جزع العرب من هجرة اليهود إلى أرضهم لأسباب عدة ، منها ما هو اقتصادى وعمرانى ، ومنها ما هو سياسى .

أما الأسباب الاقتصادية والعمرانية ، فتتلخص فى أن العربى يؤمن -

فيما بينه وبين نفسه — بتفوق الأساليب اليهودية الحديثة على الأساليب العربية العتيقة ، وقد رأى بنفسه كيف أن المزارع التى تنتقل من أيدى العرب إلى أيدى اليهود بالبيع والشراء ، لا تلبث أن تصبح حدائق غناء ، يلحق بها فى الغالب مؤسسات صناعية تعيش على الإنتاج الزراعى للمنطقة ، فى حين أن العربى كان ولايزال ينتج فى المزرعة بنفس الأسلوب الذى زرع به آباؤه وأجداده وحصدوا . وقد كان تنازع البقاء يحتم على هؤلاء العرب أن يؤهلوا أنفسهم للكفاح ، ولكنهم بدلا من ذلك قد بهرتهم الأثمان الباهظة التى يدفعها اليهود ثمنا للأرض التى يشترونها من العرب ، فسارعوا إلى بيع أراضيهم ، ومصدر أرزاقهم ، وقد فرت القلة من البائعين بما قبضت من مال إلى الاقطار المجاورة وخاصة مصر ، فاشتغلوا فيها بالتجارة . أما الكثرة الغالبة من البائعين ، فقد بهرتهم أساليب المدنية التى وفد بها اليهود إلى فلسطين ، فانغمسوا فى عديد من الرذائل ، وأضاعوا — بين أيدى اليهود — ما قبضوا من مال يهودى. وبذلك إشترى اليهودى الأرض بصك سجلته له الحكومة ، ثم عاد فاسترد ماله المدفوع للعربى على طريقته .

يستثنى من هذه الحالة فريق من شباب فلسطين المتعلمين الأغنياء ، فأن هؤلاء قاوموا « فتنة » البيع ، واحتفظوا بتراث آبائهم وأجدادهم وساروا فى ركب التعمير ، فتضاعفت ثرواتهم .

وفى ظل الانتداب ، قررت للهجرة اليهودية سياسة رسمية ، يؤيدها ما ورد فى المادة السادسة من « أن واجب الادارة فى فلسطين أن تيسر هجرة اليهود اليها ، وأن تشجعهم ، بمعاونة الهيئة الصهيونية ، على الإقامة بالأراضى ، بما فى ذلك الأراضى البور ، والأراضى التى تملكها الحكومة

والمادة صريحة فى أهدافها ، على الرغم من الأضافة الدبلوماسية التى أضيفت إليها حيث تقول : « واشترطت الحكومة فى تيسير هجرة اليهود ألا يؤثر ذلك فى حقوق السكان الآخرين أو يضر بمركزهم ، وليت اليهود اقتصروا على ما تخولهم هذه المادة من حقوق بل أنهم لم يقتصروا على الأعداد التى اتفق عليها ، بل أغرقوا فلسطين بهجرات غير رسمية تفوق أعدادها القدر المتفق عليه فى كل عام .

والجدول الآتى يبين مدى الهجرة اليهودية، وتأثيرها فى توزيع السكان فى البلاد ، خلال عشرين سنة من سنة ١٩٢٢ إلى ١٩٤٢

عدد السكان بالآلاف

السنة	المسلمون	المسيحيون	اليهود
١٩٢٢	٥٨٩	٧١	٨٤
١٩٢٧	٦٨١	٧٨	١٥٠
١٩٣٢	٧٧١	٩١	١٨١
١٩٣٧	٨٨٣	١١١	٣٩٦
١٩٤٢	٩٩٥	١٢٧	٤٨٤

ومن هذا الجدول يستنتج أن الزيادة فى عدد السكان المسلمين والمسيحيين كانت منتظمة بمعدل ٣ر٣٧ فى المائة سنويا للمسلمين و٣ر٩٤ فى المائة للمسيحيين ، بينما نجد أن اليهود زادوا فى السنين الخمسة الاولى ٧٨ر٦ فى المائة وفى السنين الخمسة الثانية ٥ر١٥ فى المائة وفى السنين الخمسة الثالثة ١١٨ر٨ فى المائة وفى السنين الخمسة الرابعة ٢٢ر٢ فى المائة . وبذلك زاد عددهم خلال عشرين سنة ٥٧٦ فى المائة مقابل ١٦٩ للمسلمين و ١٨٠ للمسيحيين

وبينما كانت نسبة اليهود إلى مجموع السكان فى سنة ١٩٢٢ تبلغ ١١٫٢ فى المائة فقط ، بلغت هذه النسبة فى سنة ١٩٤٢ ، ٢٩٫٩ المائة .

هذا من حيث الكم فقط ، أما من حيث النوع ، فن الحقائق المؤلمة أن نقرر أن هذه الاقلية اليهودية ، التى لم تتجاوز فى سنة ١٩٤٢ ثلاثين فى المائة من عامة السكان ، تملك بين يديها ما لا يقل عن ثمانين فى المائة من المرافق الاقتصادية .

ويصور لنا الاستاذ محمد رفعت الموقف بين العرب واليهود فيقول :

« وكانت حركة الهجرة كلما ازدادت نشاطا إشتد حنق العرب ، ولاحت أمامهم صور المستقبل مخيفة مفزعة ، حين تطغى كثرة اليهود فتنزع أراضيهم من أيديهم ، وتتحكم فى مصائر البلاد بحكم الاكثرية . ولذلك لم يكن غريبا أن يقوم العرب بثوراتهم المتلاحقة ضد ذلك الطغيان المنظم المتواصل الذى لا يلين ولا يرحم ... »

« وليس صحيحاً ما يقال من أن انجلترا فشلت فى انتدابها ، فإن سياستها قد مكنت للبذرة الصهيونية أن تنبت وتنمو وتثبت جذورها فى أرض البلاد ، وهى التى جعلت اللغة العبرية مع اللغتين العربية والأنجليزية لغة رسمية ، وهى التى تركت لهم طريقة إستغلال العرب واستخلاص أراضيهم منهم .

« بذلك اتسعت أعمال اليهود ، ونمت مصالحهم فى فلسطين ، ووجدوا تحت أجنحة الوكالة اليهودية الحماية والعطف وأسباب المعاونة ، وأصبح لليهود فى فلسطين من الجاه والنفوذ مثل ما كان لحكومة الانتداب فى معظم الاحيان .....

ومن سوء طالع العرب فى ذلك الوقت أنهم كانوا يعملون فرادى ، فلم تكن لهم هيئات داخلية منظمة تسهر على مصالحهم ، ولا حكومات عربيـــة مستقلة ترعى شئونهم وتسند ظهورهم ، فكانوا مقطوعين عن إخوانهم العرب فى البلاد الأخرى .

هذه لمحة سريعة استعرضنا فيها أسباب الجزع الذى استولى على عرب فلسطين من الناحيتين الاقتصادية والعمرانية .

أما أسباب جزعهم من الناحية السياسية فتتلخص فى أن صك الانتداب لم يكن إلا مقدمة لإقامة حكومة ديموقراطية محلية فى فلسطين وكان فتح الباب على مصراعيه للهجرة بنوعيها : الرسمية وغير الرسمية ، مؤذناً بتزايد عدد اليهود بالبلاد ، فإذا ما جاء اليوم الذى تجرى فيه الانتخابات لتأليف حكومة محلية ، فلن تكون للعرب الغلبة العددية التى تمكنهم من إقامة حكومة عربية . وقد تحققت مخاوف العرب من هذه الناحية : فبعد أن كان اليهود فى سنة ١٩٢٢ لا يمثلون إلا ١١,٢ فى المائة من عامة السكان ، صاروا فى سنة ١٩٤٢ يمثلون ٢٩,٩ فى المائة كما ذكرنا ولو ترك الأمر للسياسة الصهيونية — وقد كان متروكا — فلابد من يوم يصبح فيه لليهود أكثرية عددية فى البلاد تمكنهم من الاستقلال بتقلد زمام الحكم ، ومن ثم التحكم فى مصائر أهل البلاد الأصليين .

يضاف إلى ذلك أن اضطهاد اليهود فى أوربا الوسطى فيما بين الحربين العالميتين قد دفع إلى فلسطين بعدد لا يستهان به من يهود تلك البلاد وازدادت نسبة الهجرة عما كتب لها . ومما لاشك فيه أن هذا الرعيل من يهود ألمانيا الذين اقتضت سياسة النازى فى ألمانيا إبعادهم عن البلاد كانوا من صنف ممتاز فى السياسة والاقتصاد ، وقد خشى العرب أن يصبح

هؤلاء نواة للحكومة اليهودية التى تسيطر فى يوم من الأيام على مقاليد الأمور .

وثمت عامل ثالث فى السياسة ، ولكنه دولى ، ذلك أن اليهود فى أنحاء العالم كانوا منقسمين على أنفسهم فى أول الأمر تجاه قصة الوطن القومى فى فلسطين ، إذ أن فريقاً من مفكريهم كان يخشى أن يتعرض اليهود المتجنسون بجنسيات البلاد التى يعيشون فيها لأن تفرض عليهم الجنسية اليهودية الجديدة ، فيصبحوا أجانب فى تلك البلاد ، ويعاملون معاملة الأجانب ، وبذلك يتعرض اليهود فى أنحاء العالم إلى محن اقتصادية وسياسية هم فى غنى عنها .

فلما نجحت سياسة الوطن القومى بعد سنوات معدودة من الانتداب آمن اليهود المتشائمون بأن تشاؤمهم لم يكن فى محله ، وانخرطوا فى سلك أصحاب الفكرة ، بعد أن كانوا لهم معارضين ، وانسجم الفريقان فى المؤتمرات الصهيونية العالمية . ومنذ ذلك الحين (حوالى سنة ١٩٢٩) استمدت الحركة الصهيونية العون والمال من كافة أنحاء العالم ، وبخاصة من أمريكا وأنشئت الوكالات الصهيونية ، وقد أدى بعضها الأعمال الدبلوماسية التى تقوم بها السفارات والمفوضيات ، وأصبحت لهم قوة ونفوذ فى أنحاء العالم لا يفترق عن قوى الدول والحكومات المستقلة ونفوذها .

انتقال ملكية الأرض

عندما تخلت الإدارة العسكرية لحكومة الانتداب عن فلسطين ، كانت مساحة الأرض تبلغ ١٠٫٤٠٠ ميل مربع أو ٢٧ مليون دونم . أما الجزء الصالح للزراعة منها فيقدره السير هوب سمسون فى الكتاب الأزرق الذى

صدر فى سنة ١٩٣٠ بمقدار ٦،٥٤٤،٠٠٠ دونم . وتقرر السيدة سيتون وليز فى كتابها « بريطانيا والدول العربية » أنه ظهر أخيراً أن هذا التقدير أقل كثيراً من الواقع ، فإن مندوب اللجنة المختص بالأراضى قد أعطى قبل ذلك تقديراً لها يزيد بنحو ٤٠ فى المائة على إحصاء اللجنة .

ويقدر الخبراء أن اليهود كانوا يمتلكون فى أكتوبر سنة ١٩٢٠ من أرض فلسطين ٦٥٠،٠٠٠ دونم ، فضلا عن أن هذا الرقم لا يشمل الأراضى التى رهنت لليهود أو التى امتلكوها دون أن يسجلوها ، وفى خلال الفترة ما بين سنة ١٩٢٠ ، ١٩٤٥ كان اليهود قد اشتروا وسجلوا أراضى تزيد مساحتها على ٩٣٨،٠٠٠ .

وقد أشار الكتاب الأبيض الذى نشرته الحكومة البريطانية مع تقرير سمسون إلى أن الهيئات الوحيدة التى ثابرت على سياسة تحسين الأرض هى منظمات الاستعمار اليهودية ، سواء ما كان منها عاماً أو خاصاً .

وفى أغسطس سنة ١٩٢٩ أصدرت الوكالة اليهودية دستوراً للعمل نص فيه على أن الأرض التى يحصل عليها اليهود ، ينبغى الاحتفاظ بها على اعتبار أنها ملك للشعب اليهودى لا يباع ولا ينقل ، وأنه ، فى كل الأعمال والمشروعات التى تقوم بها أو تؤيدها الوكالة اليهودية ، ينبغى أن يكون تشغيل العمال اليهود مبدأ أسمى » .

وقد أسفرت عمليات شراء الأرض من العرب عن وجود طبقة من العرب المعدمين الذين باعوا أرضهم ولم تبق لهم وسيلة أخرى يتعيشون منها .

وقد استبسل اليهود فى عمليات الشراء مخلفين وراءهم عدداً لا يستهان به من العرب المعدمين المتعطلين ، حتى رأت حكومة الانتداب ، التى مكنت لليهود من هذه السياسة ، أنها تواجه مشكلة اجتماعية يتفاقم خطرها يوما

فيوما . وبذلك اصدرت فى سنة ١٩٤٠ قانونا قسمت به البلاد إلى مناطق ففى المنطقة (ا) وتبلغ مساحتها ٦٦١٥ر٦ ميلا مربعا فى المنطقة الجبلية وجنوب فلسطين ، حرم بيع الأراضى لليهود . وفى المنطقة (ب) وتشمل نحو ٢٩٥ر٣ ميلا مربعا حول بحيرة الحوله والجليل والنقب واجزاء من السهل الساحلى ، قيدت صفقات البيع ، واشترط ان توافق عليها حكومة فلسطين ، وفى المنطقة (ج) حول القدس ، وتشمل حوالى ٣٠٠ ميل مربع ، لم تقيد صفقات البيع .

وقد كان لكل من العرب واليهود وقفة تجاه هذه القوانين .

أما العرب ، فقد وافق المجلس الإسلامى الأعلى ، المتكلم بلسانهم ، على هذه القوانين واعتبرها حماية للعرب ، ولكن زعماء فلسطين العرب لم يرضوا بها إذ كانوا يطالبون بمنع البيع فى كل المناطق . ولما لم يكن من المستطاع فرض هذه الرغبة على حكومة الانتداب ، فقد فكروا فى إنشاء مال خاص لشراء الأراضى من العرب المعوزين ، وإنشاء بنك وطنى عربى للأراضى لمساعدة الملاك المعدمين . إلا أن هذه التدابير التى فكر زعماء العرب الفلسطينيون وغيرهم فى اتخاذها لم تكن - فى نظرنا - من السلامة بمكان . ولم يقدر هؤلاء الزعماء الفارق الكبير بين ما يعرضه المشترى العربى ، سواء أكان بنكا أم فرداً ، وبين المبلغ الذى يعرضه اليهودى . لم يقدروا ذلك من الناحية العملية ، وظنوا أن الوطنية وحدها كفيلة بأن يفضل البائع العربى أن يبيع أرضه لعربى بمبلغ متواضع بدلا من أن يبيعها ليهودى أو مؤسسة يهودية بمبلغ يسيل له لعاب هذا القروى الساذج .

أما اليهود ، فقد رأوا فى تصرف الحكومة ما لا يتمشى وسياسة

الوفاق والانسجام التى كانت تجرى عليها الأمور قبل ذلك . فاحتجت الهيئات الصهيونية فى بريطانيا والولايات المتحدة على صدور هذا القانون، ولكن اليهود قوم عمليون ، إذ استطاعوا أن يستفيدوا من هذا القانون بالتوسع فى سياسة الشراء فى المناطق التى أبيحت لهم ، ثم عمدوا إلى سياسة الرهن الحيازى فى المناطق التى حرمت عليهم ، وبذلك كاد مفعول القانون أن ينعدم .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن السياسة الصهيونية أصبحت منذ ذلك الحين لا تأمن لحكومة الانتداب بعد أن دب سوء التفاهم بين الفريقين ، وتطرفت بعض المنظمات اليهودية فى رأيها فى حكومة الانتداب ، مما كان سببا فى حدوث بعض القلاقل بين هذه المنظمات والحكومة .

فلسطين فى ظل الانتداب

المرحلة الأولى

من سنة ١٩٢٣ إلى قيام الحرب العالمية الثانية

وضع صك الانتداب موضع التنفيذ ، فاستهلت الحكومة البريطانية عملها بأن عينت السير هربرت صموئيل ، أحد الوزراء الانجليز ، مندوبا ساميا لها فى فلسطين ، وهو وزير يهودى . لا يمكن أن يقف وقفة المحايد بين العرب واليهود فى أرض يتنازعها الفريقان، وفضلا عن ذلك ، فإن صك الانتداب قد نص على الاعتراف بالوكالة اليهودية ، وأوصى بضرورة التعاون بينها وبين الحكومة، فضلا عن أنه كفل مصالح اليهود ، واهدر حقوق العرب إلا من الناحية الشكلية .

بهذا الوحى كان هربرت صموئيل يحكم فلسطين . وقد استهل نشاطه بتأليف مجلس إستشارى جعل نصف اعضائه من البريطانيين ، اما النصف

الثـــانى ، وعدده عشرة ، فقد جعل للمسلمين أربعة مقاعد وللمسيحيين ثلاثة ، ولليهود ثلاثة ، مع أن تعداد البلاد وقتذاك قد أسفر عن ٨٩٪ للعرب منهــا ٧٩ للمسلمين و ١٠ للمسيحيين و ١١ ٪ لليهود . ولو عدل المندوب السامى فى التوزيع لجعل للعرب ٩ مقاعد منها ٨ للمسلمين والمسيحيين وجعل لليهود مقعداً واحداً . وقد كان من نتائج ذلك أن العرب لم يلبثوا أن تسللوا من المجلس الاستشارى حتى لم يبق فيه واحد منهم .

واقترح صمويل على العرب انشـــاء هيئة تمثلهم على غرار الوكالة الصهيونيـة ، فرفض العرب اقتراحه إذ كبر عليهم ، وهم أصحاب البلاد الحقيقيون ، أن يعاملوا على قدم المساواة مع اليهود اللاجئين إلى بلادهم

ويحدثنا الأستاذ محمد رفعت عن مجريات الأمور فى فلسطين فيقول :

وقف عرب فلسطين حيارى مأخوذين ، مشدوهين عما يجرى على مرأى ومسمع منهم ، فقد رأوا كيف هاجم الفرنسيون الملك فيصل وطاردوه هو وأتباعه حتى أجلوه عن سورية ، ولم يرعوا فى ذلك ذمة ولا عهداً مما سبق أن عاهدوا عليه العرب منذ كان فيصل يقود جموعهم لنصرة قضية الحلفاء فى الشرق ، ورأوا الانجليز يدخلون العراق ويحكمونه حكماً عسكرياً ، ورأوا مصر تثور وتكافح فى ســبيل استقلالها ، والانجليز لا يزالون مسيطرين فيها ، وأدهى من ذلك وأمر أن العرب لم يكن من ورائهم حكومات تسندهم وتشد أزرهم اللهم إلا حكومة الحجاز وكانت فى غمرة من حروبها ومنازعاتها الداخلية بين الأسرتين المتزعمتين فى شبه الجزيرة : الأسرة الهاشمية والأسرة السعودية . لذلك كله أســقط فى يد العرب الفلسطينيين ، ولم يسعهم إلا أن يتربصوا بعدوهم الدوائر ، مترقبين أن تحين الفرصة للانتقام من الذين خانوا مواثيقهم ، وأذلوهم فى ديارهم .

ووجاءت الفرص على فترات متعاقبة . فكلما قامت ثورة أو حركة وطنية فى احدى البلاد العربية ، تشجع العرب فى فلسطين ، وقاموا يناوءون الاستعمار الصهيونى الذى أوشك أن يقضى على كثرتهم ، ويستحوذ على أملاكهم وديارهم ، فثاروا عندما نشبت ثورة العراق ضد الانجليز فى سنة ١٩٢٠، وحين شبت الثورة فى سورية ضد الفرنسيين سنة ١٩٢٥ ، واستمد العرب من المعاهدة الانجليزية العراقية فى سنة ١٩٣١ التى ضمنت للعراق استقلاله وقبوله فى عصبة الأمم على قدم المساواة مع سائر الدول المستقلة روحا جديدة للكفاح والنضال .

ولكن هذه الجهود جميعها ذهبت هباءاً ، واستطاعت حكومة الانتداب ، بما لها من بأس وقوة ، أن تقمع الثورات العربية وتؤيد نظام الانتداب ، وبدلا من أن تضعف الروح الصهيونية وتقف عند حد فى مطامعها ، اجتاحت البلاد ، على أثر ظهور الثورة النازية فى ألمانيا وسط أوربا ، عواصف جديدة ، إذ نزحت إلى فلسطين آلاف مؤلفة من اليهود اللذين إضطهدهم النازيون وأخرجوهم من ديارهم، فجاءوا بأسرهم إلى أرض المعاد ، حاملين معهم ثرواتهم وكفاياتهم ، فدخل بعضهم عن طريق الهجرة المشروعة ، وانسل كثيرون الى داخل البلاد خلسة وفى غفلة من القانون ، أو تغافل من القائمين على تنفيذه ..

وفى سنة ١٩٣٥ — ٣٦ أكفهر الجو الدولى العام على أثر هجوم إيطاليا على الحبشة . فأدركت بريطانيا أنها بحاجة إلى تسوية موقفهما مع مصر بعقد معاهدة تطمئن بها على مركزها فى قناة السويس ، فكانت معاهدة سنة ١٩٣٦ ، فايقظت هذه التسوية عرب فلسطين مرة جديدة فقاموا قومة رجل واحد يكافحون الاستعمار البريطانى .

وثمت أسباب مباشرة لقيام ثورة سنة ١٩٣٦ فى فلسطين :

سبق القول أن جهود العرب الفلسطينيين كانت فى بداية أمرها جهوداً فردية، وقد انتجت التكتلات الفردية قيام الاحزاب السياسية على مدى الأيام، ففى سنة ١٩٣٢ تأسس حزب الاستقلال ، وفى ديسمبر سنة ١٩٣٤ تأسس حزب الدفاع الوطنى ، وفى مايو سنة ١٩٣٥ تأسس حزب فلسطين العربية وفى أغسطس سنة ١٩٣٥ تأسس حزبان جديدان هما حزب الأصلاح العربى ، والكتلة الوطنية . وقد كان تأليف هذه الكثرة من الأحزاب السياسية فى بلد لا يزيد عدد سكانه من العرب على مليون واحد مبعثاً للقلق على مصير فلسطين بين تناحر الأحزاب السياسية ، وإن اتحدت أو تقاربت كلها فى أهدافها . إلا أن المعجزة حدثت فى أخريات سنة ١٩٣٥ حيث التأم العقد بين زعماء هذه الأحزاب ، وتقدموا جملة إلى المندوب السامى فى نوفمبر بمذكرة يطالبون فيها بأمور ثلاثة : (١) إقامة حكومة ديمقراطية (٢) تحريم انتقال أراضى العرب الى اليهود (٣) وقف الهجرة فى الحال .

وفى آخر يناير سنة ١٩٣٦ أجابت وزارة المستعمرات البريطانية على هذه المطالب بأنها (١) قد خطت خطوة فعلية فى سبيل قيام الحكومة الدستورية الديمقراطية (٢) وتعتزم سن تشريع يحرم الملاك العرب من حق التصرف فى أراضيهم إلا إذا إحتفظوا بجزء منها (٣) وستقيد نسبة المهاجرين من اليهود بعناية طبقا لمقدرة البلاد على استيعاب المهاجرين .

أدرك العرب أن الحكومة البريطانية تتلاعب كعادتها بالألفاظ، وأنها لم تستجب لشىء من مطالب العرب استجابة يطمئنون اليها ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تسويف

ولما كان عامة العرب فى فلسطين قد تيقظ وعيهم بسبب

ماشهدوه بأعينهم من فرض السياسة الصهيونية على البلاد، فقد كانت أجابة الحكومة البريطانية مبعثاً للقلق العام الذى لم يلبث أن تبلور فعمت البلاد الاضطربات فأعلن الأضراب العام فى ٢١ أبريل سنة ١٩٣٦

وفى ٢٥ أبريل أنشئت اللجنة العربية العليا برياسة مفتى القدس الحاج أمين الحسينى ، وكانت تضم الأحزاب السياسية جميعاً كما تضم ممثلين للعرب المسيحيين . وقد رفضت اللجنة العليا أنهاء الأضراب حتى توقف هجرة اليهود ، فلجأت الحكومة البريطانية الى أسلوبها التقليدى فأعلنت أنها ستعين لجنة ملكية لتحرى أسباب القلق والشكوى التى يبديها العرب واليهود على السواء ، ولكنها تشترط أن يعود النظام الى نصابه قبل أن تؤلف اللجنة

على أن اللجنة العربية العليا لم تستجب لهذا النداء ، وظل الأضراب والقلاقل يسودان البلاد . غير أنه حدث فى اكتوبر أن أدركت اللجنة أن طول مدة الأضراب قد أضر بكثير من المصالح الحيوية للعرب ، سيما وأن موسم الموالح - وهو قوام الاقتصاد العربى فى فلسطين - اذ أصبح مهدداً بالبوار ومنذراً بكارثة كبرى على صغار المزارعين. لذلك استجابت اللجنة للنداء الذى وصل إليها من حكام العراق والمملكة العربية السعودية وشرق الأردن

وصلت لجنة التحقيق - المعروفة بلجنة بيل فى نوفمبر ، وعادت الى انجلترا بعد استقصاء استغرق حوالى شهرين ونصف ، ثم صاغت تقريرها فنشر فى يوليو سنة ١٩٣٧ . وقد جاء فى التقرير أن الأسباب التى أدت الى الاضطرابات هى نفس الأسباب التى أدت الى اضطرابات ١٩٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ وهى رغبة العرب فى الاستقلال وتخوفهم من قيام الوطن القومى اليهود ، والقلق من مصير الانتداب ، وعدم تكافؤ الفرص التى يتمتع بها العرب بأزاء اليهود فى عرض قضيتهم أمام الحكومة البريطانية .

وعرض التقرير حلا : هو أنهاء الانتداب بعد تقسيم فلسطين الى ثلاث مناطق : دولة عربية ، ودولة يهودية ، وشقة محايدة تشمل البقاع المقدسة تستمر الدولة صاحبة الإنتداب فى إدارتها ، وسرعان ما أقرت الحكومة البريطانية تقرير اللجنة ، وشفعت قرارها بمذكرة خيل للحكومة أنها ترضى العرب واليهود على السواء

ولكن الأمور جرت على غير ماترى الحكومة البريطانية ، فأن كلا من الفريقين قد أعلن عدم موافقته على ماتريده الحكومة .

أما اليهود فقد عقدوا المؤتمر الصهيونى فى أغسطس سنة ١٩٣٨ بمدينة زيوريخ ، وأعلن المؤتمر رفضه لقرار الحكومة بعد أن سجل أن الانتداب البريطانى لفلسطين أصبح غير عملى ، وأوصى بفتح باب المفاوضات مع الحكومة البريطانية بقصد التأكد من الشروط التى يتضمنها اقتراح انشاء الدولة اليهودية .

أما العرب فقد عقدوا مؤتمراً وطنياً عربياً فى سبتمبر سنة ١٩٣٧ بمدينة بلودان بسورية ، وأعلن المؤتمر رفضه لقرار الحكومة ، وأصدر قرار بأن الشعب العربى لن يكف عن النضال فى سبيل فلسطين العربية المستقلة .

وفى اكتوبر أغتيل الوكيل المفوض القائم بالعمل فى منطقة الجليل ، ولما كانت هذه المنطقة عربية خالصة تقريباً ، فقد رمى العرب بتهمة اغتياله ، واتهمت اللجنة العربية العليا واللجنة الوطنية بأنهما هما اللتان دبرتا هذا الاغتيال ، فأعلن المندوب السامى عدم شرعية هاتين الهيئتين ، وقبض على زعماء الأحزاب السياسية ، ونفاهم الى جزيرة

سيشل . وقد فر الحاج أمين الحسينى الى لبنان . وبدأت فلسطين العربية تواجه موجة من الاضطهاد البريطانى والحظر على الحريات العامة ، وقد قابل العرب ذلك بتنظيم تشكيلات عدة لمقاومة البريطانيين والثورة عليهم ، ومن أهم هذه التشكيلات فرقة بقيادة الثائر العربى الخطير فوزى القاوقجى

ولما كان الجو السياسى العالمى فى ذلك الوقت مليئا بالاحتمالات ، وكانت بريطانيا تعرف أنها قادمة على حرب عالمية ثانية يشنها عليها النازيون والفاشيون ، ولما كانت تعلم كذلك أنه لا قبل لها بأن تشترك فى حروب متعددة فى جبهات متعددة ، وتعلم كذلك أن محور روما — برلين لم يدخر وسعا فى تسوىء سمعتها فى الشرق الأوسط بالدعايات التى تتداولها الصحافة ويذيعها الراديو ، لكل هذه الاعتبارات رأت بريطانيا أن من مصلحتها أن تتراجع - فى انتظام - أمام الموقف الجديد فى فلسطين .

ففى أبريل سنة ١٩٣٨ أرسلت لجنة جديدة الى فلسطين تعرف بلجنة وودهيد كانت مهمتها الرسمية أن تضع بقدر الأمكان خطة التقسيم ، وخطتها الفعلية أن تعمل على استرضاء العرب واليهود على السواء ، على أن تعمل على تسويف الفصل فى هذا النزاع ريثما تنقشع الغمة العالمية .

وصلت اللجنة إلى فلسطين فمثل أمامها مندوبو اليهود ، وقاطعها العرب ، وبعد بحوث طويلة كان لها طابع الجدية والفنية ، صاغت اللجنة تقريرها فاذا به يدلل على استحالة التقسيم ، ويرمى قرارات لجنة بيل بأنها غير عملية فى كافة نواحيها .

وافقت الحكومة البريطانية على التقرير ، ثم دعت إلى عقد مؤتمر فى لندن يدعى إليه ممثلون لكل من الفريقين العرب واليهود ، ويدعى إليه كذلك ممثلون للبلاد العربية المجاورة ، وأبقاء على هيبتها ، احتفظت

الحكومة لنفسها بالحق فى أن ترفض كل من تعتبره مسئولا عن أعمال العنف فى فلسطين . وبذلك أصبح من غير الممكن أن يحضر الحاج أمين الحسينى هذا المؤتمر ، كما أنه لم يبق لعرب فلسطين إلا عدد قليل ممن يستطيعون أيفاده إلى المؤتمر بعد أن أعتقل زعماؤهم ونفوا إلى جزيرة سيشل . على أن الحكومة البريطانية خطت خطوة إيجابية لتذليل هذه الصعوبة ، فأطلقت سراح الزعماء العرب فى سيشل ، ولو أنها اشترطت عدم عودتهم الى فلسطين .

انعقد المؤتمر فى لندن فى ٧ فبراير سنة ١٩٣٩ وحضره زعماء العرب الفلسطينيون ، وإلى جانبهم وفود مصر والعراق والمملكة العربية السعودية واليمن وشرق الأردن . أما اليهود فأن وفدهم لم يقتصر كذلك على تمثيل اليهود فى فلسطين ، بل جاوز ذلك الى قبول مندوبين من بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وشرق أوربا .

وسرعان ما أحس العرب بأن وجودهم فى هذا المؤتمر مع اليهود على مائدة واحدة يعتبر خطوة فى سبيل التفاهم بين الفريقين ، وأن الأعضاء اليهود وهم من جهابذة الفكر والدهاء برياسة زعيمهم الدكتور وايزمان ، قد تكون لهم الغلبة من حيث النوع ، وخاصة إذا ظاهرتهم الحكومة البريطانية وهذا أمر مقطوع به . لكل ذلك رفض عرب فلسطين أن يجلسوا الى نفس المائدة التى جلس إليها المندوبون اليهود ، فكان ذلك إيذانا بفشل المؤتمر

فلما أحست الحكومة البريطانية بتنافر النزعات ، تقدمت الى المؤتمرين بمقترحات لم يلبث الفريقان أن أعلنا رفضها ، وأنفض المؤتمر فى ٢٧ مارس سنة ١٩٣٩ ، وكأنه لم ينعقد .

وفى ١٧ مايو أصدرت الحكومة كتابا أبيض يشمل مقترحاتها لحل القضية ويستهدف انشاء دولة مستقلة فى فلسطين خلال عشرة أعوام ، ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة صداقة تكفل لكل من الدولتين : بريطانيا وفلسطين . مصالحها التجارية والاستراتيجية فى المستقبل . ومما جاء فى هذا الكتاب أن انشاء دولة مستقلة والتخلى عن الانتداب يستلزمان قيام علاقات بين العرب واليهود تمكن من ايجاد حكومة صالحة .

وواضح أن مثل هذا الحل لا يرضى العرب ولا اليهود

أما سخط العرب عليه ، فقد أنبنى على أن هذا الحل يتضمن شركة أبدية بينهم وبين اليهود ، ويعترف لليهود بحقوق أبدية على حساب العرب

أما اليهود ، فقد رأوا أن آمالهم فى انشاء دولة مستقلة قد انهارت وأن الهجرة اليهودية فى سبيل التحديد ، وأن الرقابة على الهجرة ستؤول إلى أيدى الحكومة الجديدة وللعرب فيها ضلع يكفل وقف تيار الهجرة الجارف. لذلك عقدت المؤتمرات اليهودية المتوالية ، وانتهت إلى اصدار تصريح يعلن فيه اليهود أمام العالم أن هذه السياسة الخائنة لن تحتمل ، أن الشعب اليهودى سيكافحها بكل ما أوتى من قوة ، وان يدخر أية تضحية للقضاء عليها . وقد قام اليهود بتنفيذ تهديداتهم ، فرفضوا التعاون مع الحكومة ، واستبسلوا فى الهجرة غير الشرعية ، فأدخلوا إلى فلسطين فى عام واحد ٣٥ ألف يهودى بدلا من ١٠ الآف المسموح بهم رسميا .

وركن اليهود إلى نفوذهم العالمى يقاومون به سياسة الكتاب الابيض فلما اجتمعت اللجنة الدائمة للانتدابات — وهى احدى مؤسسات عصبة الأمم - نيط بها مراجعة تصرفات الدول المنتدبة تقرر - بنسبة أربعة أعضاء الى ثلاثة - أن هذه المقترحات تبدو غير متمشية مع نص الانتداب

وقبل أن يتخذ العرب أو اليهود موقفا إيجابيـــا بذاته تجاه الدولة المنتدبة ، إندلع لهيب الحرب العالمية الثانية

المرحلة الثانية

فلسطين والحرب العالمية الثانية

استهل اليهود علاقاتهم ببريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية بخطاب بعث به الدكتور وايزمان إلى رئيس الوزراء فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٣٩ جاء فيه : « أود أن أؤكد بوضوح التصريح الذى أدليت به وزملائى خلال الشهور الأخيرة ، بخاصة الأسبوع الماضى ، وهو أن اليهود يقفون إلى جانب بريطانيا العظمى ، وأنهم سيحاربون إلى جانب الديمقراطيات .. وقد كانت الوكالة اليهودية إلى عهد قريب فى خلاف مامع الدولة المنتدبة ، ونحن نود أن تزول هذه الخلافات أمام الضرورات الكبرى شديدة الالحاح فى وقتنا الحاضر » . وبذلك أكد اليهود من جديد صداقتهم ببريطانيا مغفلين وقفتهـا الأخيرة منهم . ومما لا شك فيه أن دافعا غير الدوافع الفلسطينية البحتة هو الذى الذى أملى هذا المسلك ، فقد كان اليهود موضع اضطهاد النازية والفاشية فى كل مكان ، ولم يكن لليهود بد من الارتماء فى أحضان الديمقراطية التى تحاربهما . وأيا كانت الظروف فقد استقبلت بريطانيا ـ فى علاقاتها باليهود عامة وبالصهيونيين فى فلسطين خاصة ـ عهداً جديداً .

أما العرب فإنهم لم يتقدموا بخطوة مماثلة . ولعل السبب فى ذلك مدى أيمان العرب بما تكنه لهم بريطانيا من مصير ، ومابدا لهم منها من عداوة ، يضاف الى ذلك أن العالم العربى ، منذ سنة ١٩٣٦ ، كان مستهدفا لدعاية خلابة تذيعها دول المحور كما ذكرنا . وقد كان العرب يتمنون فى قرارة أنفسهم أن تدور دائرة الحرب على بريطانيا ، ففى ذلك السبيل الوحيد لخلاص العرب من أخطبوط السياسة البريطانية .

فتحت بريطانيا باب التطوع أمام الفلسطينيين من عرب ويهود ، فتطوع من اليهود ٢٦ ألفاً كانوا يعملون فى مختلف الوحدات ، ووضع أصحاب المصانع اليهودية مصانعهم تحت إمرة الجيش . أما العرب فقد تطوع منهم ١٢ ألفا .

ويعلق الأستاذ محمد رفعت على الموقف فيقول :

« وليس لانجلترا أن تقارن بين نصيب العرب ونصيب اليهود فى الحرب العالمية الثانية، فحسب العرب أنهم أخلدوا إلى السكون وعاونوا فى الحرب ضد قوات حكومة فيشى فى سورية ولبنان ، وساعدوا على إحباط مساعى المحور فلم يخفوا لمعاونة الثوار فى العراق وإحراج مركز الحلفاء فى الشرق الأوسط .

ومن أهم المعضلات التى لعبت دورا خطيرا فى مصائر فلسطين مسألة الهجرة الصهيونية اليها خلال الحرب . فقد تدفقت سيول المهاجرين اليهود من أوربا كأثر لاضطهاد النازى لهم فى بداية الحرب ، ولم تستطع الهجرة الشرعية أن تستوعب كافة المهاجرين ، فلجأت المنظمات اليهودية إلى تدبير الوسائل للهجرة الجماعية غير الشرعية ، يساعدها فى فلسطين سكان القرى المجاورة للحدود من اليهود . ومما يؤسف له أن كثيراً من العرب قد ساهموا بقسط فى تسهيل نفوذ المهاجرين اليهود إلى فلسطين ، أغراهم بذلك على الأقل الذهب اليهودى الذى كان يعود على العربى من إيواء المهاجرين وإرشادهم .

ورغبة فى استرضاء العرب ، وصيانة للقانون ، حاولت الحكومة المنتدبة إيقاف سيل الهجرة غير الشرعية . وحدثت فى ذلك حوادث كان أهمها حادث الباخرة باتريا ، التى وصلت إلى ميناء حيفا وعليها حوالى

٢٠٠٠ مهاجر ، فلما قررت السلطات المحلية عدم إنزالهم وأمرت الباخرة بالإبحار بهم إلى جزيرة « موراتيس » ، نسفت الباخرة وهى لا تزال فى الميناء ، فواجهت الحكومة الأمر الواقع بأن أنزلت إلى البر من نجا من حادث النسف ، وكان عددهم لا يقل عن ١٥٠٠

وحدث فى فبراير سنة ١٩٤٣ حادث الباخرة « ستروما » ، وكانت محملة فوق طاقتها بالمهاجرين ، وأصيبت بعطب قرب الساحل التركى ، فرفضت الحكومة التركية إيواء السفينة ، فلما خرجت إلى عرض البحر غرقت بركابها ، فلما ترامت أنباء ذلك إلى اليهود فى فلسطين ، ثارت ثائرتهم ، واعتبروا الحكومة البريطانية مسئولة عن الكارثة ، فنشطت العصابات اليهودية فى العمل ضد البريطانيين ، على الرغم من أن الوكالة اليهودية كانت ضالعة — من الناحية الشكلية — مع الحكومة البريطانية .

وللعصابات اليهودية فى فلسطين قصة يلخصها لنا الأستاذ محمد رفعت فيقول :

« قد كانت لليهود قبل الحرب قوات مدربة للقتال ، أو لحفظ الأمن فى فلسطين ، فلما أعلنت الحرب انضمت هذه القوات إلى صفوف الحلفاء ويا ليتهم ما انضموا ، فقد اتخذوا من انضمامهم ستاراً أخفوا وراءه نيات إجرامية مبيتة ، واهتبلوها فرصة للتمرن على استعمال الأسلحة المختلفة ، وادخروا من السلاح والذخيرة الحربية كميات هائلة ظهر أثرها فى أعقاب الحرب ؛ حتى الأغذية وغيرها من أنواع المساعدات التى كانت تقدمها لجنة الترفيه الدولية العالمية كانت تستغل وتستخدم لفائدة اليهود ، وخاصة لفائدة العناصر التى رأوا أن تنقل سراً من أوربا إلى فلسطين بعد الحرب للانخراط فى سلك الحركة الإرهابية اليهودية التى بدأت فى أعقاب الحرب .

« وقد أصبح لليهود بعد الحرب جيش سرى مدرب يعرف باسم « الهاجانا » ومعناها الدفاع . وقد استطاعوا أن يسلحوا أنفسهم بما أتاح لهم اشتراكهم فى الحرب أن يحصلوا عليه من أنواع الأسلحة ، وبما صنعه الإرهابيون فى مصانع سرية خاصة . أو جمعوه خلسة فى الداخل والخارج ، ولهم فى مختلف المستعمرات الزراعية التى أنشأوها فى فلسطين مخابئ ومخازن زودوها بمختلف الأسلحة والذخيرة استعداداً للكفاح فى الوقت المناسب . وكانت الحكومة قد سمحت لتلك المستعمرات — فى أثناء الثورة العربية — أن يتخذوا قوات بوليسية ، فسهل على اليهود تحويل تلك القوات البوليسية إلى وحدات حربية .

« وظهرت شعبة إرهابية لم تعجبها سياسة « الهاجانا المنظمة » فنشأت جماعات أكثر جرأة وأشد عنفا وفتكا مثل جماعة « اشترن » وهو اسم الطالب الشاب الذى تزعم الشعبة ، وقتل فى أثناء مقاومته البوليس فى بعض الحوادث . ومن أعضاء هذه الشعبة الشابان اليهوديان اللذان اغتالا فى القاهرة « لورد موين » الوزير الانجليزى فى الشرق الأوسط وتابعه فى ينايرسنة ١٩٤٥ . ومنهم من حاول قتل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين ...

وتقول السيدة سيتون وليامز : وفى خلال عامى ١٩٤٥ — ١٩٤٦ ازدادت هجمات الإرهابيين اليهود اتساعا : نسفت الكبارى ، ودمرت السكك الحديدية ، وبثت الألغام فى مراكز البوليس والبنوك ومحطات السكك الحديدية ، وهوجمت معسكرات الاعتقال ، وأطلق سراح المهاجرين اليهود غير القانونيين ، ووصلت هذه الحملة الإرهابية ذروتها فى يونيه حين دمرت الجسور على نهر الأردن ، ونسف فندق الملك داود فى القدس

وكانت تشغله سكرتارية حكومة فلسطين ، ونشطت السلطات البريطانية فى الحال للعمل لإقرار النظام والقانون فى البلاد . وفى ٢٩ يونيه احتلت الوكالة اليهودية وقبضت على الزعماء اليهود الموجودين فى فلسطين .

وقد أدلى المستر أتلى فى مجلس العموم البريطانى ببيان قال فيه : — « إن هناك دليلا على وجود علاقة وثيقة بين الهاجانا والوكالة اليهودية »

* * *

ولا يستطيع الباحث فى شئون فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية أن يغفل أمرين من الأهمية بمكان .

أما الأمر الأول فهو أن الهجرة اليهودية إلى فلسطين كانت قبل هذه الحرب أمنية يهودية . يعمل على انجاحها أصحاب فكرة الوطن القومى ، ويعطف عليها ويؤيدها يهود العالم ذوو النفوذ ، سواء أكان ذلك فى أوربا أو أمريكا . فهى بذلك فكرة يهودية وكفى . أما بعد وقوع الحرب وفرار اليهود من وجه الاضطهاد النازى ، ووقفتهم حيارى لا يعرفون إلى أين يذهبون ، فقد استدر اليهود عطفا إنسانيا فى دول الحلفاء كافة .

أما الأمر الثانى ، فهو أن الولايات المتحدة الأمريكية عند ما اشتركت فى الحرب ، لم تلبث أن أصبحت سيدة الموقف بين الحلفاء ، وتضاءلت إلى جانبها أهمية الامبراطورية البريطانية . ولما كانت الولايات المتحدة من البلاد التى أحرز فيها اليهود جاها ومالا يكفلان لهم السيطرة على مصائر الأمور ، فان عطف هؤلاء اليهود على إخوانهم فى فلسطين ، وعلى قضية الوطن القومى ، قد كفل للقضية اليهودية نجاحا رسميا فى الولايات المتحدة وأوقف الحكومة البريطانية أمام الأمر الواقع .

وعلى الرغم مما كانت تلقاه بريطانيا فى فلسطين من مناوأة اليهود

للحكومة ، واعتداء العصابات اليهودية على أرواح البريطانيين فى رابعة النهار . فان الكونجرس الأمريكى أصدر فى يناير سنة ١٩٤٤ قراراً بضرورة فتح باب الهجرة على مصراعيه ، والترحيب بتأسيس دولة يهودية فى فلسطين. وفى يناير سنة ١٩٤٥ أصدر تصريحا بأن الولايات الولايات المتحدة لن تتوانى عن بذل مساعيها الودية واتخاذ الاجراءات الكفيلة بفتح أبواب فلسطين لليهود دون أى قيد ، وأن يمنحوا الفرصة كاملة لاستعمار الأراضى حتى يتكون من فلسطين فى النهاية كومنولت يهودى حر ديمقراطى .

ولم تستطع السياسة البريطانية أن تجابه أمريكا بعدم موافقتها على ما جاء فى هذه التصريحات ، خصوصا وأنها شفعت بطلب من الرئيس ترومان إلى الحكومة البريطانية أن ترخص بهجرة ١٠٠٫٠٠٠ يهودى إلى فلسطين تفريجا لأزمة اليهود المشردين فى أوربا من ناحية ، واستمالة للرأى العام اليهودى الأمريكى من جهة أخرى .

بأزاء ذلك صرح مستر بيفن ، وزير الخارجية فى وزارة العمال البريطانية التى تولت زمام الأمور بعد الحرب ، أن موضوع فلسطين قد أثار اهتماما خاصا فى أمريكا وبريطانيا وفى الأملاك البريطانية ، كما أثار اهتمام الدول العربية المجاورة ، ونحو تسعين مليونا من مسلمى الهند لذلك توجه الحكومة البريطانية الدعوة إلى الولايات المتحدة للتعاون معها فى تكوين لجنة مشتركة لبحث الحالة فى فلسطين من الوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتأثير هذه الحال فى مسائل هجرة اليهود وإقامتهم فى فلسطين ، ورفاهية السكان الحاليين .

ويتابع الأستاذ رفعت الحوادث فيقول :

« على أن مستر بيفن لم يجرؤ على حظر الهجرة ، فأشار فى خطابه إلى استمرار قبول المهاجرين بصفة مؤقته حتى تنتهى اللجنة المشتركة من تقديم تقريرها ، كما أشار إلى امكان تحويل الإنتداب على فلسطين إلى وصاية وفقا لميثاق هيئة الأمم المتحدة .

« وكان إعلان انجلترا لهذه السياسة الجديدة سببا فى إثارة النشاط السياسى بين العرب ، فعملوا على إعادة تكوين اللجنة العربية العليا فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، وكان أول آثارها أن أرسلت ردها على مذكرة الحكومة البريطانية وقد جاء فيها :

« إن الكلمة الأولى والأخيرة فى قضية فلسطين ومصيرها هى للشعب العربى الفلسطينى الذى يعتز بعطف الحكومات العربية عليه ... والذى لايعترف بأية دول أجنبية أو أى شعب غريب بأى حق فى تقرير مصيره ومصير بلاده .. »

« وفى مايو سنة ١٩٤٦ صدر تقرير اللجنة الانجليزية الأمريكية بعد تحقيقات وزيارات قامت بها اللجنة فى أوربا وبلاد الشرق الأوسط ، فجاء التقرير حملا جديداً فوق أحمال من التقارير العديدة السابقة التى وضعت على الرف ولم يعمل بها ...

« واستقبلت الحكومة الانجليزية التقرير بما يستحق من الأغضاء والصمت ، بل أنها حاولت أن تفكر من جديد فى تنفيذ تقرير التقسيم الذى اقترحته لجنة بيل سنة ١٩٣٧ ، وبدأت الحكومة الانجليزية تدعو اليها زعماء العرب واليهود للوقوف على آرائهم النهائية بشأن موضوع النزاع . فلما أعيتها الحيل معهم أعلن مستر بيفن فى فبراير سنة ١٩٤٧ أن محادثاته مع العرب والهيئة الصهيونية لم تأت بنتيجة ، وأن المشكلة القائمة لايمكن

حلها بالمفاوضة مع الفريقين ، كما أنه ليس لحكومة جلالة الملك ، تحت نظام الانتداب ، أن تعطى فلسطين للعرب أو لليهود أو أن تقسمها بينهما ولم يبق إلا أن تعرض المشكلة للتحكيم أمام الأمم المتحدة .

« وقد دعيت الجمعية العمومية للأمم المتحدة إلى اجتماع استثنائى فى سنة ١٩٤٧ وتقرر تأليف لجنة محايدة لا تشترك فيها الدول الكبرى ، وتتألف من ١١ عضوا لتحرى حقائق موضوع النزاع ...

« وقد حاولت الحكومات العربية المشتركة فى هيئة الأمم أن تحمل الجمعية على تقرير الغاء الانتداب على فلسطين ، أو أن يكون استقلال فلسطين من الأسس التى تقوم عليها أبحاث اللجنة فلم تفز بطائل ، وفضلت الكثرة أن تكون اللجنة حرة وغير مقيدة باتجاهات معينة ..

« وقد تقدمت اللجنة بتقريرها إلى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة التى عقدت فى نيويورك سنة ١٩٤٧ ، وقد قررت الجمعية العمومية فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ قبول المقترحات التى تقدمت بها أكثرية اللجنة بأن تقسم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية ، وأن يتكون من الدولتين اتحاد اقتصادى ، وأن تترك مدينة القدس تحت وصاية دولية ، وانتخبت الجمعية خمس دول للاشراف على تنفيذ التقسيم (بوليفيا ، وتشكوسلوفاكيا والدانمارك ، وبناما ، والفلبين) .

« وأهم مالفت أنظار العالم أثناء بحث المسألة موقف المندوب الروسى فقد كان المعروف ان روسيا البلشفية لاتضمر ميلا الى جانب الصهيونيين إذ كانت تتهم الصهيونية بأنها أداة للاستعمار البريطانى ، ومادامت الشعوب العربية تناوىء الاستعمارين البريطانى والفرنسى ، فقد كان المتوقع أن تكون روسيا إلى جانب العرب . ولكن ما كادت المسألة تعرض

للمناقشة حتى قلب المندوب الروسى موقف روسيا رأسا على عقب ، فأبدلت روسيا عداءها للصهيونية عطفا ومودة . وأعلن مندوبها أنه من الظلم أن تنكر على اليهود حقهم فى تحقيق أمانيهم ، وبذلك اجتمعت كلمة أقوى دولتين فى هيئة الأمم وهما أمريكا وروسيا ، وأصبح لزاما على هيئة الأمم أن تنفذ قرار التقسيم وهى تعلم حق العلم أن أحد الطرفين المتنازعين وهم العرب مصممون على عدم التفريط فى حقهم الطبيعى فى تقرير مصير بلادهم ، وأن الدول العربية قد أعلنت عدم ارتباطها بذلك القرار ، وأنها متفقة على منعه ووقف العدوان الصهيونى فى الشرق الأوسط ، ولو أدى ذلك الى استعمال القوة . .

... ومما زاد فى تعقيد المسألة وربك الهيئة أن الحكومة الانجليزية . وهى إذ ذاك صاحبة الانتداب فى فلسطين ، قد أعلنت فى أثناء ذلك أنها لن ترتبط بتنفيذ أى قرار بشأن فلسطين مالم يوافق عليه العرب واليهود جميعاً ، وأنها قررت نهائياً أن تنزل عن انتدابها فى فلسطين ، وأن تضع سلطاتها فى أيدى اللجنة الخماسية التى ستتولى تنفيذ التقسيم نيابة عن هيئة الأمم . وقد حددت تاريخا لإنسحاب قواتها من فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ . . . .

وما كاد قرار التقسيم يعلن حتى اغتبط اليهود واعتبروه نصراً عظيما لقضيتهم ، فأخذوا منذ ذلك الوقت يعدون أنفسهم لأعلان دولتهم المزعومة ، وجعلوا يستجدون المال والسلاح من أنصارهم فى أمريكا ووسط أوربا . وأخذ العرب من جانبهم يؤلفون فرقا من المتطوعين لمناوأة الصهيونية ، وجاء المدد الى فلسطين من مختلف أنحاء الدول العربية والإسلامية ، ومابرحت قوات المجاهدين العرب تزداد قوة حتى استولى

الذعر على الصهيونيين ووضح أمام الدول التى ناصرت قضيتهم أنها أساءت الحكم والتقدير بموافقتها على قرار التقسيم ، فأعلن مندوب الولايات المتحدة فى مجلس الأمن أن حكومته لا تتقيد بتنفيذ قرار التقسيم ، وقد زاد فى ضعف نظرية التقسيم شل حركة اللجنة الخماسية التى ألفتها الهيئة لتنفيذ القرار ، واضطرارها الى البقاء خارج فلسطين بعد أن رفضت الادارة البريطانية أن تستقبلها إلا قبيل انسحاب القوات البريطانية من البلاد .

« وكان كلما دنا موعد انتهاء الانتداب البريطانى استولى الخوف على اليهود بما عساه أن يحل بهم متى تركوا وجها لوجه أمام العرب ، فركبوا رؤوسهم واقترفوا من الجرائم والآثام ضد العرب فى دير ياسين وغيرها مالطخ سمعة اليهود فى العالم كله بالفضيحة والعار ؛ ولم يسع الدول العربية إزاء ذلك الطغيان إلا أن تستعد لتأديب الصهيونيين والأخذ بيد العرب وكذلك ما كاد الحاكم العام الانجليزى يغادر ميناء حيفا فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ حتى أعلن اليهود من جهتهم قيام دولة اسرائيل ، وأطبقت على فلسطين من جهة أخرى جيوش الدول العربية من كل جانب . ومع أن حكومتى الولايات المتحدة وروسيا كلتاهما قد احتضنت الدولة المزعومة بمجرد ميلادها ، فأن الجيوش العربية ـ الجيش المصرى من الجنوب والجيش العربى الأردنى والجيش العراقى من الشرق والجيشان السورى واللبنانى من الشمال والشمال الشرقى ـ أخذت تزحف ووجهتها يافا وتل أبيب مقر اليهود . واستطاع الجيش المصرى فى أيام معدودة أن يحتل غزة وبير سبع ، وتدمير كثير من المستعمرات اليهودية فى الجنوب ، وجعل يواصل زحفه المظفر حتى بلغت قواته أسدود والمجدل ، وتفرعت

منه قوة ساعدت الجيش الأردنى فى منطقة أورشليم (بيت المقدس) ووادى اللطرون ، وبلغت الجيوش العربية فى النهاية اللـد والرملة . وكذلك استطاعت القوات العراقية أن تزحف غربا حتى كادت تلتق مع أخواتها المصرية والأردنية عند أبواب تل أبيب .

« ولما كاد السهم يصيب الهدف ، تحرك مجلس الأمن لإنقاذ اليهود ، وكادت جهود أمريكا مع روسيا تنجح فى تقرير العقوبات ضد الدول العربية لولم تقترح بريطانيا تقرير وقف القتال بين المتحاربين ، وتعيين وسيط دولى يتفق مع الجانبين على وقف القتال مدة أربعة أسابيع يحاول فى أثنائها الوصول الى إتفاق بين العرب واليهود ، فأعلنت الهدنة فى ٩ مايو وخاب مسعى الوسيط الدولى الكونت برنادوت الأمير السويدى فى التوفيق بين الطرفين المتنازعين .

ولكن الهدنة جاءت برداً وسلاما على اليهود ، إذ استطاعوا فى أثنائها أن يفلتوا من رقابة هيئة الوساطة الدولية ، ويزودوا أنفسهم بمختلف المؤن والأسلحة من طائرات ودبابات ومدافع ، وآلاف من الشبان القادرين على القتال ، حتى إذا ما انتهى أمد الهدنة واستؤنفت الحرب ظهر مبلغ ما أفاده اليهود من الهدنة بما أبدوه من القوة ، لافى مقاومة القوات العربية فحسب ، بل فى الهجوم أيضا .

« وتقدم الوسيط بمقترحات سياسة التقسيم ، وطلب إطالة أمد الهدنة فلم يستجب العرب إلى طلبه ، ومن ثم اجتمع مجلس الأمن وقرر وقف القتال وتهديد المخالفين بتوقيع العقوبات عليهم . فلم يسع الدول العربية سوى قبول الهدنة للمرة الثانية مضطرين غاضبين .

« ولما كان وقف القتال فى هذه المرة مطلقا وغير مقيد بزمن معين ،

فان الوسيط الدولى مابرح يعمل على تنفيذ قرار وقف القتال ، والوصول إلى قرار حاسم للمشكلة حتى إغتاله الارهابيون من اليهود وهو خارج مدينة القدس الجديدة فى منطقة اليهود ، وكان ذلك يوم الجمعة ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨ .

« ولم يكن ذنب الوسيط أنه حابى العرب ضد اليهود ، فأنه فى الحق ساير اليهود وأقرهم على قيام دولتهم ، وأغضى عن كثير من المخالفات التى ارتكبوها فى أثناء الهدنتين ، ولكن الوسيط كان قد اقترح فى تقريره ترك القدس وجعلها مدينة دولية كما اقترح ضم منطقة النقب فى الجنوب إلى العرب ، فاستحق بذلك نقمة اليهود وغدرهم . ولو أن افتئاتاً مثل هذا ارتكبه فئة غير اليهود ضد شخصية عالمية تمثل هيئة عالمية كهيئة الأمم المتحدة لكان جزاؤها القمع حتما والطرد من عداد الشعوب المتمدنية ، ولكن يبدو أن اليهود بمنحى من تطبيق القواعد العامة عليهم ، فهم منتشرون فى جميع بقاع العالم ، وبين أيدى كثير منهم خزائن المال ومفاتيحها ، والمال عصب الصناعة كما هو عصب الحرب ، وشبح الحرب يبدو الآن مخيفاً مفزعاً أمام الدول الغربية الكبرى ، لذلك كان موقف الدول السلبى أزاء اغتيال الوسيط ، وأزاء قضية فلسطين كلها .

« فما كاد ينشر تقرير الكونت برنادوت قبيل اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة بباريس فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤٨ حتى سارعت امريكا وبريطانيا وفرنسا إلى تحبيذه بحذافيره ، والتقرير يشير بقيام دولة اسرائيل فى المناطق التى يحتلها اليهود الآن ، على أن تكون اورشليم (بيت المقدس) مدينة دولية ، وكذلك تبقى حيفا واللد والرملة جميعها مدناً مفتوحة . واقترح الوسيط أن تضم المناطق التى بأيدى العرب الى شرق الأردن

وتؤلف منها دولة واحدة . وطالب أن يعطى العرب جميع الضمانات التى تكفل تأمينهم ضد التوسع الصهيونى وضد هجرتهم، وأن يرد اللاجئون من العرب الذين شردهم اليهود إلى ديارهم .

« وقد نظرت الجمعية العمومية فى مشكلة فلسطين بحذافيرها على ضوء تقرير برنادوت وما تقدمت به الدول المختلفة من الاقتراحات . وبعد نقاش طويل استمر ثلاثة أسابيع ، تقرر فى النهاية تأليف لجنة للتوفيق بين العرب واليهود ، تؤلف من الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا ، وتحل محل الوساطة الدولية ، وتعمل فى مدى عام على تحويل وقف القتال بين الفريقين الى هدنة دائمة يعقبها صلح نهائى . وقد رأت الجمعية ، منعا لتفاقم الخلاف بين الدول الكبرى بشأن هذه المشكلة ، أن يترك للجنة حرية الفصل فى المسائل الإقليمية دون أى ارتباط سابق ، لا بقرار الجمعية العمومية فى سنة ١٩٤٧ ، ولا بمقترحات برنادوت ، وأن الأمر الوحيد الذى رأت الجمعية النص عليه هو تدويل مدينة القدس ، وإغاثة اللاجئين العرب وردهم إلى بلادهم .

وباشرت اللجنة عملها ، كما كانت كل لجنة سابقة تباشر عملها . فاليهود دائبون على التأثير على اللجنة وأعضائها ، والعرب يحاولون بسط قضيتهم العادلة دون أن يجدوا آذانا صاغية .

ومما يؤسف له أن علاقة الجيوش العربية بعضها ببعض أيام القتال قد سببت شيئا من النفور بين هذه الدول ، وانصرف قادة العرب عن التكاتف على حل مشكلة فلسطين الى إلقاء عبء المحنة على بعضهم البعض وكادت القطيعة وسوء الظن يحلان محل الوئام والانسجام .

وفى غمرة هذا التخاذل ، أعلن اليهود قيام دولتهم « إسرائيل » فى

الأراضى التى كانت تحت أيديهم ، واكتفى العرب بأن أطلقوا على الدولة الجديدة إسم « إسرائيل المزعومة » .

أما بقية فلسطين ، فقد خضعت للأمر الواقع من ناحية ، ولمطامع دولة شرق الأردن من الناحية الأخرى . إذ لم يتردد الملك عبد الله بن الحسين ملك شرق الأردن فى أن يضم الى مملكة المنطقة الواقعة غرب نهر الأردن، التى نزل بها جيشه أبان الحرب، تلك المنطقة التى لم يستطع الجيش الأردنى الاحتفاظ بها إلا على حساب الضغط الذى قام به الجيش المصرى، فأدعى أنها تكملة طبيعية لمملكته ، والمعالم الجغرافية لا تقره على ما يذهب إليه . وأيا كانت الحال ، فأن مملكة شرق الأردن قد ضمت هذه المنطقة إليها ، وغيرت أسمها فأصبحت مملكة الأردن، وكتب على عرب فلسطين — فى هذه المنطقة — أن تكون لهم جنسية جديدة وهى الجنسية الأردنية وقد أثارت هذه الحركة زوبعة من المعارضة بين سكان هذه المنطقة ، ولكن الأحداث كانت تجرى سراعاً ، والعالم تنتابه حرب باردة أشد هولا من الحرب الفعلية مما جعل صرخة هؤلاء الفلسطينيين الأحرار تذهب فى واد .

أما المنطقة التى كانت تحتلها الجيوش المصرية ، فقد فرض على مصر — رغم إرادتها — أن تحتلها وأن تبقى مسئولة عنها إلى أن يقرر مصيرها ، فأصبح قطاع غزة يدار إدارة عسكرية ، لأهلها الغنم وعلى مصر الغرم ، فى إدارتها .

وإذا كان العالم أجمع قد وقع تحت تأثير الدعاية الصهيونية المنظمة المستبسلة فآمن بنظرية اليهود فى إيواء المشردين منهم ، فأن مسلك الأمم المتحدة بأزاء قضية فلسطين كان من آثاره أن المشكلة لم تعد مشكلة

المشردين من اليهود ، بل المشردين من العرب أصحاب البلاد الأصليين .

ومما يؤسف له كثيراً أن الدول المشتركة فى هيئة الامم لاتبدى على قضية المشردين العرب من العطف إلا بقدر ما تتسع له بعض صفحات الجرائد ، أما العطف الفعلى ، أما العمل الجدى للقضاء على هذه المهزلة البشرية ، فقد أصبح منوطا بالدول العربية وحدها لا يشاركها فى المسئولية مشارك من أولئك الذين ملأوا العالم ضجيجا بالعطف على اليهود المشردين .

وقد طال أمد الهدنة الدائمة التى فرضتها هيئة الامم . وهى تحاول أن يعقد بين العرب واليهود صـلح نهائى يعترف فيه العرب بقيام دولة إسرائيل ، ولـكن العرب وقفوا وقفة رجل واحد ، يرفضون الاعتراف بالدولة الدخيلة على أرضهم ، ويأبون حضور المؤتمرات الاقليمية التى يمثل فيها اليهود دولتهم المزعومة .

وقد اتخذت جامعة الدول العربية من القرارات مايتمشى مع الخلق العربى من إباء الضيم ، فقررت مقاطعة إسرائيل إقتصاديا ، ومصادرة السفن التى تحمل لها العتاد والغذاء ، مما أقض مضجع اليهود فى فلسطين ومن يظاهرونهم فى أنحاء العالم ، والدول العربية صامدة أمام الجميع لاتقبل أن تتزحزح عن سياستها المرسومة قيد خطوة .

ونحن إذ نكتب هذه السطور (ديسمبرسنة١٩٥٣) نحس بأن جهوداً تبذل لدى مملكة الاردن لعقد صلح منفرد بينها وبين إسرائيل . ويقول ولاة الأمور فى الأردن أنهم لن يدخلوا فى مفاوضات هذا الصلح إلا إذا أقرتهم على ذلك جامعة الدول العربية . ونحن نتمنى من أعماق قلوبنا أن يظل موقف الأردن فى مستقبل الايام على ماهو عليه اليوم .

الفصل الثامن

بريطانيا فى شرق الأردن

تعتبر مملكة شرق الأردن ، أو مملكة الأردن كما سميت حديثا ، وليدة الظروف الطارئة بعد الحرب العالمية الأولى .

وقد سبق لنا أن أوضحنا الخلاف بين الشريف حسين والحكومة البريطانية بشأن الحدود الجغرافية التى كان الشريف حسين يظن أنها ستصبح ملكه الجديد بعد الحرب ، وكيف أنه كان يعتبر أن دولته الجديدة ستشرف على البحر الأبيض المتوسط من اسكندرونة إلى العريش . وكيف أن الحكومة البريطانية - على لسان معتمدها السير هنرى مكماهون - قد بينت له أنها لا تستطيع أن تسلم له بأن هذا الساحل عربى بحت ، وكيف أنه لم يتنبه خلال أزمة الحكومة البريطانية وانشغالها بالحرب إلى ضرورة مراجعتها فيما أبدته من رأى .

فلما انتهت الحرب بانتصار بريطانيا وحلفائها ، وجاء وقت الحساب ، تمسكت الحكومة البريطانية بوجهة نظرها ، وبذلك ، وعلى مدى الأيام ، ظهرت فى الوجود « لبنان » ثم أسكن اليهود أرض فلسطين ، وبيتت النية على خلق « دولة إسرائيل » . ثم تطورت الأحداث فظهرت فى الوجود تلك الدولة التى أسماها العرب أول الأمر (إسرائيل المزعومة) إلى آخر ما أوردناه فى الفصل السابق .

ولا نستطيع أن نتحدث عن شرق الأردن دون أن نتعرض للعلاقة التى كانت تربط الشريف حسين ببريطانيا .

فقد استطاعت الدبلوماسية البريطانية أن تغرى الشريف حسين بالخروج على ولائه للدولة العثمانية ، ويقول المتحمسون له : إن الحكومة البريطانية لم تخرجه عن ولاء كان يدين به قلبا وروحا ، وإنما استغلت فيه نزعة الخروج عن هذا الولاء .

فلما صار الشريف (حليفا مخلصا) للحكومة البريطانية ، استبسل ابناه فيصل وعبد الله فى الوقوف إلى جانب حليفتهم الكبرى ، وسار الجيش العربى بقيادتهما إلى حيث أراد له البريطانيون أن يسير ، وفتحت على يد اهذ الجيش — الى جانب الجيش البريطانى — بلاد الشام . واستمرت موجة الفتح حتى وصلت الى دمشق . ولا يزال العرب يقولون إن الجيش العربى بأمرة فيصل دخلها قبل الجيش البريطانى بقيادة اللورد اللنبى ، ويقول البريطانيون إن اللنبى هو الذى دخلها أولا .

وبحكم هذا الفتح . ظن العرب أنهم سيصبحون أصحاب الأمر والنهى فى هذه الأرض المفتوحة على أيديهم ، إلا أن الظروف استلزمت وقتئذ أن تقوم فى هذه المنطقة إدارة عسكرية بريطانية ، ريثما يتم الاتفاق بين الحليفتين على توزيع الأسلاب .

ثم كانت قصة الانتداب ، واقتسام هذه المنطقة (التى شملت فيما بعد سورية ولبنان وشرق الأردن وفلسطين) بين بريطانيا وفرنسا .

فلما تأزمت الأمور بين فيصل وفرنسا فى دمشق ، سار أخوه عبدالله على رأس جيش عربى قاصداً سورية لنصرة أخيه ، ووصل إلى مدينة القدس فى أوائل سنة ١٩٢١ .

رأت بريطانيا أن الأمور فى الشرق الأوسط توشك أن تتحرج ، وأن وصول عبدالله إلى سورية قد يحدث أزمة لا يعرف مصيرها . ورأت

فى الوقت ذاته أن خطوة دبلوماسية موفقة قد تساعد على حل مجموعة من المشاكل فى وقت واحد .

فقد اتفقت فرنسا وبريطانيا على تنفيذ معاهدة سيكس — بيكو وأصبحت بريطانيا بذلك مكلفة بتوطيد أقدام حليفتها فى سورية، وقيام حرب بين الفرنسيين والعرب ، كالحرب التى كان يحتمل أن تنشب إذا وصل عبد الله إلى سورية ، أمر لا تؤمن عاقبته .

وقد اعتبرت بريطانيا أن آل الحسين يستحقون منها معاملة أحسن من المعاملة التى عوملوا بها خلال الأزمة بينهم وبين ابن السعود، إذ كادت أن تتخلى عنهم نهائيا . ولا علاج لحالة القلق النفسى عند آل الحسين ومن يلوذ بهم إلا بأن ترضى عبد الله بن الحسين بعرض من العروض .

يضاف إلى ذلك أن الحكومة البريطانية كانت لها سياسة مرسومة بالنسبة لمستقبل فلسطين ، ومن مصلحتها ، اعتماداً على السوابق التاريخية أن يفصل بينها وبين عرب العبادية فاصل سياسى بقيام دويلة على طرف الصحراء ، على غرار مملكة غسان التى قامت فى هذا المكان فى فجر التاريخ الأسلامى لتدرأ عن الدولة الرومانية غائلة الرحل من عرب العادية . مقابل مساعدة مادية .

لكل هذه الاعتبارات نشطت الدبلوماسية البريطانية مستهدفة أن تحقق هذه المصالح جميعا .

اتصل المستر تشرشل ، وكان وزيراً للمستعمرات البريطانية ، بالأمير عبد الله بن الحسين وهو فى القدس ، فى طريقه إلى نصرة أخيه فيصل فى سورية ، وأغراه بالعدول عن السير إلى الشمال ، والبقاء حيث هو ،

على أن يكون حاكما لشرق الأردن تحت أشراف المندوب السامى البريطانى .

ومما لا شك فيه أن عرضا كهذا لا يكفى وحده لأقناع الأمير عبدالله بأن يتخلى عن نصرة أخيه فى سورية . ولذلك نستطيع أن نؤكد أن هذا العرض كان يصحبه وعد ووعيد . أما الوعد فهو أن يتوج عبد الله فى يوم من الأيام ملكا مستقلا على هذا الأقليم . أما الوعيد فهو أن يفهم أن رحلته إلى سورية مغامرة محفوفة بالمخاطر قد تودى به وبأخيه إذا غضبت عليهما بريطانيا وأطلقت يد فرنسا بل وساعدتها على التنكيل بهما .

ومما لا شك فيه كذلك أن العوامل النفسية قد لعبت دورها فى قبول هذا العرض . فقد كان العرب فى كل مكان يندون بموقف آل الحسين فى شماتة إذ تخلت عنهم بريطانيا بعد أن ضحوا فى سبيلها بكل مرتخص وغال . وفضلا عن ذلك فإن أخوين قد صار أحدهما ملكا على سورية ، فلم لا يكون الآخر ملكا على دولة أشبه بالدولة السورية ، عسى أن يكون لهما من وراء ذلك عزوة أقليمية قد تتطور على مدى الأيام فتصبح امبراطورية أو خلافة إسلامية لآل الحسين .

قبل الأمير عبد الله ما عرضه عليه المستر تشرشل ، وأقام فى الأرض التى وعده بأن تصبح مملكته فى المستقبل القريب ، واتخذت عمان عاصمة .

وقبل أن نتحدث عن مجريات الأمور فى شرق الأردن ، يجدر بنا أن نسجل الملاحظات الآتية :

أولا : لم يغرب عن ذهن الأمير عبد الله أن ولايته على هذا الأقليم لا تعدو أن تكون وليدة الصداقة التقليدية بينه وبين بريطانيا التى وهبته هذه الولاية ، ووعدته بأن تكون له فيها دولة ، وأن يصبح عليها ملكا . ومما يساعد على تحقيق هذه الوعود أن يكون على الدوام على

انسجام تام مع الحكومة البريطانية ، ممثلة فى مندوبها السامى فى المنطقة .

ثانيا : أجلس عبد الله على شبه عرش وهو لا يملك وسائل الانفاق على هذا الملك الجديد ، فكان المال البريطانى الوسيلة الوحيدة لتوفير مظاهر الدولة . ومن هنا أصبحت للمندوب البريطانى صفة القيم على الدولة الجديدة ، وصار الموظفون البريطانيون ، فى كل مرافق الدولة ، مصدر السلطان الحقيق .

وفى ابريل سنة ١٩٢٣ ، خولت الحكومة البريطانية السير هربرت صمويل المندوب السامى لفلسطين أن يدلى بالتصريح التالى فى عمان « إن حكومة صاحب الجلالة تنوى - بشرط موافقة عصبة الأمم - الاعتراف بوجود دولة مستقلة فى شرق الأردن تحت حكم سمو الأمير عبد الله ، على أن تكون لها حكومة دستورية ، وأن توضع حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا فى وضع يحقق تعهداتها الدولية فيما يختص عن طريق اتفاق يعقد بين الفريقين » .

وهكذا ظهرت دولة شرق الأردن إلى عالم الوجود .

وفى فبراير سنة ١٩٢٨ عقد الاتفاق المشار إليه فى التصريح السابق . وأهم ما جاء فى هذه الاتفاقية الأمور الآتية :

أولا : تعهد الأمير عبد الله بأن يسترشد بنصح صاحب الجلالة ملك بريطانيا فى كل المسائل الخاصة بعلاقات شرق الأردن الخارجية ، كما تعهد بأن يتبع سياسة إدارية ومالية على نحو يضمن الاستقرار وحسن التنظيم للحكومة وماليتها .

ثانيا : تعهد الأمير بأن يرفع إلى حكومة جلالة الملك قانون الميزانية وقوانين الجنسية وقانون وراثة العرش والتعديلات التى تدخل على القانون الأساسى للدولة (الدستور) .

ثالثا : تعهد الأمير بأن لايجند أى قوات عسكرية أو يحتفظ بها فى شرق الأردن ، دون موافقة الحكومة البريطانية .

رابعا : تعهدت الحكومة البريطانية بألا تضع أية عقبة (فيما عدا الاعتبارات الدولية) فى سبيل اشتراك شرق الأردن فى مسائل الجمارك وما ماثلها مع الدول العربية المجاورة لها التى قد ترغب فى ذلك .

وصياغة هذه الاتفاقية يقوم دليلا على مدى ما استمدته بريطانيا فيها من نفوذ على شرق الأردن . وتطبيقها بنصها وروحها يكفل لبريطانيا فى هذه المنطقة من المصالح ما لم يكن من المعقول أن يضمنه لها انتداب مؤقت تستطيع عصبة الأمم أن توقفه أو تنهيه فى أى وقت . فكأن بريطانيا قد استبدلت بإقامة مؤقتة خاضعة لنفوذ دولى سلطانا دائما لاسبيل إلى التدخل الدولى فيه .

وفيما بين سنتى ١٩٣٤ و ٣٨ عدلت الاتفاقية تعديلات توحى بازدياد الثقة بين الأمير والحكومة البريطانية . إذ خول للأمير أن يحكم البلاد بواسطة وزارة دستورية مسئولة أمامه ، وأهم من ذلك أنه سمح للأمير بتجنيد قوات عسكرية والاحتفاظ بها ، كما منح الحق فى تعيين ممثلين قنصليين لبلاده فى بعض الأقطار العربية المجاورة .

الحرب العالمية الثانية

كان الأمير خلال هذه الحرب عند حسن ظن حليفته بريطانيا ، فأصبحت البلاد مركزاً من مراكز التدريب الكبرى ، ومحطة أمامية للاستطلاع بالنسبة للحلفاء فى الشرق الأوسط ، وجند الأمير جيشا جعله فى ركاب حليفته توجهه حيثما شاءت .

ففى أكتوبر ١٩٣٩ ، اعتبرت حكومة شرق الأردن ألمانيا دولة معادية وتذكر السيدة سيتون وليمز أنه حدث فى يونية سنة ١٩٤٠ أن قال الأمير للبريجادير جلوب (جلوب باشا بعد ذلك) : إننا معشر العرب لنفخر دائما بأننا لانخون أصدقاءنا أبداً ، ولن نفعل شيئا من ذلك الآن ، ومهما حدث فإننا سنبقى أصدقاء لبريطانيا .

فلما آذنت الحرب بالفوز للحلفاء بعد معركة العلمين ، رأى الأمير أن أن ينتهزها فرصة سانحة للمطالبة بالاستقلال التام لبلاده ، وبعث إلى الحكومة البريطانية يطلب إليها إنهاء الانتداب وعقد معاهدة جديدة .

وقد أجابته الحكومة البريطانية بأنها — مع تقديرها التام للصداقة والمعونة التى يبذلها شرق الأردن حكومة وشعبا ، ورغبتها فى أن يوضع شرق الأردن على قدم المساواة مع البلاد العربية الأخرى — فإنها لاتستطيع أن تبدأ مثل هذه المفاوضات أثناء الحرب . على أنها ستكون شديدة الرغبة فى أن تعقد مع شرق الأردن معاهدة تكون أكثر تمشياً مع الظروف الجديدة من تلك التى عقدت سنة ١٩٢٨ ، على أن تستمر العلاقات الرسمية بين البلدين فى نفس الوقت على الأساس القائم . هذا إلى أنها ستحاول أن تفسره تفسيرا يتمشى مع رغبات شعب شرق الأردن .

وفى خلال ذلك كانت كلمة الدول العربية قد اجتمعت على تأسيس جامعة الدول العربية ، فاشترك شرق الأردن — على الرغم من أنه لم يستكمل استقلاله بعد — فى توقيع بروتوكول الاسكندرية فى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ وبذلك صار عضوا فى الجامعة .

ولنا رأى فى موقف شرق الأردن من الجامعة العربية ودولها ، سنورده فى مناسبته .

وفى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٦ اعترفت الحكومة البريطانية بشرق الأردن دولة مستقلة ، وبالأمير عبد الله ملكا عليها . ومنذ ذلك التاريخ أصبح لقبه الرسمى « صاحب الجلالة ملك شرق الأردن » . وعقدت بين الطرفين معاهدة تحالف مدتها ٢٥ عاما ، نصت فيها على « ضرورة التشاور بين الطرفين المتعاقدين تشاوراً تاما صريحا فى شئون السياسة الخارجية التى قد تؤثر فى مصالحهما المشتركة » ، كما نص فيها على « أن تقدم بريطانيا الخبراء والفنيين لمساعدة شرق الأردن » .

وفى سنة ١٩٤٧ تقدم شرق الأردن طالبا الانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة . وقد أيد طلبه تسعة من الأحد عشر عضواً الذين يكونون مجلس الأمن وعلى رأسهم بريطانيا ، ولكن المندوب السوفيتى استعمل حق الفيتو على أساس أن الاتحاد السوفيتى ليست له علاقات دبلوماسية مع شرق الأردن ، وأنه يشك فى وضعه المستقل .

وفى ١٥ مارس سنة ١٩٤٨ وقعت معاهدة تحالف جديدة بين الدولتين نص فيها على الدفاع المشترك فى حالة الحرب ، وإنشاء مجلس للدفاع المشترك البريطانى — الأردنى ، كما نص على الاحتفاظ بوحدات من سلاح الطيران الملكى البريطانى فى عمان والمفرق ، وعلى أن تستمر المعونة المالية البريطانية للملك عبد الله تمكينا له من تنفيذ تعهداته التى نصت عليها المعاهدة .

الملك عبد الله ومشروع سورية الكبرى

قبل أن نتعرض لسلوك الملك عبد الله بأزاء هذا المشروع ، يجدر بنا أن نلقى ضوءاً على فكرة سورية الكبرى .

سبق القول أن الشريف حسين كان يهدف إلى تأسيس دولة عربية

كبرى تشمل الجزيرة العربية بأسرها ، وأن البريطانيين — رغبة منهم فى كسب الحرب العالمية الأولى — أقروا الأمير على ما يهدف إليه ، بفارق واحد ، وهو أنهم استثنوا الإقليم المطل على البحر الأبيض المتوسط لأن ظروفه — فى نظر البريطانيين — لا تسمح بأن يعتبر أقليما عربيا خالصا

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء ، توقع الشريف حسين أن الحكومة البريطانية ستنادى به ملكا على الجزيرة العربية ، إلا أن بريطانيا — وقد تحررت من الحرج الذى دفعها إلى الاتفاق مع الشريف حسين — رأت أن تستعرض الموقف فى الجزيرة العربية فى ضوء الحالة الواقعية فى البلاد ، فأدركت أن للجزيرة العربية زعيما يربض فى البادية هو عبد العزيز آل سعود ، كما رأت أن المناداة بالشريف ملكا على الجزيرة العربية سيثير عليه وعليها هذا الزعيم ، ثورة لا تعرف مغبتها ، وقد تتعرض فيها مصالح بريطانيا — وخاصة فى الخليج الفارسى — لما لا ترضاه السياسة البريطانية ، بل الاقتصاد البريطانى .

ويوازن الأستاذ الدكتور محمد ماضى ، فى كتابه (النهضات الحديثة فى جزيرة العرب) الجزء الأول ، بين ابن سعود والشريف حسين فى ذلك الوقت فيقول :

« ثم وازن ابن سعود بين موقف العالم الإسلامى منه ، وموقفه من الشريف حسين ، فرأى أن صلات الشريف بالمسلمين قد ساءت بعد أن جاهر بالعدوان لدولة الخلافة وحاربها مع الحلفاء . وبعد أن عامل الحجاج المسلمين معاملة سيئة ، واشتط معهم فى فرض الضرائب مع عدم العناية اللازمة براحتهم وأمنهم ، وكذلك اختلف معهم بشأن البعثات الطبية وغيرها ، فكان ذلك سببا فى عودة المحمل المصرى فى سنة ١٣٤٠ هجرية

— ١٩٢٢ م . وفى اشتداد الخلاف بينه وبين الحجاج الهنود ، ثم بينه وبين الانجليز من أجلهم .

وفى مقابل هذا رأى ابن سعود أن صلات العالم الإسلامى به حسنة بعد أن شرع يتودد إلى المسلمين ويجامل الدول الإسلامية ، وبعد أن أخذ ينشر دعاية واسعة النطاق فى العالم الإسلامى ، متحدثاً عن أطوار الخلاف بينه وبين الشريف حسين ، ومتظلما من منع الشريف للنجديين عن أداء فريضة الحج . وأخيرا نظر ابن سعود إلى قوى الشريف الحربية فوجدها ضعيفة أمام إيمان الإخوان وتعصبهم لنصرة زعيمهم ..

استعرضت بريطانيا الموقف بمثل ما استعرضه ابن سعود ، ووصلت الى النتائج التى وصل إليها ، فآثرت أن لاتندفع فى تأييد صاحبها على منافسه فكان من نتائج ذلك أن أجلى آل الحسين عن الحجاز . ثم تمخضت الأحداث بعد ذلك عن اتصالهم ، وعلى رأسهم فيصل ، بالحركة العربية فى شمال الجزيرة ، وقد سهل لفيصل ذلك سبق اتصاله بالحركة العربية التى كانت تقاوم النزعة التركية فى أخريات القرن الماضى وأوائل القرن العشرين ومدت بريطانيا يد العون لأصدقائها لتخلق بهم نفوذا فى شمالى الجزيرة ينافس النفوذ الفرنسى ، ويعتبر عدة لبريطانيا وقتما تشاء .

وهكذا انقسمت الجزيرة العربية الى معسكرين : معسكر الشمال ويتزعمه آل الحسين ، ومعسكر الوسط ويتزعمه آل سعود . أما الأراضى الواقعة على الخليج الفارسى فقد تدخلت بريطانيا فى شئونها فأصبح لها فيها من النفوذ ما تطمئن به على مصالحها فى الخليج الفارسى . أما الجنوب فقد كانت له قصة قائمة بذاتها ، إذ اهتمت بريطانيا بتأمين مواصلاتها باحتلال عدن ، وكانت تتربص باليمن الدوائر محاولة التدخل السافر فى شئونها .

انصرف آل الحسين عن الملك الذى كانوا يحلمون به ، وتقلصت دولتهم الكبرى فاصبحت مجرد أمانى لهم فى شمال الجزيرة. وعندئذ أطل مشروع سورية الكبرى برأسه فى معترك الحياة السياسية .

كان الأتراك العثمانيون - فى إدارتهم لهذا الأقليم - قد قسموه الى أربع ولايات : ولاية حلب وتشمل الأقليم الشمالى . جنوبى جبال طوروس وتشرف على البحر الأبيض المتوسط شمالى اللاذقية . وولاية لبنان وتمتد على ساحل البحر من اللاذقية الى يافا ، وسنجق القدس المستقل ويمتد كذلك على ساحل البحر من يافا الى جنوبى غزة ، وولاية سورية وتمتد فى الداخل مشرفة على الصحراء من الشرق ، وعلى ولاية حلب من الشمال وعلى ولاية لبنان وسنجق القدس من الغرب وعلى ولاية الحجاز من الجنوب. وتشمل ولاية سورية مجموعة من السناجق هى : حماة ودمشق وحوران وممان .

فلما كانت النهضة العربية ، تلك التى خرجت من الآستانة وتركزت فى دمشق ، اعتبر القائمون بالحركة هذه الولايات الأربع ولايات عربية وأنها تكون وحدة جغرافية ، وكان من أهدافهم أن تستقل هذه الأقاليم برمتها تحت راية عربية واحدة وتعرف باسم سورية الكبرى .

ولما انتقل نشاط آل الحسين الى شمالى الجزيرة العربية، بعث مشروع سورية الكبرى على نفس الأساس الجغرافى ، على الرغم من أن السير هنرى مكماهون سبق له أن نبه آل الحسين الى أن أقليم الساحل لا يمكن اعتباره عربيا خالصاً. وقد تزعم هذه الحركة فى بداية الأمر الأمير فيصل عندما كان يحاول أن يثبت عرشه فى سورية . فلما انتهت الأمور بينه وبين الفرنسيين الى اجلائه عن البلاد كان أخوه عبد الله قد تربع على

عرش الأمارة فى شرق الأردن ، فتبنى عبدالله الفكرة ، وصارت سورية الكبرى هدفا من أهدافه .

ومما لاشك فيه أن عبد الله لم يكن ليطمع بنفسه ولنفسه فى أن يكون له هذا الملك الشاسع ، وأنما كانت علاقته بربطانيا من أهم ما أطمعه . ذلك أن بريطانيا كانت منتدبة فى فلسطين ، وهى بصدد اقتطاع جزء كبير منها لإنشاء دولة إسرائيل ، وكانت منتدبة فى شرق الأردن وهى على أتم صفاء مع أميرها ، ولم يبق من سورية الكبرى إلا دولة سورية التى كانت خاضعة للانتداب الفرنسى ، وقد كانت بريطانيا تتمنى أن يزول عنها هذا الانتداب وبذلت فى سبيل ذلك محاولات، ولبنان وله وضع خاص سواء أدخل فى نطاق سورية الكبرى أم لم يدخل .

لكل هذه الاعتبارات نرى عبد الله يطمع فى تحقيق المشروع على يديه حتى يكون سيد الشمال فى الوقت الذى أصبح فيه ابن سعود سيد الجزيرة وقد ساعده على هذا الطموح أن مملكة العراق يحكمها ملك هاشمى . ومن يدرى فلعل ظروف العرش العراقى أن تواتيه فيصبح ملكا لا على سورية الكبرى فحسب ، بل على الشمال بأكمله، بما فيه العراق ، فتكون له عندئذ دولة قوية يستطيع أن ينافس بها دولة السعوديين ، وقد اصطلح على تسمية هذا المشروع باسم مشروع الهلال الخصيب .

ويبدو لنا أن الأمير عبد الله ما كان ليفكر هذا التفكير ، ويخطو فى سبيل تحقيقه خطوات ، إلا بحسن التفاهم بينه وبين أصدقائه البريطانيين . وآية ذلك أن بريطانيا اعترفت به ملكا على شرق الأردن بعد أن كان أميراً عليه لتؤهله للمطالبة بالعرش الجديد الكبير ، ولها على هذا العرش مالها من نفوذ .

يقول الدكتور محمد ماضى :

« تحرك المجلس النيابى الأردنى ، بأمر من سيده جلالة الملك عبدالله ، وأعلن فى دورته الاولى سنة ١٩٤٦ على هيئة ميثاق وطنى أن الشعب والحكومة يتمسكان ويطالبان بتحقيق الميثاق الوطنى القديم الخـــاص بأنشاء دولة سورية الكبرى تحت عرش الهاشميين. وكان لهذا العمل أثره السيء فى مختلف البلاد والدوائر العربية، فأثار السخط والارتياب وعدم الارتياح فى سورية ولبنان والمملكة العربية ومصر ، خصوصاً وقد أثير هذا الموضوع الموجب للخلاف فى صفوف العرب فى وقت حرج بالنسبة للعرب جميعاً، أثير والعرب أشد مايكونون حاجة الى الوحدة وضم الصفوف والابتعاد على كل مايوجب الفتنة ويثير الخلاف . وتدخل مجلس جامعة الدول العربية حينما انعقد فى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ فى الامر لفض الخلاف الذى نشب بين سورية وشرق الاردن . . . فاقترحت مصر أن تحال المسألة على لجنة وزراء الخارجية. وهذه فصلت فى الموضوع وقررت التمسك بميثاق الجامعة الذى يوجب بمقتضى المادة الثامنة أن « تحترم كل دولة من الدول المشتركة فى الجامعة نظام الحكم القائم فى دول الجامعة الأخرى ، وتعتبره حقاً من حقوق تلك الدول ، وتتعهد بألا تقوم بعمل يرمى الى تغيير ذلك النظام فيها ، وطلبت اللجنة الى الفريقين الكف عن أثارة الموضوع من جديد .

« ولكن الملك عبد الله لم يكف ولم يستمع لحكم مجلس الجامعة العربية .... فأثار الموضوع من جديد ، وأذاع بيانا عن مشروع «سورية الكبرى » على الصحف فى أغسطس سنة ١٩٤٧، ثم عقب بارسال كتاب فى نفس الموضوع إلى فخامة الرئيس شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية . ...

وفى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٤٧ أدلى دولة جميل مردم بك رئيس الوزارة السورية للصحف بالتصريح التالى : لا يسع الحكومة السورية أمام هذا الاستفزاز الجديد الا أن تقرر اتخاذ جميع التدابير اللازمة لمنع هذا الاحتيال على الوحدة العربية من خدمة أغراضه (أغراض الملك عبد الله) التوسيعية . ولقد لاحظنا ان مشروع سورية الكبرى يثار دائما فى أوقات تتفق بشكل غريب والفترات الحرجة التى تجتازها الدول العربية ، مما يدل دلالة واضحة على أن هذا المشروع موعز به من دول أجنبية ، وأنه لا يرمى إلا إلى خلق جو من الاستياء فى الدول العربية فى الوقت الذى هى فى أشد الحاجة فيه إلى توثيق علاقاتها وضم صفوفها.. إن مشروع سورية الكبرى مشروع صهيونى لا يرمى إلا إلى تيسير مشروع تقسيم فلسطين وإنشاء دولة يهودية..... وكان الواجب على الملك عبد الله أن ينسج على منوالنا فيحترم هذه الفترة الحرجة التى تجتازها الدول العربية فى الوقت الذى تبحث فيه المسألتان المصرية والفلسطينية أمام هيئة الأمم المتحدة ، وفى الوقت الذى توجد فيه الدول العربية فى أشد الحاجة إلى الوحدة » .

أما الكتاب الذى أرسله الملك عبد الله إلى فخامة رئيس الجمهورية السورية ، فقد حمله إليه — بعد أن أذيعت فحواه على الصحف — الشريقى باشا رئيس ديوان الملك عبد الله إذ ذاك . فلما تسلم شكرى القوتلى الخطاب لم يعط عليه رداً كتابياً ، إنما اكتفى بالرد الشفوى حيث قال : « أنتم غير مستقلين ونحن مستقلون ، فلماذا تريدون أن تحملونا أغلالكم ؟ » وقال له أيضا : « أى استفتاء تريدون ؟ لقد استفتى الشعب السورى أربع مرات فما اختار سوى النظام الحالى نظاما له . فاذهبوا واستفتوا أهل شرق الأردن ! »

وفى تقديرنا أن السياسة البريطانية أحست وقتذاك بأن اللعبة التى تلعبها قد انكشف الخبىء منها . وأنها قد فتحت باب العداوة والبغضاء بين شرق الأردن وسورية على مصراعيه ، وقد أصبح من المناسب لها أن لا تدع رجلها فريسة بين السوريين من الشمال والسعوديين من الجنوب، فاذا بالأحداث العربية تتمخض عن زيارة الملك فاروق ملك مصر السابق لبلاد العرب واجتماعه بالملك عبد العزيز آل سعود فى رضوى ، ثم اجتماع ملوك العرب فى انشاص ومن بين هؤلاء عبد العزيز آل سعود وعبد الله ابن الحسين . وإذا بالملك عبد الله يزور الملك عبد العزيز فى الرياض فى أواخر شهر يونية سنة ١٩٤٨ ، وإذا بهما يصدران بيانا مشتركا يعلنان فيه اتفاقهما « بصورة خاصة تأييد الجامعة العربية فيما تقره أو تنهيه ، بما هو داخل فى ميثاق جامعة الدول العربية وفى حدود مسئوليتها، وبالأخص فيما يتعلق بفلسطين » .

ولكن الملك عبد الله لم يلبث أن عاودته شهوة التوسع . فلم تمض على اجتماعه بابن السعود ستة شهور حتى كان دعاته قد جمعوا له جماعة من اللاجئين الفلسطينيين فى أريحا — على الحدود الفلسطينية الأردنية — برياسة الشيخ محمد على الجعبرى رئيس بلدية الخليل . اجتمع هؤلاء على هيئة مؤتمر نادى بالملك عبد الله ملكا على شرقى الأردن وفلسطين . ومن الطريف أن بعض المؤتمرين اقترحوا أن يطلق على الدولة الجديدة اسم مملكة جنوب سورية « على أساس أن تكون هذه خطوة نحو تحقيق مشروع سورية الكبرى : الحلم الذهبى فى مخيلة الملك الطموح .

ويقتبس لنا الدكتور محمد ماضى تعليق مجلة أخبار اليوم على الحادث فيما يلى :

« ومما تقرر كذلك أن ينادى بالملك عبد الله ملكا على فلسطين كلها

وليس على جزء منها . فكأن مصر وسائر الدول العربية قد بذلت على أرض فلسطين دمها ومالها وجهودها وحياة أعز أبنائها لكى تكون فلسطين لقمة سائغة لشهوة أو لمطامع ، وكأننا فعلنا كل ما فعلناه لتصبح فلسطين قاعدة انجليزية باسم عربى ، ومستعمرة بريطانية تحت تاج عربى ، ولتكون نقطة للوثوب الى سورية وغيرها لتحطيم استقلالها ، وهكذا تستعبد البلاد العربية كلها ، وهى التى كانت تحاول تحرير فلسطين وشرق الأردن .

ولم يلبث مجلس الوزراء الأردنى أن نشر بلاغا رسميا فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٤٨ يقول فيه « إن مقررات مؤتمر أريحا تتفق مع أهداف حكومة الملك عبد الله ، وأن هذه الحكومة ترحب بها ، وتسعى الى تحقيقها بالوسائل الدستورية والدولية ، وأنها ستنفذها فى الوقت المناسب .

وفى ١٣ ديسمبر عرضت هذه القرارات على الهيئة التشريعية الأردنية فقررت الموافقة عليها بالاجماع . ثم رفع القرار الى جلالة الملك عبد الله فشكر لأعضاء المجلس والحكومة هذه الثقة وقال لهم « لقد حملتمونى عبئاً ثقيلا ، وأرجو الله أن يوفقنى الى مافيه خير الأمة العربية » .

وقد كان لهذا التصرف أسوأ الأثر فى جامعة الدول العربية ، وبذلت جهود لدى الملك عبد الله بأن يعدل عما سولته له نفسه من اجراء يخلق الفرقة بين الدول العربية ، ويمكن للمستعمرين أن يبطشوا بالعرب ، ولكن جلالته ظل يراوغ الوفود العربية التى قصدت إليه ، ويقوم بمناورات ترمى بها إلى اقناع ممثلى الدول العربية أنه ينزل فى ذلك على ارادة العرب من سكان فلسطين .

ويعلق الدكتور محمد ماضى على مؤتمر أريحا فيقول :

« فالواقع أن انجلترا هى التى أوحت بمؤتمر أريحا ، وأنها هى التى

اختارت له الوقت المناسب بعد أن ظنت أن هذا الوقت الذى اختارته هو نفس الوقت الذى ستصدر فيه الأمم المتحدة قرارها بتأييد الاقتراح الانجليزى الذى يدعو فى حل مشكلة فلسطين الى الأخذ بتقرير الكونت برنادوت بعد مصرعه ، ذلك التقرير الذى يقترح — طبقا للرغبات البريطانية — ضم القسم العربى من فلسطين ، وفيه منطقة النقب ، الى الدولة الأردنية الهاشمية » .

ثم يقتبس الدكتور ماضى من مقال للدكتور محمود عزمى فى صحيفة أخبار اليوم فيقول :

« وانكلترا تعلم علم اليقين أن الدول العربية تعارض هذا أشد المعارضة، لأنه ينطوى من ناحية على تنفيذ التقسيم وقيام دولة اسرائيل، ولأنه يخشى من ناحية ثانية أن يكون خطوة من خطى تحقيق مشروع سوريا الكبرى لا ترتضيه تلك الدول بحال . وحسبت انجلترا أنها ناجحة ، بفضل التأييد الأمريكى ، فى سبيل الحصول على كثرة الثلثين من أعضاء الجمعية العامة للأمم المتحدة تأييداً لإقتراحها الذى تبنته معها الولايات المتحدة ، فأوحت دون ريب بمهزلة مؤتمر أريحا ، حتى تجابه الحكومات العربية بقرار الأمم المتحدة وبقرارات أريحا فى وقت واحد ، فيفت هذا الأزدواج فى عضدها وتخضع للأمر الواقع فى الحظيرة الدولية ، وفى الحظيرة الفلسطينية الداخلية لكن الاقتراح البريطانى لم يكتب له التوفيق فى هيئة الأمم المتحدة ، إذ لم ينل كثرة الثلثين المشروطة ، وكانت الاستعدادات قد تمت لأخراج مؤتمر أريحا وقراراته ، فبدا وحده فريدا ، وكان مهزلة مكشوفة اضطرت انكلترا معها الى أن تعلن أنها لم تشجع جلالة الملك عبد الله عليها .

مملكة شرق الأردن تصبح مملكة الأردن

عندما أعلنت بريطانيا أنهاء انتدابها على فلسطين ، وحددت لذلك موعداً ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، قررت الدول العربية ، ومن بينها شرق الأردن ، أن تسير جيوشها إلى أرض فلسطين إنقاذاً للعرب مما يراد بهم على أيدى اليهود بعد انتهاء الانتداب، ولكى تحول دون قيام دولة إسرائيل وقد بالغت الدول العربية فى أغراء الملك عبد الله على الوقوف الى جانب الدول العربية . وانتهت الجهود التى بذلت لدى جلالته بأن قبلت الدول العربية أن تكون الجيوش العربية التى تحارب على أرض فلسطين تحت أمرة جلالته .

وقد اشترك الجيش الأردنى فى هذه المعارك ، وليته ما اشترك ا فقد كانت الظروف تستلزم تنظيم الحركات العسكرية بين الجيش المصرى والجيش الأردنى ، فاذا بالجيش الأردنى يعمل على عرقلة التقدم المصرى نحو تل أبيب ، ويتخلى عن المواقع التى كان الجيش المصرى يعتمد على صموده فيها، وبذلك حرم الجيش المصرى من كثير من الميزات الاستراتيجية فلما اقتضت الخطة الموضوعة تراجع الجيش المصرى، كان الجيش الأردنى سبباً فى كثير من الخسائر التى لحقت بهذا الجيش . كل ذلك فضلا عما تطاير على ألسنة المشتغلين بالقضية الفلسطينية من سوء تصرف سافر من الجيش والسلطات الأردنية ، فضلا عن اتهام بخيانة القضية العربية .

ويقول الاستاذ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الذى ترجم كتاب سيتون وليمز فى تذييل له ما يأتى : ـ

وفى غمرة تخاذل الدول العربية ـ فيما عدا مصر ـ أعلن اليهود إنشاء دولتهم فى الأراضى التى كانت بأيديهم بالفعل . أما ماتبقى من فلسطين

فقد خضع للأمر الوقع : إذ وضعت الدول العربية التى لها جيوش فى داخل فلسطين يدها على البقاع التى تحتلها . وخرج الملك عبد الله من هذه المحنة بنصيب الأسد - إذ أعلن ضم الشاطىء الغربى لنهر الأردن ، وعدل اسم دولته فأصبحت المملكة الأردنية الهاشمية ...

إزاء هذه الأحداث ، التى خرج فيها الملك عبد الله على إجماع الدول العربية ، وآثر المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ، وعمل برأى أصدقائه من البريطانيين بدلا من أن يعمل بمشورة إخوانه من العرب ، إزاء كل ذلك ، لم يكن غريباً أن يحقد عليه العالم العربى بأسره .

وفى غمرة شاملة من هذا الحقد ، اغتيل الملك عبد الله ، فكان اغتياله ضربة قاصمة للنفوذ البريطانى فى الشرق الأوسط إذ أن بريطانيا كانت تعتمد عليه — كعضو فى الجامعة العربية — فى خلق المشاكل لهذه الجامعة ، كما أن بلاده كانت تعتبر مركزاً للنفوذ البريطانى فى العالم العربى ، ومحطة أمامية للدفاع عن قناة السويس إذا كتب للبريطانيين البقاء فيها .

صحيح أن مملكة الأردن ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة طويلة الأمد ، ولا سبيل إلى التحلل من قيودها ، وكلها لمصلحة بريطانيا . ولكن ليست العبرة بالمعاهدات المكتوبة ، وإنما العبرة بالروح التى تنفذ بها التعهدات التى تنص عليها المعاهدات .

ومحال أن تجد بريطانيا فى أى عاهل يتولى عرش الأردن ما كانت تلقاه من جلالة الملك الراحل من إيمان عميق بأهمية الصداقة البريطانية ، واعتماد كامل على المعونات البريطانية والمشورات البريطانية .

الفصل التاسع

بريطانيا فى العراق

قبل أن نتحدث عن علاقة بريطانيا بالعراق فى العصر الحديث ، يجدر بنا أن نستعرض بضعة أمور فى جغرافية هذا القطر وتاريخه ، تصويراً لمسرح الحوادث التى سنتناولها بالشرح :

* * *

من بين ما سيطرت عليه الدولة العثمانية ، وظلت مسيطرة عليه إلى عام ١٩١٥ ، ولايات ثلاث : هى بغداد والبصرة والموصل . وهذه الولايات الثلاث هى التى دخلت فى نطاق الانتداب البريطانى للعراق ، فكأن العراق بذلك لم يكن — تحت راية الأتراك العثمانيين — وحدة فى نظام حكمه ، ولعل السبب فى ذلك هو الاختلاف الواضح بين سكان هذه الأقاليم الثلاثة فى أصولهم وطباعهم ، وطرق معيشتهم ، مضافاً إلى ذلك رغبة رجال الباب العالى فى الإكثار من عدد الولاة ، مبالغة فى الاطمئنان على ولاء الأقاليم المحكومة ، وحيلولة دون قيام وال بذاته بالخروج على الدولة العلية ، اعتماداً على عظمة الأقليم الذى يحكمه .

أما قبل الفتح العثمانى ، فكان هذا الأقليم الذى شمله الانتداب البريطانى عبارة عن أقليمين : العراق ، وهو الجزء الجنوبى من العراق الحالى ، والجزيرة وهو الجزء الشمالى منه .

أما المخرج البحرى للعراق وهو الخليج الفارسى فكان فى العصور العربية الزاهرة بحراً عربياً ، أما فى العصر الحديث فلبريطانيا فيه

مصالح لا يستهان بها ، فعلى الساحل الشرقى لهذا الخليج تقع بلاد إيران ، ومصلحة بريطانيا فى التدخل فى شئونها من الناحية السياسية والاقتصادية لا تخفى .

ذلك أن السياسة الدولية فى القرن التاسع عشر كانت تقوم على المنافسة الجنونية بين بريطانيا وروسيا ، ولما كانت روسيا تتاخم ايران من الشمال ، وتحاول التدخل فى شؤونها بين حين وآخر ، لذلك وجب على بريطانيا أن تحاول التدخل فى شئون إيران من الجنوب والغرب . وبذلك أصبحت إيران معرضاً للتنافس الدولى بين العدوتين التقليديتين بريطانيا وروسيا .

أما المصالح الاقتصادية . فقد استطاعت بريطانيا أن تتفق مع ايران على استخراج البترول من أرضها ، وتأسست شركة البترول الايرانية البريطانية ونشطت بريطانيا لحماية حصتها من هذا البترول بالسيطرة على مقاليد الملاحة فى الخليج الفارسى على الأقل .

أما على الساحل المقابل (الساحل الغربى لخليج العجم) فقد كانت لبريطانيا كذلك مصالح لا يستهان بها ، ومن جراء هذه المصالح ، وفى أخريات القرن التاسع عشر ، إستطاعت بريطانيا أن تتدخل سافرة فى شئون الأمارات العربية الواقعة على الخليج ، وقد سهل لها ذلك تهاون الباب العالى وأجابته للمطالب البريطانية التى كانت تقدم له بين آن وآخر فكان السلطان يمنح البريطانيين الامتياز تلو الامتياز وهو لاه عما تدبره السياسة البريطانية من تحكم وسيطرة على هذه الأقاليم التى عرفت فيما بعد باسم المحميات البريطانية .

وبهذا الوضع صار للبريطانيين نفوذ كبير فى الخليج الفارسى ، وهو المخرج البحرى الوحيد للعراق . فلا غرابة إذن فى أن تتجه أنظار البريطانيين إلى العراق بعد أن حصرته بحريا .

ولما كانت سياسة بريطانيا فى هذه المنطقة تعتبر مكملة لسياستها فى الهند ، وكان الانسجام ضروريا بينهما ، فقد وكلت الحكومة البريطانية شئون الخليج الفارسى ، من سياسية واقتصادية ، إلى حكومة الهند ، وجعلتها من صميم اختصاصها .

وظلت الحال كذلك إلى أن قامت الثورة العربية ضد الأتراك العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى . ولما كان مركز الاتصال بين العرب والبريطانيين فى القاهرة ، يديره السير هنرى مكماهون ، فقد لزم أن ينتقل مركز الثقل فى سياسة بريطانيا فى الخليج الفارسى والعراق من الهند إلى مصر وكان ذلك حوالى سنة ١٩١٧

ولم تقتصر مشاكل العراق على حدوده البحريه ، فأن مشاكل الحدود البرية كانت ولا تزال أكثر تعقداً . فالعراق لا تفصله عما حوله من دول حدود طبيعية كالجبال والأنهار ، وانما حدوده خطوط وهمية موقعة على الخرائط ، أما على الطبيعة فهى لا تعدو أن تكون خطوطاً من الاسلاك الشائكة ، محروسة أو غير محروسة ، وفقا لظروف الأقليم ومشاكل الحدود فيه .

ومن الأمور التى تجب ملاحظتها عند البحث فى علاقة بريطانيا بالعراق أو علاقة الأسرة الهاشمية بعرش العراق ، الظروف التى كانت تحيط بجيران العراق وقت أن كان فيصل يسعى الى الجلوس على العرش فيه

ففى تركيا ، كانت النهضة الكمالية قد بلغت أوجها . بعد أن تحررت من ربقة التحكم الأوربى فى مصيرها ، ومما لا شك فيه أن نهضة كالنهضة الكمالية فى تركيا ، وانتقال مقر الحكومة من أوربا إلى آسيا ، كان ذا أثر فى نفسية الشعوب العربية . ومما لا شك فيه كذلك أن شمالى العراق كان

ولا يزال يختلف عن جنوبيه فى كثير من الوجوه . ومن مشاكل الشمال وجود الأكراد فيه . ومن قضاياهم : هل يستقلون ، أم يتبعون لحكومة العراق ، أم ينضمون إلى الجمهورية التركيـة ، وكل ذلك يؤثر بدوره فى استتباب الأمر للحكومة الجديدة فى العراق .

وفى إيران ، جارة العراق من ناحية الشرق ، كانت المنافسة الروسية البريطانية قد بلغت أوجها ، وبدأ البريطانيون فى التدخل فى شئون إيران تدخلا يقضى على استقلالها ، فثار الشعب على الحكومة المحلية ، ونصحت الحكومة البريطانية للشاه أحمد ، آخر سلالة آل قاجار، الذين كانوا يحكمون إيران، بالسفر إلى الخارج تخلصاً من المشاكل التى أثارها رضا خان الذى استطاع أن يوحد كلمة الجيش ، ويضع نواة الإصلاح الحديث ، ويمهد الطريق لقيام دولة جديدة فى إيران وتتويج نفسه شاها عليها .

وفى الجزيرة العربية ، جارة العراق من الجنوب الغربى، قامت الدولة السعودية ، قوية فتية ، يتولى الملك فيها آل سعود ، الأعداء القدامى للأسرة الهاشمية، التى كان فيصل، وهو فرع من أينع فروعها ، يسير بخطى وئيدة نحو عرش العراق الذى وسده له البريطانيون .

ولم تكن ثورات تركيا وإيران ونهضة الجزيرة العربيه هى كل ما يتفاعل فى الموقف السياسى فى الشرق الإسلامى . فإن مصر قامت بثورتها الأولى ضد الاحتلال البريطانى، وتفاقمت الثورة بحيث ألزمت البريطانيين العمل على معالجة الأمر فى حزم وروية . وكذلك ثارت الهند ثورتها ضد الاستعمار البريطانى فكأن الشرق الإسلامى كان يغلى بالثورات التقدمية فى كل مكان .

هذه هى أهم المظاهر التى أحاطت بظهور دولة العراق من الناحية

الدولية وهى جديرة بأن تجعل لمجريات الأمور فى العراق طابعاً خاصاً

ولم تقتصر المؤثرات فى نهضة العراق على هذه الاعتبارات الدولية ، بل كانت هناك مؤثرات داخلية لا يستهان بها . ومن أهم هذه المؤثرات مشكلة الأقليات .

لقد كان يكفى العراق من المشاكل الداخلية أن ينقسم فيه المسلمون العرب إلى شيعة وسنة ، وأن يتمسك كل فريق بتقاليده وأساليب عبادته ومعيشته ، وأن يكفل لكل من الفريقين نسبة خاصة فى المجالس النيابية والمقاعد الوزارية . ولكن شاءت الأقدار أن تشمل أرض العراق مجموعة من الأقليات .

والأقليتان الرئيسيتان فى العراق هما الأشوريون والأكراد . أما اليهود والبهائيون والزيديون ، فتلك أقليات لم تلعب فى تاريخ العراق دوراً يذكر .

الأشوريون

عقدت السيدة سنورث أرسكين فى كتابها فيصل ملك العراق ، فصلا قصيراً عن الاشوريين قالت فيه :

« من هم الأشوريون ؟ هل هم بقية شعب بائد ، أم فرقة من الفرق الكاثوليكية المسيحية ؟ والذى يغلب على الظن أنهم الإثنان معاً .

« لقد رأينا كيف يمكن لجماعة غلبت على أمرها أن تظل فى أرضها بعد زوال سلطانها ، وانهيار ملكها ؛ ومن المؤكد أن هذه الجماعة التى تسكن حول الموصل وبالقرب من نينوى عاصمة الأشوريين الغابرة ، هى نسل الأشوريين السابقين ، ويؤيد هذا الرأى الأستاذ ويغيرام فى كتابه

(الأشوريون وجيرانهم) فهم يتفقون فى عاداتهم وتقاليدهم وملامح وجوههم مع الأشوريين السابقين ، فهم والحالة هذه بقايا ذلك الشعب الجرىء القوى ، وهم وأن كانوا من المسيحيين اليوم ، فلا يبعد أن يكونوا ما يزالون يعبدون (أشور) رب الحرب وحامى الإمبراطورية القديمة السالفة .

« وتاريخ الأشوريين فى الأجيال الماضية ، وبعد سقوط نينوى العاصمة سنة ٦٠٧ قبل الميلاد لا يضطرب فى كبير أمر ، وقد دخلت إليهم المسيحية بعد ٢٥٠ سنة من نشأتها ، وكانوا لا يزالون يعيشون فى مواطن إمبراطوريتهم الغابرة ، كذلك كان مصير بقايا الشعب الكلدانى أو البابلى الذى كان يعيش على مقربة منهم . فقد اعتنقوا المسيحية مثلهم . ولما كان الأشوريون شعباً تواقا للاستقلال والحرية حتى فى شئونه الدينية ، فقد راحوا ينفصلون عن الكنيسة الكاثوليكية ، ويقيمون لأنفسهم كنيسة خاصة ، وما يزال هذا حالهم حتى العصر الحاضر ، فإن لهم بطريركا خاصا هو زعيمهم الدينى والسياسى معا .

« وظل الأشوريون أغرابا عن الجماعات التى تعاقبت على حكم بلادهم وقد تناولتهم هذه الجماعات بالعسف والظلم ، ولكنهم كانوا يتركون فى أكثر الأحايين يعيشون على أسلوبهم ، ويتوفرون على المحافظة على تقاليدهم وعقائدهم ، وكان أكثر ما نزل بالأشوريين من العسف أيام تيمورلنك لما غزا البلاد العربية . وقد هربوا منه إلى الجبال وظلوا بها حتى قيام الحرب العالمية (الأولى)

« وبرغم ما كان يصيبهم من اضطهاد وعسف ، تمكن هذا الشعب من المحافظة على نفسه من الانقراض ، وظلوا قوما أشداء يغزون جيرانهم إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا ...

« ولما كثر الاضطهاد عليهم ، إنقسموا إلى شعبتين، ذهبت إحداهما إلى جهات فارس يسكنون فيها ، وظل الباقون فى بعض الجبال العراقية ، ولكنهم لم يفقدوا مزاياهم العنصرية ، وملامحهم الأشورية القديمة ، حتى أن من يراهم لأول وهلة يحكم بأنهم من الأشوريين وإن كان لا يعرفهم وقد ظل الأشوريون يحافظون على اللغة السريانية فى كنائسهم وحوارهم.

« وهم لا يزالون يعيشون عيشة بداوة ، ويختلفون فى ميولهم عن الأكراد . والزعامة عندهم وراثية تنتظم لعائلة واحدة ، ويصار إلى إنتخاب الزعيم أو البطريرك من هذه العائلة بشرط أن يكون عزبا لأن زواج البطريرك محرم عندهم .

« فلما إشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى ، وقف الأشوريون مترددين بادئ الأمر ، ولكنهم لما علموا بإعلان الترك للجهاد العام ، إعتزموا النزول إلى المعركة ومساعدة الحلفاء ، ومشى بعض رجال الدعاية الروسية يحملونهم على حمل السلاح ، ويعدونهم بوفرة الذخائر والأموال وغير ذلك ، وكان الترك قد وعدوهم بالإصلاح يوم إعلان الحرية ثم لم يفوا بوعدهم ، مما حمل الأشوريين على الاعتقاد بأن مصائرهم لا تتفق مع مصائر الترك فى سبب من الأسباب ، وأنهم إذا ساعدوا الحلفاء فقد ينالون منهم ما لم ينالوه من أسيادهم الغابرين ، فرفعوا راية الثورة ونزلوا إلى المعركة ، فلم يوفقوا فى أول الأمر كل التوفيق بسبب الثورة الروسية وانقطاع المعونة عنهم من الروس، وعدم تمكنهم من توحيد صفوفهم مع البريطانيين فى بغداد . وراح الترك يهاجمون معاقلهم فى الجبال الواقعة على الحدود التركية العراقية بشدة وعنف ، فلما رأى الأشوريون غاية الترك فى تطويقهم ، اعتزموا مغادرة مواطنهم مهما كلفهم الأمر ، والقدوم إلى العراق حيث ينتظرهم الجيش الإنجليزى .

« وكان عملهم شاقا ، ومسيرهم إلى العراق فى أرض تركية أمراً صعباً محفوفا بالمخاطر ، وكان عددهم يبلغ السبعين ألفاً فوصل نصفهم إلى بغداد فأنزلهم الانجليز فى منازل خاصة ، وقطعوا لكل فرد منهم عطاء جندى ، وظل الحال كذلك مدة ثلاث سنوات حتى انتهاء الحرب .

وكان مصير هؤلاء الأشوريين من الأمور الصعبة التى لم يوفق الإنجليز إلى إيجاد حل لها . فأسلموهم إلى الحكومة العراقية تنظر فى أمرهم ، والعراق ، وان كان غير كثير الاهتمام بشأنهم ، الا أن مساعدتهم له فى الحرب العامة ، ومغادرتهم مواطنهم بسببه ، حمله على العناية بهم . ولكن سوء التفاهم وعدم الألفة كان أمراً واقعاً بين الشعبين ،

وقد فكر بعض الأشوريين فى أن تعطى لهم أرض على الحدود التركية العراقية يقيمون فيها ، ويؤسسون بها دولة خاصة بهم ، ولكن هذا المشروع سقط من أساسه لصعوبة تطبيقه ، ولرفض الحكومتين التركية والعراقية له ، ولم يكن من الممكن إبقاء الأشوريين فى المنازل التى أنزلهم فيها الانجليز مدة الحرب ، فأرسل بعضهم إلى بلاد الكرد يعيشون فيها ، فلم تنجح الخطة لاختلاف الذهنية بين الشعبين . وراح جماعة آخرون يعيشون عيشة هادئة فى أرض أعطيت لهم ، مما حمل الحكومة العراقية على الظن بأن المسألة الأشورية قد انتهت ، وأن الأيام ستعمل عملها بشأنها .

« ولكن تدخل جمعية الأمم فى الأمر أثار المسألة من جديد ، إذ راح رجال الجمعية يقولون إن الأشوريين قوم ثائرون ، وأن الحق يقضى برجوعهم إلى البلاد التركية ، وكانت مواطنهم فيها لا تزال بغير سكان ، ولو أعطيت هذه الارض للعراق لانتهى الأمر واستقر العدل فى نصابه .

« أما بطريرك الأشوريين (مارشمعون) الذى تثقف فى انجلترا تحت إشراف رئيس أساقفة كانتربرى ، فقد كان يريد الاستقلال لأمته ، وهو إستقلال كان من الصعب أن ترضى به العراق ، إذ لا يجوز قيام دولتين مستقلتين فى موطن واحد .

« وليس إهتمام العالم بالأشوريين ومصايرهم يرجع إلى وجود هؤلاء بين المسلمين ، بل إن السبب فى ذلك يعود إلى التضحية التى قام بها هؤلاء أيام الحرب فى سبيل الحلفاء ،وبسبب هذه التضحية فقط ، كان العالم ينظر إليهم نظرة عطف ورحمة .

الأكراد

منذ القرن الرابع الهجرى ، إستوطن الأكراد بعض أنحاء العالم الإسلامى فى عهد الدولة العباسية ، وأول مكان نزلوا به أقليم جبالة بزعامة رئيسهم حسنويه . وقد تحدث عنهم الرحالة المسلمون فقال إبن المهلهل أنهم كانوا يبلغون ٦٠,٠٠٠ خيمة . أما المستوفى فيقرر أن مدينة شهر زور كانت مدينة عامرة يسكنها الأكراد . ويذكر المقدسى أن الأكراد كانوا قبائل استوطنت هذا الأقليم وعاشت على الزراعة ورعى الغنم وأنه كانت لهم قلعة شامخة .

وفى أقليم جباله ، انتحى الأكراد ناحية الغرب ، وأقاموا لأنفسهم شبه دولة عرفت فى التاريخ الإسلامى باسم كردستان أى بلاد الأكراد

ولم تقتصر إقامة الكرد على أقليم كردستان ، بل انتشروا فى الشماله الشرقى من العالم الإسلامى المعروف وقتذاك، فاستوطنوا كوهستان وسجستان وقد ذكرهم الرحالة ماركو بولو باسم مملكة « تونوكان » نسبة إلى مدينتيهم الكبيرتين وقتذاك تونو وكان

والكرد شعب شجاع يحب الحرية ويتوق إليها، ولهم تقاليدهم ولغتهم ولم يؤخذ عليهم إلا الخلاف الدائم بين زعمائهم حول الزعامة ، ولولا هذه الخلافات المتوالية بين زعمائهم لكان لهم فى التاريخ الوسيط والتاريخ الحديث شأن غير شأنهم اليوم .

وبالتقسيم الجغرافى الحديث ، أصبحت مواطن الأكراد شائعة بين دول كبرى ثلاث : تركيا وإيران والعراق . وتدل الإحصاءات الحديثة على أن مليونا ونصف مليون منهم يسكنون الأراضى التركية ، ويسكن إيران ٧٠٠ ألف منهم ، ويسكن العراق ٨٠٠ ألف .

وفى العراق يقيم الأكراد شمالى جبل حاريم . وفى المنطقة الجبلية التى تقع بين نهر دجلة ومنطقة الحدود بين العراق وإيران .

ولما كان هذا الشعب الكردى يختلف عن الشعوب الثلاثة : التركى والإيرانى والعراقى ، فى اللغة والعادات والتقاليد ، فضلا عن أنه شعب لم يألف الضيم ولم يخضع لحكومة قوية خضوعا تاما فى يوم من الأيام ، فقد حاول الأكراد أن ينتفعوا — فى أخريات الحرب العالمية الأولى — بما قرره الرئيس ولسن رئيس الولايات المتحدة من حق الشعوب فى تقرير مصيرها . فتضافرت جهود أكراد العراق وأكراد تركيا على المطالبة بإنشاء وطن قومى للأكراد . أما أكراد إيران ، فإنهم لم يساهموا بقسط يذكر فى هذه الحركة .

غير أن هذه الجهود الذى بذلها الأكراد كانت تقف فى سبيلها أمور ثلاثة ، أهمها أن إنشاء مثل هذا الوطن دون أن يكون له مخرج على بحر من البحار يجعل الوطن الجديد غير مستوف لشروط الاستقلال ، كما يجعله خاضعا لجيرانه على الدوام فى السياسة والاقتصاد . هذا إذا سلم

جدلا بأن تركيا من ناحية ، والعراق من الناحية الأخرى ، ترضيان بقيام هذا الوطن .

أما العراق ، فكان لا يرضى بحال أن تنفصل عنه الموصل وهى الولاية التى تسكنها الغالبية الكردية . وقد كان العراق وقتذاك منطقة إحتلال بريطانى لم يلبث أن استبدل بانتداب بريطانى ، وفى كلتى الحالين كان العراق خاضعا للنفوذ البريطانى فى السياسة الدولية على الأقل. ولذلك وقفت الحكومة البريطانية موقفا لا تحمد عليه بين مطالب أهل العراق ومطالب الأكراد فكان من آثار ذلك أنها تمشت مع مقررات مؤتمر الصلح ، ووقفت تترقب الأحداث .

أما تركيا ، فقد خرجت من الحرب العالمية الاولى كسيرة الجناح ، وكانت سياسة الحلفاء تجرى على اقتطاع كل ما يمكن اقتطاعه من أملاكها كسراً لشوكتها . فلما عقدت معاهدة سيفر فى ١٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ نص فيها على أجابة مطالب الأكراد العراقيين والأتراك مع بعض التحفظات ، على أنه كتب على معاهدة سيفر أن تقبر فى مهدها ، بظهور النهضة الكمالية فى تركيا ، وبذا قضى على آمال الأكراد فى وطن مستقل .

ولما كانت بريطانيا تعمل دائما على اجتذاب الأقليات نحوها فى البلاد التى تسيطر عليها ، فقد أدلى المندوب السامى للعراق بتصريح للأكراد فى ٦ مايو سنة ١٩٢١ قال فيه : إن المندوب السامى يضع نصب عينيه الترتيبات الإدارية الي ينبغى القيام بها من أجل مستقبل الأقاليم الكردية فى العراق ، وقد نمى اليه أن هنالك مخاوف من أن يقاسى الأكراد من جراء خضوعهم للحكومة الوطنية المنشأة فى بغداد ، ومن أجل هذا السبب وجدت بعض المطالبة بنظام استقلال ذاتى .

« وفى نفس الوقت أعتقد أن زعماء الرأى الأكراد متنبهون تماما للروابط الاقتصادية والصناعية التى تربط مناطقهم بالشعب العراقى ، وللمصاعب التى قد يتضمنها انفصالهم ، فى هذه الظروف يرغب سعادته فى أن يقف بقدر الإمكان على الرغبات الحقيقية للطائفة الكردية . وإذا ما آثروا البقاء فى ظل الحكومة العراقية ، فإنه على استعداد لأن يوصى مجلس الدولة بحل على الاسس الآتية :

وقد قسم المندوب السامى بلاد الأكراد — الواقعة ضمن الحدود العراقية — إلى أقسام ثلاثة : الموصل ، وأربل ، والسليمانية

(ا) أما فى الموصل فتكون الإدارة لمتصرف بريطانى له نواب بريطانيون يستبدل بهم أكراد أو عرب يتكلمون الكردية، ويرضى عنهم الأكراد . ويتبع هذا القسم حكومة بغداد فى الشئون المالية والاجتماعية ويرسل ممثلين إلى الجمعية الاستشارية ، ويقوم المندوب السامى بإجراء التعيينات الإدارية الخاصة به .

(ب) أما فى أربل ، فيعمل المندوب السامى على تعيين موظفين بريطانيين لإدارتها .

(ج) أما السليمانية فتعتبر متصرفية يحكمها متصرف يعاونه مجلس ، ويعينه المندوب السامى ومعه مستشار بريطانى .

وواضح من هذه التفرقة فى المعاملة أن الانتداب البريطانى قسم بلاد الأكراد الى ثلاث مراتب : أقربها الى الاستقلال السليمانية ، ثم تأتى بعدها الموصل . أما أربل فقد ضن عليها بكل شىء .

ومن العجيب أن أكراد الموصل وأربل قبلوا الوضع الجديد ، بينما

رفضته السليمانية ، واستهدفت لبقاء الحاكم السياسى البريطانى عليها مستمداً سلطته من المندوب السامى .

وعندما دعيت البلاد لتقول كلمتها فى اختيار الامير فيصل ملكا على العراق ، امتنع لواء السليمانية عن التصويت فى حين صوت أكراد الموصل وأربل إلى جانب فيصل مع تحفظات طالبوا فيها باتخاذ إجراءات تحقق لهم الحكم الذاتى .

ولا نستطيع أن نؤرخ للأكراد فى العراق دون أن نذكر طرفا من سيرة زعيمهم الشيخ محمود . فهو شيخ من كبار شيوخهم تعرف أسرته باسم البرزنجية وكانت تتمتع فى القرن التاسع عشر بنفوذ روحى وزمنى فى السليمانية أيام الحكم التركى ، وقد ثار الشيخ محمود على السلطات التركية عام ١٩٠٨ ، وظل ثائرا عليها ، يتركز نفوذه تارة ، وينطوى على نفسه تارة أخرى ، حتى كانت الحرب العالمية الأولى ، فاتصل بالبريطانيين عله يستطيع أن يقتلع لبلاده الاستقلال عن الإدارة التركية . وضم جماعته إلى الجيش البريطانى الزاحف،فظل على انسجام مع القوات البريطانية المحتلة للعراق حتى كانت سنة ١٩١٩ فلما طالب الأكراد بزعامة الشيخ محمود بحق تقرير المصـــير ، ولم يمتثل لنصح البريطانيين له بالأناة ، وثار فى وجه البريطانيين ، صدر الأمر بنفيه مع أخيه الشيخ قادر . ولم يكن من السهل على الأكراد أن يفرطوا فى زعيمهم الروحى بهذه السهولة ، فتوالت المطالبة بعودته ، وأخيراً استجابت الحكومة البريطانية لمطالب أكراد السليمانية ، وعاد الشيخ محمود إلى وطنه فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ وعين حاكما على السليمانية ، إلا أنه لم يلبث أن تآمر مع العشائر المجاورة على الحكومة العراقية ، فنادى بنفسه — بعد شهر واحد من عودته — ملكا على كردستان . وتدعى المصادر البريطانية أن الأكراد إنقسموا وقتئذ إلى

متطرفين ومعتدلين، وأن الشيخ محمود كان يمثل المتطرفين بسياسته التى لم يقره عليها المعتدلون . وأياكانت الحال ، فإن الحكومتان البريطانية والعراقية لم تجدا بدأ من إصدار تصريح مشترك يعترف بحقوق الأكراد فى أرض العراق فى أن يؤسسوا حكومة كردية بالتفاوض مع حكومة العراق

لم يرض الشيخ محمود عن هذا التصريح الذى لايعدو فى نظره أن يكون مجرد وعد مشروط ، فقام بمهاجمة كيركوك فتحركت القوات البريطانية وطردت قواته ، لا من كركوك فحسب ، بل من السليمانية أيضاً .

ورغبة من جانب حكومة العراق فى تأليف قلوب الأكراد ، قرر مجلس الوزراء العراقى فى ١١ يوليو سنة ١٩٢٣ أن تكون للأكراد الامتيازات الآتية :ـــ

١ ـــ عدم تعيين موظفين من العرب فى مناطقهم

٢ ـــ عدم فرض اللغة العربية عليهم

٣ ـــ ضمان الحقوق المدنية والدينية لهم .

وبذلك أمكن أن يشترك الأكراد فى الانتخابات العامة سنة ١٩٢٤ لم يقنع الشيخ محمود بهذا الوضع ، فاستمر فى مناوأته للحكومة ، واستطاع أن يستعيد السليمانية ، فخرجت إليه الجيوش العراقية وقوات الانتداب ، وظلت تطارده تارة وتستميله أخرى حتى كانت سنة ١٩٢٧ فانسحب الشيخ محمود من الأراضى العراقية ليعيش فى إيران . إلا أنه بذل فى سنة ١٩٣٠ محاولة للتدخل عسكريا فى شئون العراق ولكنها باءت بالفشل .

أما عامة الأكراد فقد استسلموا ـــ فى حذر ـــ لحكومة العراق . ولذلك نراهم يشتركون فى انتخابات سنة ١٩٢٨ . ثم يتقدمون بمذكرة إلى رئيس الوزراء يستنجزون فيها حكومة العراق وعودها ، ويطالبون بزيادة ميزانية التعليم والخدمات العامة ، وانشاء إدارة كردية خاصة . وقد أجابت

حكومة العراق هذه المطالب إلا فيما يختص بالإدارة الكردية المستقلة .

ولما دارت المفاوضات بين حكومة العراق والحكومة البريطانية بشأن إنهاء الانتداب والاستعاضة عنه بمعاهدة تحالف بين الدولتين . خشى الأكراد أن ينفرد العراقيون بالتصرف فى شئونهم ، ولكن الجمعية الدائمة للإنتدابات كفتهم مؤونة الكفاح ، فطالبت بأن تقدم الدولة الجديدة ضمانات جدية لحماية الأقليات الجنسية واللغوية والدينية حماية كافية . فصدر من بغداد فى ٣٠ مايو سنة ١٩٣٢ تصريح حول معاملة الأقليات جاء فيه :

(المادة الرابعة) : كل الوطنيين العراقيين متساوون أمام القانون ، ويتمتعون بنفس الحقوق المدنية والسياسية دون تمييز بين الأجناس واللغات والأديان ، وسوف يضمن نظام الانتخاب تمثيلا عادلا للأقليات الجنسية واللغوية والدينية فى العراق . ولا تفرض أية قيود على كامل حرية المواطن العراقى فى التخاطب بأية لغة .

وفى ظل الحكومة الجديدة ، حدثت بعض القلاقل فى بلاد الأكراد بزعامة ملا مصطفى الذى كان معتقلا فى السليمانية منذ سنة ١٩٣١ ، ولكن الحكومة العراقية كانت تسيطر على الموقف فى كثير من الأحيان .

وزار ملا مصطفى مدينة بغداد فى فبراير سنة ١٩٤٤ ، يصحبه مجموعة من الزعماء البرزانيين ، وقدموا ولاءهم للعرش العراقى وفق شروط اتفق عليها الطرفان تحفظ للحكومة هيبتها وتؤمن الأكراد على مصالحهم القومية

وفى أغسطس سنة ١٩٤٥ ، ثار ملا مصطفى مرة جديدة فى شمال كردستان ولكنه لم يوفق ، فعبر الحدود مع بعض رجاله متجها إلى كردستان الإيرانية حيث اتخذ مقامه فيها

ولا يفوتنا أن نذكر أن رجال الحكم فى العراق لم تكن لهم فى يوم من الأيام حرية البطش بالأمانى القومية الكردية لسببين :

الأول : ماعرف عن الأكراد من قوة الشكيمة ، وما وهبتهم الطبيعة من بلاد لايسهل الوصول اليها . وآية ذلك أن المسافر — حتى ولو كان سائحا — لا يستطيع أن يدخل أرض الأكراد إلا فى حماية زعيم من زعمائهم ، مهما حسنت صلته بالحكومة العراقية . لا بل إن حسن صلته بالحكومة العراقية تكون دائما من الأسباب التى توجب التلكؤ فى السماح له بالدخول .

الثانى : أن العراق العربى منقسم إلى شيعة وسنة . وتكاد تتساوى الكفة بين الفريقين . والأكراد من المسلمين السنيين ، وبذلك هم الذين يرجحون كفة السنة على كفة الشيعة إذا كانوا على صلة طيبة بالمراجع العليا (وكلها سنية) لذلك نرى ولاة الأمور من السنيين يحرصون على أن لايغضبوا الأكراد إغضاباً يخرجهم عن دائرة الاعتماد عليهم فى الشئون الانتخابية والنيابية .

* * *

والآن ، وقد انتهينا من تصوير المسرح الذى جرت عليه الحوادث ، نبدأ بالحديث عن مجريات الأمور فى العراق .

* * *

وتصور السيدة « سيتون ويلز » فى كتابها (بريطانيا والدول العربية) الموقف بين العراق وبريطانيا على الوجه الآتى : —

« فى الوقت الذى دخل فيه العراق فى دائرة النفوذ البريطانى لم تكن لدى بريطانيا سياسة مقررة لهذه البقاع ، وهذا راجع إلى حد ما إلى وجود مدرستين للتفكير فى بريطانيا فيما يختص بالشرقين الأدنى والأوسط وبالشئون العربية . ولم يأخذ المندوب السامى البريطانى فى مصر على عاتقه

مهمة علاقات الحكومة البريطانية بالشئون العربية — وكانت سابقا تتبع حكومة الهند — إلا من مارس سنة ١٩١٧

« وكان مكتب الشئون العربية القائم فى القاهرة ، والذى كان يمثل وزارة الخارجية البريطانية ، ينظر إلى الأمور من زاوية البحر الأبيض المتوسط ، ولم يكن يهتم بالهند إلا عن طريق غير مباشر . ومن أجل هذا أيد الأسرة الهاشمية ، بصفتها أنسب أداة لتحقيق أهدافه . أما المدرسة الأنجليزية الهندية فقد كانت تنظر إلى السياسة العربية من زاوية الهند والخليج الفارسى ، ولهذا كانت تفضل تأييد ابن السعود على تأييد الحسين شريف مكة .

« وقد أدت رغبة حكومة الهند عن إثارة العرب ضد الأتراك ، خوفا من حدوث رد فعل فى الهند ، إلى قلة الجنود العرب غير النظاميين فى بلاد العراق .

« ولهذا كانت مراكز القومية العربية تقع خارج العراق . ولكن بعض البارزين من ضباط فيصل كانوا من العراقيين الذين تدربوا فى الجيش التركى . ومع أنهم كانوا ضباطا فى جيش الشريف ، إلا أنهم كونوا ما بين عامى ١٩١٧ و ١٩١٨ جمعية تسمى « عهد العراق » هدفها ضمان استقلال العراق . وقد يكون من أهدافها أيضا تحقيق نوع من الارتباط بسوريا . وقد تقلد أعضاء هذه الجمعية — من أمثال نورى السعيد وجميل المدفعى وجعفر العسكرى — مراكز عليا فى دولة العراق الفتية .

« وقد احتلت القوات البريطانية العراق كجزء من الإمبراطورية العثمانية ، فسقطت بغداد فى ١١ مارس سنة ١٩١٧ . وقامت حكومة عسكرية ، ولكن فى المناطق التى كانت خارج نطاق العمليات الحربية ، قام

بالإدارة مستشارون مدنيون ، اختيروا من إدارة الهند السياسية . وكانوا يتبعون السلطات العسكرية .

« وبتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٩١٧ ، صدرت وثيقة توضح أن حكومة صاحب الجلالة ، وليست حكومة الهند . هي التي ستقوم بإدارة أراضي العدو المحتلة .

« وفي اكتوبر سنة ١٩١٨ نشرت مبادئ (ولسن) الأربعة عشر وأخذت تتشكل فكرة الاستقلال . وقد نصت المادة الثانية عشرة على أن يضمن للقوميات التي كانت خاضعة للحكم التركي الأمن على حياتهم ، وأن يفسح لهم المجال ، دون إضرار بهم ، للتطور نحو الحكم الذاتي ...

« وكان من الصعب إلى حد كبير التعرف على رغبات السكان الوطنيين وذلك لانقسامهم انقساما لا أمل في علاجه . وقد أدت سياسة التسويف بعد حرب ١٤/١٨ ، تلك السياسة التي نشأت عن البطء في معالجة معاهدات الصلح ، وما ترتب على ذلك من حاجة الحكومة الإدارية إلى سياسة صريحة ، وما أصاب العرب من خيبة لآمالهم بسبب المسألة السورية — كل هذا أدى إلى ازدياد السخط على البريطانيين ، وتطور هذا بدوره إلى إثارة الخواطر ضد بريطانيا .

« وفي ابريل سنة ١٩٢٠ ، قبلت حكومة صاحب الجلالة الانتداب على العراق بعد مؤتمر سان ريمو ، وأعلن ذلك في العراق في ٣ مايو .

« ولكن في تلك الأثناء حركت الدوافع القومية والدينية رجال العشائر إلى القيام بالثورة . وقد اقتصرت الثورة الرئيسية على منطقة أواسط الفرات وديالى الأدنى ، ولم تمتد إلى عشائر الصحراء وعشائر دجلة ، واقتصر نشاطها إلى حد كبير على حفنة من الموظفين السياسيين

الذين بقوا فى مناصبهم ، ولم يحل اكتوبر حتى كانت الثورة قد قضى عليها إلى حد كبير ، وفى هذا الوقت بالذات وصل السير برسى كوكس باعتباره أول مندوب سام .

وبينما كانت هذه الأحداث تجرى فى العراق ، كان الفرنسيون قد قرروا فى سورية إبعاد الأمير فيصل عن البلاد ، بعد أن اتهموه بتدبير المقاومة الوطنية للجيوش الفرنسية . فاستسلم فيصل ، ورحل عن دمشق فى ٢٨ يوليه سنة ١٩٢٠ وسافر إلى ايطاليا ينتظر تطور الأمور .

وبينما كان فيصل مقيما فى إيطاليا ، كان العراق يغلى بالثورة ، والأموال البريطانية والأرواح البريطانية تلقى مصرعها فى فيافى العراق ، مما أثار الرأى العام فى بريطانيا ضد سياسة الإنفاق على الجيوش فيما وراء البحار مما كان سببا فى مضاعفة الضرائب ، وحرمان الشعب من كثير من ضرورياته .

وهنا وجدها السياسيون البريطانيون فرصة لإصابة هدفين فى وقت واحد ، اتصلت الحكومة البريطانية بفيصل ، ورشحته ملكا للعراق ، فى ذلك إرضاء للعرب ، وتحقيقا لشىء من أمانيهم ، وتقليلا لنفقات الانتداب وما استلزمه من مال وعناء لقمع الاضطرابات .

فيصل ملك العراق

قبل أن نتحدث عن فيصل ملك العراق ، يجدر بنا أن نشير إلى ملابستين هامتين فى تاريخ هذا الزعيم العربى .

أما الأولى : فهى أنه ابن الشريف حسين ومبعوثه إلى أوربا وبريطانيا للدفاع عن قضية العرب كما كان يراها الحسين . والعالم الإسلامى بين محبذ

وناقد لتصرفات آل الحسين فى غضون الحرب العالمية الأولى ، وقد يكون الناقدون أكثر عدداً وأعظم قدراً من المحبذين ، ولذلك أحاطت بالملك فيصل هذه السحابة . والواقع أن آل الحسين لم تتح لهم الفرصة فى يوم من الأيام للدفاع عن وجهة نظرهم ، ولعلهم لو أتيحت لهم الفرصة لكان نصيبهم من المديح أكثر مما هو عليه ، ونصيبهم من النقد اقل مما هو عليه . يضاف إلى ذلك أن سلوك الملك عبد الله بإزاء الدول العربية فى السنوات الأخيرة قد جلب عليه سخط العالم العربى ، ومما لاشك فيه أن بعض هذا السخط قد تعداه إلى ذكر أخيه فيصل .

أما الثانية : فهى أن فيصل كان صديقاً حميماً للكولونيل لورنس . وكان يثق فى مشورته . ويأخذ برأيه ، وقد ساقه لورنس إلى العمل على ما فيه مصلحة بريطانيا، سواء أكان ذلك بسورية أم بالعراق . وفى يقيننا أن فيصل لم يكن خارجا على الوطن العربى — سواء أكان ذلك الوطن الحجاز أم سورية أم العراق — ولم يكن خائناً للقضية العربية . وإنما كان رجلا يعتقد أن صداقة البريطانيين كفيلة بأن تحقق أهدافه العربية . فكانت كل تصرفاته صدى لأمرين : الأول — أن فيما يصنع فائدة كبرى للعرب قد تتعرض للزوال إذا هو تراجع فيها متأثراً بنقد أو ملامة ، والثانى — أن هذا الذى يصنعه متفق عليه مع البريطانيين ، وأنه — لو خالفهم — لتعرضت المصلحة العربية للعبث .

أما مدى الانسجام بين ميوله الشخصية والمطالب القومية العربية ، فقد كان فيصل يرى الانسجام تاماً بينهما ، ولا وجه لتعارض المصلحة بينه وبين عامة العرب .

* * *

ومن خيرة من كتبوا عن الملك فيصل فى العراق السيدة أرسين وهى بحاثة فى تاريخ العرب أتيحت لها فرصة الاتصال بالملك والجلوس إليه والتحدث معه فى شتى الشئون العربية عامة ، والعراقية خاصة .

وقد نشرت كتابها « فيصل ملك العراق » فى سنة ١٩٣٤ . وهو كتاب لا يخلو من تقدير خاص لفيصل ، إلا أنه يحتوى على كثير مما لم يتيسر لغيرها الحصول عليه .

تقول الكاتبة إن الملك فيصل وصل إلى البصرة على باخرة حربية بريطانية ، فاستقبل فيها استقبالا ينقصه شىء من المرح ، لم يطلق فيه الناس لعواطفهم العنان ، وتعلل ذلك بأن البصرة كانت ترغب فى إدارة مستقلة عن العراق ، وأنها لم تكن ترجو فى النظام الجديد خيراً كثيراً .

أما فى بغداد ، فقد غادر الملك مكانه فى القطار ليستقبل تهانى المندوب السامى (السير برسى كوكس) وقائد الجيش العام ، وصفق الذين اجتمعوا حول المحطة من مختلف الطبقات الشعبية للأمير ، لما راح يتقدم الهوينا بلباسه الجميل ، وقامته العالية ، يستعرض حرس الشرف ، ثم يسلم على رجالات العراق من رسميين وغير رسميين ، الذين أخذ المندوب السامى يقدمهم له .

وتقول فى وصفها لأيامه الأولى فى بغداد .

واحتفلت به الجماعة اليهودية احتفالا شائقاً فى منزل الحاخام الأكبر ، فنجح فيصل كل النجاح فى التأثير على المجتمعين . ولما خطبهم أشار إلى ضرورة التفاهم بين العرب واليهود ، الذين تربطهم ببعضهم عنصرية واحدة هى العنصرية السامية ، كما أنه أشار إلى التأييد الذى تولاه به الإنجليز .

وكان يصرح ويؤكد للأقليات أنه مقيم على مبدأ المساواة فى الحقوق

والواجبات بين الرعية ، على اختلاف مذاهبهم الدينية وتعدد نزعاتهم ، ويروح يقول « نحن عرب قبل عيسى وموسى ومحمد » .

وفى وصفها لزيارة الملك فيصل لعرب العمارات والدليم فى مضاربهم تهتم السيدة بأن تورد لنا نصاً من كتاب الأستاذ الريحانى إذ يقول : إن الزعيمين لما بايعا فيصلا قالا له :

إننا نبايعك لأن الإنجليز قابلون بك .

وقد دبر الإنكليز ذلك ودبروا الحفلة لهذا الغرض ، لكى يسمع فيصل بأن الإنجليز هم أرادوه على العرش ، وأنه لولاهم لما تمكن من الوصول إليه .

وقد تلقى الملك هذه الكلمة بصدر رحب ، وبسمة عذبة ، وأطلق نظره إلى الآنسة جرترود بل ، السكرتيرة الشرقية فى دار المندوب السامى ، وكانت فى ركب الملك ، وهو يبتسم ابتسامة رقيقة المغزى ثم قال :

إن علاقتى مع الإنجليز معروفة ، ولا أحد يشك بها ، وموقفى العربى كذلك معروف ، إنما يجب علينا أن نصلح شئوننا نحن العرب ، ويجب علينا وحدنا أن نحسم كل ما بيننا من خلاف .

وتتحدث المؤلفة عن يوم التتويج فتقول :

ويقال بهذه المناسبة إن المستر تشرشل أبرق فى ذلك الحين يطلب أن يعترف فيصل فى خطبة التتويج بأن السلطة العليا فى البلاد هى المفوضية البريطانية .

بيد أن فيصلا أبى ذكر شىء من هذا ، فما راح يشير ، ولا بإشارة هامسة ، إلى السلطة العليا أو إلى الانتداب ، وإنما حصر كلامه بالمعاهدة التى ستعقد بين العراق وبريطانيا ، وتعهد بأن يرعاها ويدخلها فى صلب الدستور الذى سيسنه المجلس الوطنى .

ومما يحمد لفيصل أنه وقف هذه الوقفة من السياسة البريطانية على الرغم من أنه قبل عرشاً لم تثبت دعائمه . فقد كان المندوب السامى كل شيء فى البلاد . صحيح أنه منذ نوفمبر سنة ١٩٢٠ تأسس مجلس دولة لإدارة الشئون الداخلية ، على أن تنفرد حكومة الانتداب بشئون الجيش والشئون الخارجية . ومع ذلك فقد كان سلطان هذا المجلس صورياً لأنه مسئول أمام المندوب السامى لا أمام الشعب .

ومر عام كامل على هذه الأحداث ، كان العراق يضطرم فيه بثورة أشعلها مجتهدو الشيعة على الانتداب وأنصار الانتداب ، وانطلق الخطباء فى كل مكان يندددون بعهد الملك فيصل ويرمونه بأنه عطل سير البلاد نحو الحياة الدستورية ويستسلم لحكومة الانتداب ، ويطالبون بأن لا تعقد معاهدة مع بريطانيا إلا بعد صدور الدستور .

وحدثت من جراء ذلك أزمة بين الملك والمندوب السامى ، وطالب المندوب السامى باعتقال سبعة من الزعماء ، ولكن الملك فيصل رفض ذلك وهو على سرير المرض ينتظر إجراء عملية جراحية له . فانفرد المندوب السامى بالأمر وقبض على الزعماء السبعة ونفاهم إلى جزيرة جنهام فى خليج العجم ، وأقفل الناديين الوطنيين ، وعطل جرائدهما . واستبسل الجيش البريطانى فى قمع الثورة التى اندلع لهيبها فى أنحاء العراق ، فكانت الطائرات الحربية البريطانية ترمى مواطن القبائل بالمنشورات تتلوها القنابل ، كل ذلك والملك طريح الفراش على أثر العملية الجراحية التى أجريت له يوم أزمة اعتقال السبعة .

فلما أبل الملك من المرض ، بدأ يعالج الموقف بين العراق وبريطانيا بشيء من الكياسة والحزم اللذين علمتهما الايام له . وقد لعب فيصل فى

هذه الفترة دوراً تاريخياً للتوفيق فيما بين العراقيين الذين يتمتعون بوعى سياسى، والذين ضاقوا منذ البداية بنظام الانتداب، وتطلعوا فى عنف إلى نيل الاستقلال، وبين الدولة صاحبة الانتداب التى كانت تريد أن تطمئن على صداقة العهد الجديد لها .

وقد أسفرت هذه الجهود عن عقد معاهدة صداقة بين بريطانيا والعراق وكانت نية البريطانيين قد بيتت من قبل على أن لا تكون المعاهدة إنهاءاً لنظام الانتداب ، فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢١ أدلى المستر فيشر فى مجلس عصبة الامم بالتصريح التالى :

« يجب أن يكون مفهوما أن المعاهدة المقترحة تهدف إلى تنظيم العلاقات بين حكومة صاحب الجلالة كدولة صاحبة انتداب ، وحكومة العراق العربية ، ولا يقصد من المعاهدة أن تكون بديلا لنظام الانتداب الذى سوف يظل الوثيقة نافذة المفعول التى تحدد التعهدات التى تعهدت بها حكومة صاحب الجلالة أمام العصبة .

أثار هذا التصريح موجة من الاستياء بين العراقيين ، ونشط الملك فيصل لمعالجة الموقف للتوفيق بين أمانى العراق فى إنهاء الانتداب، وتمسك البريطانيين به ، فلم تر بريطانيا بدآ من أن تصدر فى ٢ سبتمبر سنة ١٩٢٢ تصريحاً جديداً على لسان اللورد بارمور أمام عصبة الامم جاء فيه :

« اننا لم نعد نرى أنه من العملى اتخاذ شكل الانتداب حتى من أجل تنظيم تعهداتنا أزاء العصبة ، فإن فكرة الانتداب ليست مستساغة لدى أهل العراق الذين يعتبرونها نوعا من الوصاية لايتمشى مع الحقائق كما هى عليه اليوم ، ومع القدر الكبير من الاستقلال الذى حصلت عليه دولة العراق بالفعل »

وفى ظل هذا التصريح، أمكن وضع مشروع معاهدة صداقة فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ ظل موضع الأخذ والرد فى الدوائر العراقية ، فألحق به فى أبريل سنة ١٩٢٣ بروتوكول ينص على أن المعاهدة سوف تنتهى إلى قبول العراق عضواً فى العصبة ، وبذلك أمكن للجمعية التأسيسية أن تبرم المعاهدة مع إعلان احتجاجها .

ثم توالت التسويات ، فى صورة معاهدات أو تعديلات ، فى مارس سنة ١٩٢٤ وفبراير سنة ١٩٢٦ وديسمبر ١٩٢٧ .

غير أن هذه المعاهدة الأخيرة لم يوافق عليها العراق لما احتوته من شرط يتعلق بقبول العراق فى عصبة الأمم إذ جاء فيها « بشرط أن تجرى الأمور على مايرام فى فترة الانتقال ، وأن تستمر النسبة الحالية للتقدم » .

وقد قام السيرجلبرت كلايتون، المندوب السامى وقتذاك ، بالعمل على تذليل هذه الصعوبة ، فأقنع حكومته بالاستغناء عن هذا النص ، وأبلغ الملك فيصل بنجاح مسعاه ، وبذلك تهيأت الظروف لعقد معاهدة جديدة .

وفى ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٠ أبرمت المعاهدة الجديدة التى نص فيها على الحرية التامة فى التعاقد ، والمساواة والاستقلال بين الطرفين المتعاقدين ، وجعلت مدة المعاهدة ٢٥ سنة من بدء تنفيذها الذى جعل رهناً بقبول العراق عضواً فى عصبة الأمم .

وفى مقابل النزول على رغبات العراقيين فيما يختص بإنهاء الانتداب وقبول العراق عضواً فى عصبة الأمم ، ألحق بالمعاهدة ملحق عسكرى يحتوى على سبعة بنود تضمن تأمين القوات البريطانية البرية والبحرية والجوية فى الأراضى العراقية ، وتجعل تقدير أعدادها رهناً برغبة الحكومة البريطانية ، وتلزم العراق القيام بجميع التسهيلات الممكنة لهذه القوات ،

وأن يقوم حرس عراقى — على نفقة الحكومة البريطانية — بحراسة القواعد الجوية ، كما نص على توحيد التدريب العسكرى بين القوات البريطانية والعراقية ، وأن يكون للجيوش البريطانية حرية المرور فى الأراضى العراقية واستعمال وسائل النقل العراقية . كما يؤذن للسفن البريطانية الحربية فى « زيارة » شط العرب بشرط إعلان جلالة ملك العراق قبل هذه « الزيارات » .

ورغبة من جانب البريطانيين فى وضع المعاهدة موضع التنفيذ ، واستجابة لرغبات العراق فى عضوية عصبة الأمم ، أرسلت الحكومة البريطانية إلى العصبة مذكرة تزكى فيها دخول العراق العصبة دون قيد أو شرط .

فلما أوجست بريطانيا خوفاً من أن لا تقبل هذه التزكية ، نظراً لما أبداه بعض الأعضاء من ملاحظات ، بادرت بتكليف المندوب السامى السير فرنسيس همفريس بأن يدلى بالتصريح التالى أمام اللجنة الدائمة للانتدابات فى ١٩ يونيه سنة ١٩٣١ « أن حكومة صاحب الجلالة لتقدر مسئوليتها فى تزكية السماح للعراق بدخول العصبة وهذا فى رأيها السبيل الشرعى الوحيد لإنهاء الانتداب . وإذا ثبت أن العراق غير جدير بالثقة التى وضعت فيه ، فإن المسئولية الأدبية فى هذه الحالة تقع على عاتق حكومة صاحب الجلالة » .

عندئذ أصبح قبول العراق فى العصبة أمراً مقضياً ، وفى ٢٨ يناير سنة ١٩٣٢ وافق المجلس على قبول العراق فى العصبة ولكنه اشترط عليه أن يتعهد بضمان حقوق الأقليات ، وإقامة القضاء والقانون الدولى .

وفى ٣٠ مايو سنة ١٩٣٢ وقع العراق التعهد المطلوب وصار عضوا

فى عصبة الأمم . وزالت صفة المندوب السامى البريطانى وأصبح ممثل بريطانيا فى العراق هو السفير البريطانى .

من المعاهدة البريطانية العراقية
إلى قيام الحرب العالمية الثانية

صار العراق دولة مستقلة ذات سيادة ، يحكمه ملك انتخبه الشعب بأغلبية ستة وتسعين فى المائة من الأصوات ، وتدير شئونه وزارة مسئولة دستورية .

غير أن قيام الأحزاب السياسية فى العراق لم يكن وليد التطورات الدستورية أو الاختلاف فى وجهات النظر من الناحية الدستورية ، وإنما كان صدى للخلاف فى العقلية بين جيلين من أبناء البلاد : الجيل القديم الذى ربى فى الآستانة وتغذى بلبان النظام التركى فى السياسة والإدارة ، والجيل الحديث الذى تلقى علومه ومعارفه فى ضوء العقلية الحديثة ، المتأثرة بأساليب الحكم الديموقراطية ، ووسائل المنافسة الحزبية كما تعرفها الدول العريقة فى النظم الدستورية .

يضاف إلى ذلك أن الأحداث السياسية فى العراق فى هذه الفترة لا يصح أن تدرس فرادى ، بل إن كثيرا من أحداث الدول العربية المجاورة قد أثرت فى سلوك الزعماء العراقيين ، كما أن النفوذ الشخصى لكبار الزعماء قد أثر بدوره فى مجريات الأمور ، بينما تأثر هذا النفوذ ذاته مداً وجزراً بحسن صلة الزعماء بدار السفارة البريطانية ، ومن بين هؤلاء من كان ولا يزال يعتقد فى إخلاص أن مصلحة العراق تتحقق بحسن التعاون بين الحكومتين البريطانية والعراقية .

ومن أروع ما منيت به العراق فى هذه الفترة الإعياء الذى بدا على الملك « فيصل » ، واعتلال صحته تحت ضغط العمل المتواصل ، وقد توفى

جلالته فى سويسرا عام ١٩٣٣ . أما خلفه على العرش ، الملك «غازى» ، فكان لايزال يافعاً تنقصه التجربة والمران ، وبذلك انحطت منزلة العرش العراقى فى ميدان الكفاح لتحل محلها الأحزاب السياسية ، وزعماؤها من ذكرنا أوصافهم ، فتأثرت السياسة الحزبية بمؤثرات لا تمت إلى الحزبية الصحيحة بأكثر مما تمت إلى شخصيات الزعماء .

وقد أفسحت هذه الحال من القلق أمام الجيش العراقى فرصة التدخل فى شئون الحكم . فإذا بالجنرال بكر صدقى يتزعم انقلاباً فى اكتوبر ١٩٣٦ ويرغم وزارة الجنرال ياسين الهاشمى على الاستقالة بعد أن يهدده بضرب بغداد من الجو . وقد حل البرلمان ، وفر كثير من زعماء العراق ، وسيطر الجيش على البلاد ، ولم تمض على هذه الحركة عشرة شهور حتى اغتيل بكر صدقى فى أغسطس سنة ١٩٣٧ وتألفت وزارة جميل المدفعى ، فاستمرت فى الحكم إلى ديسمبر سنة ١٩٣٨ حيث استطاع نورى السعيد أن يسقطها وأن يؤلف الوزارة الجديدة .

ولا يفوتنا أن نقرر أن هذه الفترة القلقة المضطربة من تاريخ العراق السياسى كانت بعينها فترة القلق العالمى من جراء تصرفات محور روما — برلين . ففى خلال هذه الأعوام نشطت النازية فى ألمانيا والفاشية فى ايطاليا وتحدت إيطاليا الحلفاء باحتلال الحبشة ، وأشاع المحور فى أنحاء العالم نوعا من الذعر وخوف الحرب مقرونا بدعايات مثيرة ، خص العالم العربى ، ومن بينه العراق ، بالكثير منها .

وقد كانت هذه بعينها الفترة التى طالبت فيها مصر بتحديد مركزها بإزاء الاحتلال البريطانى ، ونظمت الأمور بينها وبين بريطانيا فى معاهدة سنة ١٩٣٦ ، كما كانت فترة الثورة العربية الكبرى فى فلسطين .

فإذا اضطربت الأمور فى العراق بما يخيف البريطانيين على مصالحهم فلا سبيل لاستقرار الأمور إلا بأن يتولى الوزارة رجل تعتقد بريطانيا أنه يؤمن بصداقتها ، ذلك هو السياسى المجرب نورى السعيد .

وفى ٤ ابريل سنة ١٩٣٩ قتل الملك غازى فى حادث سيارة . وانتقل العرش إلى ولده فيصل الثانى ، وهو حينئذ قاصر فى الرابعة من عمره ، فانشىء للعرش مجلس وصاية على رأسه الأمير عبد الإله ، وهو شاب تلقى علومه فى كلية (فكتوريا) الانجليزية بالاسكندرية . فأوجس العراقيون — من ذوى الميول المحورية — من وصايته ، ونسبوا إليه كثيرا مما كان يحدث بالعراق مما فيه مصلحة لبريطانيا .

العراق والحرب العالمية الثانية

أعلنت الحرب العالمية الثانية والقوى التى تتنازع السلطان فى العراق اثنتان : نورى السعيد وحزبه ممن يعتقدون بقلوبهم أن مصير بلادهم يرتبط أشد الارتباط بمصير بريطانيا ، وأن الخير كل الخير فى أن يتعاون العراق قلبا وقالبا مع الحلفاء . وفريق رجال الجيش ، وقد أخذتهم العنجهية العربية العراقية ، واعتقدوا أن هذه هى خير الفرص للخلاص من سيطرة بريطانيا . وقد استهوتهم كما استهوت عامة الشعب ، بل الشعوب العربية والإسلامية ، الدعاية التى كان يبثها محور روما — برلين ، بواسطة أعوانه بين حين وآخر ، وبواسطة المذياع على الدوام .

كان نورى السعيد على رأس الوزارة العراقية ، فقررت الحكومة قطع علاقاتها مع ألمانيا . وفى الحال نزح عن البلاد كل الألمان الذين كانوا يقيمون بها ، ولكن رجال الجيش لم تعجبهم هذه العجلة فى التصرف

فى مصائر بلادهم ، فاستقالت الوزارة ، وتألفت وزارة جديدة برياسة رشيد عالى الكيلانى . ودخل هذه الوزارة نورى السعيد وزيراً للخارجية فلما همت الوزارة بقطع العلاقات مع إيطاليا ، تدخل الجيش ، فاستقال نورى السعيد ، وظل رشيد عالى الكيلانى نهباً بين أمانى الجيش ومطالب الحلفاء ، وآثر أخيراً أن يجنح إلى جانب الجيش ، فاستقال فى يناير ١٩٤١

وفى هذه الأثناء كانت فرنسا قد انهارت ودخل رجال المحور بقضهم وقضيضهم إلى سورية ولبنان ، وظن الشرق العربى أن الحرب قادمة على نهايتها التى يتمناها العرب ، وهى انهزام الحلفاء وانتصار المحور .

وهكذا توالت الأحداث فى العراق سراعا

ففى ابريل سنة ١٩٤١ قامت على أكتاف الجيش حركة يتزعمها رشيد عالى الكيلانى ، لإنقاذ البلاد مما يراد بهـــا على يد الوصى على العرش ورجاله ، فأجليت الوزارة القائمة عن الحكم ، وألف رشيد عالى الكيلانى حكومة الدفاع الوطنى ، من رجال الجيش ، ثم خلع الوصى على العرش ففر هو ونورى السعيد وبقية الوزراء إلى شرق الأردن وسورية .

وخيل للكيلانى أن الأمر بينه وبين بريطانيا لا يعدو أن يؤكد لها رغبته واعتزامه المحافظة على المعاهدة البريطانية العراقية وتنفيذها . إلا أن بريطانيا ، وهى تخوض معركة موت أو حياة ، نظرت إلى الموقف نظرة تختلف عن هذه كل الاختلاف . فهذا رجل ثائر على العرش ، قام بانقلاب عسكرى قد يعرض النصر الذى يبتغيه الحلفاء للخطر ، لذلك لم تتلكأ الحكومة البريطانية فى العمل ، فأنزلت فى الحال قوات بريطانية وهندية فى البصرة فهاج هائج العراقيين ، وظنوا أن بريطانيا محتلة بلادهم من جديد ، ورفضت الحكومة إنزال جنود أخر ، واستولى الجيش العراقى على مطار الحبانية القريب من بغداد ، وهو المركز الرئيسى للقوات الجوية

إلا أنه لم يمض شهر واحد على هذه الأحداث حتى كان البريطانيون قد إستطاعوا القضاء على حركة الكيلانى ، وفر الكيلانى ومن معه بدورهم إلى إيران ، فعاد الوصى على العرش إلى بغداد .

تألفت الوزارة الجديدة برياسة جميل المدفعى ، وطورد أنصار الكيلانى فى كل مكان ، وسرت موجة من الاعتقالات فى كافة أنحـاء العراق ، وقطعت العلاقات الدبلوماسية مع ايطاليا . وفى ٧ يناير سنة ١٩٤٢ أصدرت المحكمة العسكرية حكما بإعدام رشيد عالى الكيلانى وستة من زملائه كما حكمت بالسجن على عدد كبير من معاونيه فى حركته . ولكن الحكم لم ينفذ فى رشيد الكيلانى ، إذ فر من إيران إلى تركيا ، ومنها إلى ألمانيا ومنها إلى المملكة العربية السعودية حيث استقر .

وتناوبت على العراق خلال السنوات الست التالية مجموعة من الوزارات ، كانت كلها مطبوعة بالرغبة فى التعاون مع بريطانيا على مافيه مصلحة العراق ، وخاصة تعديل المعاهدة العراقية البريطانية .

وفى ١٦ يناير سنة ١٩٤٨ وقع صالح جبر رئيس وزراء العراق مع المستر بيفن وزير الخارجية البريطانية معاهدة لا تخرج فى أسسها عن المعاهدة السابقة ، وإن كانت قد أزالت منها بعض القيود التى تمس سيادة العراق .

على أن هذه المعاهدة لم ترق فى نظر الشعب العراقى ، فسارت المظاهرات تجوب شوارع بغداد وكبريات مدن العراق بالاحتجاج على المعاهدة ، فقرر مجلس الوزراء ، ووافق الوصى ، على وقف اجراءات التصديق على أساس أنها « لا تحقق أمانى الشعب »

واستقالت وزارة صالح جبر وخلفتها وزارة محمد الصدر ، فإذا بها

تعلن أن مجلس الوزراء العراقى قرر رفض المعاهدة لأنها « لا تؤسس صداقة انجليزية — عراقية وثيقة ، ولا تحقق أهداف العراق الوطنية »

* * *

وقبل أن نختتم هذا الفصل ، يجدر بنا أن نشير إلى أن مجريات الأمور فى العراق ، بشأن ما بينه وبين بريطانيا من علاقات ، قد تأثرت بمؤثر خارجى لا يستهان به ، ذلك أن جامعة الدول العربية قد قامت فى سنة ١٩٤٤ ، وأحس العراق ، كما أحست كافة الدول العربية ، بأنها لم تعد وحيدة فى معالجتها للعلاقات بين دول الاستعمار ، وعلى رأسها بريطانيا ، والدول العربية التى استهدفت فى الماضى لهذا الاستعمار .

وأملنا كبير فى أن نشرح الدور الذى قام به العراق فى تأسيس جامعة الدول العربية فى مكان آخر من هذا الكتاب .

* * *

وثمت ظاهرة أخرى ، هى قيام هيئة الأمم المتحدة ، واشتراك العراق مع أخواته الدول العربية فى هذه الهيئة ، وتضافر هذه الدول على أن تكون لها كتلة موحدة داخل الهيئة ، ووقفتها وجهاً لوجه أمام بريطانيا فى هذا المعترك الدولى .

* * *

وقد كان من نتائج تساند الدول العربية فى الجامعة العربية ، وتكتلها فى هيئة الأمم المتحدة أن أصبحت للدول العربية مكانة مرموقة فى الميدان الدولى .

وآخر ما وافتنا به الأنباء أن العراق ، الذى كانت تتعامل معه بريطانيا على أساس أنه وحدة قائمة بذاتها ، يقترح اليوم على جامعة الدول العربية توحيد الجيوش العربية . واقتراحه لايزال موضع النظر اليوم .

الفصل العاشر

بريطانيا فى الخليج الفارسى

فى مستهل القرن السابع عشر ، وهو القرن الذى تفوقت فيه البحرية البريطانية ، خرج البحارة البريطانيون يشقون عباب البحار — شرقا وغربا — يتهون على البرتغاليين والهولنديين فى كل مكان ، ولم تلبث البحرية البريطانية أن أصبحت سيدة الموقف فى المحيطات ، ومن بينها المحيط الهندى ، الطريق المائى الرئيسى نحو الشرق الأقصى وما يحتويه من خيرات

وكانت متاجر الشرق الأقصى ، فى طريقها إلى أوروبا ، تتخذ أحد طريقين : طريق البحر الأحمر حتى القلزم (السويس) ثم بالطريق البرى إلى موانىء مصر على البحر الأبيض المتوسط ، وطريق الخليج الفارسى إلى البصرة أو الكويت ، ثم بالطريق البرى عبر الصحراء إلى موانىء سورية على البحر الأبيض المتوسط كذلك .

وكان من أهم هذه المتاجر السلع التى تحملها شركة الهند الشرقية إلى أوربا ، وكانت هذه الشركة مشمولة — لأسباب عدة — بحماية الحكومة البريطانية ، لذلك عنيت هذه الحكومة بتأمين نقل السلع فى البحار ، والحرص عليها من أن يسطو عليها القراصنة .

يضاف إلى ذلك أن تجارة الرقيق كانت منتشرة كل الانتشـــار فى الجنوب الغربى من آسيا وشرق أفريقية ، وكانت الحكومة البريطانيــة تعمل جاهدة على محاربة الاتجار بالرقيق « إنقاذاً للإنسانية المعذبة » !

وأهم من كل ذلك أن الخليج الفارسى بصفاء مياهه وطبيعة قاعه، تربة صالحة لإنتاج اللؤلؤ الذى كثرت مصايده فى هذا الخليج .

ثم زاد هذا الاهتمام فى مستهل القرن العشرين باكتشاف منابع البترول فى البلدان الواقعة على ضفاف الخليج ، وتسابق الدول الاستعمارية فى محاولة احتكاره .

لكل هذه الأسباب مجتمعة ، اتجهت عناية بريطانيا إلى مياه الخليج الفارسى والبلدان الواقعة على شاطئيه ، أما شواطئه الشرقية فكانت من صميم الأملاك الفارسية . وقصة التدخل البريطانى فى شئون فارس قصة قائمة بذاتها سنفرد لها فصلا خاصاً . أما شواطئه الغربية ، فقد كانت الحالة السياسية والاقتصادية والعمرانية فيها مما سهل على البريطانيين التدخل فى شئونها على الوجه الذى سنتناوله فى الكلام عنها .

وقبل أن نتحدث عن إمارات الخليج الفارسى، أو ما تسمى بالمشيخات، يجدر بنا أن نشير إلى أن السياسة البريطانية التى ترمى إلى السيطرة على هذه الأمارات قد رسمت على أن تجرى على وتيرة واحدة ، وفى فترات متقاربة ، مع مراعاة الظروف المحلية لكل أمارة أو مشيخة ، وانتهاز الفرصة للتدخل فى شئونها . وترجع هذه المحاولات كلها إلى أخريات القرن الثامن عشر .

وقد جنحت بريطانيا — فى السنوات الأخيرة — إلى أن تجعل من هذه الأمارات أو المشيخات كلها وحدة سياسيه تنمو تحت كنفها . وفى ذلك يقول الدكتور محمود عزمى (فى جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠/١/٥٤)

... وقد بدا من جانب الأنجليز خلال الأشهر الأخيرة نشاط إزاء تلك المحميات (يقصد محميات عدن) والمشيخات (بقصد أمارات الخليج)

تحاول به تطبيق الطريقة التى التى تأخذ بها مستعمراتها فى أفريقية ، وهى طريقة الجمع فى اتحادات تضم أكثر من أقليم من تلك الأقاليم ، كما حدث بالنسبة لشرق أفريقية ولغربها ووسطها أيضا .

« ولا شك أن الهدف الذى تهدف إليه السياسة البريطانية من هذه الاتحادات الجديدة هو ذات هدفها من الاتحادات السابقة ، أى تطويق تلك الأقاليم المتجاورة بوثاق شديد من حبال الاستعمار حتى لا يفلت واحد منها إذا قويت شوكته من ناحية ، وحتى تقلبها وحدات إستراتيجية تنشىء فيها الطرق المتواصلة ، وتقيم القواعد المتلاحقة ، وتستثمر إقتصادياتها على أنها كتلة موحدة .

« وإذ فرغت إنجلترا من الربط بوثاقها الاستعمارى بين الأقاليم الإفريقية ، أو حسبت أنها فرغت رغم المعارضات القوية التى لا تزال تقوم فى وجهها ، فإنها قد أدارت وجهها نحو الاقاليم اليمنية والعربية تحاول تطويقها بمثل ما طوقت به المستعمرات الإفريقية ، فاعتدت على التراب اليمنى مقتحمة حدوده ، ودعت السلاطين إلى الدخول فى الفخ الذى تنصبه لهم عن طريق ما تسميه نظام « الاتحاد » بين أقاليمهم . فلما رفض السلاطين عرضها ، أمهلهم ثلاثة أشهر تعيد كرتها عليهم بعد انقضائها .

وكذلك اتجهت بريطانيا إلى شيوخ الشمال الشرقى العربى فى مسقط وعمان وما اليهما من مشيخات أربعين أو تزيد ، تحاول أقناعهم هم الآخرين بالانضواء تحت راية « الاتحاد » الذى تبيته لهم تبييتاً ، وأغلب الظن أن الشيوخ العرب لن يقلوا فطنة عن السلاطين اليمنيين ، وان يقعوا فى المصيدة .

« وليس لانجلترا من غرض فى الحالين إلا تطويق شبه جزيرة العرب

بسياج من التحصينات تعزلها عن العالم كله عزلا ، وتتحكم عن طريق هذا العزل فى مصائرها تحكما .

ويبدو واضحاً فيما كتبه الدكتور محمود عزمى أنه نظر إلى المشكلة من الناحية العربية ، مكتفياً بتشخيص الحالة على أنها عربية بحت .

وهو يعلم أن للمشــكلة وجها آخر أكثر دولية من الوجهة العربية البحت . فان مصالح بريطانيا فى مياه الخليج الفارسى لاتقتصرعلى تطويق الجزيرة العربية ، فإن مجريات السياسة فى إيران ، والتنافس بين روسيا وبريطانيا حول النفوذ فيها ، كان من الأسباب التى دفعت بريطانيا إلى التشبث بسياستها فى السيطرة على مياه الخليج الفارسى .

وقد جاء فى دائرة المعارف البريطانية فى مادة « الخليج الفارسى » ما ترجمته :

« إن مصالح بريطانيا الخاصة ، سواء أكانت استراتيجية أم سياسية أم تجارية ، لم تنكر فى يوم من الأيام ، وهى تتصل اتصالا وثيقاً برخاء الهند ، وتأمين مواصلاتها مع العالم الخارجى، وهدوئها الداخلى.

« وقد وضحت السياسة البريطانية فى التصريح الذى ألقاه اللورد لانسداون فى مجلس اللوردات فى سنة ١٩٠٣ حيث قال: « أن قيام قاعدة بحرية أو ميناء حصين فى الخليج الفارسى على يد أية دولة أخرى يجب أن يعتبر تهديداً خطيراً للمصالح البريطانية ، ويجب أن يقاوم بكل الوسائل التى نملكها . »

« وقد تأكد ذلك بالتصريح الذى بعث به السير إدوارد جراى فى سنة ١٩٠٧ فى رسالة موجهة إلى السفير البريطانى فى بطرسبرج (عاصمة الروسيا القيصرية) حيث قال: « إن حكومة جلالة الملك ستبذل قصارى

جهدها للمحافظة على الحالة الراهنة فى الخليج الفارسى ، والمحافظة على المصالح التجارية البريطانية ، على أنها — فى تنفيذها لهذه السياسة — لا ترغب فى أن تقف فى وجه أية تجارة مشروعة لأية دولة أخرى » .

ومما يدل على تشابك المصالح البريطانية بين الخليج الفارسى والامبراطورية البريطانية فى الهند ، أن الإدارة السياسية الخاصة بالخليج كانت تسند إلى حكومة الهند ، وأن المقيم البريطانى فى الخليج ، سواء أأقام على ساحل إيران أم على الساحل العربى ، يستمد سلطانه من حكومة الهند . وظلت الأمور تجرى على هذا النهج حتى كانت الحرب العالمية الأولى ، فكانت الحملة البريطانية على العراق جزءاً من منهاج الهند ، ثم دخلت العراق فى دائرة السياسة العربية التى كانت تدار من القاهرة ، ثم انتدبت بريطانيا على العراق ، وعندئذ فقط آلت أمور العراق بالذات إلى السلطات البريطانية فى القاهرة بدلا من حكومة الهند .

أما شئون الخليج الفارسى والأمارات والمشيخات الواقعة عليه ، فظلت فى يد حكومة الهند ، ولذلك نجد أن معاهدة ٤ فبراير سنة ١٩٣٩ ، وهى أهم معاهدة عقدت مع عمان ، أبرمت بين الحكومة البريطانية وحكومة الهند من جانب ، وبين مشيخة عمان من الجانب الآخر .

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، استقل شبه القارة الهندية الباكستانية ، وانسحبت الحكومة البريطانية من البلاد ، فانتقلت شئون الخليج الفارسى إلى إدارة الشئون العربية بالسفارة البريطانية بالقاهرة .

* * *

وسنتحدث فيما يلى عن أهم معالم العلاقات بين بريطانيا وهذه

المشيخات ، مرتبة ترتيباً جغرافيا . فنبدأ بعمان ، فقطر ، فالبحرين ، فالكويت .

عمـــان

هى إحدى المشيخات العربية ، على الساحل الجنوبى الشرقى للجزيرة العربية ، وتشرف على مدخل الخليج الفارسى ، وتسمى مياهها الإقليمية بخليج عمان ، كما تشرف من الجنوب على بحر العرب . ويبلغ عدد سكانها نصف مليون ، وعاصمة المشيخة الآن مسقط ، وكانت قبل ذلك رستاق . ومن أهم منتجات البلاد البلح ، يصدر إلى الخارج مقابل الأرز والبن والقمح والحرير . وتوشك البلاد أن تلعب دوراً هاما فى عالم البترول .

ويعتبر موقع « مسقط » من المواقع الاستراتيجية التى لعبت دوراً هاما فى مقدرات هذا الخليج منذ فجر التاريخ . وتاريخها الحديث ملىء بالأحداث الهامة ، إذ كانت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر محط أنظار الدول الاستعمارية أبان معركة التفوق البحرى فى المحيط الهندى

ويقترن تاريخ عمان الحديث بقصة النفوذ البريطانى فى المحيط الهندى. والخليج الفارسى . وقبل أن نتحدث عن النفوذ البريطانى فى عمان ، يجدر بنا أن نقرر أن مجريات السياسة العالمية كانت تتحكم فى مصائر الأمور فى الخليج الفارسى جملة ، وفى مدينة مسقط خاصة . كما أن النهضة السعودية التى ظهرت فى قلب الجزيرة العربية كانت ذات أثر فعال فى مصائر الأمور فى هذه البلاد .

وتتلخص قصة النفوذ البريطانى فى مسقط ، ثم فى عمان ، فيما يلى :

حدث فى سنة ١٧٩٢ أن آلت الزعامة فى مسقط إلى زعيم من زعماء

قبيلة أبي سعيد ، هو السيد سلطان بن أحمد بن سعيد، بعد أن عمت البلاد إضطرابات طالت عشر سنوات منذ أن توفى مؤسس العائلة الحاكمة الإمام أحمد بن سعيد . ولم يلبث السيد سلطان أن أخضع منافسيه المحليين من أخوته وأبناء عمومته ، فامتد سلطانه إلى بلاد عمان بأكملها . وزاد فى نفوذه أنه إستطاع أن يتغلب على والى « بندر عباس » الذى لم تكن تربطه بالحكومة الفارسية ، صاحبة الميناء ، إلا ما يؤديه لها من ضريبة فى كل عام ، فحل السيد سلطان بن أحمد محله فى أداء هذه الضريبة وصدر له فرمان شاهانى بذلك ، وبذا أصبح السيد سلطان صاحب حول وطول ، يتحكم فى الملاحة فى الخليج الفارسى من شاطئيه العربى والفارسى .

وكانت شركة الهند الشرقية ترقب فى يقظة بالغة ما يجرى من أحداث فى الخليج . وقد علمت علم اليقين بصداقة السيد سلطان للحكومة الفرنسية، كما علمت أن نابليون قد بعث إليه برسالة من مصر ينبئه فيها بفتحه لمصر ، ويعرض عليه حماية سفنه التى تقصد إلى السويس ، وقد أرفق نابليون بكتابه هذا رسالة إلى المواطن تيبو الهندى (وكان قد استجار بنابليون من عسف البريطانيين بالهند) يبشره فيها بأن الحملة الفرنسية لن تلبث أن تأخذ طريقها إلى الهند لتخليصها من نير البريطانيين .

وقد علمت الحكومة البريطانية كذلك بما بين آل سعود وبين السيد سلطان من نزاع ، إذ كانت للسعوديين فى عمان مآرب كبرى من الناحيتين الدينية والسياسية ، وقد كثرت محالفتهم لزعماء القبائل الخارجين على السيد سلطان ، كما كثرت غاراتهم على أطراف عمان يريدون مخرجا بحريا على الخليج الفارسى .

أدركت بريطانيا كل ذلك ، كما أدركت أن السيد سلطان كان رجلا واسع الحيلة ، عظيم النفوذ ، فسلكت معه سبيل الملاينة .

ففي سنة ١٧٩٨ تقدمت إليه شركة الهند الشرقية تطلب إنشاء وكالة تجارية لها فى بندر عباس ، فوافق السيد على ذلك ، ولكنه اشترط أن لا يكون من وراء ذلك أى تدخل للشركة فى شئون مسقط ، ورفض السماح بإقامة وكالة سياسية فى بلاده ، إلا أن السياسة البريطانية لم تقف مكتوفة الأيدى أمام رغبته ، إذ استدرجته إلى أن قبل تعيين وكيل لشركة الهند الشرقية فى مسقط ، ثم لم تلبث أن جعلت من هذا الوكيل التجارى مقيما بريطانياً سياسياً . وكان ذلك عام ١٨٠٠

ويقول الكولونيل « ميلز » فى كتابه « الأمصار والقبائل فى الخليج الفارسى » أن السيد سلطان هو الذى طلب بنفسه — أبان المحادثات الخاصة بهذه الاتفاقية — أن ترسل له شركة الهند الشرقية ضابطاً يقيم فى مسقط ليكون مستشاراً له . أما تعيين المقيم السياسى فى مسقط ، فينسبها الكولونيل ميلز إلى أن الحكومة البريطانية اكتشفت أن السيد سلطان ظل على صداقته للفرنسيين بعد الاتفاقية ، فهددته بأن تحرمه من الاتجار مع سواحل الهند . فبادر هو إلى مصالحة البريطانيين ، وقبل تعيين مقيم سياسى فى مسقط .

وفى سنة ١٨٠٤ قتل السيد سلطان أثناء قيامه بمغامرة بحرية فى الخليج الفارسى . وبعد منازعات شتى بين الطامعين فى الأمارة ، نودى بولديه : سالم وسعيد ، أميرين يشتركان فى حكم البلاد ، على أن كفة سعيد فى الحكم لم تلبث أن رجحت لأسباب عدة ، فأصبحت له الكلمة العليا فى البلاد .

وقد شعر سعيد ، منذ بداية حكمه ، أن البريطانيين لا يطمئنون إلى

ولائه ، كما شعر أن الوهابيين لن يهادنوه طويلا ، سيما وأن أمارته على « مسقط » كانت وليدة اغتياله بدر بن سيف حليفهم .

وكان لأحداث أوروبا أثر فعال فى تصرفات سعيد ، ذلك أنه قد بهرته انتصارات نابليون فى القارة الأوربية ، فطمع فى أن يعيد علاقات عمان بفرنسا إلى ما كانت عليه قبل انفصامها أيام السيد سلطان ، ولذلك أوفد إلى المقيم الفرنسى فى جزائر (موراتيس) من يعارضه فى عقد محالفة بين فرنسا وعمان ، فرحبت فرنسا بذلك وعقدت المعاهدة فى منتصف سنة ١٨٠٧ ثم عززت المعاهدة بأخرى فى سنة ١٨٠٨ ، ونزل بمسقط أول قنصل لفرنسا .

وقد سببت هذه الأحداث انسحاب المقيم البريطانى فى مسقط ، ويقول الكولونيل ميلز : « إن حكومة الهند احتاجت إلى خدماته والانتفاع بخبرته فى تدبير شئون بريطانيا فى الخليج ، فاستدعته إلى كلكتا ليكون إلى جانب الحكومة المركزية . على أن هذا المقيم قد عاد إلى مياه الخليج الفارسى بعد ذلك بقليل مع إحدى الحملات التى شنتها بريطانيا على القراصنة العرب » .

ولم تمض سنوات قلائل على حلف سعيد مع فرنسا حتى اشتد ضغط الوهابيين على عمان . واضطربت أمور سعيد ، ولم يستطع الفرنسيون أن يكونوا عند حسن ظنه بهم ، فلم يجد بداً من أن يمد يده لبريطانيا مستجيرا من الوهابيين ، ولكن بريطانيا لم تستجب لطلبه ، واكتفت بأن عززت قواتها فى الخليج حتى تكون على مقربة من مسرح الحوادث .

ولم تلبث الظروف أن تطورت فى صالح سعيد ، فقد توفى الأمير سعود وخلفه ابنه عبد الله . وقد رسم لنفسه سياسة تقوم على مهادنة عمان ،

للتفرغ للحرب التى شنها عليه « محمد على الكبير » فى غير هوادة .

وازدادت حوادث القرصنة فى الخليج ، وامتدت منه إلى خليج عمان وبحر العرب . وسطا القراصنة (وهم من بنى حولة حلفاء الوهابيين) على كثير من السفن البريطانية والعثمانية على السواء ، فكان ذلك مدعاة للتقرب بين السيد سعيد والبريطانيين لمقاومة هذا الخطر الداهم لمتاجرهما .

وفى سنة ١٨٢٢ عقدت بريطانيا مع السيد سعيد اتفاقية لمنع تجارة الرقيق فى مياه الخليج الفارسى وعلى شاطئيه . وكان السبب فى إثارة مشكلة الاتجار بالرقيق أن حكام (زنزبار) كانوا من أبناء عمومة السيد سعيد . ينتسبون جميعا الى آل بوسعيد ، وكان الرقيق يستجلب من داخل القارة الإفريقية إلى زنزبار حيث يحمل فى سفن عمانية إلى مسقط ويباع فى أسواقها وكانت انجلترا تهتم وقتذاك بمنع تجارة الرقيق ، فمنع بيعه على شواطىء الخليج ، لا بل على ظهر السفن ، وقد انتحلت لنفسها حق تفتيش السفن العربية فى عرض البحر تنفيذاً لهذه السياسة التى توجتها بعقد هذه الاتفاقية .

فرغ السيد سعيد من كثير من مشاكله ، فهاهم الوهابيون قد دحرهم الجيش المصرى وفرقهم فى الصحراء العربية ، وهاهى بريطانيا قد أصبحت حليفة مساعدة بعد أن كانت عدوة معاندة ، وهاهم بنو حولة وقد خلا منهم الخليج ، وهاهى عمان وقد دانت له بالطاعة واستتبت له الأمور فيها . واعتزم السيد سعيد أن يؤدى فريضة الحج ، فحملته بارجة بريطانية إلى « جدة » ، واستقبله فى الميناء حاكم الحجاز من قبل الأتراك ، وكتيبة من الجيش المصرى ، واحتفى به فى أرض الحرمين حفاوة كبرى ، على الرغم من أنه من الخوارج .

وفى سنة ١٨٣٢ رغبت الولايات المتحدة الأمريكية فى عقد معاهدة مع

السيد سعيد تؤمن بها مصالحها التجارية فى شرق أفريقية والخليج الفارسى
وطلب سعيد أن تتعهد الولايات المتحدة بأن تمنحه من العتاد الحربى والمعونة
العسكرية ما يضمن له تنفيذ مآربه ، سواء فى أفريقية أو فى عمان . ويبدو
أن المندوب الأمريكى لم يشأ أن يورط بلاده فى مثل هذه المغامرة ،
وإذا بالمقيم البريطانى ، وقد ترامت إليه أنباء المفاوضات ، يعرض على
سعيد عقد معاهدة من هذا القبيل مع الحكومة البريطانية ، إلا أن هذه
المعاهدة لم تعقد إلا فى سنة ١٨٣٩ عند ما تهيأت لها الظروف ، بتولى
(الملكة فكتوريا) عرش الأمبراطورية البريطانية ، وقيام السيد سعيد
بالتهنئة بتوليها العرش ، فكان عقد المعاهدة بمثابة رد على هذه المجاملة .

وفى ظل الصداقة بين بريطانيا والسيد سعيد ، تدخلت بريطانيا عند
ماعلمت بنية محمد على الكبير لغزو عمان فقابل قنصل بريطانيا العام بالقاهرة
محمداً علياً وأفهمه أن الحكومة البريطانية لن تسمح له بالتمادى فى هذه المغامرة
وبعد شهور قلائل اتخذ بالمرستون من الإجراءات التعسفية ضد محمد على
ماقضى بانسحاب ابنه ابراهيم من سورية . وسحب قواته من الجزيرة العربية
عام ١٨٤٠ . وفى سنة ١٨٤٤ أوفدت الحكومة الفرنسية مندوبا من قبلها
إلى عمان ، لعقد معاهدة تجارية مع السيد سعيد ، على غرار المعاهدتين
الأمريكية والبريطانية ، فشاور سعيد الحكومة البريطانية فى هذا الشأن ،
ووقع المعاهدة بناء على هذه المشورة .

وفى سنة ١٨٥٦ توفى السيد سعيد على ظهر سفينة بريطانية كانت تقله
من مسقط إلى شرق أفريقية ، وقد خلفه فى الأمارة ابنه ثوينى . وكان قد
أوصاه بأن يسلك مع الحكومة البريطانية مسلكه .

وفى عهد أمارة السيد ثوينى بن سعيد . وفى سنة ١٨٦٢ صدر بيان
مشترك من بريطانيا وفرنسا يضمن استقلال مسقط . وصدور هذا البيان

فى ذلك العام يلفت النظر إلى الدور الذى كانت تلعبه الشئون الدولية فى مصائر الخليج الفارسى ، ذلك أن حرب القرم انتهت سنة ١٨٥٦ ، فتكون حلف بين بريطانيا وفرنسا تمكن به نابليون الثالث من أن ينتصر على قيصر الروسيا ، اسكندر الثانى فى حلبة السياسة ، فلما اتجهت الروسيا إلى التدخل فى شئون إيران ، هرعت بريطانيا وفرنسا إلى رسم سياسة موحدة بينهما إزاء هذا الخطر ، وقد انتهزت بريطانيا هذه الفرصة وأقنعت فرنسا بإصدار هذا البيان المشترك ، حتى إذا ما استلزمت الحوادث دخول فرنسا — إلى جانب بريطانيا — فى الخليج الفارسى ، لم تستطع فرنسا أن تنتحل أية أسباب لبقائها فى مسقط . وبذلك استطاعت بريطانيا أن تقطع على فرنسا طريق التدخل فى شئونها .

وفى خلال عامين ، كانت بريطانيا قد استطاعت أن تحصل من السيد ثوينى بن سعيد على إمتياز يخول لها مد خط تلغرافى عبر البلاد .

وفى سنة ١٨٨٦ تولى عرش الأمارة السيد فيصل بن تركى ، وقد عقدت معه بريطانيا فى سنة ١٨٩١ معاهدة صداقة تعهد فيها بأن لا يفرض رسوما جمركية إلا بعد موافقة بريطانيا عليها .

وفى العام الثانى وقع الأمير مع بريطانيا إتفاقا آخر تعهد فيه بأن لا يؤجر ولا يبيع ولا يتنازل عن أى جزء من ممتلكاته إلا للحكومة البريطانية .

وحدث فى سنة ١٨٩٨ أن همت فرنسا بالاتفاق مع الأمير على انشاء محطة فى مسقط لتموين السفن الفرنسية بالفحم ، فلم تكد تعلم بذلك الحكومة البريطانية حتى ثارت ثائرتها ، ومنعت الأمير من توقيع الاتفاق ، وأرسلت بعض سفن الأسطول البريطانى إلى مياه مسقط لإجبار الأمير على النزول

على رغبتها وتذرعت بريطانيا — فى هذا التصرف — بأن السفن الفرنسية تسمح للسفن الوطنية بأن ترفع العلم الفرنسى تهربا من تفتيش الأسطول البريطانى لها ، تنفيذا للاتفاقات الدولية الخاصة بمنع تجارة الرقيق .

وفى سنة ١٩٠٥ منح الأمير شركة بريطانية حق صيد الأسفنج فى الخليج .

وفى سنة ١٩١٣ توفى السيد فيصل وخلفه على الإمارة ابنه تيمور بن فيصل ، ولكن القبائل لم تلبث أن شقت عصا الطاعة على الأمير. وكانت ظروف الحرب العالمية الأولى تتطلب من بريطانيا أن تتدخل فى الحال ، فهرعت القوات البريطانية والهندية إلى عمان ، ووضعت الأمور فى نصابها ، واستمرت محتلة للبلاد حتى سنة ١٩٢١ .

وفى سنة ١٩٢٣ وقع أمير عمان تعهداً للحكومة البريطانية بأن لا يقوم بالبحث عن البترول أو إستغلاله دون إستشارة المقيم البريطانى .

وفى فبراير سنة ١٩٣٩ أبرمت آخر معاهدة بين الحكومة البريطانية وحكومة الهند من جانب ، وأمارة عمان من الجانب الآخر ، ومدة هذه المعاهدة ١٢٠ سنة ، وقد أصبحت الأمارة بمقتضى هذه المعاهدة حرة فى فرض الرسوم الجمركية ، مقابل أنها تعهدت بأن تعامل بريطانيا معاملة الدولة الأكثر رعاية .

قطر

قطر شبه جزيرة ناتىء من جزيرة العرب ، واقع بين عمان والاحساء وتبلغ مساحة قطر حوالى أربعة آلاف ميل مربع ، وسكانها من القبائل المتحضرة لا يعدون بأكثر من خمسة وعشرين ألفاً ، وما سوى ذلك فمن القبائل الرحل التى لا يسهل حصر عددها .

وقد ارتبطت قبائله بالحكومة البريطانية بمعاهدتين في سنتى ١٨٢٠ و٣٥ على غرار المعاهدات التي عقدت مع بقية المشيخات العربية في الخليج.

وفي سنة ١٨٦٧ طمع شيخ البحرين في شبه جزيرة قطر، ووقعت بين الفريقين مناوشات ، فتدخلت بريطانيا في الأمر ، واتخذت من هذه الاضطرابات ذريعة لتقييد كل من قطر والبحرين بقيود جديدة. واضطرت كلا من الفريقين أن يتعهد بأن يرفع إلى المقيم البريطاني في الخليج الفارسي كل منازعة من هذا القبيل. وألزمت شيخ قطر أن يعترف بسيادة البحرين مقابل أنها حددت مدى حرية البحرين في التدخل في شئون قطر.

وأراد شيخ قطر الخلاص من هذه القيود، فانتهز فرصة تسيير الأتراك حملتهم على الاحساء تحت أمرة مدحت باشا ، وأعلن خضوعه للدولة العثمانية ، فعينته هذه واليا على قطر وأسست في الدوحة (وهي المرفأ البحري لقطر) مرسى للسفن ومحطة للفحم وأنزلت بها ثلة من الجنود، غير أن الحكومة البريطانية لم تعترف بالاحتلال التركي ولكنها تركتها معلقة حتى عقدت اتفاقية سنة ١٩١٣ بين تركيا وبريطانيا ، تلك الاتفاقية التي تنازلت بها الحكومة التركية عن كل حقوقها في قطر.

وفي سنة ١٩١٦ وقع الشيخ معاهدة مع بريطانيا تعهد فيها بأن لا تكون له علاقة مع وكلاء أية دولة أخرى ، أو أن يستقبل ممثلي هذه الدول دون موافقة الحكومة البريطانية ، وكذلك تعهد بأن لا يبيع أو يؤجر أو يتصرف في أي جزء من أرضه لدولة أخرى أو رعايا دولة أخرى.

وظلت قطر — بمواردها المحدودة للغاية — تعيش على المعونة البريطانية إلى أن إكتشفت فيها منابع البترول التي تستغلها شركة تكونت في سنة ١٩٣٥ لهذه الغاية باسم شركة بترول قطر ، وهي من الشركات التي

تسير فى ركب شركة بترول العراق ، وبدأت فى استخراج البترول سنة ١٩٣٨ ثم توقفت فى سنة ١٩٤٢ لظروف الحرب، ثم عادت إلى استئناف نشاطها فى سنة ١٩٤٦ .

وقد دلت بشائر الاستغلال على أن مستقبل البترول فى قطر أعظم بكثير مما كان يتوقعه الخبراء .

ومما لاشك فيه أنه لولا الإستغناء الذاتى الذى طرأ على اقتصاديات قطر باكتشاف البترول ، لكان مصيرها الانضمام إلى المملكة العربية السعودية .

البحرين

مجموعة من الجزر على الساحل العربى من الخليج الفارسى، فى فجوة على الساحل بين قطر والاحساء ، وأكبر هذه الجزر مساحة جزيرة منامة يبلغ طولها ثلاثين ميلا وعرضها عشرة أميال ، ويصلها بجزيرة المحرق كوبرى معلق . ويبلغ عدد سكان جزر البحرين حوالى ١٢٠ ألف نفس كلهم تقريبا من العرب ، مع جالية محدودة العدد من الإيرانيين، وأخرى من التجار الهنود .

ويتلخص تاريخ البحرين فى أنها كانت تحت حكم أمراء من العرب ، ظلوا يحكمونها حتى أوائل القرن السادس عشر ، فاستولى عليها البرتغاليون سنة ١٥٢١، وبقى البرتغاليون بها حتى غلبهم عليها الشاه عباس سنة ١٦٢٢، وظل الفرس يحكمونها حتى سنة ١٧٨٣ حيث استولى عليها عرب آل خليفة من قبائل العتوب بعد أن عبروا إليها من الساحل العربى ، ثم هاجم البحرين بعد ذلك أمير مسقط فاستنجد أهلها بالوهابيين فردوا الأمير

عنها ، ولكنهم استولوا عليها ولم يخرجوا منها إلا عام ١٨١٠

والأسرة التى تحكم البحرين اليوم أسرة سنية ، فى حين أن الشعب نصفه سنى والنصف الآخر شيعى المذهب

وقد ظهرت البحرين فى عالم العصر الحديث بعد عقد معاهدة الصداقة بين آل خليفة والبريطانيين سنة ١٨٢٠ ، تلك المعاهدة التى تعهد فيها شيخ البحرين بأن يمنع بيع السلع الناتجة عن القرصنة ، وبعدم إيواء القراصنة فى مياه البحرين ، وأن يعيد الأسرى الهنود الذين وقعوا فى أيدى القراصنة قبل ذلك . وواضح أن هذه المعاهدة كانت إحدى حلقات المعاهدات التى أبرمتها الحكومة البريطانية لحساب حكومة الهند لتأمين التجارة الهندية فى الخليج الفارسى .

وفى سنة ١٨٣٩ طالبت مصر بجزر البحرين على أنها جزء من أملاك الوهابيين الذين انتصرت مصر عليهم حربا فى قلب الجزيرة العربية ، وبذلت فى سبيل ذلك محاولات .

وفى سنة ١٨٤٠ ادعت إيران ملكية جزر البحرين على أنها من الأملاك السابقة للحكومة الفارسية .

وفى سنة ١٨٤٧ حاولت الحكومة التركية أن تثبت نفوذها فى البحرين على أنها جزيرة ملحقة بالجزيرة العربية التى كانت وقتئذ تحت الحكم التركى ، ولكن الحكومة البريطانية وقفت بإزاء هذه المحاولات كلها وقفة المدافع عن مصالح الجزر واستقلالها .

وظلت الحكومة البريطانية تربط بينها وبين شيخ البحرين بالمعاهدات فعقدت معه سنة ١٨٦١ معاهدة ألزمته فيها أن يعرض كل ما يقع له من المشاكل على المقيم البريطانى .

وفى سنة ١٨٨٠ التزم شيخ البحرين بأن يمتنع هو وخلفاؤه عن الدخول فى مفاوضات أو عقد معاهدات مع أية دولة غير بريطانيا .

وفى سنة ١٨٩٢ التزم الشيخ بأن لا يسمح بإقامة وكلاء لأية دولة

أجنبية أخرى فى داخل أرضة ، وأن لا ينزل أو يرهن أو يبيع أرضاً إلا للحكومة البريطانية .

وفى سنة ١٩٠٠ أنشئت فى البحرين وكالة بريطانية تابعة للمقيم السياسى البريطانى فى الخليج الفارسى .

وفى سنة ١٩١٢ منح الشيخ الحكومة البريطانية أرضا أنشئت عليها محطة تلغراف ولاسلكى .

وفى سنة ١٩١٤ تعهد الشيخ بأن لا يمنح امتيازات للبحث عن البترول فى بلاده دون موافقة الحكومة البريطانية .

وفى سنة ١٩٢٥ استخدمت البحرين مستشاراً بريطانيا ليساعد فى تنظيم الإدارة ، ويكون بمثابة حلقة اتصال محلية بين الشيخ والمقيم البريطانى الذى يمثل الحكومة البريطانية رسميا فى كل الشئون الخاصة بالمعاهدات وعقدها وتنفيذها .

* * *

وقد لعبت جزر البحرين فى القرن العشرين دوراً لم يكن يخطر بالبال أن تلعبه ، ذلك أن الجزر كانت حتى أوائل القرن العشرين غير ذات أهمية فى محيط السياسة الدولية ، فقد كانت فى يوم من الأيام مأوى للقراصنة وهاهم قد أجلوا عنها . فلم يبق لها من أهمية إلا صفاء مياهها ، ونقاء اللؤلؤ الذى يستخرج من بحارها .

إلا أنه حدث أن اكتشف البترول فى أرض البحرين . فقد حصلت الحكومة البريطانية فى سنة ١٩٢٥ على تصريح من شيخ البحرين بالتنقيب عن البترول بعد أن رجح جيولوجيا وجوده بها ، وفى سنة ١٩٢٧ انتقل هذا التصريح إلى يد شركة بترول الخليج وهى شركة أمريكية ، وفى سنة ١٩٣٦ باعت الشركة الجديدة الامتياز إلى شركة ستاندارد أويل فكان من نصيبها العثور على البترول واستثمار منابعه . وفى سنة ١٩٣٦ أصبحت

شركة بترول البحرين مناصفة بين شركتى ستاندارد كاليفورنيا وتكساس

وقد لازم ظهور البترول وإستغلاله هبوط فى صناعة صيد اللؤلؤ فقد كان محصول اللؤلؤ فى سنة ١٩٢٦ يقدر بمليونين من الجنيهات فاذا به ينحط فى السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية إلى ٥٠ ألف جنيه فقط

ولعل السبب فى ذلك ما طرأ على الحياة العامة فى البحرين من تغير فجائى بعد اكتشاف منابع البترول، إزدهار صناعته ، وما لازم ذلك من اجهاد جسمى وعصبي الى الصناعات البترولية التى تتطلب حسن التنظيم أكثر مما تتطلب الإجهاد الجسمى .

الكويت

الكويت منطقة محدودة المساحة واقعة فى الشمال الغربى من الخليج الفارسى، ولا تزيد مساحتها على ١٩٥٠ ميلا مربعا. وعاصمتها ميناء الكويت وهى واقعة على خليج صغير تقع فى مدخله جزيرتان جعلتا مرفأ الكويت ميناءاً طبيعيا صالحا لإيواء السفن

ولا يتجاوز تاريخ الكويت الحديث مائتى سنة ، أسستها قبائل العتوب بعد أن نزحت من جزيرة العرب فى أوائل القرن الثامن عشر

ومن العوامل التى ساعدت على توسع الكويت مهاجمة الفرس البصرة بين سنتى ١٧٧٦ و ٧٩ إذ إضطرت الدوائر التجارية الأجنبية أن تنتقل إليها فأصبحت الميناء الذى تمر منه البضائع فى طريقها إلى بغداد وحلب ودمشق والأستانة . ولما استولى العتوب على البحرين ، شاركتها الكويت فى تجارة البلاد العربية ، فساعدها ذلك على النمو ، وعادت إليها الوكالة التجارية الأنجليزية من البصرة عام ١٧٩٣ على أثر خلاف وقع بينها وبين السلطات التركية

وفى سنة ١٨٠٥ تعرضت الكويت لخطر الوهابيين ، وتجمع المصادر البريطانية على أن شيخ الكويت طلب من الحكومة البريطانية حمايته من هذا الخطر ولكنها لم تستجب إليه .

ولم تكن رابطة الكويت بالدولة العثمانية قوية ، على الرغم من استمرار شيخها فى أداء الخراج لها حتى سنة ١٩٢٩ .

ويبدأ تاريخ الكويت السياسى بأواخر القرن التاسع عشر ، عندما دار البحث حول إنشاء الخطوط الحديدية عبر أملاك الدولة العثمانية ، وأريد لسكة حديد بغداد أن تنتهى عند الكويت . وعندئذ تنبهت الحكومة البريطانية إلى ما كانت ترمى إليه حكومة الأستانة من وضع الميناء تحت كنفها ، مما يهدد السياسة البريطانية التى رسمت للخليج الفارسى ، وأزمعت الحكومة البريطانية التدخل السافر لوقف هذه الحركة .

وكان من حسن حظ السياسة البريطانية ، أو من حسن انتهازها للفرص ، أن وقع خلاف بين أفراد أسرة الإمارة ، واستنجد فريق منهم بالدولة العثمانية فالتجأ الفريق الآخر إلى المقيم البريطانى فى الخليج ، فلما أرادت الدولة العثمانية أن تنزع المشيخة من المغتصب الذى لاذ بالإنجليز ، أرسلت الحكومة البريطانية بارجة حربية هددت بها الأتراك . ولما تراجع الأتراك ، رآها البريطانيون فرصة سانحة لعقد معاهدة مع شيخ الكويت ، الشيخ مبارك ، على غرار المعاهدات التى عقدتها مع أمارات الخليج الأخرى ، تعهد فيها الشيخ مبارك أن لا يتنازل عن جزء من ممتلكاته وأن لا يبيع أو يرهن أى جزء من أرضه لحكومة أو رعايا أية دولة أخرى دون موافقة بريطانيا ، وأن لا يقبل وكلاء الدول الأجنبية إلا بعد الحصول على موافقة بريطانيا كذلك ، وكان ذلك فى يناير سنة ١٨٩٩ .

وفى سنة ١٩٠٠ وقع الشيخ مبارك تعهداً للحكومة البريطانية بمنع إدخال السلاح إلى الكويت .

وكان الشيخ مبارك قد آوى إليه أسرة ابن سعود ، واتفق معهم على أن يرسل حملة إلى أواسط الجزيرة العربية لخدمة القضية السعودية فحرك ذلك الأتراك إلى العمل ضده ، ففى ديسمبر سنة ١٩٠١ قدمت سفينة تركية إلى الشيخ مبارك إنذاراً بأن يقبل حامية تركية ، وإلا أبعد إلى الآستانة ، فرد الشيخ رداً فيه تلكؤ ومواربة . واتصل بالحكومة البريطانية يطلب حمايتها فأجابته بريطانيا إلى ما طلب ، وأوقفت قوات ابن الرشيد التى كانت على وشك أن تغزو الكويت بالاشتراك مع الأتراك .

وفى سنة ١٩٠٤ عينت بريطانيا مقيما سياسياً فى الكويت .

وفى سنة ١٩١١ تعهد الشيخ مبارك بأن لايمنح امتيازات بصيد اللؤلؤ أو الاسفنج دون استشارة المقيم وموافقته .

وفى سنة ١٩١٣ تعهد الشيخ بأن لايمنح أية امتيازات للبحث عن البترول دون استشارة المقيم وموافقته كذلك .

وعند ما أعلنت الحرب العالمية الأولى ، واقتضت ظروف السياسة البريطانية أن تجرد حملة عسكرية على الأتراك فى العراق ، رأت بريطانيا أن تأمن سلوك الكويت بإزاء هذه الحركة ، فأرسل المقيم السياسى فى الخليج الفارسى إلى الشيخ مبارك بتاريخ ٣ نوفمبر سنة ١٩١٤ ضمانا إزاء أى هجوم يشنه الأنجليز على الأتراك بقصد الاستيلاء على البصرة ، وأعلن المقيم فى هذه الرسالة أن الحكومة البريطانية تقر وتعترف بأن مشيخة الكويت مملكة مستقلة تحت الحماية البريطانيـة . وعلى أثر ذلك اتخذ البريطانيون الكويت مركزاً أساسيا لتدبير حملتهم ضد الأتراك .

على أن الأمر لم يستتب للبريطانيين فى الكويت خلال الحرب كما كانوا يأملون ، ذلك أن الشيخ مبارك توفى فى سنة ١٩١٥ وخلفه ابن جابر الذى توفى بعد عامين فآلت المشيخة سنة ١٩١٧ إلى ابنه السلطان سالم .

ولم يكن موقف الشيخ سالم وديا مع البريطانيين ، ولهذا فرضت بريطانيا الحصار على الكويت من فبراير سنة ١٩١٨ حتى إعلان الهدنة التركية ، على أن الحكومة البريطانية لم تتخل عن حمايتها للكويت أبان هذا الحصار فقد حدث فى سنة ١٩١٩ أن ساءت العلاقات بين الشيخ سالم والسعوديين وكانوا وقتئذ القوة النامية فى بلاد العرب ، وقام السعوديون بمهاجمة الكويت ولكن الطائرات البريطانية ردتهم على أعقابهم .

وفى سنة ١٩٢١ توفى الشيخ سالم وخلفه على أمارة الكويت الشيخ أحمد آل جبر الصباح ، وفى أوائل أيام حكمه حددت الحدود بينه وبين المملكة العربية السعودية وتركت بينهما منطقة حياد كفلت أن لا تقع بين الفريقين مصادمات . على أن ذلك لم يكن خاتمة المطاف فى النزاع بين الدولتين فقد حدثت بينهما مصادمات فيما بين سنتى ١٩٢٧ و١٩٢٨ ولكنها لم تعد على أحد الطرفين بنتيجة حاسمة نظراً لتدخل البريطانيين بعد أن أصبحوا أصحاب مصالح حقيقية فى الكويت باكتشاف منابع البترول فيها ، ذلك الاكتشاف الذى قلب نظام الحياة اليومية فى الكويت .

ففى سنة ١٩٣٤ منحت حكومة الكويت امتياز البحث عن البترول واستغلاله لشركة بترول الكويت ويملكها ويديرها شركتان : شركة البترول الانجليزية الايرانية وشركة مباحث الخليج (شركة بترول الخليج بعد ذلك) وقد بدأت أعمال التنقيب فى سنة ١٩٣٦ فأسفرت عن وجود كميات كبيرة منه ، وقد أوقف العمل فى سنة ١٩٤٢ لأسباب عسكرية اقتضتها

ظروف الحرب العالمية الثانية ثم استؤنف العمل بعد سنوات ثلاث ، فاذا بالكميات التى تستخرج من البترول تفوق كل تقدير وتتزايد بنسبة طفرت بالكويت إلى الصف الأول من بين البقاع التى تنتج البترول .

وفى سنة ١٩٤٦ كان محصول البترول ٨٠٠ ألف طن . فطفر فى سنة ١٩٤٩ إلى أكثر من ١٢ مليون طن ، وكان فى سنة ١٩٥٢ أكثر من ٣٧ مليون .

وفى سنة ١٩٥٣ بلغ إنتاج الكويت أكثر من إنتاج العراق والمملكة العربية السعودية ، فانتج العراق ٢٨ مليون والمملكة العربية السعودية ٤١ مليون ، أما الكويت فانتج ٤٣ مليون .

وقد بلغ دخل الحكومة من حصتها فى البترول ٥٠ مليونا من الجنيهات فى سنة ١٨٥٢ ومن المنتظر أن تسفر المحاسبة عن سنة ١٩٥٣ عن إيراد للدولة قدره ٥٨ مليونا بخلاف ما يجمد فى بنك انجلترا لحساب الكويت من العوائد . وهى تبلغ الملايين فى كل عام .

أما أثر هذا الثراء المفاجىء فى الكويت وأهلها ، فيلخصه لنا فرانك كوكس فى مقال بعث به إلى جريدة المانشستر جارديان الإنجليزية عقب رحلة قام بها فى الكويت ، ننقله عن مجلة « البعثة » لسان حال البعثة الكويتية بمصر ، عدد يناير سنة ١٩٥٤ .

« وهناك احتمالات لا حصر لها من الناحية العمرانية فى الكويت فهى فى الواقع بلد سعيد ، خاصة وأن حاكمها الحالى سمو الشيخ عبد الله السالم الصباح قد بذل قصارى جهده فى رفع مستوى الكويت الثقافى والاجتماعى والعمرانى ، حيث أنه يصرف معظم دخله من النفط ، ويبلغ حوالى ثلاثين ألفا من الجنيهات فى اليوم (من المنتظر أن يكون الإيراد

اليومى الآن خمسة أمثال هذا الرقم) لرفاهية شعبه ورفع مستوى بلاده . لقد ساعد فى بناء مستشفى من أحدث وأحسن المستشفيات فى الشرق الأوسط .

والأمراض منتشرة فى الكويت ، وخاصة مرض التدرن الذى يعانى ألمه حوالى ٩٠ ٪ من سكان الكويت . وأخيرا تغلبت حكومة الكويت على هذه الأمراض أو معظمها بإنشاء المستشفيات والمصحات لمعالجة المرضى

والذى لاحظته أن أعظم تغير طرأ على الكويت هو ازدياد نسبة المتعلمين فيها ، وربما يكون أعظم من هذا إقبال الفتيات على التعليم ...

كانت التغذية إلى عهد قريب رديئة للغاية ، كما هى الحال فى أى بلد فى أفريقية أو آسيا ، ولكن الأثر الذى تركه خبراء المستشفيات الأنجليز فى تحسين الحالة الصحية شىء يستحق الذكر ... ويأتى المرضى إلى الكويت من كل حدب وصوب ، من الخليج الفارسى ومن الجزيرة العربية ومن العراق .

هكذا انتشرت شهرة المستشفى الأميرى الذى بنى فى عهد أمير الكويت الحالى . ورأيت كثيرا من المرضى قادمين للعلاج من بدو أتوا من الصحراء ، وصيادى السمك من القرى الساحلية ، وتجار أغنياء ، وأصحاب دكاكين . وعمال ، وحتى الأمراء ، ومنظرهم مجتمعين جميعا فى فناء المستشفى حقا منظر فريد فى نوعه ، غريب فى شكله ... ا . هـ

ويبذل أمير الكويت جهداً مشكوراً فى نشر التعليم فى بلاده ، إيمانا منه بأن التعليم هو الخطوة الأولى نحو المعرفة ، والمعرفة هى الخطوة الأولى نحو الحياة الحرة الكريمة .

***

وقد بلغت ميزانية إدارة المعارف فى سنة ١٩٥٢ أكثر من ٢٧ مليون روبية (أكثر من مليونين من الجنيهات) على شعب لايزيد عدده عن سبعين ألفا بين أطفال ورجال وشيوخ .

ولقد عنيت مشيخة الكويت بإيفاد البعثات من شباب البلاد لتلقى العلم والتخصص فيما تحتاجه البلاد فى نهضتها الجديدة . وكان نصيب مصر من هذه البعثات أوفى نصيب ، إذ بلغت ميزانية بعثة الكويت فيها ٦٥٢,٥٤٢ روبية فى سنة ١٩٥٢ . تليها البعثة فى انجلترا وميزانيتها ٤٨٦,٩١٨ ، ثم تأتى بعد ذلك البعثة فى العراق ٢٣,٢٠٤ ثم لبنان ٢١,٣٧٤ ثم الولايات المتحدة الأمريكية ١٢,٣٢٨

بين بريطانيا والمملكة العربية السعودية

كتب صديقنا وزميلنا الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى فى هذا الموضوع كتابا قيما أسماه :

النهضات الحديثة فى جزيرة العرب

الجزء الأول

فى المملكة العربية السعودية

ولما كان هذا الكتاب القيم لا يترك زيادة لمستزيد ، فقد رأينا أن لا نكتب فى هذا الموضوع اعتزازاً بما كتبه الزميل الصديق .

اليمن

وكذلك كتب الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى فى هذا الموضوع كتابا قيما أسماه :

النهضات الحديثة فى جزيرة العرب

الجزء الثانى

فى مملكة اليمن الزيدية

ولما كانت أصول هذا الكتاب ، على ما نعلم ، قد سلمت المطبعة ، والكتاب اليوم وشيك الصدور ، فقد رأينا كذلك أن لا نكتب فى هذا الموضوع .

الفصل الحادى عشر

إيران بين بريطانيا وروسيا

ترجع قصة التدخل الروسى من ناحية ، والبريطانى من ناحية أخرى، فى شئون إيران إلى أواخر القرن الثامن عشر .

ولقد كان ، ولا يزال ، للموقع الجغرافى أثر لا يستهان به فى المنافسة بين الدولتين الاستعماريتين . فإيران تتصل من ناحية الشمال بالأملاك الروسية فى آسيا ، بينما تتاخم من الشرق أفغانستان وبلوخستان ، ومن ورائهما الهند ، ألمع درة فى التاج البريطانى منذ حين .

وكانت بريطانيا تخشى على امبراطوريتها فى الهند من أن ينفذ إليها الخطر الروسى ، بمقدار ما كانت تخشى الخطر الفرنسى ، وخاصة عندما تكشفت سياسة نابليون الشرقية بتسيير الحملة الفرنسية على مصر .

وكان بلاط فتح على شاه (١٧٩٨ — ١٨٣٤) مسرحا للمنافسات الدبلوماسية بين الدول الأوربية الثلاث : روسيا وبريطانيا وفرنسا ، وقد كان لمجريات السياسة الأوربية أثراً بالغاً فى مقدرات إيران

فبينما كان نابليون خطراً داهماً فى أوربا ، رغبت بريطانيا فى أن تطمئن على مصائر إمبراطوريتها فى الهند بأن تضم إلى جانبها شاه إيران ، لذلك بعثت بريطانيا بتعليماتها لممثلها فى إيران بأن يعمل على عقد معاهدة تجارية مع الشاه فى سنة ١٨٠٠ ، ولكن هذه المعاهدة لم تعقد .

وعندما سير نابليون حملته على مصر ، كان من بين ما كلفته به حكومة الإدارة فى فرنسا شق قناة السويس والوصول إلى الهند بحراً، فلما

أنزل نلسن الهزيمة بالفرنسيين فى المياه المصرية ، وأفشل مشروعهم البحرى لاحتلال الهند ، عاد نابليون ، وقد صار امبراطوراً ، يفكر فى غزو الهند براً ، ورأى من مصلحة المشروع أن يتفق مع شاه إيران وقتئذ ، فكاتب الشاه فى ذلك . وتدل عذوبة الألفاظ التى وردت فى المكاتبات التى تبودلت بينهما على مدى ما كان يملقه كل من الطرفين على الآخر . فقد أراد نابليون أن يستغل الأرض الإيرانية ، والجيش الإيرانى ، فى تسيير الحملة البرية على الهند ، وأراد الشاه أن ينتفع بالمعونة العسكرية الفرنسية فى محاربة الروس لإخراجهم من إقليم جورجيا . وقد عقدت بين الطرفين معاهدة سنة ١٨٠٧ ولكنها تثمر ثمرتها المطلوبة .

ذلك أنه بينما كان الشاه يفكر فى الاستجابة للعرض الفرنسى ، كانت مصائر الحرب فى أوربا قد انتهت إلى صلح تلست ، ذلك الصلح الذى تحالفت فيه الروسيا وفرنسا ضد انجلترا تحالفاً هجومياً ضد انجلترا . وعندئذ تفرغت الجيوش الروسية لإيران ، فلم ير الشاه بداً من عقد معاهدة مع بريطانيا لدرء الخطر الروسى ، وبذلك قبل الشاه فى سنة ١٨١٤ أن يتحالف مع بريطانيا عسكريا ، بعد أن رفض منذ سنوات أن يتحالف معها تجاريا .

وبحكم هذه المعاهدة ، بدأت بريطانيا فى التدخل فى شئون إيران ، وبخاصة العسكرية منها ، فأوفدت بعثة لإعادة تنظيم الجيش الإيرانى ، وعملت على تقوية مركز الشاه السياسى فى بلاده ، وتأمين عرشه من منافسة القبائل الطامعة فيه .

وفى ضوء هذه المعاهدة ، فكر الشاه أن يسترد من الروسيا ما ضمته إليها من الأقاليم التى كانت تحت حكم إيران ، وخاصة إقليم جورجيا ، ووقعت بينه وبين الروس حروب خرج منها الشاه مهزوما ، وخرجت

منها الروسيا باعترافه بضم إقليمى جورجيا وأرمينيا إلى الروسيا ، كما اعترف الشاه بحق محاكمة الرعايا الروس المقيمين بإيران أمام المحاكم الروسية ، ولم ينص فى المعاهدة على ما يقابل ذلك من حق إيران فى محاكمة رعاياها المقيمين بالروسيا ، فكانت هذه المعاهدة أول اعتراف رسمى من جانب إيران بامتيازات للأجانب فى بلادها . وقد انتهزتها الدول الأوربية فرصة سانحة لتنال من الشاه حقوقا مماثلة لرعاياها ، وفضلا عن ذلك ، فإن هذه المعاهدة دعمت نفوذ الروس فى إيران ، وأزعجت البريطانيين ، وفتحت باب المنافسة بين الدولتين الاستعماريتين ، ومن مظاهر هذه المنافسة الحادة ، وانعدام الثقة ، أن بريطانيا وروسيا لم تجدا بدآ فى سنة ١٨٣٤ من إصدار تصريح مشترك بضمان استقلال إيران .

والمتتبع لمجريات الأمور فى إيران يستطيع أن يستنتج فى يسر أن السياسة الروسية كانت سياسة هجوم ، بينما اقتصرت السياسة البريطانية على رد الهجوم .

وبتغلغل النفوذ الروسى فى إيران ، انتشرت موجة العداء للبريطانيين فلما خلا عرش إيران بوفاة فتح على شاه ، كان المبرر الأكبر للمناداة بحفيده محمد شاه (١٨٣٥ — ١٨٤٨) عداوه للسياسة البريطانية .

وقد استهل محمد شاه عهده بمحاولة ضم أفغانستان إلى ملكه ، معللا ذلك بأنها كانت من صميم أملاك الدولة فى عهد الأسرة الصفوية ، ووقعت الحرب بين إيران وأفغانستان ، فلما رجحت كفة الشاه فى الحرب ، وخشيت بريطانيا أن يكتسح الشاه بلاد أفغانستان بأكملها ، ويشرف على حدود الهند الشمالية الغربية ، قدرت بريطانيا أن باب الهند قد يصبح عندئذ مفتوحا على مصراعيه ، لا لإيران وحدها ، بل لحليفتها الروسيا كذلك ، وعندئذ قد يقضى على الإمبراطورية البريطانية فى الهند

لذلك هرعت بريطانيا إلى الوساطة بين إيران وأفغانستان فى سنة ١٨٣٧ لإنهاء الحرب . فأوقف القتال ، وبذلك ظلت أفغانستان حائلا بين إيران والهند من ناحية ، وبين روسيا والهند من الناحية الأخرى .

وفى عهد ناصر الدين شاه (١٨٤٨ — ١٨٩٦) وقعت حرب القرم ، ووقفت بريطانيا إلى جانب تركيا ضد الروسيا فى البحر الأسود ، فانتهزتها الروسيا فرصة سانحة ، وأوعزت إلى شاه إيران بأن الظروف مواتية له لاستعادة أفغانستان وضمها إلى ملكه ، سيما وأن الظروف المحلية تساعد على ذلك ، إذ أن زعماء القبائل يتنازعون العرش ، ولم تكتف روسيا بذلك بل أوعزت للشاه أن يمتد بمطامعه إلى الهند نفسها فيعمل على إثارة القبائل الهندية ، وخاصة قبائل الشمال الغربى ، وتحريضها على خلع طاعة البريطانيين ، والمناداة باستقلال بلادهم .

سارت الجيوش الإيرانية إلى أفغانستان ، وظهرت بوادر الثورة فى الهند، ولم تقتصر على قبائل الحدود الشمالية الغربية ، بل اندلعت فى كل أنحاء الهندية الشمالية ، ومما لا شك فيه أن الجو فى الهند نفسها كان مهيئا لمثل هذه الثورة ، إذ لا يعقل أن ينسب قيامها أولا وأخيراً إلى الجهود الإيرانية التى بذلت فى هذا السبيل ، سيما وأن مؤرخى الهند لا يعلقون على الجهود الأيرانية أهمية كبيرة فى تأريخهم لهذه الثورة ، وإنما هم على رأى واحد من أن عوامل الانتقاض على السياسة البريطانية كانت محلية بحت . أما الأحداث الدولية ، وخاصة حرب القرم ، وفشل الدبلوماسية البريطانية بإزاء الدبلوماسية الروسية فى إيران ، فقد كان من شأنهما أنهما شدتا أزر الثوار فى الهند ، أولئك الذين ثاروا — كما قلنا — لأسباب محلية .

أما الأمر الذى أزعج البريطانيين فى الهند فعلا . فهو سير الجيوش الأيرانية عبر أفغانستان . وتوقع مهاجمتها للهند من الشمال الغربى .

وقد أرادت بريطانيا أن تفت فى عضد الشاه ، وأن تثبت له أن حلفه مع الروسيا لن يغنيه شيئا أمام البحرية البريطانية ، فأرسلت بوارجها إلى مياه الخليج الفارسى فاحتلت ميناء بوشير ، وأسرت محافظ المدينة وأرسلته إلى الهند ، وأنزلته فى موكب حافل ، وحجبته عن الناس ، وأشاعت بأن الأسير ما هو إلا شـــاه إيران بذاته . وبذلك استردت بريطانيا هيبتها فى نفس الوقت الذى استطاعت أن تخمد فيه الثورة المحلية فى البلاد .

وقد توسط نابليون الثالث بين إيران وبريطانيا ، فعقد بينهما صلح باريس فى سنة ١٨٦٧ وبدأت العلاقات بينهما فى التحسن ، مما أزعج الروس وجعلهم يغيرون على أطراف إيران ، ويثيرون عليها المتاعب .

وقد عنى الشاه ناصر الدين ، وخصوصا فى آخريات أيامه ، بأن يخرج ببلاده من عالم القرون الوسطى الذى كانت تعيش فيه ، إلى عالم العصر الحديث ، فعمل على تنظيم جيشه على الأساليب الأوربية ، واستقدم لذلك بعثات عسكرية من مختلف الجنسيات ، ومنح البريطانيين امتياز مد الخطوط التلغرافية عبر البلاد فى سنة ١٨٧٤ ، كما فتح الباب للمصارف الأوربية ، فتأسس فى سنة ١٨٨٩ البنك الأنجليزى الأمبراطورى ، ثم تأسس فى سنة ١٨٩٠ بنك الخصم الروسى ، كما منح الروس امتياز مصايد الأسماك فى بحر قزوين .

وقد كان من آثار الحروب التى اشتبك فيها ناصر الدين . والنفقات التى اقتضتها النهضة بالبلاد من إيفاد البعثات ، واستقدام الخبراء ، وتنظيم الجيش ، والقيام بالمشروعات العمرانية ، مضافا إلى ذلك اسرافه الشخصى وخاصة فى رحلاته التى قام بها فى أوربا فى آخريات أيامه ، (وقد كان الشاه ناصر الدين أول شاه لإيران سافر إلى الخارج) كان من آثار كل

ذلك أن تأثرت مالية البلاد ، فاضطر الشاه إلى عقد القروض من روسيا وبريطانيا ، وبذلك فتح الباب أمام التدخل الأوربى فى شئون الدولة ، وما أشبه قصة الشاه ناصرالدين فى إيران بقصة الخديوى إسماعيل فى مصر فلقد كان كلاهما يتوق لأن يرى بلاده فى مصاف الدول الأوربية حضارة فسار كل منهما فى ركب التجديد ، غير مبال بالمال من أين يجىء .

وفى سنة ١٨٩٦ مات الشاه ناصر الدين ، اغتاله شاب فوضوى من المطالبين بالدستور . ويلاحظ أن هذه الفترة هى بعينها الفترة التى كان فيها شباب تركيا يكافح من أجل الدستور .

وخلفه على العرش مظفر الدين شاه (١٨٩٦ — ١٩٠٦) وكان رجلا ضعيفا مريضا . وقد ورث تركة مثقلة بالتدخل الأجنبى ، وكادت البلاد أن تفقد استقلالها فى عهده ، وقد عقد قروضا جديدة من بريطانيا وروسيا ، وطالبت كلاهما بامتيازات مقابل هذه الديون ، سيما وأن القرض الروسى كان بضمان إيراد الجمارك .

ولما منيت روسيا بالهزيمة فى الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤/٥) كانت هذه الهزيمة مدعاة لتغلغل النفوذ الروسى فى إيران ، فهب الإيرانيون يطالبون الشاه بالحياة النيابية ، حتى تستطيع القوى الشعبية أن تقف فى وجه المطالب الروسية ، وتعمل على إصلاح ما فسد من شئون الحكم ، وبادرت انجلترا إلى تأييد هذه الحركة نكاية بالروسيا ، فاضطر الشاه لمنح بلاده الدستور .

وفى أواخر سنة ١٩٠٦ ، توفى الشاه مظفر الدين بعد قيام الحياة النيابية بشهور ثلاثة ، وخلفه محمد على شاه (١٩٠٦/١٩٠٩) . وفى عهده أفلح النفوذ الروسى فى إيغار صدر الشاه ضد الحياة النيابية ، ولكن

الشعب ثار فى وجه الشاه ، فاعتصم فى قصره بحماية فرقة القوزاق الإيرانية وضباطها من الروس ، فانضمت الى الثائرين فرق البختيارى . وكان النفوذ فيها للضباط البريطانيين ، واقتحمت العاصمة على الشاه ، ففر إلى السفارة الروسية . فكان ذلك بمثابة تنازل عن العرش .

ولقد كان للأحداث الأوربية أثراً واضحا فى تقرير مصير إيران فى تلك الأيام ، ذلك أن ألمانيا كانت قد بدأت فى منافسة الدول الأوربية وتعويق جهودها الاستعمارية لحسابها ، فعقدت فرنسا حلفا مع روسيا . ثم عقدت بعد ذلك مع بريطانيا الاتفاق الودى لتقسيم النفوذ فى شمال القارة الأفريقية ، فانبنى على هذين الحلفين أن أصبحت بريطانيا فى حالة هدنة مع الروسيا . وعندئذ اتفقت الحكومتان الروسية والبريطانية على اقتسام النفوذ بينهما فى إيران ، فأبرم بينهما فى سنة ١٩٠٧ اتفاق على أن يكون النفوذ فى شمال إيران للروس . وفى جنوبها للبريطانيين . على أن تكون المنطقة الجنوبية الغربية ، الواقعة على الخليج الفارسى ، منطقة حياد وظل الاتفاق بين الحكومتين سرياً ، بعد ما أعلن أنه اتفاق بين الدولتين لعدم التدخل فى شئون إيران .

على أن هذا الاتفاق . وإن أخفى العداء السافر بين الدولتين فى سياستهما الآسيوية ، لم يقض على المنافسة الدبلوماسية بين الدولتين فى بلاط الشاه ، فقد كانت هذه طبيعة الأمور فى السنوات المبكرة من القرن العشرين: اتفاقات سرية بين الدول الأوربية على اقتسام النفوذ فى العالم الإسلامى ، ومنافسة دبلوماسية بين هذه الدول فى كل مكان . حتى لقد كان بقاء السفير لدولة من دول الاستعمار فى المكان الذى يشغله وقفا على نجاحه فى تدعيم نفوذ دولته ، أو القضاء على نفوذ الدولة المنافسة لها بالمؤامرات .

ولم تتخلص إيران من وطأة هذه الاتفاقية إلا فى سنة ١٩١٨ عند ما أعلنت الحكومة السوفيتية ، التى حلت محل حكومة القياصرة بعد الثورة الروسية الكبرى ، نقضها لجميع الاتفاقات والمعاهدات التى عقدت مع الحكومة القيصرية ، ونشرت على العالم الاتفاقات السرية التى كانت معقودة بين القياصرة وهذه الدول .

فى الحرب العالمية الأولى

بدأت الحرب العالمية الأولى وأوربا متكتلة فى معسكرين : معسكر الحلفاء ، ويشمل بريطانيا وفرنسا فى غرب أوربا وروسيا فى شرقها ، ومعسكر دول الوسط . وكان يشمل ألمانيا والنمسا وتركيا ، وبذلك كتب على بريطانيا والروسيا . أن تتناسق سياستهما وقتاً ما ، وظلت الحال كذلك إلى أن اندلعت نار الثورة الشيوعية فى الروسيا ، وقضى على الحكومة القيصرية فيها ، فخرجت روسيا الشيوعية من نطاق الحلفاء .

وقد تأثرت إيران بهذه الأحداث ، ففى مستهل الحرب ، تناسقت السياستان الروسية والبريطانية فى إيران ، وانطوت مصلحتهما على ضرورة اكتساح إيران رغم أنفها توصلا إلى مناوأة تركيا من ناحية الشرق .

سارت الجيوش الروسية إلى إيران فاحتلت تبريز ومشهد من أمهات مدن الشمال ، وفى الوقت ذاته هاجم الأسطول البريطانى ميناء بوشير على الخليج الفارسى وأنزل به جنوداً لاحتلال إيران من الجنوب . وظلت الحليفتان تتحكمان فى مصائر الأمور فى إيران حتى قامت الثورة الشيوعية فانسحبت الجنود الروسية من البلاد ، فبادرت بريطانيا إلى تسيير جنودها

لاحتلال البلاد التى أخلاها الروس ، وسيطرت بريطانيا على البلاد سيطرة كاملة ، على الرغم من المتاعب التى كانت تثيرها القبائل الايرانية

واهتمت روسيا الشيوعية ببث الدعاية فى إيران ضد بريطانيا ، وقد أفلحت هذه الدعاية إلى حد كبير، وخاصة بعد أن ترامت الأنباء فى أنحاء البلاد بالهزائم التى كان الألمان ينزلونها فى الميدان الأوربى الغربى بفرنسا وحليفتها بريطانيا .

واضطربت أحوال الحكومة الإيرانية بالضغط البريطانى الواقعى من ناحية ، والدعاية الواسعة النطاق التى كان الروس يبذلونها من الناحية الأخرى ، واستيقظت فى البلاد روح قومية لم تلبث أن أطاحت برجال الحكم الموالين لبريطانيا ، وظهرت فى البلاد موجة من التجديد والبعث .

فلما أعلنت مبادىء ولسن ، ومنهاحق تقرير المصير ، ظن الايرانيون أنهم قاب قوسين أو أدنى من تحقيق آمالهم باستقلال بلادهم استقلالا تاما وذهب وفدهم إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح ، ولكن بريطانيا أفلحت فى أقصاء هذا الوفد عن المؤتمر ، كما فعلت بكافة الوفود المطالبة بحقوق بلادها سواء بسواء .

وقبل أن نسترسل فى سرد الأحداث التى توالت فى إيران، يجدر بنا أن نلق نظرة عامة على المسرح السياسى الدولى بعد الحرب العالمية الأولى مقتصرين على ما كان له أثر من هذه الأحداث فى الشرق عامة ، وفى إيران خاصة .

١ — لقد كان الانقلاب الذى حدث فى روسيا ، من القيصرية إلى الشيوعية ، ذا أثر بالغ فى الشرق. فان روسيا السوفيتية أعلنت انصرافها عن السياسة الاستعمارية التى كانت لب السياسة القيصرية ، بل لقد رأى

الروس فى عهدهم الجديد أن يقفوا بجانب الشعوب الشرقية المغلوبة على أمرها لمقاومة الرأسمالية والاستعمار ، إذ أنهم كانوا يعتقدون أن تحقيق النظام الشيوعى ودوامه يستلزم شمول هذا النظام كافة أنحاء المعمورة .

وقد قرر الشيوعيون أن يبدأوا بمنازلة الرأسمالية فى الشرق دون الغرب لسببين : الأول أن الشرق كان مستعمرا للغرب لحساب الرأسمالية، ورفع الروح المعنوية فى الشرق فيه مقاومة وتحطيم للاستعمار، ومن ثم تحطيم للرأسمالية ، والثانى أن أسس الرأسمالية فى الشرق غير راسخة بمقدار رسوخها فى الغرب الذى بلغت فيه الرأسمالية أوج عظمتها فى كنف حركة التصنيع ، وبذلك كان العمل فى الشرق أقل جهدا وأعظم ثمرة من العمل فى الغرب .

٢ — ركز الحلفاء كثيرا من جيوشهم فى الشرق خلال الحرب ، وقد استلزم ذلك أن يصرف كثير من نفقات الحرب فى الشرق ، فتوسع بذلك نطاق الكسب للطبقات الفقيرة ، فتذوقت لذة الرفاهية المحدودة لأول مرة ، غير أن سعة العيش التى أوجدتها الحرب لم تدم طويلا فقد أعقبتها الأزمات الاقتصادية ، فنضب المال من أيدى هذه الطبقة فغمرتها روح النقمة والتبرم بالأوضاع الاجتماعية ، وعندئذ تقدمت السياسة الشيوعية خطوة إلى الأمام إعتقادا منها بأن التربة صالحة للدعاية للشيوعية بين هذه الأوساط ، دعاية قوامها تنبيه الطبقات الكادحة إلى حقوقها ومن أمثلة ذلك ما جاء فى النشرة التى أصدرها الشيوعيون فى سنة ١٩٢٠ بمناسبة توجيه الدعوة إلى عقد مؤتمر من ممثلى الشعوب الشرقية ، فقد جاء فى هذه النشرة العبارات الآتية موجهة إلى إيران :

« يا فلاحى إيران وعمالها : إن حكومة طهران القاجارية ومستخدميها

قد اختلسوا أموالكم واستغلوكم قرونا عديدة . إن الأرض التى جعلتها الشريعة ملكا مشاعا بينكم قد انتقلت شيئا فشيئا إلى حوزة خدم حكومة طهران ، الذين يفعلون ما يحلو لهم فيثقلون كاهلكم بالضرائب كما يشاءون وقد باعوا البلاد للرأسمالية الإنجليزية قبل عام، بعد أن أصبحت الأرض بحال لم تعد تصلح معه للاستثمار ....

٣ — كانت السنوات التى تلت الحرب العالمية الأولى سنوات يقظة عامة فى الشرق ، ففى تركيا كانت النهضة الكمالية ، وقد استطاع الكماليون أن يردوا كيد البريطانيين فى أعناقهم ، وأن يخلقوا من شتات الأتراك قوة ناهضة لم تلبث الدول الأوربية ، وعلى رأسها بريطانيا أن اعترفت بها. وفى مصر كانت ثورة سنة ١٩١٩ ، وقد تمكن المصريون فيها أن يسمعوا صوتهم للعالم أجمع بأن بقاء الاحتلال البريطانى ، أو الحماية البريطانية فى مصر أمر لا يقبله الشعب المصرى بعقليته الجديدة . وفى شمالى الجزيرة العربية كانت فكرة العروبة قد أفرخت ، وآمن المترددون بأن لا أمل فى بقاء البلاد فى حوزة الإمبراطورية العثمانية . وأن حق تقرير المصير قد خولهم أن يقولوا كلمتهم فى مستقبل بلادهم ، بينما كان آل الحسين يستنجزون البريطانيين وعودهم خلال الحرب، وقد إندلعت نار الثورة فى سورية والعراق تطالب بالاستقلال التام وجلاء الغاصبين . وفى قلب الجزيرة العربية كان أسد الجزيرة عبد العزيز آل سعود يبنى ملكه الجديد على أنقاض النفوذ البريطانى . وفى الهند اندلعت نار الثورة ضد البريطانيين تقول لهم « أخرجوا من بلادنا » . فكأن الشرق بأكمله قد سرت فيه روح جديدة . يتطلب كل قطر من أقطاره أن يشغل مكانه الذى يستحقه .

وفى ضوء هذه النهضة التى شملت الشرق بأكمله ، لم تتخلف إيران عن السير فى ركب هذه الموجة العامة . فضلا عن أن ظروف البلاد الخاصة كانت تنادى بالعمل الجدى المثمر .

ففى سنة ١٩١٩ عينت الحكومة البريطانية السير برسى كوكس ، من خبراء وزارة الخارجية البريطانية فى شئون هذا القطاع (الخليج الفارسى وإيران والعراق) ممثلا لها فى طهران ، ولم يلبث أن استمال رجال الحكومة إليه ، وعقد معهم معاهدة تضمن لبريطانيا السيطرة على الإدارة والجيش فى إيران، على الرغم من أن البند الأول منها ينص على اعتراف الحكومة البريطانية باستقلال إيران التام . وقد لاقت هذه المعاهدة إعتراضات فى الخارج والداخل . أما فى الخارج فقد رأت كل من فرنسا وأمريكا أن فى هذا الاتفاق محاولة من جانب بريطانيا للانفراد بالنفوذ فى إيران ، والحيلولة دون مصالح غيرها من الدول : الأصدقاء والاعداء على السواء أما فى الداخل ، فقد كان الرأى العام الإيرانى قد أفاق من غفلته الماضية ، فلم يعد يستسيغ أمثال هذه الألاعيب . رفض المجلس النيابى المعاهدة وأرغم الوزارة على تقديم إستقالتها ، وعجزت الحكومات المتعاقبة عن الحصول على موافقة المجلس على المعاهدة . وفى هذه الاثناء ، ظهر على مسرح السياسة الإيرانية « رضاخان » .

وخير ما نتقدم به للحديث عن رضاخان أن نعرب بعضا مما كتبه عنه الكاتب الأمريكى وليم هاس فى كتابه « إيران » الذى صدر عن جامعة كولومبيا سنة ١٩٤٦

رضاخان وإصلاحاته

نشأ رضا خان من عائلة قديمة ، عريقة فى فارسـيتها ، فى مقـاطعة مازندران . التحق شابا بفرقة القوزاق الايرانية ، وقد أحرز من النجاح ماسما به القيادة العسكرية ، ومنها إلى القيادة العليا لبلاده - ولم يكن فى ذلك إلا مثلا واحدا من أمثلة النجاح السريع غير المتوقع التى حدثت فى كثير من الأمم ، كبيرها وصغيرها ، فى الفترة التى أعقبت الحرب الأولى ، وأمثال هذا النجاح الذى يكاد يكون خياليا أقل ندرة فى الشرق عما هى فى الغرب ، وما القصص التى تروى فى ألف ليلة وليلة عن طفرة رجل من عامة الشعب بين يوم وليلة إلى مصاف الوزراء العظام ، إلا خيالا كثيراً ما تؤيده الأحداث ، وليس معنى ذلك أن رضا خان قد هبط عليه الحظ بإيماءة من خليفة عظيم . أو تعويذة من ساحر قدير ، فإنه كون مستقبله دون أن يوصى به أحد أحدا ، ودون أن يكون له ما يعتمد عليه إلا خالص مواهبه . ولوحاولنا أن نتقصى سيرته الأولى لما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، فالمادة التى يعتمد عليها فى ذلك غير ميسرة ... ونظراً لندرة المادة التى يمكن الاعتماد عليها فى الحكم على شخصيته نرى أن شهادة ضابط بريطانى فى هذا الشأن قد تكون لها أهميتها . قال عنه (فوربزليث) : —

« فى مستهل عام ١٩١٩ ، بينما كنا معسكرين فى مدينة قزوين ، زارنا ضابطان من فرقة القوزاق الإيرانية ، كان أحدهما روسيا هو الكولونيل سلفتسكى من أصدقائى المقربين ومعه ضابط من أحسن من رأيت من الضباط الإيرانيين وجاهة ، وقد قدم لى باسم الماجور رضا خان ، وكان مظهره ينم عن انطواء على نفسه ، وقد خيل إلى أنه ضجر بحديثنا ، ولكن هذا

المظهر لم يلبث أن تغير إلى النقيض عند ما عرضت عليهما أن يجولا معى فى معسكر النقل الميكانيكى ، فلقد انبثقت شخصية هذا الضابط الإيرانى من خلال غلالة الصمت ، فصار يوجه إلى السؤال تلو السؤال لمدة زادت عن ساعة ، وقد كنت مغتبطا بالإجابة على أسئلته ، إذ بدا لى بوضوح أنه رجل عسكرى موهوب . إذ كانت كل أسئلته فى الصميم ، وقد أذهلنى سرعته فى استيعاب المعلومات الدقيقة العويصة » .

ولقد كانت الظروف مهيأة لظهور رضا خان على مسرح السياسة الإيرانية . على أن هذه الظروف بذاتها لايجوز لها أن تنتقص من مؤهلاته ومواهبه ، إذ يجب علينا أن نذكر قول جوته : « لشد ما تقترن الفرص بالمواهب ! » . وتبدو أهمية التزاوج بين الفرص والمواهب فى ميدان السياسة أكثر مما تبدو فى أى ميدان آخر . قد يقال فى كل إصلاح أو تجديد سياسى أن الفرصة واتت الرجل ، وأن ضرورات الموقف هى التى أنجبته ، وتصدق هذه الحال فى سيرة رضا خان ، غير أن قدرته الخارقة على انتهاز الفرص فى الموقف المناسب لا يمكن تجاهلها .

لقد لجأ البريطانيون إلى الرشوة على نطاق واسع لوضع معاهدة سنة ١٩٣٩ موضع التنفيذ ، فقد سخوا فى عطائهم لثلاثة من الوزراء ، من بينهم رئيس الوزارة ، ولكن المعاهدة تفتقر إلى موافقة البرلمان ، وإذا كان رئيس الوزراء وثوق الدولة قد تردد فى عرض الأمر على المجلس ، فإن السبب الأهم فى ذلك أنه ربما شعر أن البرلمان لايزال يتمتع بكبرياء قومى وإدراك وطنى يكفيان لرفض إبرامها .

أما الشاه أحمد فلم يكن ليمانع بحال ما فى إبرامها ، إذ أنها كانت سترفع عنه إلى الأبد أثقال الحكم . وفى الوقت المناسب تولى زمام الأمور

وطنى من رجال الدين هو السيد ضياء الدين ، وسرعان ما التجأ إلى فرقة القوزاق يلتمس منها العون .

لم يتردد رضا خان فى تلبية النداء ، فسار إلى طهران على رأس بضعة آلاف ، وألقى القبض على رجال الحكم . وتألفت الوزارة الجديدة وكان رضا خان فيها وزيراً للحربية ، وذلك فى فبراير سنة ١٩٢١ ، فكان أول ما قامت به الحكومة هو إلغاء المعاهدة ... ا . ه

وبعد خمسة أيام (٢٦ فبراير سنة ١٩٢١) بادر المجلس النيابى إلى التصديق على معاهدة إيرانية — روسية ، قوامها العناصر الآتية : —

أولا : الاعتراف باستقلال إيران استقلالا تاما .

ثانيا : اعتراف حكومة الروسيا السوفيتية بألغاء جميع الاتفاقات التى أبرمت بين إيران وحكومة الروسيا القيصرية ، ومايتضمنه ذلك من التنازل عن الأراضى الإيرانية التى كانت تحتلها الروسيا ، والتنازل عن الامتيازات .

ثالثا : استنكار المحاولات التى تبذلها الدول الأوربية للقضاء على استقلال إيران وغيرها من الدول الأسيوية .

رابعا : استعداد الروسيا لنجدة الشعب الإيرانى فى حالة وقوع أى اعتداء أجنبى على إيران .

خامسا : تنازل الروسيا لإيران عن كل ديونها ، وعن بنك الخصم الروسى وكافة فروعه فى إيران .

سادسا : تسليم جميع الخطوط التلغرافية والموانى التى أقامتها فى إيران والتى كانت تديرها الروسيا .

سابعا : تفويض الروسيا لإيران أن تنشىء لنفسها أسطولا فى بحر

قزوين ، بشرط أن لاتتنازل إيران فى يوم من الأيام عن هذا الأسطول لطرف ثالث ، أو تضعه تحت تصرف قوة أجنبية .

ثامنا : تنازل الروسيا عن الإرساليات الأرثوذكسية الروسية ، بما فى ذلك مبانيها ومؤسساتها .

* * *

ومن سخريات القدر أن رضا خان لم يلبث أن تبين أن ضياء الدين يؤمن بضرورة التعاون مع بريطانيا ، وقدانفضح هذا الأمر عند ماأراد رضا خان أن يعيد تنظيم الجيش ، فإن ضياء الدين تشبث بأن يسند ذلك التنظيم إلى بعثة بريطانيه ، بينما أصر رضا خان على أن يتولى الإيرانيون أمر جيشهم بأنفسهم دون دخيل أجنبى . وقد انبنى على هذا الخلاف أن سقطت وزارة ضياء الدين .

وظلت إيران تعانى الأزمات الوزارية ، الواحدة تلو الأخرى ، ولكن منصب وزير الحربية وسردار الجيش ظل على الدوام محتفظا به لرضا خان ، لما كان يدركه الشاه من محبة الشعب له والتفاف الضباط حوله ، إلى أن كان شهر أكتوبر سنة ١٩٢٤ فاكتشف رضا خان مؤامرة تدبر لاغتياله ، يدبرها أحد رؤساء الوزارة السابقين ، قوام السلطنة ، فقبض على المتآمرين ، وأرغم رضا خان الشاه على أن يعهد اليه بتأليف الوزارة ، محتفظا فيها لنفسه بمركزى وزير الحربية وسردار الجيش ، واكتفى رضا خان بأن طلب الى قوام السلطنة أن يغادر البلاد فوراً بدلا من محاكمته ، فشد رحاله إلى أوربا ، ومالبث الشاه أحمد أن غادر البلاد إلى أوربا كذلك ، دون أن يحدد مدة إقامته بعيداً عن مملكته ، وبذلك صار رضا خان الرجل الذى تتطلع اليه البلاد .

على أن الطريق الذى سلكه رضا خان إلى عرش بلاده لم يكن طريقا

مفروشا بالورود والرياحين ، فقد أخضع غير واحدة من الثورات القبلية ضده ، وقاوم غير واحدة من الموجات الرجعيـة ، وأسكت أكثر من لسان من الألسنة التي كانت تنعى الأسرة القاجارية .

وأخيرا وافق المجلس بأغلبية ٨٥ صوتا ضد ٥ أصوات على اقتراح بخلع الشاه أحمد وإقامة رضاخان وصيا على عرش البـلاد حتى تجتمع الجمعية العمومية التشريعية . وحدثت مناقشات فقهية دستورية كثيرة حول الملكية والجمهورية ، وأيهما أنسب للبلاد من الناحيتين الاجتماعية والدينية ، وضربت الأمثلة بالحالة فى تركيا ، وبالفارق بين الأحوال فى كل من تركيا وإيران . ثم إسـتقرت الأمور بعد ذلك كله إلى المناداة برضاخان شاها على إيران وذلك فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، على أن يكون الملك وراثيا فى نسله من الذكور .

ومن الظواهر التى ميزت عهد رضاخان سهره على مصالح بلاده فى الداخل والخارج .

أما فى الداخل فقد استطاع أن يأتى بالمعجزات فى سبيل رفع مستوى الشعب والجيش على السواء ، ويطول بنا الحديث لو تناولنا هذا الموضوع ، فضلا عن أنه خارج عن نطاق بحثنا .

أما فى الخارج ، فقد طبعت سياسـته بالمحافظة على سلامة بلاده من تدخل البريطانيين فى شئونها ، إن لم يكن بالطريق السياسى السافر ، فبالاستناد الى المصالح البريطانية فى شركة البترول الأنجليزية الايرانية

فلقد شعرت بريطانيا بصدق نيته على تطهير بلاده من النفوذ الأجنبى عندما قرر إلغاء الامتيازات الأجنبية فى سنة ١٩٢٨ . وظلت بريطانيا

ترقب موقفه من شركة البترول حتى كانت سنة ١٩٣٢، فإذا به يلغى الامتياز الممنوح للشركة اعتماداً على إخلال الشركة بتعهداتها .

وترجع قصة البترول فى إيران الى سنة ١٩٠١ عندما منح الشاه مظفر الدين شركة دارسى امتيازاً بالبحث عن البترول فى أنحاء إيران فيما عدا المقاطعات الشمالية (التى كانت وقتئذ خاضعة للنفوذ الروسى) ولم تصادف الشركة نجاحاً فى مستهل حياتها ، وكادت أن تغلق أبوابها حتى كانت سنة ١٩٠٨ حينما انبثق البترول فى « مسجد سليمان » وبدأ الانتاج فى سنة ١٩١١ عندما أنشئت معامل التكرير فى عبدان ومدت إليها الأنابيب من مسجد سليمان .

وظلت الشركة تستغل آبار البترول ، وحصة الحكومة من هذا الاستغلال تكاد لا تذكر ، والتزامات الشركة بإزاء الحكومة الإيرانية لا تنفذ ، وعبدان ومسجد سليمان ومن بعدهما فيلدز تكاد تكون مدناً بريطانية ، حتى كان عهد رضاخان . فاذا به يلغى الامتياز فى سنة ١٩٣٢ كما ذكرنا . ويدعو الشركة إلى عقد إتفاق جديد مع الحكومة .

ورفعت بريطانيا الأمر إلى عصبة الأمم ، وحاولت أن تصبغ الأمر بصبغة دولية ، وأجابت إيران بأن الخلاف واقع بين إيران وشركة خصوصية ، وأنه لا وجه لتدخل الحكومة البريطانية ، وأفلحت إيران فى جعل عصبة الأمم تتنحى عن نظر المسألة . فاضطرت الشركة إلى عقد إتفاق جديد مع الحكومة ، روعيت فيه مصلحة البلاد المادية والأدبية

أما إنتاج البترول فى إيران فقد كان فى سنة ١٩٣٨ ، ٧٧ وربع مليون برميل سنوياً أو ما يعادل ٤ ٪ من بترول العالم (كان إنتاج الولايات المتحدة فى هذه السنة ٦١ ٪ من بترول العالم) وفى سنة ١٩٤٤ كانت آبار

البترول تغذى معامل التكرير فى عبدان بحوالى ٢٨٤٠٠٠ برميل يوما (بدلا من ٢١١ فى سنة ١٩٣٨) ثم ارتفع الرقم إلى ٣٥٠٠٠٠ فى سنة ١٩٤٥ .

وفى سنة ١٩٣٧ إنتخبت إيران عضواً غير دائم فى مجلس عصبة الأمم وفى نفس العام وقع اتفاق بعدم الاعتداء بين إيران والعراق وتركيا وأفغانستان سمى بميثاق سعد آباد نسبة إلى اسم القصر الذى كان يقيم فيه الشاه بقرب طهران ، فكان مظهراً من مظاهر التضامن والتكافل بين هذه الدول الشرقية، على الرغم من عدم جدوى هذا الاتفاق من الناحية المادية

فى الحرب العالمية الثانية

أعلنت إيران حيادها ، بمثل مافعلت فى الحرب العالمية الأولى، ولكن ظروف الحرب لم تسمح للدول المتحاربة بأن تحترم هذا الحياد ، ولم تلبث إيران أن أصبحت فى هذه الحرب ، كما كانت فى الحرب الأولى ، ميدانا من ميادين القتال .

يتحدث وليم هاس فى كتابه « إيران » عن هذه المرحلة فيقول :

« لو ترك لإيران نظريا أن تختار لنفسها موقفا بذاته خلال هذه الحرب لقضت مصلحتها الخاصة بأن تكون مع الغالبين ، وسبيل ذلك أن تتخذ لنفسها طريقا وسطا بإخفاء عواطفها إلى أن يحين الوقت الذى يرجح فيه إنتصار فريق على فريق . ولكن مسلك إيران لم يكن إلا مسلك عاهلها . أما الرأى العام الحقيقى فلم يكن ثمت احتمال لوجوده ، فجمهرة الشعب لم تكن تعنيهم السياسة الخارجية، بل لم يكونوا أهلا لفهمها. أما بين المتعلمين فقد انقسم الرأى إلى فريقين ، ومن المؤكد أن فرنسا قد نالت عطف

الكثيرين ، ولربما جاوز هذا العطف دائرة الشباب الذى تثقفوا فى فرنسا أما أولئك الذين صقلت عقولهم صقلا سياسيا ، فقد استعادت بريطانيا بينهم مكانتها القديمة التى عفت عليها أحداث العهد الجديد .

ولكن الأمور القاطعة (فى موقف إيران) كانت من اختصاص الألمان والروس. فان مركز ألمانيا فى ايران كان يزداد أهمية كلما ازدادت النازية قوة، فان النازيين قد جمعوا بين التدخل الاقتصادى والدعاية السياسية لتأييد مركزهم فى إيران، بمثل ما فعلوا فى كل مكان ، فإن سياسة الاقتصاد الجماعى قد مكنت لألمانيا النازية أن تمنح إيران من التسهيلات التجاوبة ما لم تستطع أن تمنحه الديمقراطيات . وفى تصنيع إيران ، تبوأت ألمانيا المكانة الأولى ، ولم يلبث المهندسون والخبراء الألمان أن تزايد عددهم . وفى التجارة الخارجية كانت ألمانيا فى مقدمة الدول التى تتجر مع ايران (كانت أرقام التجارة مع ألمانيا أربعة أمثال ما كانت عليه مع كل من روسيا والولايات المتحدة) . وكان كل ألمانى يرسل الى إيران يوكل اليه أن يكون داعية للنازية ، كما كان التوسع الاقتصادى مقرونا على الدوام بوسائل الدعاية ، ولم تكن زيارة كل من فون شارك رئيس منظمات شباب النازى والدكتور شاخت استثناءاً من هذه القاعدة . ولم يستطع الشاه الا أن تبهره المزايا المالية والاقتصادية التى منحها النازى لبلاده ، فضلا عن الكياسة والاهتمام اللذين كانت تبديهما هذه الدولة الكبرى لإيران دون أن يفصح عن ذلك أى مأرب سياسى . وكان من رأى الشاه أن يتطلع فى طلب المساعدة والتعاون الى الدول التى لا يخشى على إيران من خططها السياسية ، كفرنسا وغيرها من الدول الصغيرة . وبذلك كانت ألمانيا النازية ، وقد جمعت بين القوة المادية والبعد عن أن يكون لها فى ايران مطمع ، الدولة الشريكة النافعة التى يرحب بالتعاون

معها ، على الرغم من أنه كان واضحا لديه أن السياسة الجماعية فى الحكم والإدارة لا تتوائم مع المبادىء الديمقراطية . وفى أخريات أيام الشاه اتخذت أساليب الحكم الألمانى والإيطالى مثلا تحتذى فى الإدارة الإيرانية ومن أمثلة ذلك صبغ التعليم بالصبغة العسكرية وانشاء ادارة خاصـــة للإرشاد القومى .

على أن أهم ما اجتذب الشاه نحو السياسة الألمانية النازية العداء التعصبى ضد روسيا البلشفية . واذا كان ثمت محور أساسى تدور عليه سياسة الشاه الخارجية ، فهو جزعه من البلشفية وانتشار الدعاية لها فى بلاده (ويعدد الكاتب هنا أساليب قمع الدعاية الشيوعية ومطاردة المؤمنين بها والعاملين على نشرها) وليس من الهين علينا أن نقرر الى أى مدى كانت مخاوف الشاه فى محلها ، ولكن الإنسان يستطيع أن يدرك فى سهولة ويسر أن ألمانيا النازية كانت بالنسبة اليه هبة سماوية تقلل من مخاوفه، وأنه لم يكن يعنيه أن يتعرف ماهية الشيوعية أو خططها لإخضاع العالم واستعباده . ولذلك كان واضحا — عندما أعلنت الحرب بين روسيا وألمانيا — الى أى فريق سيهوى فؤاده .

أما الحلفاء ، فلم يكن لهم بد من أن يسلكوا الطريق الذى سلكوه فقد احتلوا إيران لأربعة أسباب : أولها أن يطمئنوا الى الاستمرار فى أمداد روسيا بما تحتاجه عبر ايران ، اذ أن طريق الخليج الفارسى ومنه الى القوقاز فبحر قزوين كان الطريق الآمن نسبيا من غارات الغواصات الألمانية ، والثانى أن الموقف فى الشرق الأدنى والشرق الأوسط كان يتطلب العمل الحاسم السريع ، فما دام الألمان يقتربون من القوقاز والقوات الألمانية الايطالية تهدد مصر ، والأسطول اليابانى يحتمل ظهوره فى مياه

الخليج الفارسى ، فقد لزم أن تتخذ كافة الاحتياطات الدفاعية من جانب الحلفاء ، ومن بين هذه الاحتياطات المحافظة على البترول ومنابعه ، وذلك هو السبب الثالث الذى جعل احتلال إيران أمراً لامفر منه . ولا حاجة بنا الى القول أن الحرب ماكانت لتنتهى فى صالح الحلفاء بغير البترول الأيرانى . فقد كان حتما على الحلفاء حماية منابع البترول ومصانعه من غارة الجيوش المعادية براً وبحراً ، فضلا عن حمايتها ضد عدو داخلى فى إيران هو عملاء الألمان ، وكان من المحتمل أن يقوموا بنسف المؤسسات البترولية. واذا كانت هذه المحاولة لم تحدث، فما كان ذلك الا بفضل الحراسة التى أحيطت بها هذه المؤسسات من جنود بريطانية وإيرانية . على أنه يحتمل أن يكون الألمان قد عفوا عن هذه المحاولة لسبب آخر، بمثل ما عفوا عن اتلاف الخطوط الحديدية عبر ايران . فمن المحتمل أن كان الألمان وقتئذ يتوقعون نصرا سريعا، ولذلك آثروا أن يتركوا هذه المؤسسات على حالها من الصلاحية رجاء أن تصبح فى أيديهم أداة نفع ذات قيمة تعلو على كل تقدير . وآخر هذه الأسباب نشاط العملاء الألمان فى إيران ، فان منظماتهم ، التى امتدت حتى بلوخستان ، كانت معروفة للبريطانيين ، ولكن كان من الصعب وقتئذ أن تقاوم هذه المنظمات دون المساس بحقوق السيادة فى ايران .

ولم تفلح سياسة المسالمة التى جرت عليها الديمقراطيات ، ولا انهيار فرنسا فى أن تبعث فى نفس الشاه روح الثقة فى عدالة قضية الحلفاء ، كما أن مركزهم فى الحرب فى صيف سنة ١٩٤١ لم يكن مما يشجع الشاه على أن يربط مصيره بمصير الروس والبريطانيين الذين طلبوا اليه إخراج عملاء الألمان من بلاده

ولذلك دخلت جيوش الحلفاء أرض إيران فى أغسطس سنة ١٩٤١

فاحتل الروس الشمال واحتل البريطانيون الجنوب . وكان خضوع الشاه لمطالب الحلفاء أو تحمله نتائج هذا الاحتلال لا يتمشى مع طبيعته . إذ كان يعتبره تخليا رخيصا عما وقف حياته عليه . ولو فرضنا أنه نجح فى إرغام نفسه على البقاء ، فإن المصادمات المتوقعة بينه وبين سلطات الاحتلال كانت كفيلة بأن تطوح به إلى نفس المصير، ولو أنه تشبث بحقوقه لانهارت معه أسرته ، ولكان ذلك المصير أشد ازعاجا له من مصيره هو ، لقد كان مصيره مليئا بسخريات القدر ، مفعما بالتهكم القاسى . لقد أسلم البلاد الى نفس الأيدى التى سبق له أن خلصها منها ، ولقد شهد بنفسه انهيار الطود الشامخ الذى بناه ، أنه لم يستطع أن يتكهن بأن هذا الاحتلال ما كان الا شراً تافها اذا قورن بما كانت ستؤول اليه حال البلاد فى أيدى الألمان واليابان ... ا . ﻫ .

دخلت الجيوش المتحالفة أرض ايران من الشمال والجنوب، ولم يكن للحكومة الإيرانية ـ بعد تنازل الشاه عن عرشه لابنه ومغادرة البلاد ـ مناص من أن تنزل على مطالب الحلفاء وأن تتعاون معهم مرغمة . فى سبتمبر سنة ١٩٤١ أعلنت الحرب على ألمانيا ، فقبض على من لم يفر من عملاء ألمانيا ، وفى يناير سنة ١٩٤٢ عقدت محالفة بين روسيا وبريطانيا من جانب، وايران من الجانب الآخر، قسمت بمقتضاها إيران إلى منطقتى نفوذ كما حدث فى سنة ١٩٠٧ بفارق واحد ، وهو أن المعاهدة الجديدة نصت صراحة على إستقلال إيران استقلالا تاما غير منقوص، وقد جاء التصريح البريطانى الأمريكى الروسى فى ديسمبر سنة ١٩٤٤ مؤيدا لهذا الاستقلال ، وزاد عليه أن مصالح إيران الاقتصادية ستلقى بعد الحرب عناية خاصة من الحلفاء، وأنه لن تنفرد دولة ما بعقد اتفاقات اقتصادية معها

وتعليقا على هذا الموقف يقول وليم هاس :

« لم تكن المشاكل الاقتصادية هى كل ما واجه حكومة الشاه الشاب ،

فقد كانت إلى جانبها بضعة مشاكل داخلية ، تتصل اتصالا غير مباشر بالاحتلال فإن مرأى الجنود الأجانب على أرض الوطن الايرانى قد سببت مضاعفات شتى ، مثلها فى ذلك مثل استقالة رضا شاه . إن من الامور الفتاكة الكامنة فى الدكتاتورية أنها تفتقر إلى سنة الاستمرار التى تميز الملكيات الوراثية والديمقراطيات ، فإذا ما انهار الدكتاتور ، فإن البندول يميل بطبيعته إلى التحول إلى أقصى الاتجاه المضاد : إلى الفوضى والعبث بالنظام ولقد ظهرت بوادر الفوضى فى طول البلاد وعرضها . فانحل نظام الجيش ، وبدأت القبائل فى الشغب متسلحة بما خبأته أو اقتنصته أو هربته من سلاح وتعرضت الطرقات العامة للكثير مما لا يستحب ، واعتدى فى كثير من الأحيان على قوافل الحلفاء أنفسهم . وأصبحت البلاد فى أمس الحاجة إلى رجل ذى مكانة مرموقة وقريحة وقادة ، وتوافرت هذه الصفات فى المرحوم محمد على فروحى الذى عينه الشاه الشاب رئيساً للوزارة ، كما كانت البلاد كذلك فى شديد الحاجة إلى حكمة واعية من سواد الشعب الإيرانى حتى يمكن إعادة النظام إلى نصابه . . اه .

وانتهزت روسيا هذه الفرصة — فرصة حلفها مع الديموقراطية — فنشرت الدعاية الشيوعية على نطاق واسع ، وكفلت الدعاة الشيوعيين المحليين بحمايتها ، فتحالفت الفوضى التى عمت البلاد مع الدعاية الشيوعية ، فمال سواد الشعب إلى المبادىء المتطرفة .

وهكذا سارت الأمور فى إيران : شاه شاب مغلوب على أمره أمام الأمر الواقع ، ورئيس وزارة محنك يعمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه . وشعب برم بهذا الاحتلال الأجنبي ، بهرت غالبيته الدعاية الشيوعية ، والكل فى ليل مظلم لا يعرف له نهار .

وانتهت الحرب العالمية الثانية باندحار ألمانيا النازية ، وبذلك قضى على

الاشتراكية . ووقفت الشيوعية وجهاً لوجه أمام الديموقراطية ، كلاهما تريد أن تسيطر على مقدير الأمور في العالم أجمع . ولم تلبث روسيا وبريطانيا ، وكانتا إلى عهد قريب حليفتين متضامنتين ، إن ناوأت كل منهما الأخرى .

وفي إيران رجحت كفة السياسة الروسية على كفة السياسة البريطانية رجحاناً فاق ما كانت عليه الحال في أي يوم من الأيام ، وقد يعزى ذلك إلى همة الروس في نشر دعايتهم في إيران بمقدار ما يعزى لاعتناق الجماهير الإيرانية للنظرية الشيوعية في ذاتها . أما البريطانيين فلم يصبح في أيديهم ما يستميلون به الشعب الإيراني أو يمنون به رجال الحكم منهم .

وكانت الأحزاب السياسية قد تعددت بما لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد . ويعزى ذلك إلى سببين: الأول أن روح الكبت التي عانتها البلاد أيام حكم رضا شاه كانت قد حفزت النفوس ونبهت الأفكار، ولكن الشعب لم يجد له وسيلة للتنفس في ظل الحزم الذي أخذت به الحكومة الجماهير وقتئذ . ثم جاءت الحرب فعانى الشعب نوعاً جديداً من الكبت في ظل الأحكام العرفية ، فلما انتهت الحرب تنفست الجماهير الصعداء . أما السبب الثاني فهو أن الدعاية الروسية كانت قد ألهبت حماس الجماهير الكادحة وتألف في كنفها حزب توده (أو حزب الجماهير) ، وكاد — بحسن تنظيمه وإحكام سياسته — أن يكون الهيئة الوحيدة التي يمكن أن يطلق عليها اسم « حزب » ، وكان ظهور الحزب بهذا التنظيم مدعاة لظهور المنظمات الحزبية الأخرى . فمنها حزب مردم (الشعب) وهو حزب معتدل يضم رجالا من ميداني الصناعة والتجارة ، والحزب الملي (الأمة) وهو حزب رجعي متهم بممالأة البريطانيين ، والحزب الديموقراطي الذي يتزعمه قوام السلطنة ، وإلى جانب هذه الأحزاب الثلاثة مجموعة من النقابات المهنية .

كالمعلمين والمحامين والمهندسين وأصحاب الصناعات . يضاف إلى ذلك منظمتان نسائيتان .

فلما أطلق سراح الأقلام بعد انتهاء الحرب، وقعت البلاد فى سلسلة من المعارك القلمية على صفحات الجرائد التى تنطق بألسنة هؤلاء الأحزاب والمنظمات . وظلت المعركة قلمية فحسب طوال عامين، حتى كان من الأحداث الخارجية ما نقل المعركة من الصحف إلى البرلمان ، ومن مجرد الكلام إلى صميم العمل .

فقد اندلعت الحرب الباردة بين الشيوعية والديموقراطية . وظهرت فى الهند حركة أزعجت البريطانيين وألزمتهم أن يقبلوا الأمر الواقع بأن يوافقوا على استقلال الهند عن التاج البريطانى، ووقع الحلفاء الديمقراطيون فى شر أعمالهم فى كوريا ، إذ دفعوا بالأمم المتحدة إلى أن تقرر تجنيد جيش دولى للحرب فى كوريا ، وتوالت الهزائم على هذا الجيش الدولى . كل ذلك أثر فى عقلية الجماهير فى إيران ، فآمنت بأن السيطرة البريطانية التى كانت تخشاها فى كل حين قد تبددت . وأن الامبراطورية البريطانية تسير نحو الهاوية .

وظهرت فى إيران زعامات شعبية ، وأخرى ملكية رجعية .

فآية الله الكاشانى زعيم من زعماء الدين لا يشق له غبار ، ولكنه اندفع فى تيار السياسة حتى استقر به المقام رئيساً لمجلس النواب .

والدكتور محمد مصدق من خيرة رجال القانون قد اجتذبته السياسة إلى جانبها فصار زعيما سياسيا .

والجنرال راز مارا رئيس هيئة أركان الحرب ، وكان موضع ثقة

الأميرة أشرف شقيقة الشاه ، نراه ينحرف من صفوف الجيش الى صفوف السياسيين .

والجنرال زاهدى من رجال الجيش المخلصين للشاه يتزعم حزباملكيا للدفاع عن مصالح الشاه ضد الهجمات المتوالية التى توجه إليه

يضاف الى ذلك أن الشعب الإيرانى فى ذاته لاتربطه ببعضه البعض ما يربط الشعوب المنسجمة من صلات ، خاصةوأن المدن الإيرانية لاتزال مبعثرة فى البلاد لاتربطها مواصلات طيبة . وفضلا عن ذلك فإن بعض القبائل لاتزال على بداوتها تتأثر بغير ما تتأثر له الشعوب العريقة فى القومية . ومن أمثلة ذلك أن قبيلة تشقاى وهى التى تستوطن شيراز تتأثر للدكتور مصدق وتؤمن به بأكثر مما تؤمن بالحكومة أو بالشاه ، بينما تتأثر للشاه قبيلة بختيارى ، التى تستوطن نواحى عبدان ، وخاصة بعد أن تزوج من الامبراطورة ثريا إحدى بنات هذه القبيلة .

تفاعلت هذه العوامل كلها ، فأثرت فى مصير إيران خلال السنوات القليلة الماضية ، فتوالت عليها الأحداث .

ومن أهم الأحداث مطالبة الروس بامتيازات بترولية فى شمالى ايران فلقد أشاع هذا المطلب الذعر فى نفوس الإيرانيين ، إذكانت هذه المحاولة كفيلة بأن تنبه المعجبين بالروسيا الى أن معبودتهم لا تختلف فى مطامعها عن بريطانيا ، غير أن الدعاة الروس عللوا هذا المطلب بأنه مجرد رد على ما تسعى اليه بريطانيا وأمريكا من الاستيلاء المطلق على حقول البترول ومعامل التكرير ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد سرت موجة من العداء للروسيا فى أمهات المدن الأيرانية . وعندما عرض أمر المعاهدة على

البرلمان فى أواخر سنة ١٩٤٧ قرر المجلس رفض الاتفاقية واتخذ قراراً بمنع الحكومة من إبرام أى اتفاق مع أية دولة أجنبية بشأن البترول.

واستقالت وزارة قوام السلطنة ، صاحبة الأغلبية فى البرلمان ، تحت ضغط الرأى العام . وكان ذلك فى ديسمبر سنة ١٩٤٧ ، وتوالى سقوط الوزارات كما تتساقط أوراق الخريف ، وبدأت سمعة الشاه — الذى قيل أنه يتأثر لمصلحة بريطانيا — تتدهور فى نظر الجماهير

وصارت قصة البترول مثار الجدل الذى حمى وطيسه إلى درجة أن الصحافة ابتكرت لفظ « نفطى » لتنعت به كل من يتأثر لصوالح شركة البترول الانجليزية الايرانية ، سواء أكان صحفيا أم سياسيا أم مجرد رأسمالى ، وقد اتهمت بعض الصحف . كما اتهم بعض رجال القلم ، بأنهم نفطيون إذ كانوا ينادون بالاصلاح الاجتماعى أو الزراعى لمجرد صرف الأذهان عن مشكلة البترول .

أما الشركة ، فقد أدركت أن تحريضها على رفض المعاهدة الروسية الايرانية بشأن البترول قد عاد عليها هى بالوبال ، إذ بدلا من أن يقتصر قرار البرلمان على رفض الاتفاقية ، أفلت الزمام فقضى المجلس بمنع الحكومة من إبرام أى اتفاق بشأن البترول ، وهذا يمس الشركة فى الصميم .

وفى يوم ٤ مايو سنة ١٩٤٩ ، بينما كان الشاه يشهد حفلة رياضية فى جامعة طهران ، حاول أحد الصحفيين اغتياله ، ولكن الشاه نجا من هذه المحاولة ، إلا أن الحادث أزعج الشاه إلى درجة جعلته يحاول أن يصلح من سيرته فى الحكم ، وأن يتمشى مع منطق ما بعد الحرب . فقرر أن يبيع أملاكه إلى صغار الملاك على أن يسددوا الثمن على آجال طويلة ،

ثم تنازل عن كثير من مخصصاته ، وأبدى اهتماما كليا بالأصلاح الزراعى إلا أنه كان لايستطيع أن ينفذ كل ما أراد لحاجة البلاد إلى المال . وقد سافر فى سبيل الحصول على قرض إلى أمريكا ، ولكنه لم ينجح فى عقد القرض .

عاد الشاه إلى بلاده ، ثم استدعى الجنرال رازمارا لتأليف الوزارة ويقال انه لم يفعل ذلك إلا بتأثير شقيقته عليه . وقد أرادت أن تكون مقاليد الوزارة بيد رجل يؤتمن على مصالح التاج .

فكر « رازمارا » فى إعادة النظر فى اتفاقية البترول الأنجليزية الأيرانية ، مؤملا أن يكون للبلاد من وراء التعديل مصدراً للمال الذى تحتاج إليه فى رفع مستوى المعيشة ، والقيام بالأصلاح الزراعى الذى نادى به الشاه ، وقد رأى أن يمهد لذلك بنشر الدعاية ضد اتفاقية البترول وضآلة الحصة التى تؤول إلى البلاد منها .

غير أن الدكتور محمد مصدق نادى بتأميم البترول بدلا من تعديل الاتفاقية ، وألف من أعضاء البرلمان لجنة للنظر فى التأميم .

واشتدت الدعاية ضد تعديل الاتفاقية ، وضد صاحب فكرة التعديل وفى يوم ٧ يونيه سنة ١٩٥١ اعتدى عضو من جماعة « فدائيان إسلام » على الجنرال (رازمارا) فأرداه قتيلا . وبجلسة ١٥ يونيه قرر مجلس النواب تأميم البترول .

أما الشاه فقد كلف حسين علاء وزير البلاط بتأليف الوزارة الجديدة فألفها من عناصر رجعية . معروفة بميولها نحو القصر والبريطانيين . وفى غمرة بالغة من الحماس، قرر مجلس النواب تعيين الدكتور مصدق رئيساً للوزارة ، فلم يسع الشاه إلا أن يوافق على ذلك .

وأدركت شركة البترول أنه لم يبق أمامها أمل فى وضع الأمور وضعا ترضاه ، فقررت ترحيل موظفيها من عبدان . فلما توقفت معامل التكرير عن العمل ، أصيبت البلاد برد فعل اقتصادى استغله خصوم مصدق فألبوا عليه أنصاره ، وفيما بين يوم وليلة ألفى مصدق نفسه هدفاً لاتهامات يرشق بها بالباطل . وزادت الأمور تعقداً عندما انتخب المجلس لرياسته جمال أمامى ، وهو من خصوم مصدق ، عندئذ اضطر مصدق أن يقدم استقالته فى ١٦ اكتوبر سنة ١٩٥٢ وعين الشاه قوام السلطنة رئيساً للوزارة .

وعلى الرغم من المظاهرات العدائية التى قوبل بها من الشعب على أساس أنه من الرجعيين أذناب البريطانيين ، فإن الأمور كادت أن تستقر بين يديه ، لولا أن عرض على البرلمان أن يمنحه سلطات استثنائية ليتمكن من السيطرة على الموقف بإعلان الأحكام العرفية . وقد تنبه أعضاء المجلس إلى أن الأحكام العرفية وهذه السلطات الاستثنائية قد تستعمل ضدهم ، ولذلك قرر المجلس عدم الثقة بالوزارة ، فاستقالت ، واختفى قوام السلطنة عن أعين الشعب مخافة أن يفتك به .

استدعى الشاه الدكتور مصدق لرياسة الوزارة ، وانتخب المجلس آية الله الكاشانى رئيسا له ، وتعاهد الزعيمان على تسيير دفة الأمور بما فيه مصلحة الشعب .

إلا أن الدكتور مصدق طلب إلى المجلس أن يمنحه سلطات استثنائية لتطهير الجيش وتنفيذ الإصلاح الزراعى . وقد رضى آية الله كاشانى عن المطلب الأول واعترض على المطلب الثانى ، لأنه يمس الأوقاف

الأسلامية ، وكانت مساحتها تربى على ربع مساحة الأرض المزرعة ، وكان كاشانى أحد كبار المشرفين عليها . وحاول كاشانى أن يثنى مصدق عن مشروع الأصلاح الزراعى ، ولكنه أصر على رأيه ، وبذلك اختلف الزعيمان .

وفى أثناء ذلك تكتل الرجعيون وضباط الجيش المفصولين حول الشاه بينما فرضت الشركات الأمريكية والأنجليزية حصارا اقتصاديا حول بترول إيران الذى حاول مصدق أن يبيعه فى الأسواق ، ليستعين بحصيلته على إصلاح الحال ، ورفضت كل الدول شراء البترول ، بما فيها الروسيا التى كان مصدق يتوقع إقبالها عليه ، إلا أن الروس لم يكونوا بحاجة ماحة إلى بترول إيران ، فضلا عن أنهم كانوا غير مستعدين لخوض حرب عالمية ثالثة إذا تأزمت الأمور بينهم وبين الانجليز والأمريكان .

انهار حكم مصدق تحت ضغط الضائقة الاقتصادية ، وقاربت فترة السلطات الاستثنائية على الانتهاء ، فتقدم إلى المجلس يطلب امتداد الفترة ولكن أغلبية المجلس كانت قد انفضت من حوله . وخشى على حياته من مؤامرات القصر واللائذين به ، فاعتصم بدار البرلمان حذر الاغتيال .

وأصدر الشاه مرسوما بإقالة الدكتور مصدق من رياسة الوزارة ، ولكنه اعتبر المرسوم غير دستورى ، وألقى القبض على حامله . وأعلن راديو طهران باسم الدكتور مصدق أن الحكومة كشفت عن مؤامرة انقلاب مسلحة ، غايتها الإطاحة بحكومة التأميم .

إزاء تحرج الموقف ، أدرك الشاه مدى الخطر الذى يتعرض له ببقائه فى العاصمة ، فاستقل طائرة وسافر إلى بغداد ومعه الامبراطورة ثريا ومنها ذهبا إلى إيطاليا .

وبهروب الشاه على هذا الوجه قويت الروح المعنوية لدى الجماهير ، فاشتد هياجهم وقاموا بتحطيم تماثيل رضا شاه وهتفوا بحياة الجمهورية .

وفى صباح اليوم التالى ، وصل إلى طهران السفير الأمريكى ، فقابل الدكتور مصدق ، وأفهمه أن الحكومة الأمريكية غير مستعدة لدراسة الموقف فى إيران وتقرير موافقتها أو رفضها للانقلاب إلا إذا أكد لها الدكتور مصدق عدم تعاونه مع الحزب اليسارى (توده) .

ولما كانت مقاليد الحركة الشعبية قد آلت إلى أيدى هذا الحزب ، وكان أنصاره هم الذين قاموا بالمظاهرات والتخريب ونادوا بالجمهورية ، فقد رأى الدكتور مصدق أن يحزم أمره معهم . فقرر كبح جماح الغوغاء وتريث فى إعلان خلع الشاه وإعلان الجمهورية . فكان تصرفه هذا سببا فى انصراف أنصار الحركة عنه .

وفى صباح ١٩ نوفمبر قدمت إلى طهران مظاهرة كبرى من الغوغاء ، ومعها بعض رجال قبيلة بختيارى ، فلما دخلوا المدينة انضم إليهم شرطتها ، وسار الجمع قاصدا بيت الدكتور مصدق يريدون تدميره . وحمل رجال البختيارى الجنرال زاهدى على أكتافهم وهم يهتفون بسقوط مصدق .

عاد الشاه إلى طهران ، وألقى القبض على مصدق ، وأعلنت الأحكام العرفية ، وتولى الوزارة الجنرال زاهدى ، وأعيدت العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا وإيران ، وأحيل الدكتور مصدق إلى المحكمة العسكرية الخاصة .

وعند ما طلب إليه رئيس المحكمة أن يذكر اسمه ظل جالسا فى مكانه وأجاب بحدة قائلا : محمد مصدق ، مسلم شيعى ، رئيس الوزارة الإيرانية ،

إنني هنا بتدخل من السياسة الأجنبية ، وهذا لا يعني أيها الجنرال إلا أنك من أشياع هذه السياسة . إن العالم كله ينتظر حكمكم . فلا تخونوا بلادكم ، ولا تتيحوا لأحد فرصة القول : إن بعض الضباط الإيرانيين هزموا حصم بريطانيا . فاذهبوا و تكافحوا الأجانب بدلا من أن تكافحوا شيخا ضعيفا طاعنا فى السن مثلي .

وفى خلال دفاعه عن نفسه ، اتجه مصدق نحو تمثالى رضاه خان و الشاه الحالى ، ثم انحنى وقال : إننى أنحنى أمام رضا شاه الذى أطال عقد البترول ٢٢ عاما . وانحنى أمامك ياجلالة الشاه مع أنك عزلتنى بمرسوم وأعدت البريطانيين إلى إيران .

وبعد محاكمة طال أمدها ، حكم على الدكتور مصدق بالسجن ثلاث سنوات .

ونحن إذ نكتب هذه الكلمة ، قد وافتنا الأنباء بأن البريطانيين والأمريكان يعملون يداً واحدة على إعادة العمل فى معامل التكرير فى عبدان . أما الروس، فإنهم يقفون من إيران اليوم وقفة المتفرج المتربص.

الفصل الثانى عشر

أفغانستان

بين روسيا وبريطانيا

قبل أن يعلن استقلال شبه القارة الهندية الباكستانية ، كانت بريطانيا تملك الهند ، وتحرص عليها غاية الحرص . وقد دارت سياستها الأسيوية خلال مائتين وخمسين سنة حول هذا المحور . وسنتعرض فى هذا الفصل لتاريخ أفغانستان فى هذه الفترة ، التى تعتبر منتهية فى سنة ١٩٤٧ بقيام دولتى الباكستان والهند :

* * *

إذا كانت إيران قد قاست الأمرّين من موقعها الجغرافى بين الأرض الروسية من الشمال والنفوذ البريطانى من الجنوب والغرب ، فإن أفغانستان قاست أمر مما قاسته إيران ، فهى واقعة جغرافياً بين الأرض الروسية من الشمال ، والأرض البريطانية (وليس النفوذ البريطانى) من الشرق ، حيث تتاخم الهند ، والجنوب الغربى حيث تتاخم بلوخستان .

ومنذ أن آلت الهند الى بريطانيا ، وبلاد الأفغان محور اهتمامها ، وذلك للاعتبارات الآتية : —

أولا . يسكن بلاد الأفغان شعب مسلم متعصب لايزال على الفطرة ، وقوام الحياة الاجتماعية فيها يدور على النظام القبلى ، مما يجعل الاستقرار أمراً بعيد الاحتمال ، فضلا عن أن طبيعة البلاد جبلية ، يسهل على أهلها الغزو والاستعداد للغزو ، بينما يشق على من يحاول إخضاعها أن يسلك الطرق الوعرة ، وليست له بها سابقة عهد .

ثانيا : يسكن الشمال الغربى من الهند شعب قبلى مسلم متعصب لايزال على الفطرة . شأنه فى ذلك شأن الأفغان أنفسهم . وقد استعصى على البريطانيين زمنا طويلا إخضاع هذا الشعب للنظام ، وتنتقل قبائل الباتان بين أفغانستان ومقاطعة الحدود الشمالية الغربية للتجارة أو الإقامة ، دون أن تستطيع الحكومة البريطانية السيطرة عليها . ويخشى الانجليز على الدوام أن تتحالف القبائل الأفغانية وقبائل الباتان على غزو الهند من الشمال الغربى ، سيما وأن لأفغانستان سابقة فى احتلال الهند أيام السلطان محمود غزنوى . ولا تزال الحملات التى شنها محمود غزنوى على الهند ، والسهولة التى فتح بها البلاد ، وسلاسة قياد المسلمين بالهند لهذا الفاتح المسلم لاتزال هذه شبحاً يخيف الحكومة البريطانية ، ويقض مضجعها فى سياستها لمقاطعة الحدود الشمالية الغربية .

ثالثاً : يعتقد البريطانيون أن للروسيا مطمعا فى الهند لا يمكن تحقيقه إلا باجتياز أفغانستان ، كما يعتقدون أن الأفغان إن لم يرحبوا بتمكين الروس من عبور بلادهم والدخول إلى الهند ، فإنهم يرحبون بأن يروا من وراء ظهورهم دولة قوية هى الروسيا تمدهم بالمعونة المادية والفنية والعسكرية إذا فكروا فى اقتحام الهند على البريطانيين ، ولذلك نرى البريطانيين يرقبون الحركات الأفغانية فى وجل ، ويعملون جاهدين على أن يكونوا على وئام مع ولاة الأمور فى أفغانستان . اللهم إلا إذا بدا من هؤلاء عمل جدى يزعج البريطانيين ، فإنهم عندئذ يلجأون إلى رض سلطانهم بالقوة .

رابعا : فتساور الحكومة البريطانية ، بين الفينة والفينة ، فكرة احتلال أفغانستان ، ولكنهم يخشون أن يكون ذلك مدعاة لحرب سافرة

بينهم وبين روسيا ، ولذلك نراهم يركبون رؤوسهم تارة . ويجنحون إلى السلم تارة أخرى .

• • •

يبدأ تاريخ أفغانستان الحديث سنة ١٨٤٧ باستيلاء أحمد خان على قندهار . وقد أدرك هو وخلفاؤه ما لبلادهم من أهمية استراتيجية بوقوعها بين أملاك الروسيا والهند ، فكانوا يتآمرون تارة مع الروسيا وأخرى مع حكومة الهند ، حتى كانت سنة ١٨٣٨ . وكان على عرش الأمارة فى أفغانستان دست محمد فاتصل بالروسيين رغبة فى إبرام معاهدة بين البلدين ، فثارت ثائرة البريطانيين . وأرسلوا حملة عسكرية إلى أفغانستان ما لبثت أن سيطرت على الموقف ، وقبض على (دست محمد) وأرسل إلى الهند حيث ألقى به فى غياهب السجون .

ومنذ ذلك الحين وبريطانيا وجلة من احتمال غزو روسى لمستعمرتها فى الهند ، لذلك صممت على احتلال أفغانستان بعد إقصاء أميرها . ولكن الأمور لم تستتب للبريطانيين ، فقد اغتيل قائد جيش الاحتلال وصفوة من ضباطه فى سنة ١٨٤١ واستعصى على البريطانيين أن يسيطروا على الموقف ، فانسحبت الحامية البريطانية من (كابول) ولكنها لم يقدر لها الوصول الى الهند ، إذ اغتيلت على بكرة أبيها فى المفاوز الجبلية ، بحيث لم ينج منها إلا فرد واحد ، ورأت الحكومة البريطانية أن تنتقم لنفسها ، فأرسلت حملتين مجهزتين أحسن تجهيز ، واحتلت (كابول) فى ١٦ سبتمبر سنة ١٨٤٢ .

ولجأ البريطانيون إلى الدبلوماسية ، فإذا بهم يعيدون (دست محمد) إلى عرش الأمارة على أن يكون مواليا للبريطانيين ، ولقد كان عند حسن ظنهم

به ، فظل على عرش الأمارة إلى أن توفى سنة ١٨٦٣ بعد أن بويع لابنه الثالث شير على بالأمارة .

وفى سنة ١٨٧٨ تآمر شير على مع الروس ، ورفض مقابلة بعثة بريطانية ، فاحتلت بريطانيا أفغانستان مرة جديدة .

خرج شير على إلى بلخ حيث توفى سنة ١٨٧٩ ، وفى مايو من هذا العام وقعت بريطانيا مع أفغانستان معاهدة جندماك ، وفيها اعترفت بريطانيا بيعقوب خان ، ابن شير على ، أميراً على البلاد ، مقابل أن يكون لبريطانيا معتمد سياسى يقيم فى كابول ، وأن تعدل الحدود بين الهند وأفغانستان بإضافة ممر خيبر (المدخل الرئيسى للهند) إلى الممتلكات البريطانية بالهند وكان ذلك فى مايو سنة ١٨٧٩ .

ولم تمض شهور أربعة على هذا الاتفاق حتى اغتيل المعتمد البريطانى هو وحاشيته ، فأرغمت الحكومة البريطانية يعقوب خان على إخلاء عرش الإمارة ، ونصب مكانه عبد الرحمن خان حفيد دست محمد فى يوليو سنة ١٨٨٠ وفى عهده خرج عليه عمه أيوب خان واحتل قندهار ولكن عبد الرحمن خان ، تؤيده بريطانيا ، أوقع به هزيمة فر على أثرها إلى إيران ، وبذلك استتب الأمير للأمير ، وقد تقاضت بريطانيا ثمن هذا التأييد بأن تعهد الأمير بأن يترك للبريطانيين تدبير سياسة البلاد الخارجية .

وفى أول أكتوبر سنة ١٩٠١ توفى عبد الرحمن خان ، ونودى بابنه حبيب الله خان أميراً على البلاد ، وقد استطاع البريطانيون أن يحصلوا سنة ١٩٠٥ على توكيد للتعهد الذى وقعه والده بترك السياسة الخارجية للبريطانيين ، وفى مقابل ذلك قبل البريطانيون أن يلقب نفسه ملكا .

فى الحرب العالمية الأولى

ولما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى ، أوفد الألمان بعثة إلى

أفغانستان تدعو الأمير للمساهمة فى تحرير الهند من الاستعمار البريطانى ، ولكن الأمير رفض ما عرض عليه ، وطرد البعثة من حضرته ، وعمل على أن لا تقع على الحدود الهندية الأفغانية مناوشات .

وفى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٩ اغتيل حبيب الله ، فتحرك ابنه الثالث أمان الله ، وكان حاكما على كابول ، فاستمال إليه الجيش فاستولى على العرش .

وقد واجه أمان الله فى مستهل حكمه أزمة كبرى ، إذ اتهم عمه نصر الله خان بأنه المدبر للمؤامرة التى انتهت باغتيال والده حبيب الله . إلا أن نصر الله خان كان ذا حظوة عند رجال الجيش وعلماء الدين ، فلما حوكم وقضى بسجنه ومات فى السجن ، قامت قائمة أنصاره ، وأهاجوا الشعب على أمان الله ، بحيث اضطر إلى إثارة العصبية الدينية بين الجماهير بإعلان الجهاد ضد بريطانيا .

وكان لزاما على الحكومة البريطانية أن تواجه الأزمة فى أفغانستان فى وقت لم تكن فيه مستعدة لمواجهتها ، فإن جنود الهند ، الذين تعتمد عليهم بريطانيا فى حروبها مع الأفغان كانوا لا يزالون خارج الهند ، وفضلا عن ذلك فإن المهاتما غاندى كان قد أعلن فى الهند سياسة العصيان المدنى ، فعمت الاضطرابات إقليم البنجاب ، أقرب أقاليم الهند من أفغانستان ، وهو إلى ذلك أقليم للمسلمين فيه — وخاصة فى نصفه الغربى — غالبية عظمى وقد أرسل زعماء البنجاب الى أمان الله يدعونه للقدوم الى الهند لتحريرها ، ولكن حسن الحظ جعل حاكم البنجاب البريطانى يخضع الثورة المحلية قبل وصول الطلائع الأفغانية الى ممر خيبر بأسبوع واحد . وعندئذ جرد البريطانيون حملتهم على أفغانستان ، وعلى الرغم من براعة الأفغان وشجاعتهم ، فإن الجيش الهندى البريطانى لم يلبث أن انتصر عليهم بفضل المعدات الحربية الحديثة ، وعقدت بين الطرفين معاهدة راولبندى التى

اعترفت فيها بريطانيا باستقلال أفغانستان ، على الرغم من أن البريطانيين كانوا يستطيعون إملاء ما يريدون من شروط ، ولكن الدبلوماسية البريطانية آثرت أن تعترف باستقلال البلاد عسى أن تهدأ فيها الأحوال وقتاما، تستريح فيه بريطانيا من معالجة المشاكل الأفغانية عن طريق القوة .

لم يكن أمان الله يأمن للبريطانيين ، ولذلك هم بعقد معاهدة مع روسيا ، إلا أن الظروف لم تساعده على ذلك ، إذ أن الروس كانوا قد نكلوا بالأمارة الإسلامية فى بخارى، مما ألجأ أميرها وآلاف من رعاياه إلى الهرب إلى أفغانستان ، وبذلك قطع عليه سبيل الاتصال بالروس ، ورجحت كفة البريطانيين من حيث لايحتسبون ، واستطاعوا أن يحصلوا على موافقة الملك أمان الله على تبادل التمثيل السياسى والقنصلى بين البلدين .

إلا أن أمان الله لم ييأس من مضاربة بريطانيا بروسيا ، فقد اتصل بالروس،وكانوا بعد إعلان الشيوعية يرحبون بالاتصال بالدول الأسيوية لتوطيد مكانتهم الجديدة لديها على أنقاض السياسة القيصرية ، وبتأثير التوجيه الروسى ، ورغبة فى إزعاج البريطانيين ، عقد أمان الله ميثاق عدم اعتداء مع روسيا ، ثم عقد بعد ذلك معاهدتين مع إيران وتركيا، اعترفتا فيهما بالاستقلال الكامل لأفغانستان.

ويتحدث السير (برسى سيكس) عن خاتمة « أمان الله » فى كتاب « الاسلام اليوم » فيقول :

« ولقد كان أمان الله متوثبا لفرض إصلاح لم يحن أوانه على دولته المتخلفة ، ولكنه لم يوهب الصبر وسعة الحيلة ، فلقد كان إصدار القانون المدنى الذى صاغه خبير تركى أبغض شىء لدى رعاياه الرجعيين . وقد

قال علماء الدين فيه كلمتهم وهى أنه غير شرعى ، وفضلا عن ذلك فقد أهمل فى إصلاح حال جيشه ذى الرواتب الضئيلة ، فلما اندلعت الثورة فى عام ١٩٢٤ فى « خست » تمزق كل جيشه وفتحت كابول أبوابها للثوار ، ولم يستطع إخماد الثورة إلا بالمبالغة فى الإتفاق على تجنيد جيش من رجال القبائل التى لم تشترك فى الثورة التى طال أمرها عاماً .

وفى عام ١٩٢٧ قام « أمان الله » برحلته الكبرى ، فاستقبل فى كل بلد أحسن استقبال ، وخاصة فى انجلترا حيث كان موضع الاحترام والتقدير ، وبعد أن أكمل طوافه بأوربا نزل ضيفا على مصطفى كمال . ومما لاشك فيه أنه تأثر كثيرا بالنهضة الكمالية ، كما تأثر بالأصلاحات التى أدخلها رضا شاه فى إيران . ويلاحظ أن الدولتين : تركيا وإيران، كانتا قد طرحتا الحجاب ، بينما اعتاد سكانهما على الاختلاط بالأوربيين .

وفى خلال رحلة أمان الله ، التى استغرقت سبعة شهور ، كان علماء الدين يثيرون مشاعر الشعب نظراً لما علموه علم اليقين من أن الملكة قد طافت بأوربا سافرة الوجه . وقد زاد النار اشتعالا أنها — عند عودتها إلى كابول — ظهرت سافرة فى إحدى المآدب ، ولم يكن أمان الله يقدر هذه الزوبعة حق قدرها ، لذلك نراه يطيل مدة الخدمة الإجبارية فى الجيش ويحتم على الأفغانيين المقيمين فى كابول ، بل والذين يزورون أسواقها ، ارتداء الملابس الأوربية والقبعات .

اندلعت نار الثورة سريعا ، فى مقاطعة كوهستان ، الواقعة شمالى العاصمة، ثارأفاق ناجح ، اسمه حبيب الله، المعروف بباجا سقا (ابن السقاء) ولقد رفض الجيش أن يحارب ، ولذلك تنازل أمان الله عن العرش وفر إلى قندهار بالسيارة ، ثم أخذ طريقه إلى الهند ، وانتهى به المطاف إلى

الإقامة بإيطاليا ، وبذلك اختتمت سيرة أمان الله بأن أوقع بلاده تحت نيرأفاق هو حبيب الله ، ولو أنه أحسن معاملة جيشه . وسار فى إصلاحاته بتؤدة ، لكان إلى اليوم ملكا على أفغانستان ، ولكنه أقام الدليل على صحة المثل الفارسى « العجلة من الشيطان » .

وفى فبراير سنة ١٩٢٩ تقرر إخلاء المفوضية البريطانية فى كابول بعد أن أمطرها الثوار حديداً وناراً ، وقد هنأ الملك السير فرنسيس همفريس السفير البريطانى فى كابول والسلاح الجوى البريطانى على بلائهما فى إنقاذ ٥٨٠ نفسا من جنسيات متباينة دون ضحية واحدة ، إذ تمت عملية الإنقاذ خلال ٤٨ ساعة فى بلاد تكسو الثلوج قمم الجبال فيها ، ولا توجد بها أراض صالحة لنزول الطائرات .

* * *

كان « نادر خان » الذى قاد الجيش الأفغانى ضد الإنجليز فى حربهم الأخيرة مريضا يستشفى فى مدينة (نيس) عندما سمع بوقوع بلاده فى قبضة باجا سقا ، فلم يتردد فى المخاطرة بحياته والعودة إلى بلاده عن طريق الهند ، ووصل إلى مدينة بشاور (فى مقاطعة الشمال الغربى ، ومن عندها يبتدىء طريق القوافل إلى أفغانستان عبر ممر خيبر) فى فبراير سنة ١٩٢٩

واستطاع أن يستعين بقبائل وزيرى التى تسكن هذا الأقليم ، ولم يلبث أن أصبح سيد الموقف ، واقتحمت جنوده كابول حيث نودى به ملكا على البلاد . وقد قبض على باجا سقا وأعدم رميا بالرصاص ، رصاصة من كل قبيلة .

وقد عنى نادر شاه بإعادة امتيازات رجال الدين إلى ما كانت عليه ، كما ألغى القوانين المدنية والسفور ، لا رجعية منه ولكن تمشياً مع عقلية

الجماهير المحافظة على التقاليد . وقد طبعت سياسته الخارجية بطابع الصداقة مع البريطانيين .

وقد اغتيل نادر شاه فى نوفمبر سنة ١٩٣٣ بعد أن خطا ببلاده خطوات نحو الاستقرار ، على الرغم من أنه لم يكن يملك مالا ، مما يعد فى هذه البلاد دعامة الاستقرار .

ونودى بابنه زاهر شاه ملكا على الأفغان ، وقد استهل حكمه بإقامة حكومة دستورية يرأسها عمه هاشم خان .

وظلت أفغانستان بمنأى عن التأثر بجارتيها ، روسيا وبريطانيا ، كما ظلت كل منهما تقنع من أفغانستان بهذا الموقف ، ولعل السبب فى ذلك أن البلاد فى ذاتها ليست مطمعا ، كما هى الحال فى إيران ، حيث البترول الذى لايستغنى عنه .

وعند ما أعلنت الحرب العالمية الثانية ، أعلنت أفغانستان الحياد ، ولم يكن لدى الحلفاء ما يدعو إلى اكتساح البلاد ، كما حدث فى إيران ، وقد اقتضى هذا الحياد أن تظل مفوضيات المحور فى كابول مفتوحة .

إلا أن وجود حوالى مائتين من رجال الأعمال الألمان والأيطاليين فى كابول كان ينطوى على احتمال أن يعمل هؤلاء ضد الحلفاء ، ولذلك قررت الحكومة الأفغانية مجاملة الحلفاء دبلوماسيا ، بإبعاد هؤلاء من البلاد فتسلمتهم السلطات البريطانية فى الهند ، حيث أرسلوا الى مختلف المعتقلات

الفصل الثالث عشر

بريطانيا فى الهند

آلت الهند إلى الحكومة البريطانية ، ميراثا من شركة الهند الشرقية ، وأصبحت جزءاً من الإمبراطورية ، بل ، كما يقول المؤرخون ، صارت الهند ألمع درة فى التاج البريطانى . وظل حكم البريطانيين للهند يتطور حتى قسمت الهند إداريا إلى مجموعتين :

المجموعة الأولى : أقاليم كان البريطانيون يحكمونها حكماً مباشراً ، فلكل إقليم منها حاكم بريطانى ، يستمد سلطته من نائب الملك الذى كان يقيم فى كلكتا ، ثم انتقل منها إلى دلهى الجديدة .

والمجموعة الثانية : ولايات نزلت الحكومة البريطانية عن حكمها لأمراء شبه مستقلين ، ونظمت صلاتها بهؤلاء على أحد الوجهين الآتيين :

ا ـــ أمراء كانوا يستمدون سلطتهم من نائب الملك رأسا ، وعددهم ٢٢ أميراً ، ومن أهم أماراتهم حيدر آباد الدكن .

ب ـــ ويلى ذلك مئات من الأمارات أقل من هذه شأنا ، كان معظم أمرائها يستمدون سلطتهم من الحاكم العام للمقاطعة المتاخمة .

وكان أمراء هذه الأمارات - بنوعيها - يتمتعون بسلطة أوتوقراطية . وقد يركن البعض منهم إلى استشارة شعبه بين آن وآخر ، عن طريق مجلس يعينه الأمير ، يسمى مجلس الشورى .

واستقرت الأمور لحكومة الهند البريطانية ، حيث استطاعت السياسة البريطانية أن تستغل الظروف المحلية ، أو بعبارة أصح ، توسع الهوة بين قسمى الهند الرئيسيين : الهندوس والمسلمين .

استهل البريطانيون سياستهم فى الهند باضطهاد المسلمين ، إذ أنهم كانوا سادة البلاد ، الذين نظموا المقاومة التى انتهت بثورة سنة ١٨٥٧ ، وهم الذين نشروا الدعاية الحارة ضد الاحتلال البريطانى لبلادهم ، فضلا عن أن المسلمين كانوا ينظرون إليهم منذ البداية ، نظرتهم إلى مغتصبى حقوقهم المشروعة فى حكم البلاد .

وفرح الهندوس بتعذيب المستعمر لأعدائهم القدامى ، وعدوا هذا انتقاما أنزلته آلهتهم المقدسة بالمسلمين ، جزاء ما لحقهم منهم فى الماضى من أذى وطغيان ، فهللوا للمستعمر ، ورحبوا بحكمه ، متوهمين أنه أخف وطأة وقسوة من حكم المسلمين بنى وطنهم .

ولم يكن البريطانيون بحاجة ملحة لإذكاء نار العداوة بين المسلمين والهندوس ، فالعداوة بين الفريقين ترجع إلى حقب متوالية من التاريخ ، إلا أنهم انتهزوا فرصة هذا العداء التاريخى المستحكم ، فوسعوا الهوة بين الفريقين ، باحتضان الهندوس مرة ، والمسلمين أخرى ، وبإقرار قواعد التفرقة بينهم ، تحت ستار من حرية الاعتقادات الدينية .

وظلت الحال كذلك نصف قرن من الزمان ، والهندوس قابعون على الاستسلام للبريطانيين .

وكان من حسن طالع الهندوس فى هذه المرحلة أن المسلمين ، وقد قاطعوا المستعمرين فى كل شىء ، لم يقبلوا على المدارس التى أنشأوها ، بينما أقبل عليها الهندوس . وبذلك رجحت كفة الهندوس على كفة المسلمين فى العلم ، وأصبحت وظائف الحكومة التافهة ـ وهى كل ما سمح المستعمر لأهل البلد أن يشغلوه ، وقفاً على الهندوس دون المسلمين .

يضاف إلى ذلك أن الهندوس وجهوا عنايتهم إلى الناحية الصحية فى

بنيان أجسامهم ، فلم يلبثوا أن أقبلوا على ممارسة الألعاب الرياضية ، وأقبل بعضهم - سراً - على تناول اللحم والأطعمة المغذية ، مع ما فى ذلك من مخالفة لتعاليم الهندوسية ، يطمعون بذلك فى أن يرتفعوا إلى مستوى المسلمين الجسمانى .

أما فى ميدان المال والأعمال ، فقد ساعدت الظروف الهندوس ، ذلك أن المسلمين كانت قد انحطت حالهم المالية بعد ثورة سنة ١٨٥٧ التى صادر فيها البريطانيون كثيراً من ممتلكاتهم وأوقافهم ، واشتدت حاجتهم إلى المال ، فطرقوا أبواب الهندوس يستدينون ، فلم يلبث هؤلاء أن انتهزوها فرصة ، فأقرضوهم مايشاءون ، ثقة منهم بأنهم سيعجزون عن الوفاء ، وبذلك تؤول البقية الباقية من ممتلكاتهم إلى الهندوس ، وقد تحققت نظرية الهندوس ، فانتقلت أملاك المسلمين إليهم ، حتى لم يبق للمسلمين سوى خمسة فى المائة من عامة الأملاك بالهند .

وعرفت الهند المصارف ، ولكنها كانت وقفاً على الهندوس ، ولم يدخل المسلمون هذا الميدان لسببين : الأول أنه لم تكن لديهم أموال يستطيعون بها إنشاء المصارف ، والثانى أن العمليات المصرفية تنطوى على التعامل بالربا ، وهو ما يحرمه الإسلام .

وخلاصة القول أن هذه المرحلة أسفرت عن تفوق كامل للهندوس ، وهزيمة ماحقة للمسلمين ، فى كافة ميادين الحياة .

ولما طال الزمن على المسلمين ، وتفتحت أعينهم على ما أحرزه الهندوس من نصر عليهم فى كل ميدان ، اتجه نظرهم إلى ملاحقة الهندوس فى ركب العلم ، فأقبلوا على المدارس ، وارتفع مستوى التعليم بينهم .

وتبعاً لانتشار التعليم بين البيئتين الغالبتين : الهندوس والمسلمين ،

تنبه الوعى القومى ، وعاد من انجلترا مجموعة من شباب الهند الذين تلقوا ثقافتهم فى الجامعات البريطانية ، وشهدوا بأنفسهم ، خلال إقامتهم بالمدن البريطانية ، أن البريطانى لا يعدو أن يكون إنساناً يغلب ويغلب ، يخطىء ويصيب ، بعد أن كانوا قد طبعوا فى بلادهم على سيادته ، فكان ذلك نواة لانتقاض الرأى العام المستنير على الطريقة الاستعمارية الطاغية التى تدير بها بريطانيا سياسة الهند .

وما لبث الشباب المثقف بالثقافة البريطانية ، والذى مكنته معرفته باللغة الإنجليزية من أن يطلع على مجريات الأمور الدستورية فى بريطانيا وغيرها من الدول التى أخذت بالأساليب الدستورية الحديثة ، ما لبث هذا الشباب أن تكتل ، وبذا ظهرت الحركات الاجتماعية ، التى تهدف إلى تحسين حال الهند من النواحى السياسيـــة والاقتصادية ، فتأسست الجمعيات الإصلاحية فى بومباى وكلكتا ومدراس ، وطافت المظاهرات الشعبية فى شوارع المدن الكبرى صاخبة بالاحتجاج على تقييد حرية الصحافة الناشئة .

وقد أسفرت هذه اليقظة عن تأسيس « المؤتمر الوطنى » عام ١٨٨٥ ، وقد يستغرب الإنسان لأول وهلة عندما يعلم أن المؤتمر الهندى قد شق طريقه إلى الوجود بفضل تحمس رجل إنجليزى هو المستر « إلن هيوم » من موظفى حكومة الهند المتقاعدين ، وتزداد دهشته عندما يعلم أن اللورد « دوفرين » نائب الملك فى الهند وقتذاك ، هو الذى ابتكر الفكرة ، ولكن الدهشة لا تلبث أن تزول عندما يدرك الإنسان أن ترحيب الحكومة بإنشاء هذه الهيئة ، بل ابتكار الحكومة للفكرة ، قصد به أن تكون هيئة المؤتمر بمثابة « صمام أمن » ، وأن تكون جلساته معرضاً تتبين فيه الحكومة الموالين لها من المتطرفين عليها .

وقد كانت مبادىء الهيئة تتمثل فى وحدة وطنية ، وتوكيد روابط الاتحاد بين انجلترا والهند ، بالعمل على إصـــلاح ما اعوج أو فسد من الأحوال .

ولقد كانت تصرفات المؤتمر خلال سنواته الأولى — بفضل الظروف التى لابست إنشاءه — لا تنطوى على عداء للحكومة ، وكان كبار الموظفين البريطانيين يحضرون جلساته ، كما كانت القرارات تنطوى على الدوام ، على الولاء للحكومة البريطانية .

ومن أهم ما عنى به المؤتمر ، مما يصح أن يقال أنه ينطوى على شىء من المخالفة للحكومة ، موقفه إزاء التمثيل النيابى . كانت حكومة الهند البريطانية تضن على الشعب بالتمثيل النيابى فى المجالس البلدية وغيرها عن طريق الانتخاب . فلما كانت سنة ١٨٨٣ أمر اللورد ريبون نائب الملك أن تكون عضوية المجالس البلدية بالانتخاب ، فاتخذ المؤتمر -بعد سنوات- نجاح هذه التجربة مقياساً للمطالبة بالتمثيل الانتخابى ، وزاد على ذلك ، فطالب بفصل السلطتين التشريعية والتنفيذية .

وكان نفوذ المؤتمر يتضاعف يوماً فيوماً ، وأصبح حضور جلساته من علائم الامتياز بين الطبقات المثقفة وأصحاب النفوذ .

وفى سنة ١٩٠٨ اجتمعت كلمة لفيف من كبار المفكرين المسلمين على تأليف هيئة مستقلة عن المؤتمر الهندى ، تسهر على مصالح المسلمين ، بصفة كونهم أقلية ، فى دولة غالبية سكانها من أعدائهم فى الدين .

وقد نادى بهذه الفكرة لأول مرة السير السيد أحمد خان ، منشىء جامعة عليكرة الإسلامية ، وكان قطبا من أقطاب الفكر الإسلامى بالهند وكان إلى جانب ذلك على صلة طيبة بالبريطانيين . ولذلك انطلقت الألسنة

بالقول بأن تأسيس الرابطة الإسلامية كان وليد رغبة البريطانيين المحليين، الذين انتهزوها فرصة لمكافحة المبادىء التى ينادى بها المؤتمر الهندى، بعد أن تبين البريطانيون أن الهيئة التى ساعدوا على تأسيسها لم تعد سلسلة القياد .

وقد تضاربت الآراء فى تقدير هذه الحركة، ففريق يقول إن الفكرة سليمة فى ذاتها، على اعتبار أن المسلمين أقلية لا يستهان بها، وسط كثرة لا يؤمن غدرها، ومن واجب المسلمين أن يسهروا على مستقبلهم، وأن يؤمنوا أنفسهم ضد الظروف، سيما وأن المسلمين يكونون أكثرية فى شمال الهند، وخاصة فى الشمال الغربى، فلو فرض أن آل الحكم فى الهند إلى الهنود، وحكم الشمال حكام من الهندوس، للقى المسلمون على أيديهم كل عنت وإرهاق . أما إذا وسعت هوة الخلاف السياسى بين المسلمين والهندوس . وأجرى استفتاء بين السكان، لكان الشمال من نصيب حكام من المسلمين .

أما الفريق الآخر من المفكرين، فيرى أن حركة المسلمين، الممثلة فى حزب الرابطة الإسلامية، حركة انفصالية، وأن المسلمين الذين نادوا بها خارجون على فكرة الهند الموحدة، مارقون من الوطنية الهندية، ويزيدون على ذلك فيتهمون أنصار الرابطة الإسلامية بأنهم مذللون لخدمة السياسة الاستعمارية البريطانية .

فى الحرب العالمية الأولى

ولم يكد التنافس أن يشتد بين هيئة المؤتمر الهندى الوطنى القديمة التكوين، والرابطة الإسلامية الوليدة، حتى اشتعلت نار الحرب العالمية الأولى، واضطرت بريطانيا أن تتجه إلى الهند، كما اتجهت إلى بقية

المستعمرات ، طالبة تجنيد مئات الآلاف ، بل الملايين من الجنود ، لشد أزرها فيما دخلت فيه من معركة حياة أو موت .

وكانت دولة الخلافة الإسلامية — تركيا — قد انحازت الى الجانب المعادى لبريطانيا . وهنا وقف الرأى العام الإسلامى فى الهند وقفة جديدة ضد البريطانيين ، فامتنع المسلمون عن الاندماج فى سلك الجيوش المحاربة ، إباء منهم أن يحاربوا الأتراك المسلمين .

لم تقف السياسة البريطانية موقف المنهزم أمام هذه الوضعية ، بل عملت على أن يقف المسلمون العرب يحاربون المسلمين الأتراك ، وذلك بأن شجعت أمير الحجاز (الشريف حسين بن على) على أن يخوض الحرب فى جانب بريطانيا وحلفائها ، لقاء مساعدات مالية جزيلة ، ووعد أكيد بأن يكون له بعد الحرب حكم الجزيرة العربية بأكملها ، من بحر العرب فى الجوب . إلى جبال طوروس فى الشمال .

وعندئذ استطاع البريطانيون أن يقنعوا مسلمى الهند بخوض غمار الحرب إلى جانبهم ، وقد بذلوا لقادتهم الكثير من الوعود إذا ما انتهت الحرب لصالحهم ، وبذلك استطاعت بريطانيا أن تجند من مسلمى الهند ما شاءت ، وتخلصت من مأزق كانت توشك سياستها فيه أن تتردى فى الشرق . على أن الحرب العالمية الأولى كانت حجر الزاوية فى تنبه الوعى القومى فى الشعوب الشرقية ، إذ انبعثت على أثرها روح المطالبة بحق تقرير المصير ، اندلعت فى مصر على أثرها ثورة سنة ١٩١٩ ، كما انبعثت على أثرها حركة فى الهند ، الغرض منها المطالبة بتحديد موقفها من الأمبراطورية البريطانية .

وفى هذه المرحلة من تاريخ الهند ظهر « المهاتما غاندى » على مسرح السياسة الهندية .

كان غاندى رجلا يؤمن فى حياته بالحقائق الروحية ، ولم يكن يسمح للعوامل الدنيوية بالتأثير فى إيمانه هذا ، وكانت سياسته تعتمد على المحبة ، وعدم العنف ، والسعى وراء الحقيقة والعفة ، وقد حاول تطبيق هذه الأسس فى الحياة السياسية .

بدأ حياته السياسية فى جنوبى أفريقية ، حيث نجح فى تطبيق سياسة المقاومة السلبية فى كفاحه للحصول لمواطنيه الهنود ، المهاجرين إلى جنوبى أفريقية ، على حقوقهم البدائية ، فلما عاد إلى الهند ، لم يلبث أن قفز إلى الصفوف الأولى فى حزب المؤتمر الهندى اعتماداً على سمعته التى أحرزها فى أفريقية .

ولم تلبث آراؤه الفلسفية أن حظيت بتجاوب الجمهور بمختلف طبقاته . ولم يكن غريبا أن يظهر فى الهند زعيم ينادى بالروحية ، وسط عالم طغت عليه المادية .

انتهز غاندى أول فرصة اختلفت فيها السياسة البريطانية مع الأمانى الوطنية (كانت الحكومة قد أصدرت مشروع رولات الذى يخول لها حق اعتقال الأشخاص وسجنهم ونفيهم ، دون محاكمة لمجرد الاشتباه فى مساهمتهم فى أعمال العنف) فنادى بالإضراب العام ، وأطلق على الإضراب لفظة (هارتال) ومعناها يوم الحزن ، وكان غاندى يؤمل أن تكون الحركة بعيدة كل البعد عن العنف ، ولكن يوم الحزن أسفر عن غير ما كان يتوقعه ، ذلك أن الجماهير لا يسهل كبح جماحها فى مثل هذه الأحوال ، ولم يستطع البوليس صبراً على تحرج الموقف ، وكان من نتائج ذلك أن حدثت بين الفريقين مصادمات أخرجت الحركة عما وضع لها من برنامج .

وعندئذ أدرك غاندى أن حركته المثالية كان يجب أن يسبقها نوع من رياضة الشعب على أسلوب الحركات المثالية ، ولذلك لم ير بدأ من أن ينسحب .

ومما يؤسف له أن الحركة السلمية التى نادى بها غاندى كانت لها آثار دموية . وخاصة فى البنجاب ، حيث قتل أربعة من الإنجليز ، فأمر البريطانيون جنود الجوركا بإطلاق النار ، فقتل ٣٧٩ وجرح ١٢٠٠

وفى هذه الفترة ، كان البريطانيون قد أملوا شروط الصلح على الأتراك فى سيفر ، وكانت هذه الشروط بادية القسوة ، فتأثر المسلمون فى الهند ، فلما انعقد المؤتمر الهندى فى اجتماعه السنوى لسنة ١٩٢٠ شارك المسلمين فى شعورهم ، فأقر بأغلبية ساحقة الاقتراح الذى قدمه غاندى بعدم التعاون مع البريطانيين فى سياستهم الشيطانية ، فطلب إلى كل من يحمل نيشانا من الحكومة البريطانية أن يرده إليها ، كما طلب إلى موظفى الحكومة الوطنيين أن يستقيلوا من مناصبهم ، وأخليت المدارس التى تديرها الحكومة من التلاميذ . وامتنع الناس عن التقاضى أمام المحاكم ، وقوطعت البضائع البريطانية ، كما قوطعت الانتخابات الى كانت الحكومة تهم بإجرائها للمجالس المحلية .

غير أن هذه الحركة لم تلبث أن خرجت بدورها عما رسم لها ، فاتجهت نحو العنف ، ووقع الشغب فى أماكن مختلفة ، وقبضت السلطة البريطانية على غاندى ، وقدم للمحاكمة فى مارس سنة ١٩٢٢

وتعتبر محاكمة غاندى حدثا تاريخياً من الأهمية بمكان ، إذ كان موضع التجلة والاحترام من قاضيه ، ولم يكن بين الاثنين خلاف بشأن الوقائع والتهم ، إنما كان الخلاف بشأن المبادئ ، فبعد أن لخص القاضى التهم الموجهة إلى غاندى قال له : « أنت تعرف أن تيلاك عوقب بالسجن ست سنوات لتهم أقل شأنا مما اتهمت به » ؟ .

قال غاندى : « إنك تكرمنى أعظم إكرام حينما تضعنى فى صف الوطنى تيلاك ، وتكرمنى أيضا حينما تعاقبنى بعقوبته » .

فأصدر القاضى الحكم ، ثم علق عليه قائلا : « لن يغتبط أحد بمقدار اغتباطى عند ما أعرف أن الحكومة قد خففت الحكم » .

وبعد عامين مرض غاندى فى سجنه مرضا خطيرا ، وأجريت له عملية جراحية داخل السجن ، فانتهزتها الحكومة فرصة وأمرت بإخراجه من السجن عفوا .

خرج ليواجه حالة تختلف عما كانت عليه الأمور قبل سجنه ، فقد انهارت المقاومة السلبية ، وكانت الخلافة الإسلامية فى تركيا قد قضى عليها مصطفى كمال ، فانهار بذلك منطق المسلمين فى اتحمس لها ، وجنح زعماء المؤتمر ، وعلى رأسهم موتيلال نهرو (والد جواهر لال نهرو) عن سياسة عدم التعاون إلى سياسة مكافحة الحكومة عن طريق ترشيح أقطاب المؤتمر فى الانتخابات البلدية والمجالس الاستشارية . وفى ذلك يقول غاندى . « يبدو لى أن مواهب الهند قد جندت لمكافحة طرق فى التدبير والتنفيذ » .

إزاء ذلك لم ير غاندى بدآ من أن يلجأ إلى عزلة جديدة ، ابتعد فيها عن السياسة ، وركز جهوده فى تقريب وجهات النظر بين المسلمين والهندوس ، وفى تحسين حال المنبوذين ، وترويج الأنوال اليدوية . وقد دامت هذه العزلة السياسية ثلاث سنوات ونصف .

إلا أن الظروف لم تلبث أن اجتذبت غاندى مرة جديدة لميدان السياسة . ففى سنة ١٩٢٩ دعت الحكومة البريطانية إلى عقد مؤتمر تبحث فيه شئون الهند فى ضوء التطورات الحديثة ، ولم يلبث المؤتمر أن فشل ، فأعلن غاندى — الذى كان نائب الملك قد دعاه للاشتراك فى مباحثات المؤتمر — سياسة العصيان المدنى ، وهى من المصطلحات التى أدخلها غاندى على علم السياسة الهندية . ويزيد « العصيان المدنى » عن « عدم التعاون »

فى أنه يدعو إلى عدم إطاعة الأوامر، والخروج على القوانين. ومن شأن هذه السياسة الواقعية العملية أن تتدخل الحكومة فتقبض على العصاة.

وما أن بدأت سياسة العصيان المدنى فى التنفيذ، حتى غصت السجون بالمعتقلين من رجال ونساء، واختلت الحال التجارية فى البلاد، وتأثرت مالية الحكومة. واشتد الضغط على رجال الأمن، وأصبحت الأداة الحكومية تنوء بحملها الجديد من المسئولية، ولم ير البريطانيون مخرجاً مما يحيط بهم من مشاكل إلا الالتجاء إلى غاندى، طالبين إليه أن يوقف الحملة، وأن يسافر إلى لندن مندوباً وحيداً عن الهند، ليفاوض الحكومة البريطانية فى مؤتمر «المائدة المستديرة».

عاد غاندى من انجلترا فى سنة ١٩٣٢، بعد أن فشل المؤتمر، فألقى القبض عليه بمجرد وصوله، وعقدت الحكومة دورتين لمؤتمر «المائدة المستديرة»، انتهتا بإصدار كتاب أبيض لخصت فيه ما دار فى الدورات الثلاث.

وفى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٥ صدر قانون الهند الجديد. ومن أهم ما جاء فيه أنه منح الحكم الذاتى للولايات الهندية، أى أنه صار لكل ولاية أن تتولى شئون الحكم بنفسها، ممثلة عن طريق الانتخاب، فى مجلس نيابى. ووزارة مسئولة أمام هذا المجلس، على أن يكون لحاكم الولاية البريطانى سلطة عدم تنفيذ القرارات إذا كانت تمس الأقليات، كما أن له سلطة التصرف من تلقاء نفسه، بعيداً عن سلطتى الوزارة والبرلمان، فى الأحوال الطارئة التى تمس سلامة البلاد.

* * *

وفى شهر ابريل سنة ١٩٣٧ أجريت الانتخابات العامة بالهند، فأسفرت عن فوز المؤتمر الهندى فى ست ولايات فوزاً يؤهله لتأليف

الوزارة ، بينما أحرز أغلبية نسبية فى ثلاث أخرى . أما فى ولايتى البنجاب والسند فقد أحرزت الرابطة الإسلامية الأغلبية المطلقة .

أما الأمارات الهندية ، تلك التى يحكمها أمراء محليون يتمتعون بسلطة أتوقراطية غير محدودة ، فكان لهم فى هذه الحركة شأن لا يستهان به .

كان تصريح سنة ١٩٣٥ يقول بأن الأمارات الهندية تتبع الولايات إداريا ، ولكن أيلولة السلطان إلى حزب المؤتمر قد أقض مضجع الأمراء الذين كانوا يدركون مدى «عدم الاستلطاف» الذى يكنه الحزب لهم ، ولذلك نراهم يناقشون وثيقة سنة ١٩٣٥ حرفا بحرف . على أيدى أمهر المحامين ، طالبين ضمان سلطتهم المطلقة فى حكم إماراتهم على الوجه الذى يحبون ، دون تدخل من الحكومات الإقليمية .

وكان من أهداف تصريح سنة ١٩٣٥ أن يتكون فى دلهى برلمان مركزى وحكومة مركزية ، على أن يكون للأمراء مندوبون فى هذا البرلمان ، فخشى حزب المؤتمر أن يصبح هؤلاء أداة البريطانيين فى تكييف الحكم المركزى وفق رغباتهم ، وطالب الحزب بأن ينتخب ممثلو الأمارات من بين أفراد الشعب انتخابا حرا ، حتى لا يكون للأمراء عليهم سلطان ، كما طالب بتخفيض عددهم .

وفى نفس الوقت . طالبت الرابطة الإسلامية ، التى تمثل ما لا يقل عن ثمانين مليونا من سكان الهند بزعامة السيد محمد على جناح ، أن لا تكون الهيئة الجديدة معرضا لعبث الأغلبية بحقوق الأقلية ، وهنا ظهرت للعيان فكرة « الباكستان » .

وكانت هذه الخلافات الدستورية صدى الرأى العام بالهند . إذ كانت تكتنف الهند ، فى ذلك الوقت موجتان من موجات الفكر : موجة

تؤيدها غالبية هندوسية ، وأقلية إسلامية ، تقول بالهند الموحدة ، وترمى إلى استقلال الهند عن التاج البريطاني كوحدة ، تحتوى الهندوس والمسلمين على السواء ، والأمراء وعامة الشعب على السواء ، وموجة تؤيدها غالبية إسلامية ، ولا تناصرها أية أقلية هندوسية ، وترمى إلى تقسيم الهند إلى دولتين : إحداهما إسلامية والأخرى هندوسية .

ولكل من الفريقين وجهة نظر :

أما وجهة نظر المطالبين بالهند الموحدة ، فواضحة لاتحتاج إلى بيان ، فهؤلاء قوم تجمعهم رابطة الوطن ، ويدمى قلوبهم التطلع إلى ما آلت إليه الأمور فى كنف المغتصب الأجنبى ، وهم يتطلعون إلى دولة موحدة قوية تستطيع أن تتبوأ مكانتها ، موحدة ، بين أمم العالم . ويمثل هذا الرأى - رأى الهند الموحدة - حزب المؤتمر ، الذى يتزعمه من الناحية السياسة البنديت جواهر لال نهرو ، يظاهره زعيم إسلامى له مكانته ، هو مولانا أبو الكلام أزاد . ويقف المهاتما غاندى موقف الزعيم الروحى لهذا الحزب ، وإن كان يبدو فى كثير من أقواله وأفعاله زعيم الهند بشقيها ، وينادى ، بين آن وآخر ، بضرورة زوال الفوارق بين المسلمين والهندوس وينعى على الهندوس عداوتهم للمسلمين وآمالهم .

أما وجهة نظر الفريق الثانى ، فتتلخص فى أن الهندوس يكونون فى الهند أغلبية ، وخاصة إذا استندوا إلى المنبوذين ، الذين يعتبرونهم من الناحية السياسية من أتباعهم ، أما من الناحية الدينية فلا يعترفون لهم بأى حق من الحقوق ، حتى حق ممارسة الطقوس الدينية ، الخاصة بالديانة التى ينتمون إليها من الناحية السياسية ، فإذا ما استقلت الهند على أساس هند موحدة . استبد الهندوس بالأمر ، فعبثوا بحقوق المسلمين ، تمتعا بحق

الغالبية ، وانتقاما لما نالهم على أيدى المسلمين من مهانة ، أيام أن كانت الكلمة العليا للمسلمين ، قبل أن يدهم الهند الاستعمار البريطانى .

ويمثل هذا الرأى حزب الرابطة الإسلامية ، الذى كان يتزعمه المغفور له السيد محمد على جناح ، ويظاهره أقطاب المسلمين فى الهند كافة .

ومما يؤسف له أن الدعاية لحزب المؤتمر ، أوسع نطاقا وأدق توجيها من الدعاية للرابطة الإسلامية ، لاسيما وأن المنطق يكون عادة فى جانب حزب المؤتمر ، لمن لم يدرسوا مشاكل الهند عن قرب ، وأن فكرة الرابطة الاسلامية تبدو لأول وهلة فكرة انفصالية .

على أن فكرة الرابطة الاسلامية لم تكن وليدة ظروف المفاوضة مع البريطانيين ، بل أنها فكرة أعمق من ذلك بكثير ، ولدت فى أذهان الفلاسفة من المسلمين ، قبل أن يبدو شبح استقلال الهند فى الأفق .

كانت الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الجمعة ٢٩ يناير سنة ١٩٣٧ عند ما استهل المغفور له السيد محمد إقبال ، شاعر الهند الاسلامية وفيلسوفها العظيم ، حديثه عن الهند الاسلامية ، التى سمته أول من يسميها « باكستان » .

عرض فيلسوف الهند للشاكل السياسية والاقتصادية والدينية والعنصرية والتاريخية ، ثم عرض للجهود الجبارة التى يبذلها المسلمون المستنيرون للتحرر من التحكم الهندوسى فى مصائر شعب لم يألف الاستكانة أو الخضوع ، ثم عرض للمذابح اليومية التى تنشب بين المسلمين والهندوس فى كل بلد تتقارب فيه النسبة المئوية بينهما ، ثم خرج من كل ذلك بنتيجة واحدة : هى أنه لا مندوحة للمسلمين من أن يستقلوا عن غيرهم من سكان الهند ، حتى يمكن — فى كنف هذا الاستقلال — أن يرفعوا من شأنهم وأن يسهروا على مصالحهم .

على أن أفق السيد محمد إقبال كان عظيم الاتساع ، قال لى يومئذ أن الهندوس سوف يقاومون الفكرة بكل ما أوتوا من قوة ، لالأنهم يسهرون على مصالح الهند الموحدة . بل لأنهم يخشون عاقبة إنشاء الدولة الاسلامية الجديدة ، فى الموقع الجغرافى الذى تنشأ فيه ، فلو أن المسلمين اختاروا الجنوب دون الشمال ، لما اعترض الهندوس على قيام هذه الدولة . أما إنشاء دولة إسلامية فى الشمال ، وفى الشمال الغربى على الأخص ، فينطوى على مجاورة هذه الدولة لمجموعة من الدول الإسلامية : أفغانستان فى الشمال الغربى ، وهى البلاد التى جاء منها السلطان محمود غزنوى مؤسس أول دولة إسلامية عامرة بالهند . وإيران الإسلامية فى غربى بلوخستان (احدى مقاطعات الباكستان) ولها بالهند صلات دينية وثقافية لايستهان بها . وأخشى ما يخشاه الهندوس ، أن تقوم بين الدولة الإسلامية الناشئة بالهند ، وزميلاتها فى وسط آسيا وغربها ، صلات تهدد الهند الهندوسية بالاكتساح فى أى وقت من الأوقات .

فى الحرب العالمية الثانية

على أن الحرب العالمية الثانية قد اندلعت نيرانها بعد حديثى هذا بقليل وضاق البريطانيون ذرعا بالحركات السياسية والفكرية بالهند ، من جانبى المؤتمر والرابطة الإسلامية على السواء ، ففرضت الأحكام العرفية فى كل مكان ، وجند الهنود للحرب فى صفوف البريطانيين ضد المحور فى كل ميدان ، ولكن ظروف الحرب الأخيرة بالنسبة للهند ، كانت تختلف عن ظروف الحرب التى سبقتها . ومن أهم مظاهر الاختلاف بين الحربين ما يأتى : —

أولا : كانت اليابان فى حرب سنة ١٩٣٩ طرفاً بارزاً لعب دوراً

خطيراً فى الشرق الأقصى ضد بريطانيا وأمريكا . ولما كانت العلاقات السياسية بين ساسة اليابان وبعض أقطاب الهند قد بنيت فيما قبل الحرب على أن يسلك الهنود خلال الحرب مسلكا لاينطوى على الولاء التام لبريطانيا . ومشاطرتها مصيرها ، فقد عانت بريطانيا من هذه الناحية متاعب لم تستطع التغلب عليها إلا بشق الأنفس ، خاصة عند ماتقدمت الفتوحات اليابانية إلى جزر الهند الشرقية ، وامتدت إلى بورما وهددت بنغاله .

ثانيا : عند ما كانت الروسيا لا تزال تحارب فى جنب دول المحور ، كانت الهند مهددة بانتشار الشيوعية فيها ، كأثر للدعاية الشيوعية فيما قبل الحرب ، تلك الدعاية التى أقبل عليها الهنود رجاء التخلص مما هم فيه من شقاء . فلما انحازت الروسيا إلى جانب الحلفاء بعد ذلك ، وجد الشيوعيون فى الهند متنفساً عن مبادئهم ، ولم تستطع الحكومة البريطانية أن تكبح من جماحهم فازدادت الأفكار الشيوعية ذيوعا .

ثالثا : كانت الوطنية الهندية — كما رأينا — قد تطورت فيما بين الحربين العالميتين . فلم يكن من السهل على الحكومة البريطانية أن تلعب بآمال الهند اللعبة التى لعبتها فى الحرب السابقة ، خاصة وأن حزب المؤتمر كان يطالب بثمن الانضمام ، فأسرفت بريطانيا فى إرضائهم ، رغبة منها فى كسب الحرب بأى ثمن كان .

وما كادت الحرب أن تضع أوزارها ، إلا وهبت الهند عن بكرة أبيها ، تطالب بالاستقلال . وظهر حزب المؤتمر يطلب هندا موحدة بينما ظهرت الرابطة الإسلامية تطلب هنداً مقسمة إلى هندوستان وباكستان . وظلت الحكومة البريطانية تراوغ بعض الوقت ، ولكنها اضطرت فى النهاية إلى إجابة طلب الهنود فى الاستقلال ، وظهرت فى عالم الدول

الحديثة دولتان : هندوستان ، وباكستان . وذلك فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٧ .

وينبغى أن يكون ملحوظا أن مشروع التقسيم الجديد ، لا يشمل الهند كلها ، وإنما يشمل ما كان يعرف باسم الهند البريطانية ، وهى الولايات التى كانت خاضعة للحكم البريطانى المباشر . أما أمارات الهند ، وكان يحكمها أمراء محليون ، يدينون بالولاء للحكومة البريطانية ، فقد تركتها بريطانيا عن قصد ، حرة تختار بين الانضمام إلى إحدى الدولتين الجديدتين ، أو الاحتفاظ باستقلالها ، والارتباط ببريطانيا بمعاهدة إن هى أرادت ذلك

وباكستان ، فى صورتها الجديدة ، تشمل منطقتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى ، تقع الأولى فى شمال الهند الغربى ، وتقع الثانية فى شمالها الشرقى .

وتتألف الأولى من ولاية البنجاب ، بعد أن قسمت إلى جزأين : شرقى وأعطى لحكومة الهند ، وغربى وأعطى للباكستان ، والسند ، والحدود الشمالية الغربية ، وبلوخستان ، أما إمارة كشمير ، المتاخمة لولايتى بنجاب والحدود ، فقد كان من المنتظر انضمامها إلى باكستان . إذ أن غالبية سكانها من المسلمين ، ولكن أميرها الهندوسى قد آثر الانضمام إلى هندوستان ، فخلق بذلك مشكلة معقدة ، فهندوستان تتمسك بكشمير اعتماداً على إرادة أميرها الذى يمثل فى نظرها الصوت الرسمى للأمارة . وتعمل على إخضاع الشعب لإرادة الأمير ، أما الشعب فقد ثار على أميره بعد هذا القرار المجحف بحق الشعب فى تقرير مصيره ، وتدفقت سيول المهاجرين من مقاطعة الحدود ومن البنجاب ، بل ومن أفغانستان ، لنصرة الشعب المغلوب على أمره ، ووقفت الحكومتان الجديدتان : هندوستان وباكستان ، أمام مشكلة تمسك فيها كل فريق بوجهة نظره ، وتعقدت الأمور

ورفع الأمر إلى مجلس الأمن الدولى ، ولم يبت فيه حتى الآن ، على الرغم من عرض الأمر مرات متكرره على هذه الهيئة الدولية .

وبتكوين الباكستان الغربية على هذا الوجه ، تكون قد تحققت فكرة زعماء الفكر المسلمين ، ولكن إلى حد ، فقد كانوا يتوقون إلى انضمام البنجاب بأكملها ، ولكن وجود غالبية محدودة من الهندوس فى الجزء الشرقى من هذه الولايه، سهل على القائمين بالتقسيم أمر ضمها إلى هندوستان . يضاف إلى ذلك أن كشمير ، وهى أمارة إسلامية بسكانها ، قد كانت فى نظرهم من أهم الأقاليم التى ستنضم الى الدولة الجديدة ، وقد رمزوا لها فى اسم دولتهم بحرف الكاف ، فإذا بالأمور تتطور ، وتمضى أعوام أربعة وهذه الإمارة لا تزال من البقاع التى لا تستطيع دولة الباكستان أن تضمها اليها كما كانت تأمل .

أما باكستان الشرقية ، فتتألف من الجزء الشرقى من إقليم بنغالة ، ومن مقاطعة آسام ، فقد رؤى عند التقسيم أن شرق البنغال يحفل بأغلبية إسلامية دون غربه ، فاتفق على تقسيمها ، بمثل ما قسمت البنجاب ، الى قسمين ، قسم شرقى يتبع الباكستان ، وقسم غربى يتبع هندوستان . أما مدينة كلكتا عاصمة الإقليم ، فقد كانت من نصيب دولةالهندوستان، ولذلك اتخذ المسلمون مدينة دكا — حيث غالبية السكان من المسلمين — عاصمة للباكستان الشرقية .

وكان من المقدر أن أمارة حيدر آباد ستكون من نصيب باكستان ، إلا أنها آلت بعد مناورات سياسية إلى حكومة هندوستان ، على الرغم من أن أميرها المسلم (حضرة صاحب السمو نظام حيدر آباد) كان بهواه مع حكومة الباكستان إلا أن شعبه (وغالبيته من الهندوس) آثر الانضمام الى هندوستان .

ونرى من المناسب ، فى هذا المقام ، أن نوازن بين قضيتى كشمير وحيدر آباد .

فى كشمير شعب إسلامى يحكمه أمير هندوسى ، فكانت كلمة الأمير ورغبته فى الانضمام الى هندوستان ، حافزاً للحكومة الهندوستانية للتمسك بالأمارة .

أما فى حيدر آباد ، فقد اعتمدت حكومة الهندوستان على إرادة الشعب فى الانضمام اليها ، وبادرت باحتلال الإمارة على الرغم من ارادة أميرها ، وأوقفت حكومة الباكستان أمام الأمر الواقع .

الا أنه يجدر بنا أن نقرر ان العوامل الجغرافية ، فى مشكلة حيدر آباد ، كانت فى صالح حكومة الهندوستان . اذن ان إمارة حيدر آباد واقعة جغرافيا وسط أملاك دولة الهندوستان . وانضمامها الى الباكستان يجعلها مكونة ، لا من رقعتين منفصلتين من الأرض فحسب ، بل من ثلاث رقع ، وهو مايزيد مسئوليات الحكومة المركزية . وانضمامها الى هندوستان يجعلها بين يوم وليلة من أرض الوطن لا يفصلها عنها فاصل .

أما فى كشمير ، فالأمر على خلاف ذلك ، فإن امارة كشمير تتاخم دولة الباكستان من ناحية ، ودولة هندوستان من الناحية الأخرى ، وبذلك يكون ضمها الى أى الدولتين ـ من الناحية الجغرافية ـ امراً ميسوراً وقد كان من نتائج هذا الموقع الجغرافى ان تدفقت سيول المسلمين للدفاع عن كشمير من ناحية ، بينما تدفقت جيوش دولة هندوستان الرسمية من الناحية الأخرى ، الى هذه الإمارة ، لتنفيذ رغبة اميرها من الناحية الأخرى .

وكانت دولة باكستان ـــ بتكوينها الحالى ـــ أكبر دولة إسلامية

فى الشرق كله ، إلى أن ظهرت فى عالم الوجود دولة اسلامية جديدة كبرى هى دولة أندونيسيا .

ولا شك أن قيام دولة الباكستان قد أضاف قوة جديدة هائلة الى ما يمكن أن يكون للعالم الإسلامى من شأن فى المستقبل . وهاهى ذى دولة أندونيسيا . تضيف الى القوة الإسلامية قوة جديدة ، نرجو أن لا تقل أهمية عن دولة الباكستان .

ومع ذلك كله ، فلا ينبغى لنا أن نتعامى عما يكتنف دولة الباكستان من متاعب وصعوبات ، بعضها طارئ قد يزول مع الزمن ، وبعضها أصيل لابد أن يبقى على الأيام .

وأولى هذه العقبات — ولعلها أهمها — انقسام الدولة إلى شطرين أحدهما فى أقصى الشرق ، والآخر فى أقصى الغرب ، وتفصل بينهما مساحة كبيرة من أرض هندوستان ، وهو وضع تترتب عليه مشكلات كثيرة ، من اقتصادية وعسكرية .

وفى تقديرنا أن الحكومة البريطانية لم تكن مخلصة النية للباكستان يوم أن أقرت التقسيم على هذا الوجه ، فقد عمدت إلى تمزيق شمل باكستان ، وجعلت منها نصف الدولة شرقى ، والنصف الآخر غربى ، وبخلت على هذه الدولة الناشئة بممر أرضى ، كان فى استطاعتها أن تهيئه لها لو حسنت نيتها ، وذلك على نقيض ما دبرته من أمر هندوستان ، التى أخرجتها من محنة التقسيم دولة متماسكة الأجزاء .

فإذا قيل : إن توزيع السكان هو الذى قضى بهذا الوضع ، فردنا على ذلك أنه كان أمام الحكومة البريطانية مخرج من هذه الأزمة ، هو إجراء عملية تبادل السكان فى المنطقة التى تعتبر ممراً بين جزأى دولة الباكستان

وفضلا عن ذلك ، فإن الحكومة البريطانية لم تكن مخلصة فى تنفيذ التقسيم ، ولو أخلصت لدبرت أمر تبادل السكان بين الدولتين ، قبل أن تنفذ التقسيم ، وبذلك تكون قد تفادت المجازر التى حدثت ، وهى التى كانت لابد من حدوثها ، إذ أعلن التقسم قبل تدبير تبادل السكان .

على أن العلاقات بين الدولتين تصفو حينا وتكدر أحياناً ، واتفاق الرأى بين زعماء الدولتين تنتابه فى كثير من الأحيان نوبات عصبية ، بعضها محلى يرجع إلى ماضى العلاقات بين الهندوس والمسلمين . وما خلفه التاريخ من مرارة فى إحساس كل فريق نحو الفريق الآخر ، وبعضه يرجع إلى محاولات أجنبية — أمريكية وبريطانية — للتدخل فى شئون الدولتين تمكينا للحليفتين الأجنبيتين من الاطمئنان على ألا تقع أى الدولتين : الهند أو الباكستان ، فى أيدى دعاة الشيوعية الواقفة على الأبواب .

على أننا نلمح فى الأخبار الأخيرة أن ولاة الأمور فى الدولتين ، قد اتجهوا إلى تصفية المشاكل المعلقة بينهما ، وإنا لنرجو أن يتم ذلك فى وقت قريب ، حتى تتبوأ كل من الدولتين المكانة اللائقة بشعب له تاريخ عريق فى السياسة والفن والاقتصاد والثقافة والعمران .

وآخر ما وافتنا به الأنباء أن الحكومة الأمريكية تعمل جاهدة على تكوين حلف بين تركيا وباكستان ، قد تنضم إليه إيران وأفغانستان لإنشاء خط دفاع ضد الشيوعية فى قلب آسيا . وقد بدأت الحكومة الأمريكية بأن عرضت على باكستان عونا عسكريا واقتصاديا ، ثم لوحت لها بأن تعقد حلفاً عسكريا ، أو اقتصاديا ، مع تركيا خلال هذه الأيام .

وقد أزعج هذا المسلك حكومة الهند ، وهدد الباندبت نهرو بأنه يعتبر هذه الخطوة الأمريكية تدخلا سافرا فى شئون شبه القارة الهندية الباكستانية ، ومن شأنه أن يخلق جو عداء بين الدولتين .

الفصل الرابع عشر

هولنده فى أندونيسيا

يتركب لفظ أندونيسيا من كلمتين : « أندو » ومعناها الهند « ونيسيا » ومعناها جزر ، ومعنى الكلمة بأجمعها « جزر الهند » . وقد سميت بذلك لأحد سببين : أولهما مجاورتها للهند . وثانيهما انحدار كثير من سكان الهند اليها واستيطانها .

ويطلق عليها الجغرافيون الأوربيون اسم « أرخبيل الملايو » نسبة إلى شبه جزيرة الملايو المتاخم لهذه الجزر ، وهو الذى يعتبر مكملا لها من حيث المظاهر الجغرافية والجنسية ، ولا يفصلها عنها إلا بوغاز « ملقا » .

وقد أطلق عليها العرب قديما اسم « جاوه » نسبة إلى أهم هذه الجزر ، كما كانوا يطلقون على سكانها اسم « الجاويين » .

أما المستعمرون الهولنديون ، فيطلقون عليها اسم « الهند الهولندية »

وتقع هذه المجموعة من الجزر على جانبى خط الاستواء ، بين خطى عرض ٢٠ شمالا و ٢٠ جنوبا ، إلا أن تضاريسها الأرضية ، وارتفاع غالبية سطحها كثيرا عن سطح البحر ، قد ميزها بجودة المناخ وتنوع الحاصلات

ولما كانت البلاد بركانية التربة ، غزيرة الأمطار ، فقد تميزت بخصب التربة ووفرة المحصول ، وجمال المناظر الطبيعية ، كما أن باطن الأرض غنى بالمعادن ، وبحارها غنية باللؤلؤ والأسماك .

وكانت أندونيسيا تصدر منتجاتها الزراعية والمعدنية إلى كافة أنحاء

العالم بما يزيد على وارداتها . وبذلك كان يجب أن يكون الميزان التجارى فى صالحها . إلا أن الحكومة الهولندية كانت تحتكر التجارة ، فكانت الفائدة تعود على المستعمرين دون أهل البلاد .

أما فى الوقت الحاضر ، فإن الجمهورية الأندونيسية تمارس العلاقات الاقتصادية الخارجية ، بعد أن حلا عنها ما كان مضروبا عليها من حصار بحرى كانت تفرضه هولنده على الرغم من هيئة الأمم المتحدة . غير أن البلاد قد تعرضت خلال الغزو اليابانى إلى إتلاف نسبة كبرى من أشجار الغلات ، ولا تزال الجمهورية تكافح فى سبيل إعادة بناء البلاد الاقتصادى حتى تستطيع أن تتبوأ مكانتها الاقتصادية الجديرة بها بين الدول .

نكبة الاستعمار

فى شهر يونيه سنة ١٥٩٦ دخلت أول سفينة هولندية ميناء « بنتام » بجزيرة جاوه ، ولما ألقت مراسيها قابل ربانها السكان وأفهمهم أنه ماقصد إليهم إلا لتبادل التجارة ، وسرعان ما تأسست شركة الهند الهولندية . وكان مبدؤها احتكار الغلات وامتلاك الأراضى .

وبمرور الأيام امتد نفوذ الشركة وتغلغل فى جميع مرافق البلاد بعقد اتفاقات خاصة بين الشركة وبين الملوك والأمراء المتنافسين . ولما اشتد ساعد الشركة ، قامت ببسط سلطانها على البلاد بالقوة ، فانقلبت المراكب التجارية إلى سفن حربية استطاعت الشركة بها محاصرة البلاد ، وظلت تضيق عليها الخناق حتى تم لها ما أرادت .

* * *

وقد اتخذت الشركة لها مركزاً فى بنتام . وعين لها وكيل مفوض يقيم بالمدينة سهراً على مصالحها ، ويستمد نفوذه المادى من الشركة ، كما يستمد

نفوذه السياسى والأدبى من الحكومة الهولندية ، وسرعان مالقب مدير الشركة بلقب « الحاكم العام » .

وفى عام ١٦١٠ أدركت الشركة أن مصالحها غير كاملة التحقيق ، وذلك بسبب ضغط سلطان بنتام وعظم نفوذه ، ولذلك قررت الشركة الانتقال بمركزها الرئيسى إلى جاكرتا « باتافيا » وعقدت الشركة مع سلطانها إتفاقا تدفع بمقتضاه قدراً معلوماً من المال فى كل عام مقابل إقامتها وممارستها التجارة على نطاق واسع . ومنذ ذلك الحين بدأت الشركة تنشئ كثيراً من المستودعات التى كانت فى حقيقة أمرها قلاعا .

ولما اتسعت أعمال الشركة ، وقد بدا من الأهالى العداوة والبغضاء وأرادوا الكيد لها ، وأصبحت الشركة عاجزة عن حماية مرافقها ، لجأت إلى الحكومة الهولندية ، وطلبت إليها حماية الشركة بالتدخل فى شئون حكومات جزيرة جاوه التى لم يستطع سلطانها كبح جماح رعاياه .

وفى سنة ١٨٠٠ قامت الحكومة الهولندية باحتلال هذه الجزيرة تلبية لنداء الشركة ، وتحقيقا للهدف الاستعمارى الذى لابس إنشاءها . ومنذ ذلك الحين أصبحت جزيرة جاوه فى حوزة الحكومة الهولندية .

وفى سنة ١٨١١ نزلت قوات بريطانية بالجزيرة بقيادة ستافورد رافلز ودخلوا مدينة « بتافيا » وانتزعوا السلطان من يد الهولنديين ، وظلوا بها حتى عام ١٨١٦ وفى هذا العام اتفقت الحكومتان البريطانية والهولندية على حسم النزاع بينهما بتحديد الاختصاص وتوزيع مناطق النفوذ ، فجلا البريطانيون عن جزيرة جاوه إلى شبه جزيرة الملايو ، ونزلوا بميناء « ملقا » الذى كان الهولنديون قد انتزعوه قبل ذلك من البرتغاليين ، وبذلك تمت الصفقة على ما يهوى كل من الفريقين ، فهولندا

لها مصلحة فى عودة نفوذها إلى الجزيرة الغنية بخيراتها . وانجلترا قد استبدلت بها ميناءا يكفل لها السيطرة على المرور من «ضيق «ملقا» مفتاح الشرق الأقصى .

وكانت الطبقة العليا من أهل البلاد تسيطر على اقتصادياتها من تجارة وملاحة ، فلما استتب الأمر للهولنديين انصرفوا عن هذه الطبقة وكونوا طبقة جديدة من أوساط الناس الذين قبلوا التعاون معهم ، جرياً وراء المصالح الشخصية والمغانم ، وحبا فى الحلول محل الطبقة العليا من الأشراف التى ناصبها المحتلون العداء .

لم يطق السادة هذه الأوضاع الجديدة ، فتقربوا إلى عامة الناس ، واستثاروهم فثاروا ضد الهولنديين ، واستمرت الحرب فى جزيرة جاوه زهاء خمس سنوات (١٨٢٥/٣٠) وانتهت بخاتمة يندى لها جبين الإنسانية خجلا مما فعله الهولنديون ، فإنهم أرسلوا إلى الأمير «ديبونجارا» الذى كان يدير هذه الحرب ضدهم ، طالبين إليه عقد صلح بين الفريقين ، فلما ذهب الأمير إلى مكان الاجتماع . ورأى الهولنديون قوة شكيمته ، قبضوا عليه ، متجاهلين الأصول المرعية فى الحروب ، وبعثوا به إلى المنفى حيث أقام حتى أدركته منيته سنة ١٨٥٥ .

أما فى جزيرة سومطره ، فقد استطاع الهولنديون احتلال قصر السلطان «على الدين محمود شاه» فى مدينة كوتاراجا ، ولكن روح المقاومة فى الجزيرة لم تمت .

وظلت الثورات تندلع ضد الهولندين تارة وتهدأ أخرى ، والحكومة الهولندية تئن بما تكلفها هذه الثورات من ثمن باهظ . حتى كان مستهل

القرن العشرين فانتهت المقاومة المنظمة ، وسقطت فى سنة ١٩٠٤ آخر مقاطعة مستقلة فى اندونيسيا فى أيدى المستعمرين .

وقد فعلت هولندة بأندونيسيا مافعلته بريطانيا بالهند ، إذ قسمت البلاد إلى مجموعتين ، إحداهما تحت الحكم الهولندى المباشر ، والأخرى تحت حكم أمراء محليين يأتمرون بأوامر المقيم الهولندى ، وقد حرم على هؤلاء الأمراء الذين أطلق عليهم اسم « سلاطين » الاتصال السياسى بأية دولة أخرى ، كما اقتصرت سيادتهم على البر دون البحر ، على أن لا يمتد سلطانهم إلى المهاجرين من أوربيين وأسيويين الذين تستخدمهم الشركات الهولندية . وقد اعترف هؤلاء السلاطين بالعلم الهولندى علما لهم وتعهدوا بأن يقدموا للحكومة الهولندية — دون مقابل — أى جزء من الأرض تحتاج إليه فى مشروعاتها .

ولجأت هولندة فى سياسة هذه المستعمرة إلى الضغط والإرهاب والكبت ، واتخذت من التعليم ، وفى ركابه التبشير ، وسيلة لفتنة البلاد وظنت أن الأمر قد يستتب لها بتخريج جيل أو أجيال من الشباب المفتون عن دينه ، المبعد عن فهم قوميته . ولكن حساب الاستعمار قد أخطأ .

فقد نبه الضغط الهولندى بعض الشباب الوطنى إلى الخطر المحدق ببلادهم ، بمثل مانبه الضغط البريطانى فى الهند أذهان المثقفين . فتاسست فى سنة ١٩٠٨ جمعية «بودى أوتومو» أى النزعة الفاضلة ، وفى سنة ١٩١١ تأسست « الشركة التجارية الإسلامية » التى تحولت بعد ذلك بعامين إلى حزب إسلامى باسم « شركت إسلام » ، وتأسست فى سنة ١٩١٢ « الجمعية المحمدية » . كما تأسس فى نفس العام « الحزب الوطنى » .

وللحزب الوطنى قصة تشبه من بعض الوجوه قصة حزب المؤتمر فى

الهند ، فقد تألف هذا الحزب بتوجيه من رجل هولندى من رجال الاستعمار هو دويس وكر وكان حاكما على بنتام بجزيرة جاوه بمثل ماتألف حزب المؤتمر فى الهند بتوجيه المستر هيوم البريطانى بفكرة أن يكون صمام أمن للحركات الوطنية . فلما تطرف الحزب فى آرائه ومطالبه ، وضجر به الاستعمار ، صب جام غضبه عليه . فى اندونيسيا أنزلت الحكومة العقاب بزعماء الحزب ومن بينهم دويس وكر ، ونفتهم من البـــلاد . وظنت الحكومة أنها أخمدت الحركة الوطنية بحل الحزب الوطنى إلا أن الشركة التجارية الاسلامية مالبثت أن تحولت فى سنة ١٩١٣ إلى حزب سياسى باسم «شركت إسلام» برياسة الحاج عمر سعيد شكرو أميتو ، وانضم إلى الحزب كثير من المسلمين المتحمسين فاشتدأمر الحزب، وانتشرت فروعه فى أنحاء البلاد .

فى الحرب العالمية الأولى

اندلعت بعد ذلك بقليل نار الحرب العالمية الأولى ، وكادت هولندة تذهب ضحيتها ، فرأت أن من الخير لها أن تحاول التعاون مع الأحزاب السياسية فى اندونيسيا بالاستجابة إلى بعض المطالب الوطنية ، وبذلت هولنده لهؤلاء الزعماء وعوداً وأمانى علقتها على انتهاء الحرب . ثم أذيعت مبادىء ولسن الأربعة عشر ، ومن بينها حق تقرير المصير ، فاشتد ساعد الوطنيين ، وعقدوا مؤتمراً فى سنة ١٩١٨ وتقدموا للحكومة الهولندية بمطالبهم ، وقد أصاب هذه المطالب فى أندونيسيا ما أصاب مطالب الوطنيين وخاصة المسلمين فى كل مكان . وكانت روسيا قد طرحت عنها رداء القيصرية ولبست ثوب الشيوعية فاندفع كثير من شباب البلاد فى تيارها

وفى سنة ١٩٢٢ عمت اندونيسيا حركة «عدم التعاون» ، ثم تفاقم

الأمر فأدى الى الإضراب والاضطرابات . وما جاءت سنة ١٩٢٦ إلا وكانت الثورة قد عمت كل البلاد ، الا أن الحكومة الهولندية استطاعت أن تسيطر على الموقف بمعاونة الدول الأوربية، وخاصة فرنسا وبريطانيا، لما لهما من مصلحة فى استتباب الأمن فى هذه الناحية من العالم ، وفيها المستعمرات البريطانية والفرنسية .

وفى سنة ١٩٢٨ اجتمعت كلمة الأندونيسيين على تأليف حزب واحد قوى هو الحزب الوطنى الأندونيسى بزعامة الدكتور سوكارنو ، وقد عقدت له الزعامة لما كان معروفا عنه من تطرف فى سياسة عدم التعاون

لم تتردد هولنده فى القبض على سوكارنو وزملائه من قادة الحزب ثم حظرت الاجتماعات العامة ، وشددت الرقابة على الصحف ، وامتلأت الغابة الجديدة (سيبريا أندونيسيا) بالمنفيين السياسيين ومنهم الزعيم محمد حتى وشهرير .

عندئذ رأى بعض الزعماء المعتدلين أن يعملوا على « إنقاذ ما يمكن إنقاذه » ، وانضم إليهم من زعماء اللاتعاون « أبى سوكنو » رئيس الحزب الإسلامى الأندونيسى .

ومضت الفترة فيما بين الحربين وهولنده تحكم أندونيسيا حكما مطلقا ، إلا أن الأندونيسيين أدركوا أن الكفاح السياسى لا يؤتى ثمرته إلا إذا دعمه رقى على واقتصادى . آمن الشعب بذلك وخاصة عندما عاد الدكتور « محمد حتى » من أوربا عام ١٩٣١ وبشر بضرورة تحرير الشعب اقتصاديا من عبودية رؤوس الأموال الأجنبية .

فى سنة ١٩٣١ تأسس حزب « أندونيسيا رايا » للعمل على ما يرفع شأن البلاد من النواحى الزراعية والصناعية والتجارية .

ومن شعب هذا الحزب (ركن ثانى) وبرنامجها الإصلاح الزراعى بالدفاع عن حقوق الفلاحين ضد القوانين الجائرة ، ومنع تأجير الأراضى للشركات قهرا ، ورفع مستوى الفلاحين بتعليمهم طرق الزراعة الحديثة ، وكيفية إبادة الحشرات ، وإنشاء مكاتب لتكون واسطة مأمونة لتصريف الحاصلات .

ويعمل الحزب الاشتراكى الأندونيسى على رفع مستوى المعيشة بين العمال ، وتحديد ساعات العمل ، وتحديد حد أدنى للأجور .

أما فى الميدان الاقتصادى، فقد اقتحم الأندونيسيون ميدان الصناعة ، وأدخلوا آلات النسيج الميكانيكية ، واشتغلوا بصقل المعادن والجواهر وعرضها فى الأسواق . وهى أعمال كان ينفرد بها الهولنديون . واهتموا بالملاحة فأسسوا شركة الملاحة والتجارة للجمعية المحمدية ، وقامت هذه الشركة بنقل الحجاج إلى البلاد المقدسة إلى جانب الأعمال التجارية البحرية الكثيرة التى قامت بها . وتأسست كذلك الشركة المساهمة الأهلية لنفس هذه الأغراض . وأنشأ الأندونيسيون البنك الأندونيسى الوطنى وبنك المسلمين الأندونيسيين . وأقبل الأهالى على التعامل معهما دون البنوك الهولندية .

وقد عانت الصحافة فيما بين الحربين كثيرا من المتاعب . فاليقظة الشعبية توجب عليها أن تساير ركب التجديد فى حياة البلاد والدفاع عن كيانها السياسى بإزاء الاستعمار . والقوانين الصارمة التى تصدرها الحكومة الاستعمارية بين آن وآخر تعتبر سيفا مسلطا على رؤوس الصحفيين .

وإفلاتا من أيدى الرقابة الصحفية ضربت الصحافة على نغمة جديدة كانت خير مدرسة ترعرعت فيها الأفكار القومية . بدأت الجرائد تنشر

المقالات عن عظمة الإسلام وحسن تعاليمه وتترجم لأشهر رجال الفكر المسلمين ، وما بذلوا من جهد وتضحية لرفع لوائه . وكانت تنادى بالأخوة الإسلامية بين من تعلموا تعليما دينيا ومن تعلموا تعليما مدنياً تحقيقا لمبدأ التعاون فى الإسلام ، وبذلك لبست الحركة القومية ثوبا إسلاميا كاملا وخاصة عند ما عنيت الصحافة بنشر أنباء العالم الإسلامى .

فى الحرب العالمية الثانية

اندلعت نار الحرب العالمية الثانية . ودخلت اليابان الحرب إلى جانب محور « روما — برلين » ، وفاجأت الحلفاء بالأعمال العدوانية فى المحيط الهادى . وكان من أهم هذه الأعمال احتلال أرخبيل الملايو بما فى ذلك أندونيسيا .

وقد فرت الحكومة الهولندية من البلاد قبيل احتلالها . وسافر ممثلو الاستعمار إلى لندن حيث انضموا إلى الحكومة الهولندية المؤقتة التى أقيمت فى لندن فى مايو سنة ١٩٤٠ بعد اكتساح الألمان لهولانده .

وكان اليابانيون يبثون فى هذه الجزر فكرة أن الاحتلال اليابانى ضرورة مؤقتة وأنهم ما دخلوا هذه البلاد إلا لتحريرها من نير الاستعمار الأوربى تحقيقا لمبدأ « آسيا للأسيويين » ، إلا أنهم فى تصرفاتهم الفعلية لم يكونوا أقل قسوة على أهل البلاد وغطرسة فى معاملتهم من المستعمرين الأوربيين أنفسهم . وقد فاتهم فى ذلك أن البلاد قد نهضت فيما بين الحربين نهضة عظيمة . وتيقظت يقظة كبيرة . لا يسهل معها أن يستكينوا لهذا النوع الجديد من الاستعمار .

طالب الزعماء قوات الاحتلال بإعلان استقلال أندونيسيا ، فصرح الجنرال كوليو رئيس الحكومة اليابانية أمام البرلمان اليابانى فى ٦ سبتمبر

سنة ١٩٤٤ بموافقة الحكومة على استقلال أندونيسيا ، ولكنهم ماطلوا فى تنفيذ ذلك ؛ فاتسعت الهوة بين الفريقين . وعانى اليابانيون كثيراً فى الاحتفاظ باحتلالهم .

وفيما بين يوم وليلة ألقيت قنبلة ذرية على « هيروشيما » وأخرى على « نجازاكى » من بلاد اليابان ، فاستسلمت اليابان للحلفاء . وكان من بين ما فرضه الحلفاء على اليابان من شروط ألا يسلموا أندونيسيا للوطنيين ، وأن يحتفظوا بها حتى يتقرر مصيرها ، إلا أن الوضع فى أندونيسيا كان لا يساعد على تنفيذ ما أراده الحلفاء ، إذ أن الروح المعنوية ارتفعت بين الوطنيين فى حين أنها انحطت لدى المستعمرين .

نادى الزعماء بعقد اجتماع فى ميدان (غمبير) أكبر ميادين « جاكرتا » فى يوم ١٧ اغسطس سنة ١٩٤٥ لإعلان استقلال البلاد . وحاولت القوات اليابانية بمعداتها الثقيلة أن تمنع الاجتماع ، ولكن الشباب الوطنى الثائر اقتحم عليهم الميدان وهو يهتف « مرديكا » ومعناها الحرية والاستقلال . وخرج على الجموع الغفيرة الزعيمان « أحمد سوكارنو » و « محمد حتى » . وقام سوكارنو خطيبا فقال : —

« باسم الشعب الأندونيسى نعان — أنا وحتى — استقلال أندونيسيا »

وعلى الرغم من أن تصرف هذين الزعيمين ، ومن ورائهما الأمة بأكملها ، كان تصرفا متوقعا ، وأن مصلحة الديموقراطية كانت تنطوى وقتئذ على التسليم بالأمر الواقع ، واستهواء شعب عظيم كالشعب الأندونيسى نحو الديموقراطية ، إبعاداً له عن التأثر بالشيوعية ، فإن دولة الاستعمار الأولى فى العالم — وهى بريطانيا — لم تقبل الأمر الواقع ، ونصبت نفسها وجندت جهودها للوقوف فى وجه الحركة الاستقلالية فى البلاد .

والواقع أن الحكومة البريطانية — من وجهة نظرها — لم يكن أمامها إلا أن تفعل ذلك ، فإن موقع أندونيسيا الجغرافى كان يملى هذا التصرف فإنها تجاور مستعمرة من أهم المستعمرات البريطانية شأناً ، تلك هى شبه جزيرة الملايو ، معقل البريطانيين فى الشرق الأقصى ، والحلقة الأخيرة من سلسلة المواصلات الأمبراطورية ، ومركز إيواء السفن البريطانية الكبرى وإصلاحها فى الحوض العائم ، واستقلال أندونيسيا يؤدى إلى قيام حركة استقلالية فى الملايو ، خاصة وأن سكان البلدين من المسلمين ، وينحدرون من أصول متشابهة .

يضاف إلى ذلك أن بريطانيا كانت تتوقع أحداثاً فى الهند ، ونجاح الحركة الاستقلالية فى أندونيسيا يغرى بالإسراع فى المطالبة بالاستقلال فى الهند ، على حين أن كبت الحركة فى أندونيسيا قد يؤثر فى الروح المعنوية فى الهند فتؤجل المطالبة باستقلالها وقتاً ما .

ومثل الهند فى ذلك مثل سيلان وبرما بالنسبة للبريطانيين ، ومثل الهند الصينية بالنسبة للفرنسيين . أما الولايات المتحدة الأمريكية فكانت تسير فى ركاب الدول الاستعمارية — حلفائها فى الحرب — وهى فى ذلك مسيرة لا مخيرة .

وفضلا عن كل ذلك فإن بريطانيا كانت تحب أن تؤول الأمور فى أندونيسيا إلى هولنـــده المحطمة الضعيفة بدلا من أن تؤول الى أيدى الشباب الوطنى المسلم الذى لا تأمن بريطانيا عقبى توليته شئون البلاد .

لكل هذه الأسباب ، نرى الحكومة البريطانية تعمل جاهدة على أفشال حركة الاستقلال فى اندونيسيا .

أعلن الاستقلال فى ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٥ كما ذكرنا . وفى ٢٦

سبتمبر تحركت من ميناء سنغافوره (شبه جزيرة الملايو) قوات هندية تحت أمرة البريطانيين إلى أندونيسيا بحجة تجريد اليابان من سلاحهم وتسلم الأسرى ، وقد صرح قائد الحملة لمندوب وكالة روتر بأن الحملة لاشأن لها بشئون البلاد السياسية . ولم تكد القوات البريطانية تنزل فى جزيرة جاوه ، حتى تكشف ما خفى من الأمر ، إذ اتضح أن الغرض الأساسى من الحملة هو تمكين القوات الهولندية من دخول البلاد .

هاج هائج الوطنيين ، فاعتبرت بريطانيا تصرفهم عدائيا لها ، وهددت بضرب مدينة سورابايا ، ثانية المدن الأندونيسية ، بقنابل الأسطول اذا لم يسلم الأندونيسيون أسلحتهم ويتركوا للهولنديين حرية النزول . لم يقبل الوطنيون الإنذار ، فتحولت سورابايا الى جحيم ، ولم تلبث بريطانيا أن أصبحت سيدة الموقف بالنار والحديد .

وفى هذه الأثناء احتج الزعماء فى الهند ، واعترض القائد الأعظم محمد على جناح على استخدام الهنود فى قمع حركة تقوم بها اندونيسيا المسلمة لتحرير نفسها من ربقة الاستعمار ، فاضطر البريطانيون اسحب القوات الهندية من اندونيسيا ، وذلك فى فبراير سنة ١٩٤٦ .

وأثيرت القضية الأندونيسية فى هيئة الأمم المتحدة ، أثارها رئيس الوفد الأوكرانى برسالة بعث بها الى مجلس الأمن فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٦ على أساس أن مايحدث فى اندونيسيا يخلق حالة تهدد السلم والأمن العالمى . ولكن هذا المجهود لم يثمر اذ تكتلت دول الحلفاء فى المجلس ، فأعلن رئيس المجلس ، وكان مندوب استراليا ، قفل باب المناقشة .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد مارست الجمهورية الشعبية أعمالها . وتجلت وطنية الأندونيسيين فى تأييد الحكومة المستقلة ، وازدهرت البلاد بسرعة لم يكن يتوقعها خيرة المخلصين لقضيتها .

ووقفت الأمم الأسلامية كافة فى صفوف الجمهورية الجديدة ، وبادرت الى الاعتراف بها على عين الأمم المتحدة ودعاة الاستعمار .

وأثيرت القضية مرة أخرى أمام مجلس الأمن فى ٣٠ يوليو سنة ١٩٤٧ ، أثارتها هذه المرة الهند بالاشتراك مع استراليا ، فقرر المجلس ادخال القضية فى مواد البحث ، وتشكيل لجنة لتسوية الخلاف بطرق ودية

كانت محاولة تسوية الخلاف تبدو فى أول الأمر متعذرة ، اذ أن الهولنديين جردوا حملة عسكرية جديدة فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ ولكن الهند تدخلت فى الأمر وعقدت مؤتمراً أسيويا فى ٢٠ يناير سنة ١٩٤٩ تناول المسألة الأندونيسية بالبحث ، ووصل الى القرارات الآتية :

١ — إطلاق سراح المعتقلين من رجال الحكومة الجمهورية والزعماء الجمهوريين على الفور .

٢ — إعادة سلطات الحكومة الجمهورية بأكملها فى المناطق التى كانت فى حوزتها فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ .

٣ — تسليم السيادة التامة على أندونيسيا كلها إلى أيدى الشعب الأندونيسى قبل أول يناير سنة ١٩٥٠

* * *

وكان لقرارات هذا المؤتمر تأثير واضح فى القرار الذى أصدره مجلس الأمن ، فقد عين مندوبين باسم هيئة الأمم لأندونيسيا لحل المشكلة وأخيرا نجحت مهمة اللجنة ، وحصلت التسوية فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٤٩ حيث سلمت السلطة الهولندية حق السيادة على البلاد إلى أهلها .

محتويات الكتاب

الباب الثاني

الصفحات

الفصل الأول :

الفصل الثانى :

الباب الثالث

الخرائط

---

١ — دول الشمال الأفريقي .

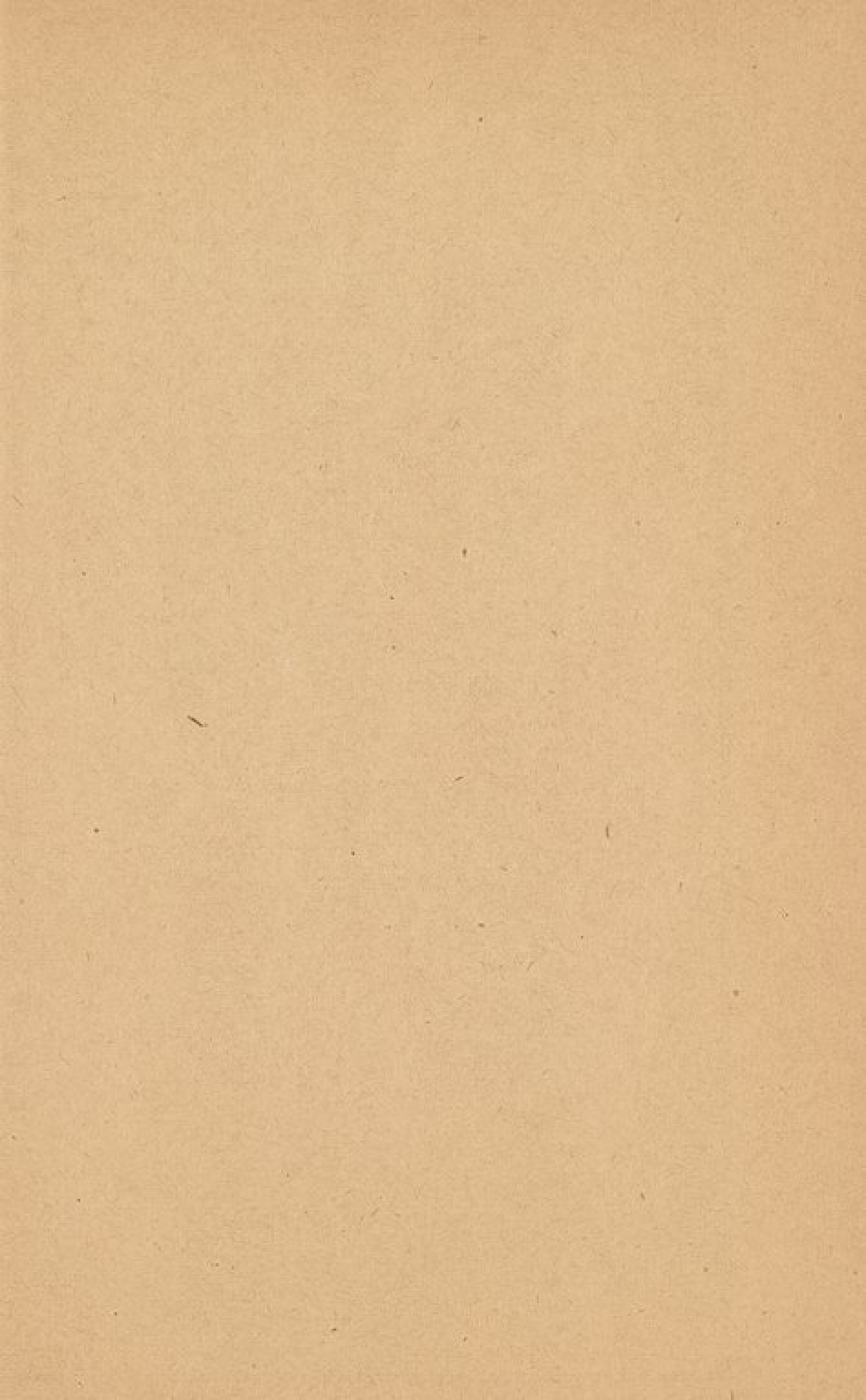
٢ — الدول العربيـة : فيما بين البحر الأبيض ،
واالخليج الفارسى .

٣ — فلسـطين العربية ، وإسرائيل « المزعومة ! »

٤ — إمارات الخليج الفارسى وإيران وأفغانسـتان .

٥ — شبه القارة الهندية الباكستانية .

٦ — أندونيسيا .

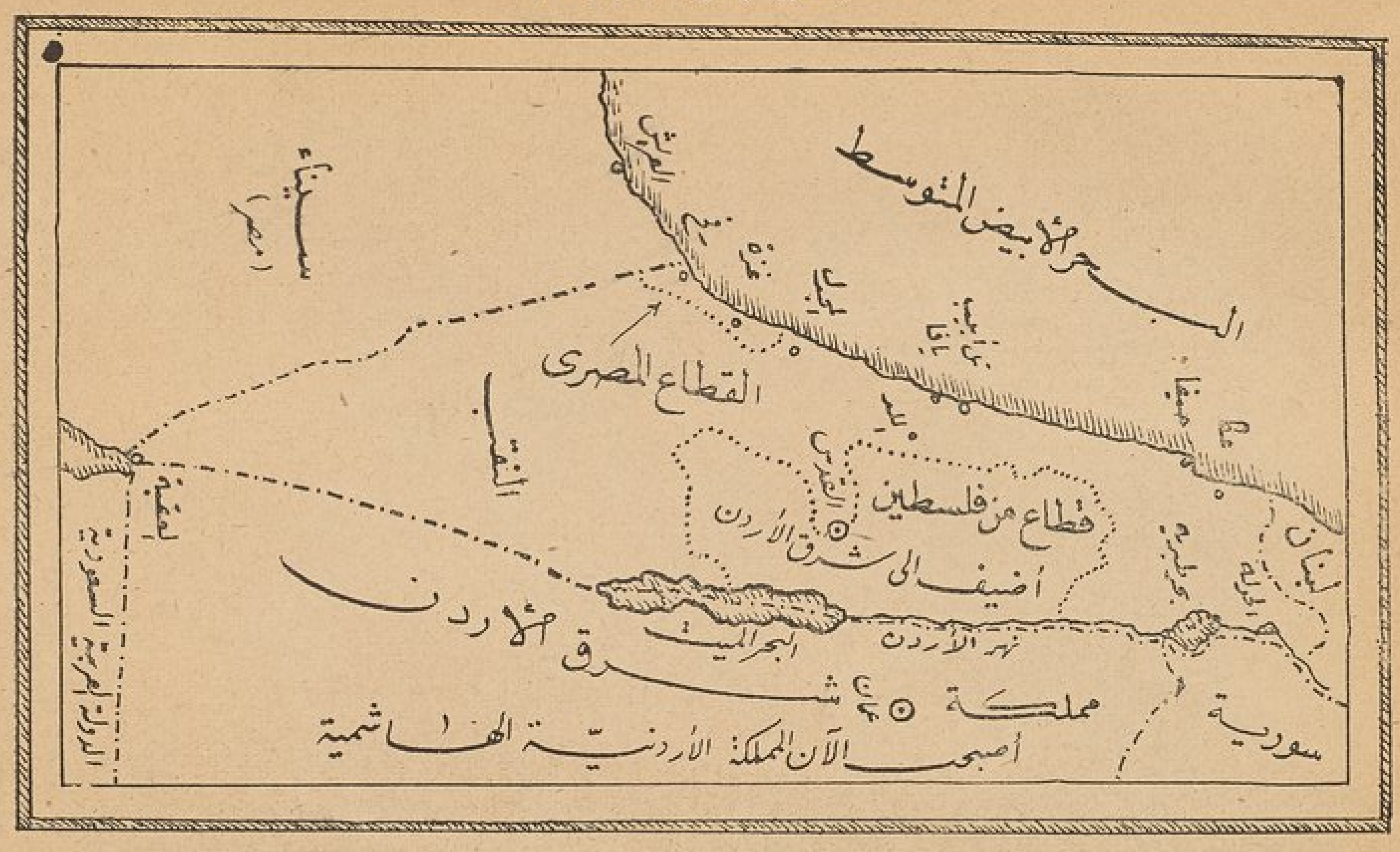


الدول الاسلامية فى الشمال الأفريقى وما يقابلها من الدول الأوربية

المحيط الاطلنطى
البرتغال
لشبونه
مدريد
اسبانيا
فرنسا
باريس
جنوة
كورسيكا
سردينيا
البندقية
ايطاليا
روما
البلقان
الاستانة
روسيا
البحر الأسود
تركيا
أنقره
جبل طارق
طنجة
منطقة النفوذ الاسباني
الرباط
تطوان
الدار البيضاء
فاس
المغرب الأقصى
الجزائر
تونس
صقلية
مالطة
البحر الأبيض المتوسط
كريت
قبرص
طرابلس
بنى غازى
مملكة ليبيا
الصحراء الكبرى
الاسكندرية
القاهرة
مصر
بيروت
لبنان
بيت المقدس
دمشق
سوريا
عمان
شرق الاردن
المملكة العربية السعودية

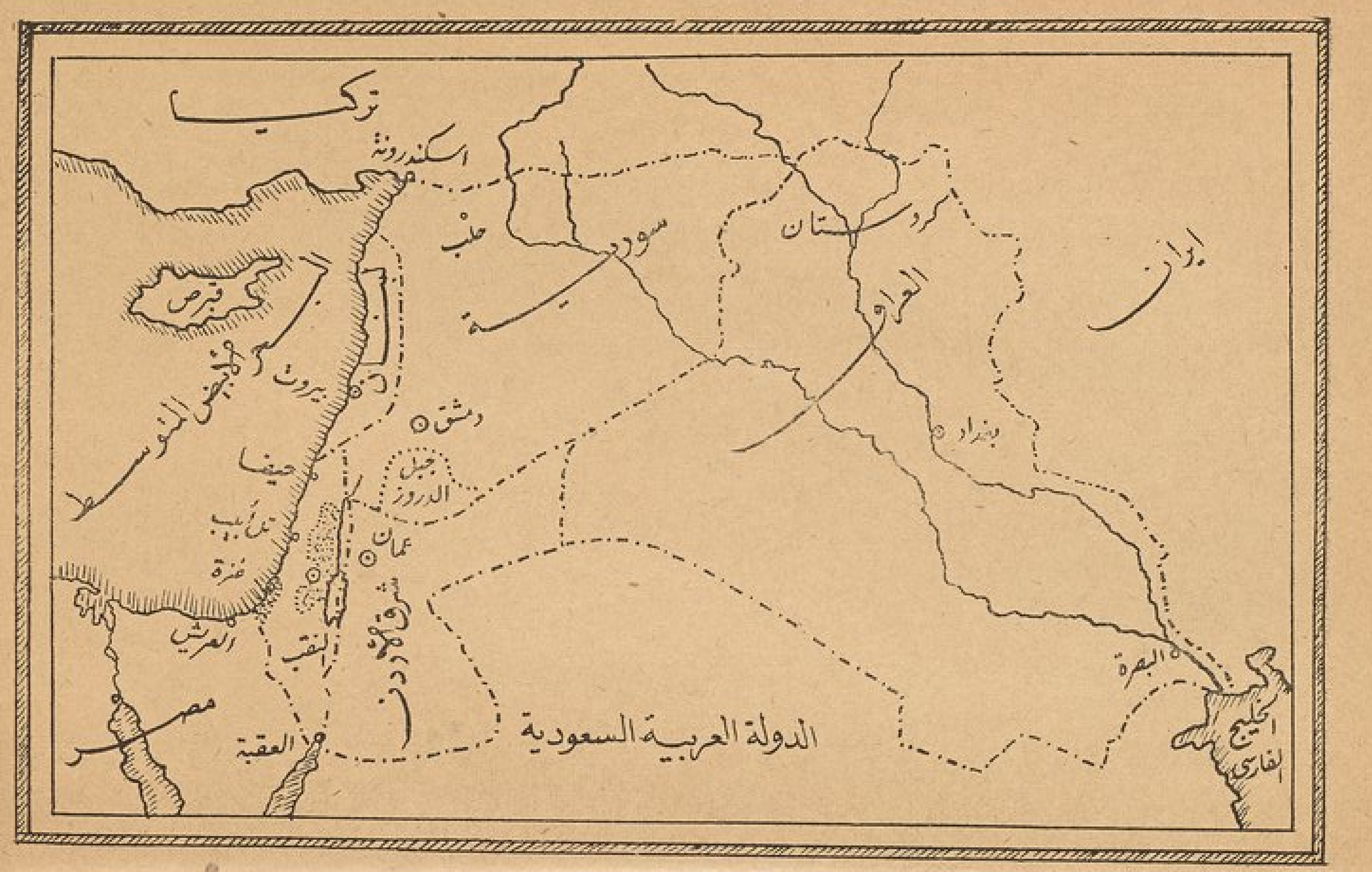


فلسطين العربية واسرائيل (المزعومة !)

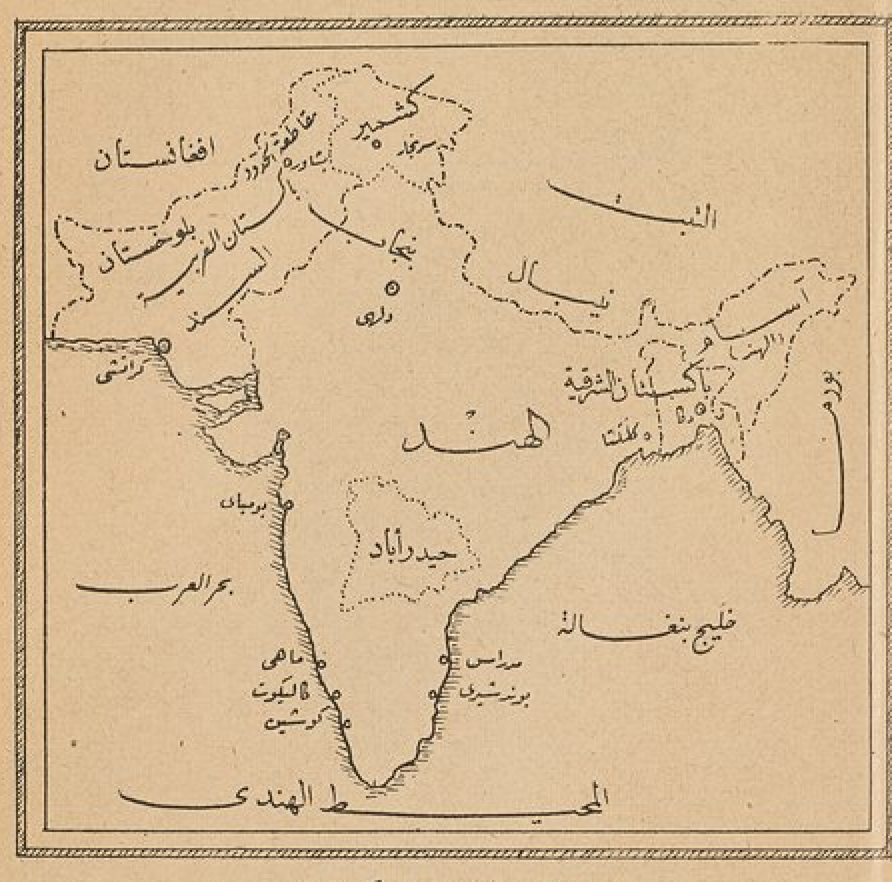




الدول العربية فيما بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسى





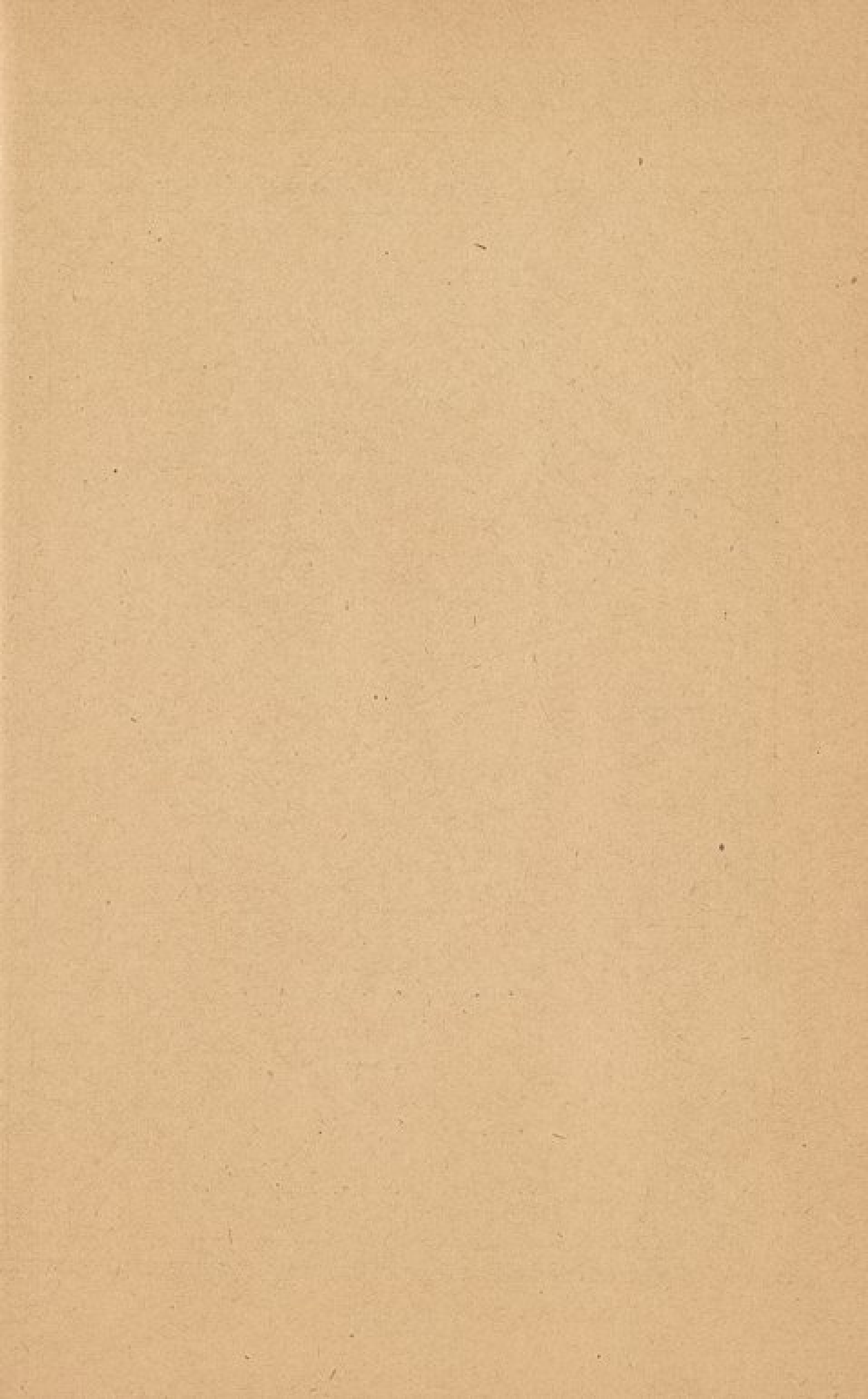


شبه القارة الهندية الباكستانية

لبيان

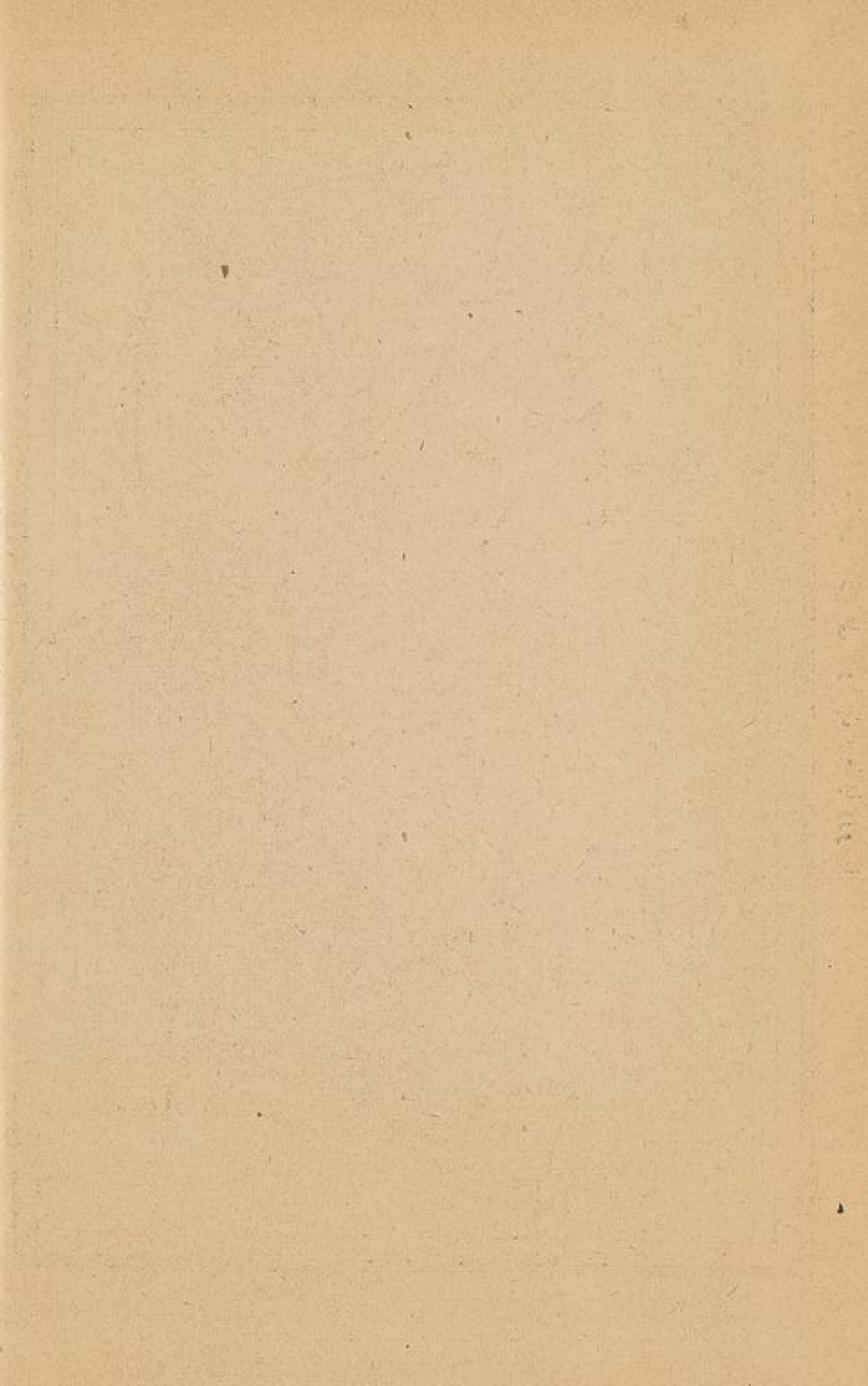
تجزئة باكستان إلى شرقية وغربية

والفوارق بين موقعى حيدر أباد وكشمير



مناطق التنازع على النفوذ بين بريطانيا وروسيا

تركيا
روسيا
بحر قزوين
تركستان (الروسية)
بخارى (الروسية)
سورية
تبريز
قزوين
طهران
العراق
همدان
كاشان
بختيارى
بغداد
اصفهان
عبدان
ايران
بوشير
بندر عباس
الكويت
المنطقة المحايدة
الخليج الفارسي
قطر
المملكة العربية السعودية
الربع الخالي
مسقط
عمان
خليج عمان
مكران
أفغانستان
كابول
بشاور
لاهور
كويتا
باكستان الغربية
كراتشي
كشمير
سرنجار
أمرتسار
بحر العرب



أندونيسيا

جزر الفلبين

المحيط الهادى

خط الاستواء

غينا

جزيرة الملوك

سنغافورة

الملايو

مضيق ملقا

بونتيانك

مكسر

باتافيا

سمرانج

سورابايا

جوكجاكارتا

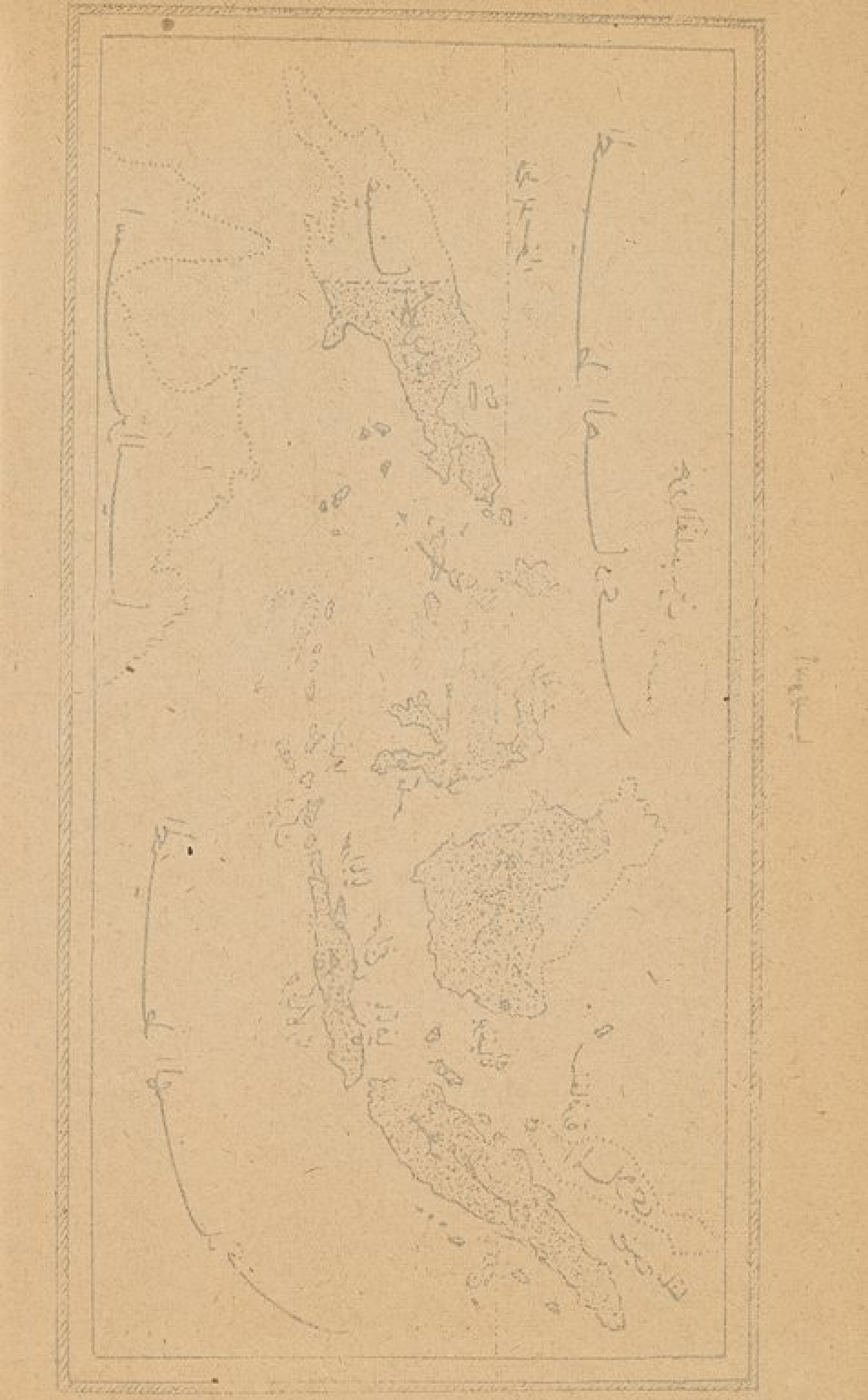
سنباوا

لمبوك

تيمور

المحيط الهندى

استراليا

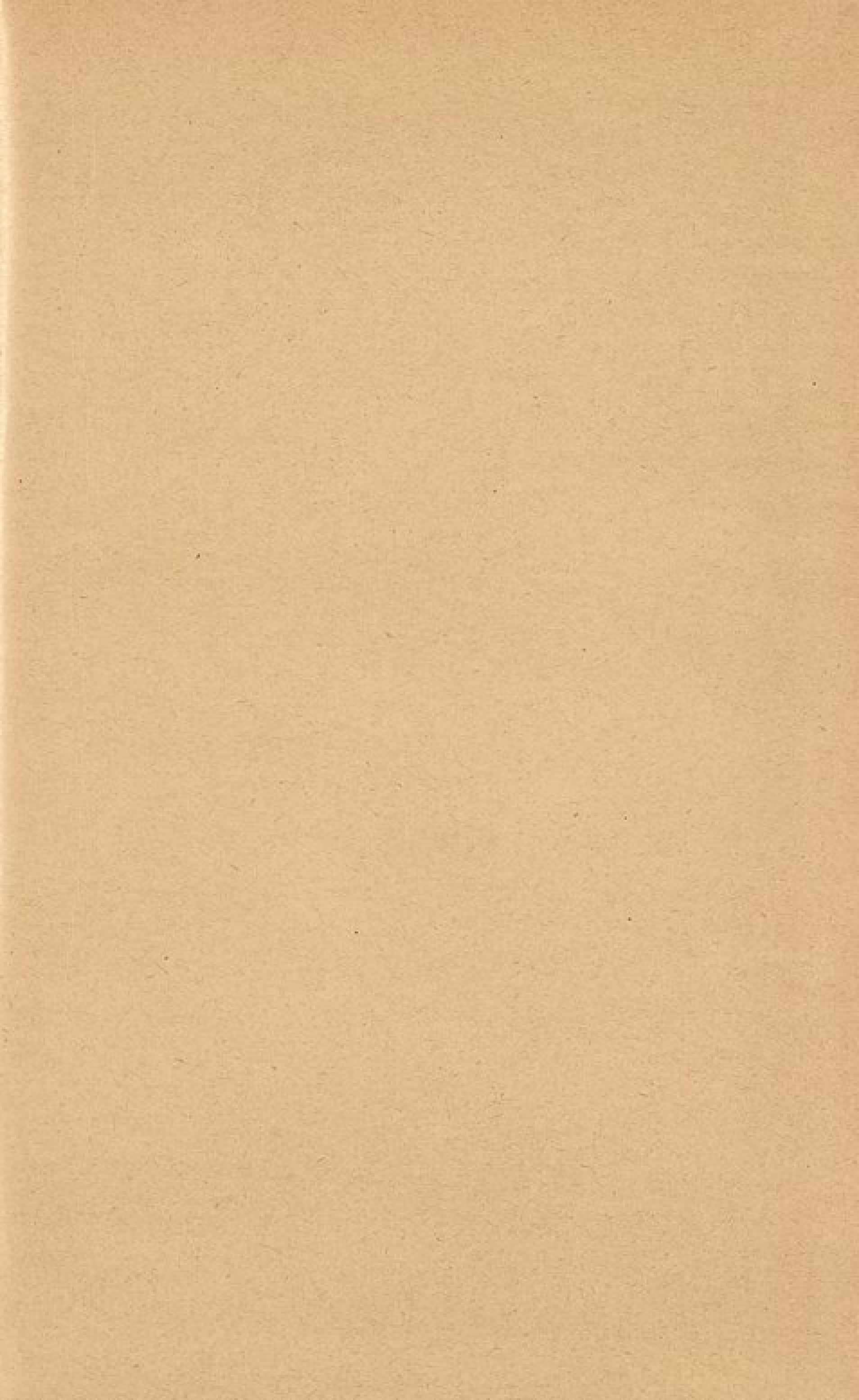


استدراك

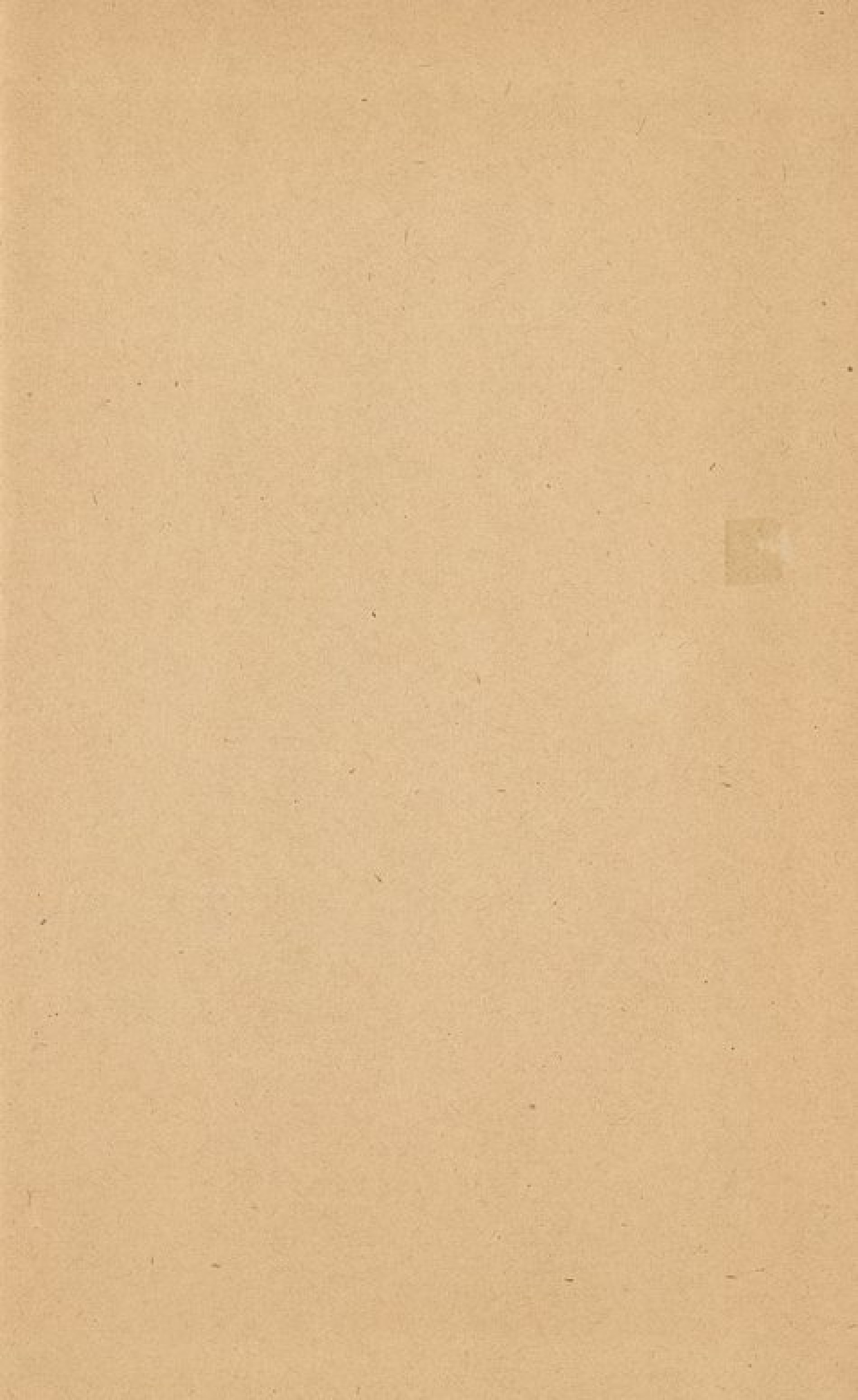
يعتذر المؤلف ، كما تعتذر دار النيل للطباعة ، عن وقوع أخطاء يسهل على القارئ الكريم تدارك الكثير منها .

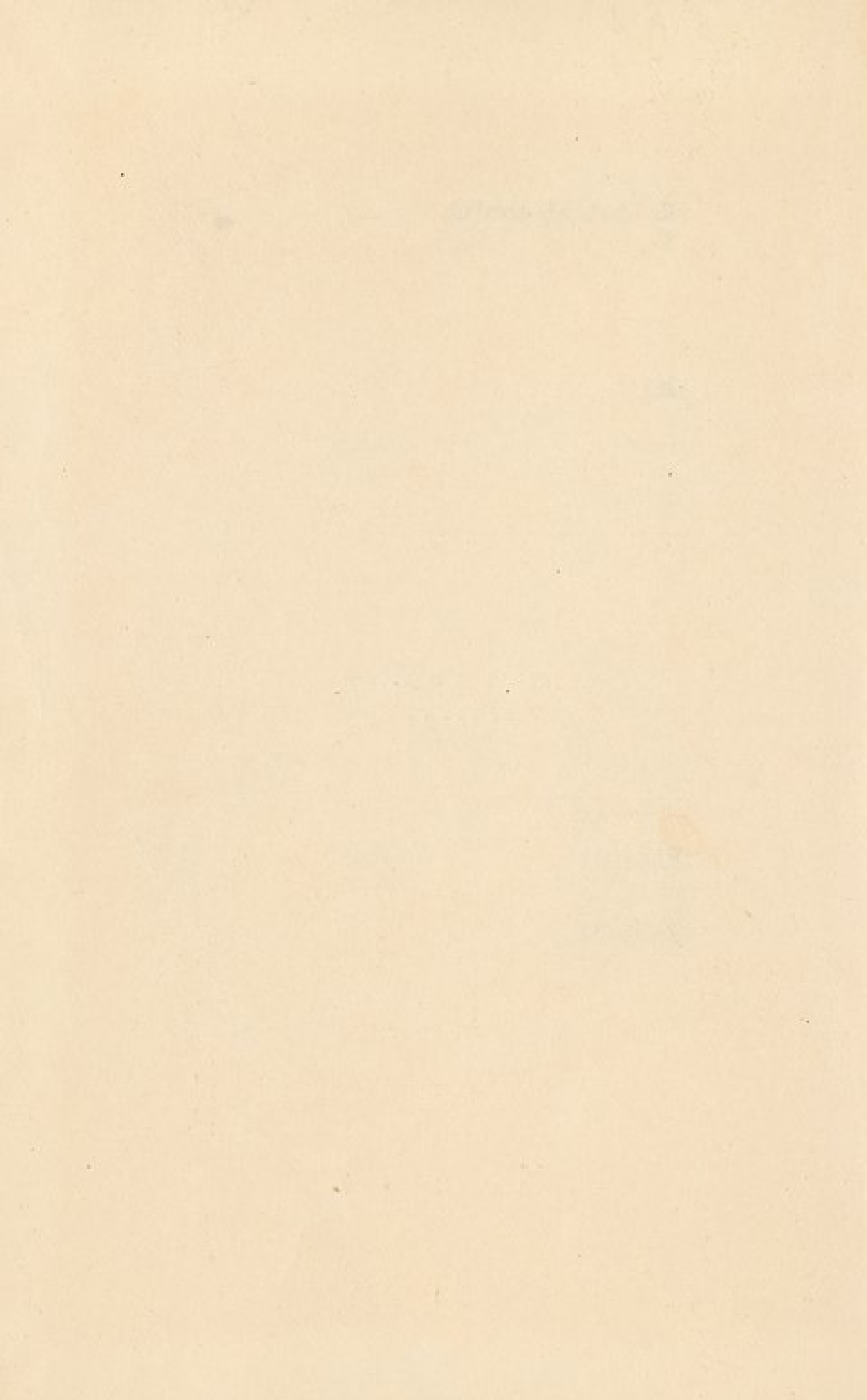
أما الأخطاء الهامة ، فقد رأينا تصويبها فيما يلي .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٧	٣	(أول السطر)	أتقدم
٧	٥	غير	خير
٢٢	٨	تظهر	لم تظهر
٦٠	٩	ويتمسكوا	ويتمسكون
٨٠	٨	يؤلف	يؤلب
٨٩	١٥	فتقاذفه	فتقاذفته
١١٥	١	١٩٢٠	١٥٢٠
١٤٥	٧	الدعاية	الدعامة
٢٢٠	٢٢	الأسلام	الأسلاب
٢٤٥	٢٠	مخفين	مخلفين
٢٤٨	٤	وللمسيحيين	وواحد للمسيحيين
٢٧٣	١٣و١٥	العبادية	البادية
٢٧٥	١٢	فيما يختص	(زائدة)
٢٨٤	٢٠	أعلالكم	أغلالكم
٣٣٠	٧	يعارضه	يفاوضه
٣٣٩	٧	(أول السطر)	انصراف عن صيد اللؤلؤ وما فيه
٣٦٠	١٦	١٩٣٩	١٩١٩
٣٦٩	٣	تحليا	تخليا



دار النيل للطباعة





دار النيل للطباعة
ت ٥٨٨٥٥



